الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد العشرون . السنة الثانية . سبتمبر ٢٠٠٠ . الثمن عشرة جنيهات
Weghat Nazar - Volume 2 - Issue 20 - September 2000



جذور الأزمة في الاقتصاد المصرى
علاج الركود لا يكفى

سوريا والسلام
الوقت لم يتأخر والزمن لم يفت

رصاصة فى قلبين
مسرحية لم تنشر لتوفيق الحكيم



طلاق امبراطورة
الملك فاروق يدبر طلاق فوزية من شاه إيران

صبرى راغب


رحيل "مايسترو" البورتريه والورود

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثانية
العدد العشرون
سبتمبر ٢٠٠٠

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي



كل المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر بالضرورة عن رأي أصحابها طالما عليها توقيعاتهم.. وعندما تكون للمجلة «وجهة نظر» تمثل سياستها فسوف يكون توقيع المقال باسمها.

محتويات العدد:



كتاب العدد:

- إبراهيم عبدالعزيز .. ناقد
- أحمد الغندور .. أستاذ الاقتصاد الدولي بجامعة القاهرة
- إيان هاكنج .. مدرس علم النفس بجامعة تورنتو
- جون بانفيل.. كاتب روائي والمحرر الأدبي لجريدة *Irish Times*
- جلال أمين .. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية بالقاهرة
- ديفيد بلانكس .. أستاذ التاريخ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة
- سلامة أحمد سلامة .. صحفي
- صادق جلال العظم .. مفكر سوري
- صبري حافظ .. أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة لندن
- عبدالوهاب المسيري .. أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة القاهرة
- عماد الغزالي .. صحفي
- مجدي يوسف .. أستاذ بجامعة بريمن بألمانيا
- مينا بديع عبدالملك .. أستاذ الرياضيات بجامعة الإسكندرية

رسوم العدد للفنانين: **محمد حجي - نبيل تاج - سعد الدين شحاتة**





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري. ص. ب: ٣٢ البانوراما . مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٢٣٩٩ . فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٢٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمة

اصنع عدوًا

«من لم يكن له أهل.. فليشتر له أهلاً» هكذا يقول معنى المثل المصرى الشعبى الشهير. وبتحريف - قليل فى اللفظ، كثير فى المعنى - يصبحُ القول: «من لم يكن له عدو.. فليشتر له عدوًا» أو إذا شئنا مزيدا من الدقة: «... فليصنع عدوًا».

المقالة لا تتضمنها كتب التراث، أو المأثورات والحكم. ولكنها ليست بعيدةً تماما عن بعض الأدبيات الأكاديمية فى علم السياسة ونظرياتها. كما أنها ليست بعيدة - بالضرورة عن «الخبر» الذى نقلته لنا قبل أيام فقط وكالات الأنباء من موسكو بمناسبة الإعلان الرسمى الذى تأخر كثيرا عن مصرع جميع أفراد طاقم الغواصة النووية الضخمة (١١٨ بحارا) والتى غرقت فى قاع بحر بارنتيس فيما عُدَّ كارثة قومية روسية. وكانت آليات الإعلام الدولى المعاصرة قد جعلت - على مدى خمسة أيام كاملة - من مشاهد محاولات الإنقاذ المتكررة «لسجناء القاع»، ومن التأرجح اليومى الموجع بين الأمل والفشل، «دراما» تلفزيونية وإنسانية شدت إليها الملايين فى أرجاء العالم قاطبة.

الخبر الذى جاء إعلانه مواكبا لإعلان الحداد، ولمشاعر الحزن التى عمت «المشاهدين» بالضرورة، نقلته صحيفة «سيفودينيا» الروسية الرصينة واسعة الانتشار، ويقول - مع التأكيدات اللازمة - إن المحققين يدرسون احتمال أن تكون الغواصة العملاقة (١٨ ألف طن) قد غرقت نتيجة عمل إرهابى مسئولة عنه غواصة مملوكة لدولة عربية (!)

وبغض النظر عن أن الصحيفة تصدر عن مؤسسة «ميديا بوست» المملوكة لإمبراطور الإعلام الموسكوفى فلاديمير جوسينسكى رئيس المؤتمر اليهودى فى روسيا، وبغض النظر أيضا عن أن الصحيفة لم تحدد الدولة العربية المقصودة، فإن الخبر - أو ماسيتبقى منه فى أذهان الجمهور - يصب فى الاتجاه ذاته الذى يصب فيه تصريح «رسمى» لوزير الأمن الروسى نيكولاى باتروشيف يتحدث فيه عن «رصد معلومات» فى شأن اثنين من الداغستانيين « أحدهما مسلم» لقيا حتفهما على متن الغواصة.

الخبر والتصريح يعيدان إلى الأذهان بالضرورة المعالجة الإعلامية الروسية لحرب الشيشان الثانية قبل أشهر، والتى قصدت فى حينه حشد التأييد الجماهيرى للحرب تمهيدا للانتخابات الرئاسية الروسية. يومها تركز الخطاب الإعلامى الروسى على أننا «لا نحارب الشيشان.. بل أولئك المسلمين والعرب القادمين من كل مكان».

ومع الأخذ فى الحسبان أن الإشارات الإعلامية «المشرقية» لا تختلف كثيرا عن تلك القادمة مع رياح الأطلنطى الباردة، ومع ملاحظة أننا بصدد صياغة عالم جديد تختلف مفاهيمه وتعريفاته وقاموسه اللغوى، فإنه يبدو للبعض أحيانا أن مصطلح «الآخر» أو ربما «العدو» لن يبقى بلا تعريف. كما أن السؤال الأكاديمى الذى طال بشأنه الجدل، ربما بات ملحا أكثر من أى وقت مضى. وبوجهيه، النظرى والإجرائى: هل لابد من عدو؟ ومن المرشح - شاء أم أبى - لكى يرتدى العباءة؟



وبرغم أن التاريخ لا يتكرر، فإن دايفيد بلانكس (أستاذ التاريخ بالجامعة الأمريكية) يعود بنا خمسمائة عام للوراء ليقص علينا فى مقال كتبه «لوجهات نظر» وننشره فى هذا العدد، كيف كانت نظرة الأوربيين فى القرن السادس عشر للمسلمين، بل ولمسيحيى الشرق، وكيف أن طحانا من البندقية أحرقوه على خازوق لأنه «قرأ» أن هناك آخرين متدينين!

يومها - والتقرير لدايفيد بلانكس - كان الأوربيون يعتقدون أن الاختلاف أمر سيئ، وأن «أى إنسان لا يفكر ولا يعمل ولا يلبس كما يفكرون هم ويعملون ويلبسون، إنما هو زنديق، وأن الشرق موضع للشر .. وأن المسلمين وثنيون يتسمون بالخسة..!». ويحكى كيف تسربت تلك المفاهيم إلى الكتابات الأدبية، بل والخرائط الجغرافية. وكيف - وهذا هو الأهم - مهدت «دعائيا وإعلاميا» للحروب الصليبية. ثم كيف أدى المثقفون والرحالة الذين تعرفوا على «الآخر» دورا مهما فى التنوير والتصحيح.



ليس بعيدا عن ذلك ماكتبه عماد الغزالى من شيراز لهذا العدد من «وجهات نظر» عن كيف مثَّل الشاعر الكبير سعدى الشيرازى جسرا للتواصل بين العرب والفرس فى القرن السابع الهجرى. ذلك التواصل الذى تشير أخبار كثيرة إلى أن حيوية بدأت تدب فى أوصاله، ولو فكريا وثقافيا، إيمانا بحقيقة «أن الجغرافيا لا تتغير، وإن تغير التاريخ".



الشاهد إذن أن تاريخ العلاقات الفارسية العربية، وإن خطَّت معظم صفحاته السياسة والدماء، فإن الكثير من سطوره كتبتها الثقافة والفنون والآداب.. وأشياء أخرى.

«وجهات نظر» تتوقف فى هذا العدد عند محطة على الطريق نفسه، وإن كانت ذات طبيعة مختلفة.

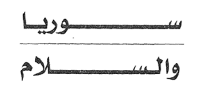
كلنا يعرف - أو يذكر - أن شاه ايران «الأخير» محمد رضا بهلوى كان متزوجا من فوزية شقيقة فاروق ملك مصر «الأخير». وربما منا من يذكر مشاهد الزفاف الإمبراطورى الفخم، والصورة الشهيرة التى نشرت للمأدبة التى أقيمت بهذه المناسبة. كما أنه من المحتمل أن أولئك الجميع يذكرون يوم أُعلن - فى يوم واحد - عن طلاق الشاه من الإمبراطورة، وكذلك طلاق الملك «فاروق» من الملكة «فريدة». فتشاغل الناس بطلاق مليكهم عن طلاق شقيقته. ولكن من المؤكد أن أحدا لم يعرف وقتها أبدا الأسباب الحقيقية لذلك الطلاق «الإمبراطورى». بل إن الشاه نفسه لم يعرف الأسباب الحقيقية، وفوزية أيضا لم تعرفها كذلك. ولكن كريم ثابت الذى عمل مستشارا صحفيا للملك فاروق سجل فى مذكراته الخاصة الملابسات والأسرار الحقيقية لتلك القصة المثيرة الفريدة من نوعها. والتى تنشر «وجهات نظر» فصولاً منها فى هذا العدد. وكان ثابت قد أودع هذا الجزء من مذكراته قبل أعوام طويلة لدى «صديق». وعليه، و «مراعاة لأحياء مازالوا يعيشون بيننا»، لم تتضمنه مذكراته التى نشرت فى كتاب (نشرتها «دار الشروق» فى جزأين)، إلا أنه إدراكا لأن رواية كريم ثابت لاتتضمن أى إساءة للأميرة فوزية، فضلاً عما هو معروف بالضرورة من أن أى مذكرات لابد وأن تكون كاملة - وإلا كان الأمر أشبه بلعبة «البازل» ناقصة الأجزاء - كانت هذه القصة التى ننشر فصولاً منها، بنص كلمات صاحبها، الذى يؤكد غير مرة أن «ليس فيها سطر واحد من نسيج الخيال».

وأيا ماكان الأمر، فالثابت أن مذكرات «المستشار الصحفى للملك فاروق» تبقى شهادة سياسية بالغة الأهمية، أو هى فى الواقع - كما يقول الأستاذ هيكل فى مقدمة الجزء الأول من المذكرات - شهادتان. كل منهما ترسم صورة حية ناطقة متحركة كأنها شريط سينمائى:

الصورة الأولى: للرجل، الإنسان الذى قدر له أن يكون آخر ملوك أسرة محمد على. والصورة الثانية: للحياة السياسية فى السنوات العشر الأخيرة من العصر الملكى فى مصر. وكان كريم ثابت فى قلب الصورة الأولى - عاشها بنفسه على امتداد عشر سنوات. كما كان أيضا مشاهدا قريبا للصورة الثانية - رآها أمام عينيه طوال عشرسنوات.

وبقى لنا أن نقرأ.. القصة.. والكتاب .. والتاريخ.

وجهات نظر



الوقت لم يتأخر .. والزمن لم يفت

صادق جلال العظم

في مجلة «نيويورك ريفيو أوف بوكس»، كتب المفكر السوري صادق جلال العظم مقالا يجيب فيه عن السؤال المطروح لدى كثيرين عن مدى الاستعداد السوري للسلام. وبعد وفاة الرئيس السوري حافظ الأسد وتولى ابنه بشار، ولأن السؤال مازال مطروحا، طلبت «وجهات نظر» من د. العظم أن يعيد الإجابة عليه وتصوير المشهد من دمشق، راصداً ما تغير من تفاصيله، إذا كان هناك ما تغير.

[١]

هل سوريا كسوريا، وليس كحكومة ونظام فقط، مستعدة للدخول في سلام مع إسرائيل في الوقت الحاضر؟ لابد للإجابة عن هذا السؤال من أن تكون «نعمًا» حذرة ومشروطة.

لنبدأ بالتحول اللافت الذي شهده الخطاب الرسمي السوري بشأن إسرائيل والصراع العربي الإسرائيلي منذ انعقاد مؤتمر مدريد للسلام في أكتوبر ١٩٩١، وهو التحول الذي حافظ على زخمه رغم كل العقبات والتطورات السلبية التي وقعت والتي كان من المرجح والطبيعي أن تعطله في ظل ظروف من نوع آخر، وبلغ هذا التحول ذروته في عبارات الإطراء غير المسبوقة التي قالها الرئيس حافظ الأسد في مديح رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك في مايو ١٩٩٩، وهي عبارات موجهة للنشر والتداول عربيًا وعالميًا.

وقبل ذلك، كان الرئيس حافظ الأسد قد أعلن للعالم، خلال اجتماع القمة الذي عقده مع الرئيس كلينتون في جنيف في يناير ١٩٩٤، أن سوريا اتخذت «قرارًا استراتيجيًا ثابتًا لصالح السلام مع إسرائيل ولصالح إقامة علاقات طبيعية وسلمية مع العدو السابق. وفي أغسطس ١٩٩٧، كرر الأسد التأكيدات ذاتها بينما كان يلقي كلمة أمام وفد من عرب إسرائيل دعتهم دمشق في أول محاولة للوصول إلى شريحة متعاطفة من الجمهور الإسرائيلي.

وعلى مستوى آخر، كان وزير خارجية سوريا السيد فاروق الشرع قد خرق العديد من المحرمات السياسية السورية الشديدة في خريف ١٩٩٤ بقبوله أسئلة من صحفيين إسرائيليين في مؤتمرات صحفية في لندن وواشنطن، ومن ثم بالموافقة على مقابلة زعماء يهود صهيونيين بارزين في العاصمة الأمريكية، بل إنه أدلى بحديث مطول لبرنامج إخباري كبير في التليفزيون الإسرائيلي أذيع في ٧ أكتوبر ١٩٩٤.

ولم تقتصر هذه التغييرات الجلية على البيانات الرسمية الصادرة عن كبار المسئولين، والبيانات الرسمية الحكومية، والنشرات الصحفية، ولكنها امتدت بقدر مماثل من الشمول إلى الإعلام السوري، وهو مملوك بالكامل للحكومة ويخضع لسيطرتها المحكمة، وكان للأمر مغزاه في الداخل عندما تحولت أجهزة الإعلام السورية فجأة عن خطابها التقليدي البليد والمتيبس والمسبق الصنع (إلى حدود السوريالية في بعض الأحيان) باتجاه الحديث بصورة روتينية وعادية عن إسرائيل والزعماء والمسئولين الإسرائيليين وغيرهم وتسميتهم بأسمائهم الحقيقية وألقابهم الرسمية ووظائفهم ومناصبهم الفعلية بدلا من الاستمرار في استخدام الأوصاف المكرورة إلى حد الابتذال ـ ولكنها الأنيقة في عرف البلاغة العربية ـ من نوع «ذلك المدعو رئيس وزراء الكيان الصهيوني».

ولنفكر ثانيًا في الجدل الكبير الذي دار داخل المجتمع السوري، منذ مؤتمر مدريد، بشأن إسرائيل و«عملية السلام» وطبيعة علاقتنا المستقبلية بهذا الجار الجديد، إلى جانب المخاوف ومشاعر القلق والإحباطات والإخفاقات والآمال التي يثيرها الاتفاق المقبل مع العدو القديم، وهو الاتفاق الذي بدا وقتها أنه آت لا محالة، وهنا لا بد من كلمة تحذير من سوء فهم محتمل، فهذه المناقشات المكثفة ليست مناقشات عامة مفتوحة تبثها الإذاعة والتليفزيون، أو تتم من خلال الصحف والمجلات والكتيبات وغيرها، ولكنها عملية تبادل للآراء، مشحونة وشاملة، وسيلتها الرئيسية هي طرق التواصل الشفاهي القديمة، عبر نقاشات بين أناس على مرمى السمع من بعضهم البعض، هذا هو مصنع شائعات دمشق وصحافة الشعب الحرة في الوقت ذاته.

عبر سلسلة من الحلقات العفوية والخاصة والمتداخلة، يناقش الدمشقيون أمور العالم كبيرها وصغيرها، الداخلي منها والخارجي، العربي والمحلي، الإقليمي والعالمي، ويعيدون مناقشتها، ويتحدثون عنها ويعيدون الحديث، ويسخرون منها ويعيدون السخرية، ومن خلال هذه الشبكات الشخصية التلقائية شديدة الفعالية والنشطة دائمًا والقائمة على التواصل وجهًا لوجه ينشأ شيء ما اسمه رأي عام غير رسمي ويتبلور بشأن القضايا الراهنة والأمور الطارئة ومشاكل الساعة كلها، والنتيجة هي وجود رأي عام تضعه مراكز السلطة في اعتبارها دون أن تعترف بذلك صراحة.

على سبيل المثال، إن أحد أسباب حرص الدمشقيين على الإكثار من زيارة بعضهم للبعض الآخر هو المتابعة والاطلاع وتسقّط آخر الأخبار والبقاء على علم بما يجري من أمور، ولهذا السبب كذلك فإن «الدردشة» في مدينة مثل دمشق ليست مجرد لغو كما أن الأسرار لا تبقى أسرارًا لأية فترة من الزمن، عندما قام بعض الدمشقيين المتمرسين بمراجعة المعلومات التي استقوها من «مصنع الشائعات» الدمشقي هذا على مذكرات هنري كيسنجر بشأن مفاوضاته مع الرئيس الأسد بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، كانوا فخورين ومندهشين لدقة المعلومات التي كانت بحوزتهم وقتها بشأن مفاوضات سرية للغاية كانت تجري وراء الأبواب المغلقة.



والأمر اللافت للانتباه بصورة خاصة هو أن النقاشات الواسعة الجارية في المجتمع السوري منذ مؤتمر مدريد أخذت تتعامل مع إسرائيل على أنها أمر واقع ومسلّم به، وأن السلام معها آت بلا ريب، أما محتوى تلك النقاشات فكان يدور عادة حول قضايا ومسائل من النوع التالي:

هل سوريا مستعدة بالفعل لما سيأتي من صراعات ومنافسات ومعاملات مع إسرائيل؟ في ضوء تفوق إسرائيل الاقتصادي وما لديها من تكنولوجيا فائقة، وتقنيات تخطيط متقدمة، ومهارات إدارية من الطراز العالمي، ألن تسيطر بسرعة على المنطقة وتجعل من نفسها دولة من دول المركز تدور في فلكها أطراف عربية أقل تطورًا بكثير؟ ما هو الأثر الذي سيتركه السلام على الحياة الاقتصادية السورية وعلى ترتيباتها السياسية الداخلية ووضعها العسكري وعلى «أوراق اعتمادها» القومية العربية إلخ؟ كيف ستتفاعل التسوية السورية المزمعة مع إسرائيل مع مد العولمة الجارف، والنظام الشرق أوسطي الناشئ حديثًا، والشراكة مع دول الجانب الآخر من البحر المتوسط كما تحددها اتفاقيات برشلونة والتزاماتها؟ ما هي أكثر الإصلاحات إلحاحًا التي يجب على سوريا القيام بها الآن كي تشعر أنها قريبة إلى حد ما من حالة الاستعداد لمرحلة ما بعد السلام؟

من الطبيعي أن تحظى هذه الأسئلة والقضايا بقدر كبير من اهتمام الأوساط التجارية بصورة عامة، وهي الأوساط التي تشكل العمود الفقري للمجتمع المدني السوري، ومن اهتمام الشخصيات البارزة في غرف التجارة والزراعة والصناعة. والرأي الذي يسود تلك الأوساط في الوقت الراهن هو أن سوريا غير مستعدة بالقطع للتحديات التي يفرضها السلام المرتقب بسبب اقتصادها المكبَّل، وغياب أي نظام مصرفي جدي فيها بالإضافة إلى التجارة المقيّدة تقييدًا شديدًا، والنشاط الصناعي المكبوت.

وتتجلى أمارات هذه القيود في تلك الملامح المحلية المتمثلة في قانون الطوارئ، والقطاع العام السائب والمهترئ الذي تشرف عليه إدارة متخلفة، بالإضافة إلى متاهة قيود الدولة التي لا آخر لها، والمعوقات البيروقراطية واللوائح الغريبة العجيبة والنظم التعسفية.

وبناء على ذلك يسود تلك الدوائر مزاج يختلط فيه الخوف والتوجس بالانتهازية والجرأة، ومن المؤكد أن البعض بينهم يقول أنه ما إن يتحرر التجار ورجال الأعمال في سوريا ـ الذين يتباهون بأنهم يعملون في التجارة منذ آلاف السنين ـ من تلك القيود المصطنعة، سوف يثبتون للعالم أنهم أهل لمواجهة التحديات المرتقبة على كل الأصعدة، وسوف يبينون للإسرائيليين، على وجه الخصوص، أنهم أنداد لهم، إن لم يتفوقوا عليهم. وسوريا هذه التي يتم إحياؤها اقتصاديا ـ كما يقولون ـ سوف تنطلق انطلاقة سريعة إلى الأمام، وسوف تكون قادرة على الصمود أمام إسرائيل المتفوقة حاليًا، وسوف تواجه تهديداتها وتحدياتها بما يكفي ويزيد عن طريق وسائل غير تلك التي جربت حتى الآن ولم تحرز أي نجاح ملحوظ.

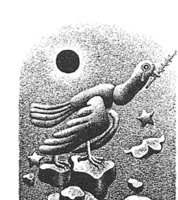
ويرى رأي آخر أن إسرائيل على أية حال قد لا تكون مهتمة اقتصاديا بالأقطار العربية بخاصة عندما تضع في اعتبارها أن اقتصادها، بما فيه من أساليب إنتاج وسلع وخدمات وغيرها، يتوافق بالكامل مع أكثر الاقتصاديات تقدمًا في العالم. أما الذين لا يحملون هذه المقولة على محمل الجد فإنهم يشيرون إلى أن الرأسمالية الإسرائيلية على قدر كاف من الحركية والقدرة على التكيف، سيكون من الحماقة ألا يتوقع العرب شريكًا اقتصاديا جديدًا يتولى تصنيع تلك المنتجات وينشئ تلك المشروعات التي سوف تخلق له أسواقا تعود عليه بالربح في العالم العربي، وما يقوم عليه هذا الموقف الأخير ليس الخوف كثيرًا من إسرائيل قوية في زمن السلم، بينما جيرانها ضعاف، بقدر ما هو الخوف من ظهور دولة مركزية دينامية في المنطقة تستعرض عضلاتها الاقتصادية والعسكرية والاستراتيجية (في ظل الحماية الأمريكية) لإعادة هيكلة الشرق الأوسط العربي بما يتماشى مع مصالحها الحيوية بعيدة المدى.



إضافة إلى هذه المسائل تناقش الإنتلجنسيا قضايا أكبر تتعلق بمواضع ضعف إسرائيل على المدى البعيد ونقاطها المكشوفة بحكم طبيعة بنيتها واحتمالات تطورها المستقبلية في مواجهة العالم العربي عمومًا والفلسطينيين بصورة خاصة، وفيما يلي أمثلة عن نوع القضايا الكبيرة التي تناقشها الإنتلجنسيا المذكورة:

(١) رغم امتلاك إسرائيل القنبلة الذرية، ورغم تفوقها العسكري الذي لا خلاف عليه، ورغم الدعم والحماية الأمريكيين القويين، بدت إسرائيل أثناء حرب الخليج مرعوبة بسبب أربعين صاروخ سكود عراقيا مصوبة تصويبًا رديئًا مما خلق ما يشبه حالة الذعر بين صفوف شعب أُعد إعدادًا جيدًا من الناحية العسكرية ودُرب على مواجهة الصعاب، ولم يفت مثقفو دمشق أن يقارنوا هذا الوضع المثير للاهتمام بحقيقة أنه لم ترد أو تسجل أية حالات ذعر أو هلع من أي نوع في بيروت الغربية خلال الحصار الإسرائيلي للمدينة الذي دام ثلاثة أشهر في صيف ١٩٨٢، هذا بالرغم من القصف الإسرائيلي المطول والدقيق والمنسق بدقة للعاصمة اللبنانية من الجو والبر والبحر في الوقت ذاته، وبالرغم من عدم توافر أية مساعدات لأهل بيروت الغربية من أي طرف، باستثناء الاعتماد على مهاراتهم الخاصة وغريزة البقاء، في مقابل الملاجئ والغرف محكمة الإغلاق والمؤن الضرورية والإسعافات الأولية والخدمات الطبية الممتازة وغيرها مما كان متاحًا للإسرائيليين أثناء حرب الخليج. سأل أحد الأصدقاء بتهكم عن الإسرائيليين الذين أخافتهم صواريخ سكود: «هل هم بلد أم مستوطنة؟» وفي لحظة تالية لم يغب عن بال هذا الصديق أنه عند اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين كان رد الفعل العفوي الأول لزوجته، السيدة لياه رابين، هو إعلانها أنها ستحزم أمتعتها وترحل، وهو رد الفعل الذي اعتذرت عنه بشدة في وقت لاحق للجمهور الإسرائيلي.





بالجولان أو بدون الجولان، تظل القنبلة الموقوتة الضخمة التى تهدد كل العلاقات المستقبلية والتسويات والاتفاقيات مع الجارة الجديدة هى الفلسطينيون أنفسهم، وخاصة «عرب إسرائيل»، بغض النظر عن كونهم مواطنين إسرائيليين أو بصفتهم ينتمون إلى دولة فلسطينية ذات سيادة اسمية

(٢) فى ظل روح إسرائيل الريادية ورغبتها الشديدة فى الحصول على المزيد من الأرض، والمزيد من الاستيطان، والمزيد من المياه، والمزيد من الموارد، هل ستكون لدينا على المدى البعيد صيغة للسلام أم لمائة عام أخرى من أشكال غير محددة من النزاع والصراع والعنف؟

(٣) بغض النظر عن عدد معاهدات السلام التى يوقعها العرب مع إسرائيل، ومهما كانت الاتفاقات التى يتوصلون إليها معها، ومهما كان عدد التأكيدات والضمانات التى يقدمونها لها، هل أى من هذا كله قادر بالفعل على تخفيف قلق إسرائيل الوجودى بشأن مكانها ومستقبلها وهويتها فى منطقة عربية، أو على تهدئة هذا القلق أو تبديده، وهو القلق الوجودى الذى عقده تراث طويل من الاضطهاد الشديد، والسيطرة الإسرائيلية الحالية على المنطقة والتلاعب بمصائرها كما فى الكلبية المفرطة واللامبالاة الصارخة اللتين تتعامل إسرائيل بهما مع ياسر عرفات والفلسطينيين، حتى بعد مصالحة أوسلو المفترضة؟

(٤) تحت السطح، ما هو وضع توازن القوى «التاريخى» بين إسرائيل والعرب فى الوقت الحاضر؟ يتساءل مثقفو دمشق أليس من الجدير بالاعتبار أنه فى الوقت الذى انتصرت فيه إسرائيل فى حرب يونيو ١٩٦٧ انتصارًا ساحقًا خلال ستة أيام، فقد هزت حرب أكتوبر ١٩٧٣ البلد من أساسه؟ وبعد ذلك، انتهى غزو إسرائيل للبنان سنة ١٩٨٢ واحتلالها القصير لبيروت بكارثة مهولة بالنسبة للغازى على كل الجبهات، حتى فى أعين الإسرائيليين أنفسهم، ولم يمر وقت طويل حتى بينت الانتفاضة الفلسطينية فى نهاية الأمر ولكل من يهمه الأمر استحالة بقاء الأمر الواقع الإسرائيلى فى الأراضى الفلسطينية المحتلة على حاله.

ومرة أخرى فإن عملية عناقيد الغضب، التى أمر بها رئيس الوزراء شيمون بيريس سنة ١٩٩٦ ضد حزب الله فى جنوب لبنان، لم تفشل وحسب فى ترجمة التفوق الإسرائيلى الكاسح إلى عملية عسكرية تأديبية سريعة ومؤثرة وفعالة على الأرض، ولكنها ارتدت على إسرائيل نفسها مما أدى إلى (أ) ما يعرف الآن باسم مذبحة قانا، حيث قتل مائة مدنى (معظمهم من نساء القرى وأطفالها) أثناء القصف الإسرائيلى عند لجوئهم إلى منشأة قريبة تابعة للأمم المتحدة، (ب) إرباك عالمى شديد لإسرائيل بسبب هذه الكارثة وإدانات عربية وإسلامية صاخبة لها، (ج) وقف لإطلاق النار جرى ترتيبه على عجل مما أزعج الجيش الإسرائيلى، (د) إسقاط الناخبين الإسرائيليين لبيريس وحزب العمل من السلطة بعد أسابيع قليلة، (هـ) قيام إسرائيل فى آخر الأمر بإقناع نفسها بحكمة الانسحاب من جانب واحد من جنوب لبنان وبأسرع وقت ممكن، ومع أن منحى هذا الخط البيانى لا يشى بأى تحول نوعى فى ميزان القوى القائم بين العرب وإسرائيل فإنه يثير تساؤلات جدية، أولا، حول مقدرة الجبروت الإسرائيلى العادى على إبقاء كل ما تريد إسرائيل إبقاءه فى المنطقة على حاله وعلى فرض كل ما تريد فرضه عليها، وثانيًا حول احتمال أن تكون إسرائيل قد وصلت إلى الحدود الخارجية القصوى لطاقاتها الداخلية فى مواجهة عالم عربى مهزوم يحيط بها، ولكنه عالم عربى ما زال يتمرد ويتحدى.

(٥) بالجولان أو بدون الجولان، تظل القنبلة الموقوتة الضخمة التى تهدد كل العلاقات المستقبلية والتسويات والاتفاقيات مع الجارة الجديدة هى الفلسطينيون أنفسهم، وخاصة «عرب إسرائيل»، بغض النظر عن كونهم مواطنين إسرائيليين أو بصفتهم ينتمون إلى دولة فلسطينية ذات سيادة اسمية. وفى هذا الخصوص، هناك شبه إجماع فى أوساط الأنتلجنسيا فى دمشق بشأن النقطتين التاليتين: (أ) لن تؤدى «قضايا الوضع النهائى» التى سيتم التفاوض عليها مع رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، - مثل القدس والمستوطنات واللاجئين - فى واقع الأمر إلى أية نتيجة ترضى الشعب الفلسطينى، لأن إسرائيل لن تقدم إلاّ الأقل من القليل بشأن هذه المسائل. وأفضل ما يمكن لعرفات أن يأمل به هو تنفيذ اتفاقية واى ريفر التى أعيد الاتفاق بشأنها وأبرمت فى أكتوبر ١٩٩٨، لا أكثر. (ب) لن تؤدى ترتيبات أوسلو على الأرض، مقرونة بسياسات إسرائيل الاستيطانية، إلا إلى «فلسطين» تتكون من عدد من الجيوب التى تحيط بها قوات الأمن الإسرائيلية وتخضع لنظام من الفصل العنصرى غير الرسمى (آبارتايد)، وفى ظل مثل هذه الظروف سوف يتمتع الإسرائيليون بالديمقراطية، بينما سيكون على الفلسطينيين أن يصارعوا نظام الأبارتايد هذا ويكافحوا ضده. وهكذا فإنه عندما قال لى شاعر ومثقف فلسطينى كبير منذ فترة ليست بالبعيدة: لو يعطينا الإسرائيليون حق المواطنة، فإننا سنقبل بأن نكون «السود عندهم»، كانت تلمع فى ذهنه وقتها صور من مسرحية جان جينيه «الزنوج» (Les negres) ودراسة فرانتز فانون «جلد أسود وأقنعة بيضاء» (Peau noire , Masques blancs) حيث يقلب فيهما السود الوضع رأساً على عقب فى نهاية الأمر. ولذلك ليس مستغربا أن تبدو مناقشات المثقفين فى دمشق فى هذه الأيام زاخرة بالتشبيهات والاستعارات المستمدة من التجربة الجنوب أفريقية قديمها وحديثها.

[٢]

لاشك أنه فى سوريا رافضون بعمق لوجود إسرائيل مع أنهم يشكلون أقلية فى الوقت الحاضر، على ما يبدو لى. لكن موقفهم يحظى بتعاطف عميق، وفى ظل الظروف المواتية قد يعودون للظهور بقوة من جديد ويلمسون وتراً حساساً من أوتار الرأى العام ويتحولون إلى قوة حاسمة مجدداً فى الحياة السياسية والثقافية السورية. ويبرز بين هؤلاء التيارات الإسلامية فى المجتمع المدنى التى تتجمع فى الوقت الراهن حول نسخة إسلامية من عقيدة الأرض الموعودة تقول هذه العقيدة بأن فلسطين وقف على الأمة الإسلامية. بعبارة أخرى، فإن فلسطين، وفقا لهذا المنطق، وقف حبسه الله للأمة الإسلامية، وهى كشأن كل الأوقاف لا يمكن لكائن من كان التنازل عنها أو العبث بها أو تبديدها، سواء أكان هذا فرداً أم حكومة أم جيلاً.



أما النمط الآخر من الرافضين بعمق فهم القوميون المتشددون الذين يتجمعون حول نسخة مخفّفة وعلمانية من عقيدة الوقف. فهم يقولون إن فلسطين لا تخص جيلنا وحده - أو أى جيل عربى مهما كان - بل تخص الأمة العربية أو الأمة السورية أو كليهما، وتخص كل أجيالها السابقة والحالية والقادمة لذا لا يجوز أن نقر بشرعية اغتصابها، بل يكفى الاعتراف به كأمر واقع فقط. ويعنى هذا أن أفضل مسار للعمل حاليا هو الإبقاء على الصراع مع إسرائيل مشرّعاً على المستقبل واحتمالاته العديدة والمفتوحة مما سيضمن للأجيال الجديدة التى لم تر النور بعد فرصة استمرار الكفاح العادل ضد الغاصب، مع بقاء الأمل بتحسن ميزان القوى على المستويين المحلى والدولى فى الصالح العربى، وطفت على السطح نسخة من هذا الموقف فى مؤتمر القمة السورية الأمريكية فى جنيف فى مارس الماضى. فعندما حاول الرئيس كلينتون إعطاء الرئيس الأسد انطباعاً بأن فسحة السلام تضيق، «رد الرئيس السورى بالإشارة إلى استعداد سوريا للانتظار وحتى تستعيد الأجيال القادمة كامل الأرض».

لنذكر كذلك أنه، إلى جانب الخطاب الحكومى الرسمى ومناقشات الجلسات الخاصة فى المجتمع السورى عاشت البلاد فترة رخاء نسبية بين افتتاح مؤتمر مدريد فى أكتوبر ١٩٩١ وانتخاب بنيامين نتنياهو رئيسا لوزراء إسرائيل فى مايو ١٩٩٦، فعلى سبيل المثال (أ) كانت سوريا الدولة الوحيدة التى خرجت دون أن ينالها أى أذى من أزمة وحرب الخليج بفضل الطريقة الماهرة وبعيدة النظر التى تعامل بها الرئيس حافظ الأسد مع ذلك الوضع الخطير. (ب) جنب البلاد فوائد مادية ملموسة فى أعقاب الحرب، بل ونعمت بانتعاش اقتصادى بصورة أو بأخرى. (ج) كان الأمريكيون يخطبون ود الرئيس الأسد باستمرار، فى الوقت الذى كان يعاد فيه تشكيل العلاقات الأمريكية السورية وصارت العلاقات مع الاتحاد الأوروبى أوثق من أى وقت مضى. (د) وبينما كانت المفاوضات السورية الإسرائيلية فى واشنطن وميريلاند تسير قدما وإن كان ببطء، شعرت سوريا بمقدار لا بأس به من الارتياح والثقة بالنفس، وبدا للمتابعين فى دمشق وكأن إسرائيل باتت تدرك أن التوصل إلى اتفاق سلام مع سوريا واثقة من نفسها ومطمئنة نسبياً سوف يكون فى مصلحتها تماماً..

أثناء هذه المرحلة أعلن الرئيس الأسد للعالم سنة ١٩٩٣ صيغته الخاصة بـ «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل» من أجل التوصل إلى حل نهائى للصراع مع إسرائيل. تم إعلان هذا الموقف عبر مقابلة أجراها معه الصحافى البريطانى وخبير الشئون السورية باتريك سيل والتى نشرت بالكامل فى مجلة «الوسط» الصادرة فى لندن فى ١٠ مايو ١٩٩٣، وعلى هيئة مقالة افتتاحية مطولة كتبها سيل نفسه فى صحيفة «النيويورك تايمز» فى ١١ مايو ١٩٩٣، وكان واضحاً للجميع فى دمشق أن الرئيس الأسد كان يقصد من خلال هذه المقابلة، أول ما يقصده، أن يوصل إلى أكبر شريحة ممكنة من الجمهور شيئا عن المناقشات والمساومات والعروض والعروض المضادة التى كانت تتم فى المفاوضات الجارية وراء الأبواب المغلقة فى واشنطن، وأن الأمر الثانى الذى قصده هو دفع الصيغة التى كان قد اقترحها رئيس الوزراء الإسرائيلى إسحق رابين إلى حدودها القصوى، وهى الصيغة القائلة بأن عمق الانسحاب الإسرائيلى من الجولان سيتناسب طرديا مع عمق السلام الذى تعرضه سوريا على إسرائيل مما أدخل للمرة الأولى احتمال الانسحاب الكامل من الجولان ضمن نطاق ما هو قابل للتفاوض.

جاء رد الفعل الإسرائيلى بعد أسبوعين على هيئة مقالة افتتاحية فى «النيويورك تايمز» فى ١٩ مايو ١٩٩٣ كتبها ايتامار رابينوفتش الذى كان وقتها سفيرًا لإسرائيل فى واشنطن ورئيس الوفد المفاوض مع سوريا. رحب رابينوفتش بمقابلة الأسد باعتبارها «واحدة من أهم التطورات فى دورة محادثات السلام العربية الإسرائيلية التى انتهت يوم الخميس الماضى» وعلى أنها «العمل الأكثر تأثيرًا حتى الآن من أعمال الدبلوماسية العلنية التى قام بها الرئيس السورى فى سياق محادثات السلام مع إسرائيل»، مع ذلك لم يؤيد رابينوفتش صيغة «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل»، كما أنه تحدث عن «احتمال تحقيق إنجاز كبير فى هذه المفاوضات خلال الشهور المقبلة» وعن «الخطر الذى ما زال قائما بوصولها إلى مازق».

ولم يفت الأوساط العليمة سياسيًا فى دمشق ملاحظة أن وصفة «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل» ابتعدت للمرة الأولى عن الموقف السورى الذى تكرر مرارًا بشأن «إقامة السلام الشامل والعادل والدائم فى المنطقة»، ففى حين يعنى «السلام العادل والشامل والدائم» إعادة كل الأراضى العربية التى تحتلها إسرائيل وتسوية كل القضايا العربية العالقة معها (بما فى ذلك القدس والحقوق القومية الفلسطينية واللاجئون وغيرها)، فإن صيغة «السلام مقابل



إن من بين أبرز المنشقين العلنيين، وإن اتسموا بالحذر عند التعبير عن رأيهم، أدونيس، وهو واحد من أبرز الشعراء والمثقفين العرب وأكبرهم؛ وهانى الراهب الروائى الشهير الذى كان يعمل بجامعة الكويت؛ والدكتور هشام دجانى، الصحفى والناقد والمعلق السياسى الفلسطينى السورى المعروف. وأسوأ ما حدث لهؤلاء المنشقين أنهم طردوا من اتحاد الكتّاب العرب الرسمى فى سوريا

الانسحاب الكامل» تنطبق على مرتفعات الجولان وجنوب لبنان فقط.

ونحن نعرف الآن أنه فى مرحلة معينة من مراحل المفاوضات السورية الإسرائيلية حلت صيغة «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل» فى واقع الأمر محل سائر الصيغ الأخرى، بما فيها وصفة «السلام الشامل والعادل والدائم». وكان يكمن فى هذا التحول ما يعرف فى مصطلح وزارة الخارجية الأمريكية بـ «الغموض البناء»؛ ذلك أن «السلام الشامل» يميل إلى ربط المحادثات السورية الإسرائيلية بمسارات التفاوض الفلسطينية والعربية الأخرى، بينما تميل صيغة «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل» إلى قطع مثل هذه الروابط لمصلحة تسوية منفصلة «تقف على قدميها» كما يقول الإسرائيليون.

وأظهر هذا «الغموض البنَّاء»، والذى لم يستمر طويلاً، الرئيس الأسد وهو يحاول حتى آخر دقيقة الحفاظ على البقية الباقية من التماسك والتنسيق العملى بين مسارات التفاوض العربى مع إسرائيل، فى الوقت الذى كان يقدم فيه عرضًا بسلام تعاقدى مقابل استرجاع مرتفعات الجولان بالكامل، لكن الكشف فى صيف ١٩٩٣ عن اتفاقيات أوسلو بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية قضى على هذا الغموض المفيد: كما جعلته اتفاقية السلام الأردنية الإسرائيلية التى تلت ذلك غير ذى شأن بالمرة، فلم يعد جيران سوريا أنفسهم يسعون إلى «السلام الشامل» مع إسرائيل.

فى تلك الفترة على وجه التقريب، ثار جدل عام صاخب وواسع المدى فى سوريا بشأن مدلول «السلام الكامل مع إسرائيل» ومضامينه وتطبيقاته بالنسبة للمجتمع السورى نفسه، ويُعرف هذا حاليا بمناقشات «التطبيع»؛ أى تطبيع العلاقات مع العدو السابق، ولم يكن النظام وراء هذا الجدل ولم يرعه ولم يتحكم فيه، بل إن السلطات تتبعته بحرص لتتأكد من أنه لا يهاجم فكرة «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل» أو يقوضها. ولم تكن الصحافة والتليفزيون السوريان أدوات هذا الجدل الرئيسية، وإن استخدمها المساهمون فى النقاش والمتنازعون حوله استخداما واسعًا، كذلك تم استخدام العديد من المطبوعات الفلسطينية التى تظهر فى سوريا ولبنان، والصحافة اللبنانية الأكثر حرية، والكثير من صحف الخليج ومجلاته ومحطات التليفزيون فيه، بالإضافة إلى الصحافة العربية فى لندن وباريس، وانضمت الصحافة المصرية إلى الجدل كذلك، وخاصة صحف المعارضة.

كان واضحًا لكل المشاركين فى النقاش أن صيغة «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل» فصَلت المفاوضات السورية عن مصير عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية والضفة الغربية والفلسطينيين بوجه عام، وإن لم يكن لسوريا ذنب فى ذلك، واستوعب الناس فى دمشق هذه الرسالة بأسى وليس بغضب، وهوأسى على تبخر آخر آثار التضامن والتعاون العربيين فى المفاوضات مع إسرائيل، إضافة إلى ضمير مستريح لأن سوريا لم تكن هى التى شقت الصف مع شريكاتها العربيات.

ركز جدل التطبيع تركيزًا قويًا ونقديًا وانفعاليًا على قضايا من قبيل: ماذا يعنى السلام الكامل مع إسرائيل غير الاتفاقات والمعاهدات والبروتوكولات بين الحكومات؟ ما الذى ينطوى عليه تطبيع العلاقات مع إسرائيل بالنسبة للمجتمع السورى؟ هل نحن، كسوريين من كل مناحى الحياة، نريد هذا التطبيع للعلاقات، بغض النظر عما يفعله حكامنا فى القمة وعلى المستوى الرسمى؟ وإذا رفضنا هذا التطبيع، كيف تتسنى لنا معارضته؟ كيف تتسنى لنا مقاومة محاولات حكامنا المتوقعة لفرضه علينا؟

كانت هناك جهود عديدة لتشكيل لجان عمل وجبهات متحدة من أجل هدف واحد هو معارضة تطبيع العلاقات مع إسرائيل على المستويات الشخصية والاجتماعية والتجارية والثقافية والسياحية والعلمية. وكان النقاش برمته يدار استنادًا إلى افتراضين هما أن معاهدة السلام مع إسرائيل باتت مسألة لا مفر منها (وعاجلا وليس آجلاً) وأنه من الأفضل للمجتمع السورى أن يفكِّر جيدًا بشأن الطرق المناسبة التى يمكنه أن يتعامل بها مع مضامين المعاهدة ونتائجها بالنسبة للبلاد. إذا وضعنا هذا كله فى اعتبارنا فإن المزاج العام الذى ساد النقاش كان يقول: إن ما تفعله حكومتنا مع إسرائيل هو شأنها الرسمى والسياسى. أما بالنسبة لنا كأشخاص ومواطنين عاديين فعلينا مقاومة التطبيع بأية طريقة نستطيعها وأينما وحيثما مسَّ التطبيع حياتنا. مع ذلك كان هناك الكثير من المواقف وظلال الرأى التى تم التعبير عنها بشأن هذا الأمر، إضافة إلى بعض الآراء المنشقة التى عبَّرت عن وجهة نظرها بحرص أيضًا.



ولا حاجة إلى القول بأن الرافضين المتشددين ظلوا على موقفهم فى النظر إلى الصراع مع إسرائيل على أنه صراع وجودى مؤجل، وليس قتالاً عاديًا على الأرض والحدود والاحتلال والموارد والسيادة. كما بات ينظر إليه. وقبل فصيل آخر مبدأ التسوية السلمية غير أنه رفض نمط الاتفاق الذى تم التوصل إليه فى أوسلو، قائلا إن «السلام الكامل» مع إسرائيل ممكن فقط بعد تحقيق «الانسحاب الكامل» من الأراضى العربية المحتلة كافة (بما فى ذلك القدس الشرقية)، وليس مجرد مرتفعات الجولان، ونادى رأى ثالث بتأجيل كل أشكال التطبيع حتى تعاد الأراضى المحتلة ويرضى الشعب الفلسطينى، وخاصة فلسطينى الشتات، ومن الناحية العملية، يظل «التطبيع» ورقة مساومة أخرى على طاولة التفاوض السورى الإسرائيلى الأمريكى.

وكان من بين أبرز المنشقين العلنيين، وإن اتسموا بالحذر عند التعبير عن رأيهم، أدونيس، وهو واحد من أبرز الشعراء والمثقفين العرب وأكبرهم؛ وهانى الراهب الروائى الشهير الذى كان يعمل بجامعة الكويت؛ والدكتور هشام دجانى، الصحفى والناقد والمعلق السياسى الفلسطينى السورى المعروف. وأسوأ ما حدث لهؤلاء المنشقين أنهم طردوا من اتحاد الكتَّاب العرب الرسمى فى سوريا، وكان طردهم سببًا فى تفجير جدل عام آخر بشأن إجراء الطرد نفسه ومدى قانونيته وما إذا كانت مهمة الاتحاد هى حماية أعضائه والدفاع عن حقوقهم أم معاقبتهم بسبب التعبير عن آراء لا يحبها الاتحاد، واستعر الجدل الجديد عندما استنكر أبرز كتَّاب المسرح فى سوريا سعد الله ونوس ذلك الطرد وقدم استقالته - برقيًا - من الاتحاد احتجاجًا عليه وهو على فراش الموت، وفى اللحظة ذاتها استنكر واحد من أبرز الروائيين والقصاصين وأكبرهم فى سورية، وهو حنا مينه فعل الطرد ذاته وبصورة لا تقل وضوحًا وأعلن انسحابه الفورى من اتحاد الكتَّاب كذلك.

لا شك أن إسرائيل تتعطش بشبق مشهود لعلاقات السلم العادية، أى التطبيع، مع العرب عمومًا ومع سوريا خصوصًا، لكن علاقات السلم العادية والطبيعية بين دول الشرق الأوسط كما بين الدول العربية نفسها ليست سمنًا وعسلاً كليًا، كما نعرف جيدًا، على سبيل المثال، تعنى علاقات السلم العادية والطبيعية عربيًا وشرق أوسطيًا الوصول بسهولة إلى حافة الحرب أو التهديد بها، ثم الرجوع عنها بسهولة ملحوظة أيضًا إلى خطابات الأخوة العربية وعلاقات الجوار الممتازة وتنمية المصالح المشتركة للشعبين الشقيقين إلخ. تمامًا كما حدث بين سوريا وتركيا مؤخرًا بشأن قضية عبد الله أوجلان، زعيم حزب العمال الكردى. من هنا السؤال: ما الداعى لأن تكون علاقات سوريا بإسرائيل أكثر عادية وطبيعية من علاقاتها مع تركيا أو العراق، مثلا، أو أن تكون أكثر طبيعية وتطبيعًا من علاقات العراق مع إيران أو علاقات المغرب مع الجزائر أو علاقات مصر مع العالم العربى كله تقريبًا مباشرة بعد اتفاقيات كامب ديفيد؟

[٣]

لو حاولت تلخيص مزاج سوريا بجملة واحدة فيما يتعلق بالسلام مع إسرائيل خلال الفترة الممتدة بين مؤتمر مدريد وانتخاب ناتنياهو رئيسًا للوزراء فى مايو ١٩٩٦، لقلت إنه مزاج التسليم الرواقى المترفِّع بشر لا بد منه، وتكمن وراء هذا المزاج مجموعة من الانفعالات القوية مثل: الإحساس العميق بالهزيمة العربية، السخط على كل ما هو قائم، القبول على مضض بما لا بد القبول به، رغبة دفينة فى تحدى كل ما يجرى، الإحساس بالمهانة، الانصياع لقوة قاهرة لا رادَّ لها، الشعور بالخيبة، وبالتأكيد الافتخار العميق فى عد سوريا نفسها ألد أعداء إسرائيل والصهيونية وأشدهم بأسًا وشراسة. من الطبيعى أن تؤثر هذه الانفعالات الحبيسة كلها - بطرق ظاهرة وأخرى خفية - فى تعامل سوريا مع عملية السلام وفى أسلوبها فى التفاوض مع إسرائيل والولايات المتحدة وفى موقفها أثناء محادثات السلام الفعلية، من هنا تصلب سوريا القلق، وتشددها، وشكوكها، وترددها، وحرفيَّتها، ورسمية تعاملها، وعزلتها إلخ.

ومما يزيد الأمور سوءًا بالنسبة لسوريا إصرار إسرائيل المتكرر فى السر والعلن على أن تقوم سوريا بمساعدة الزعماء الإسرائيليين على إقناع شعبهم ليس بأن السلام قاب قوسين فحسب، بل إنه يخدم مصلحة إسرائيل أيضًا، أو كما اشتكى رئيس مفاوضى سوريا وسفيرها فى واشنطن السيد وليد المعلم ذات مرة فى إحدى المقابلات:

«كانت تلك بطبيعة الحال مشكلة قائمة طوال المفاوضات. فقد كنا نشعر دائمًا أن الإسرائيليين يريدون من سوريا أن تقوم بعملهم نيابة عنهم، فكانوا يريدون منا أن نقنع شعبهم بأن السلام فى مصلحتهم، لقد أعددنا شعبنا للسلام مع إسرائيل، وتغيرت أشياء كثيرة فى إعلامنا. إلا أنهم يريدون منا إعداد الرأى العام الإسرائيلى.. واعتبرنا مثل هذا الإصرار علامة سلبية: فأنت عندما لا تعد شعبك للسلام مع جارك، يكون معنى ذلك أنك لست عازمًا تمام العزم على صنع السلام».

أضف إلى ذلك حساسية سوريا واعتراضها على مواقف إسرائيل المصرة (وخاصة من جانب رابين) على اتفاقية جولان مديدة يقصد بها «اختبار نوايا سوريا» وسلوكها عن طريق مقايضة العديد من الانسحابات الجزئية والمحدودة فى الجولان بجرعات مكثفة من «التطبيع» على مدى فترة تصل إلى خمس سنوات. من هنا جاء اقتراح «مجدل شمس أولاً» الذى رفضته سوريا على الفور (مجدل شمس هى أكبر قرى مرتفعات الجولان)، يضاف إلى ذلك خطط إسرائيل التى طنطنت لها على نطاق واسع، وخاصة فى عهد حكومة بيريس، للدخول فى مشروعات اقتصادية ضخمة وكل أشكال المشروعات المشتركة مع سوريا بغرض خلق شرق أوسط جديد تمامًا للعرب.

وطبقًا لما ذكرته بعض التقارير، مضى الإسرائيليون فى جلسة من الجلسات الأخيرة لمفاوضات ميريلاند إلى حد تسليم عدد من المشروعات لتكامل الاقتصادين السورى والإسرائيلى، ولا يمكن

تلقت دمشق - رسميا وشعبيا ودبلوماسيا - نبأ انتخاب نتنياهو رئيسًا لوزراء إسرائيل فى نهاية شهر مايو ١٩٩٦ بمزيج من الخيبة والارتياح، وراح ظرفاء البلد يتندرون بقولهم كلامًا من قبيل: انظروا إلى ما يفعله « أولاد عمّنا » جنوبًا، قتلوا رابين وخذلوا بيريس وانتخبوا نتنياهو وأرييل شارون وما زالوا يقسمون الأيمان بأنهم لا يريدون سوى السلام معنا

كذلك استبعاد الاستياء العام السورى والعربى من المطالبة الدائمة ليس فقط بأن يقيم العرب السلام مع إسرائيل، بل عليهم كذلك أن يقيموه وهم فى حالة من الفرحة والابتهاج.



وعلى خلاف ذلك كله، كانت الصور التى تتداعى إلى ذهنى فى تلك الفترة تعود جميعًا إلى الممارسات السياسية المعروفة لعصر النهضة: فها نحن أمام مشهد لعروس ذات إرادة حديدية، من ناحية، ولعريس كله كبرياء وأنفة وإباء، من ناحية ثانية، ينتمى كل واحد منهما إلى قبيلة عدوة للقبيلة الأخرى أو إلى سلالة حاكمة فى حرب دائمة مع السلالة الثانية أو إلى عائلة عريقة متخاصمة منذ زمن طويل مع العائلة المنافسة، إلا أنه على العريس والعروس إتمام مراسم الزواج - على الرغم من أن أحدهما لا يطيق الآخر ويكرهه كرهًا شديدًا ويحتقره إلى أقصى حدود الاحتقار - لأسباب قاهرة لا علاقة لها بمشاعرهما الفردية أو مشاريعهما الشخصية أو عواطفهما وميولهما الخاصة وإنما لها كل العلاقة بالمصالح العليا للقبيلتين أو العائلتين أو السلالتين أو بما يسميه الفرنسيون عادة بالـ Raison d'etat. بعد إتمام مراسم الزواج يمكن للزوجين أن يتظاهرا بالعيش معًا أو أن يتكيف الواحد منهما مع الآخر بصورة من الصور، ولكن يمكن أيضًا لكل منهما أن يعيش حياته الخاصة على مزاجه دون اعتبار للشريك المفترض، مع المحافظة على بعض المظاهر الخارجية الضرورية. بعبارة أخرى إن قصة سوريا مع إسرائيل وقصة إسرائيل مع سوريا هى أشبه بحكاية روميو وجولييت معكوسة بالمطلق.

فى الفترة التى سبقت انتخاب نتنياهو لرئاسة الوزراء فى إسرائيل اكتسب الرئيس الأسد المزيد من التقدير والاعجاب فى العالم العربى - رسميا وشعبيا - بسبب من إدارته الحازمة للمفاوضات مع إسرائيل والولايات المتحدة، إدارتها بطريقة حصيفة ورزينة حافظت فى الوقت نفسه على الكرامة الوطنية لبلده، ونتيجة رفضه القاطع الخضوع لأجندة المفاوضات الإسرائيلية ظهر أمام الجميع بمظهر اللاعب والمفاوض الحقيقى بدلاً من مظهر «الحجر» الذى يحركه الآخرون كما هى الحال بالنسبة لمنظر المفاوضين العرب الآخرين، ومما زاد فى قامته عربيًا كونه تمكن من أن يفعل ذلك كله فى ظل ظروف عربية وإقليمية ودولية صعبة جدًا تتمثل فى ميزان قوى مختل كليًا ضد الطرف العربى بأجمعه.



فى ذلك الوقت أيضًا كانت دمشق كلها تعرف أن الإسرائيليين يضغطون بشدة، بدعم من الولايات المتحدة من أجل الحصول على «إعلان مبادئ» مع سوريا، واجتماع قمة محتمل مع الأسد يعقبه طريق طويل وشاق من المفاوضات المفصلة بشأن كل القضايا الصعبة التى نعرف جميعًا أنها تقف حائلاً دون السلام بين البلدين، إلا أن دمشق كلها كانت تعرف أيضا أن طريقة الأسد هى التفاوض والاتفاق أولا على كل القضايا وكل تفصيلة من التفاصيل المتنازع عليها: وبعد ذلك المضى قدمًا باتجاه إعلان المبادىء واجتماع القمة والمراسم والاحتفالات التى تلى ذلك فى العادة، باعتبارها كلها الإنجاز الذى يتوج العملية التفاوضية بكاملها، ومن المؤكد أنه بدا فى دمشق أن الرئيس الأسد استخلص كل الدروس المناسبة من تجربة السادات المثيرة مع صيغة «إعلان المبادئ الآن، وإجراء المفاوضات لاحقًا».

وتأتى الدروس والنماذج الحية الأخرى التى استفاد منها الرئيس الأسد مما تعرض له ياسر عرفات مرارًا من مهانة وإذلال وتجاهل، بل وإهانات على أيدى العديد من الزعماء الإسرائيليين وكان ذلك مباشرة عقب «إعلان المبادئ» الفلسطينى الإسرائيلى والمصافحة الشهيرة بين عرفات ورابين فى حديقة البيت الأبيض فى سبتمبر ١٩٩٣.

أضف إلى ذلك منظر عرفات المزرى وهو يعيد التفاوض مرات عدة على اتفاقات وبروتوكولات ووعود والتزامات سبق أن أعاد التفاوض عليها بطريقة مضنية وتم الاتفاق والتوقيع عليها بضمانة من الولايات المتحدة الأمريكية.

تلقت دمشق - رسميا وشعبيا ودبلوماسيا - نبأ انتخاب نتنياهو رئيسًا لوزراء إسرائيل فى نهاية شهر مايو ١٩٩٦ بمزيج من الخيبة والارتياح، وراح ظرفاء البلد يتندرون بقولهم كلامًا من قبيل: انظروا إلى ما يفعله «أولاد عمّنا» جنوبًا، قتلوا رابين وخذلوا بيريس وانتخبوا نتنياهو وأرييل شارون وما زالوا يقسمون الأيمان بأنهم لا يريدون سوى السلام معنا («أولاد عمنا» هى الطريقة الساخرة التى يشير بها بعض أهل دمشق إلى الإسرائيليين عندما يتحدثون عنهم فى جلساتهم الخاصة).

قلت إن دمشق تلقت نبأ وصول نتنياهو إلى السلطة بمزيج من الخيبة والارتياح: الخيبة لأن مناقشات التطبيع قامت كلها على التسليم بأن معاهدة السلام مع إسرائيل أضحت أمرًا لا مفر منه - مهما كانت عيوب تلك المعاهدة وسقطاتها من وجهة النظر السورية - وبما أن الأنظار كلها كانت مشدودة إلى قدوم «جودو» السلام هذا، كان من الطبيعى أن ينمو إحساس بالترقب والتوقع والتشويق داخل المجتمع السورى، لكن عندما لم يحدث أى شىء من هذا القبيل بات قدر من الخيبة أمرًا لا مفر منه كذلك. أما الارتياح فسببه تأجيل موعد اتخاذ القرارات الصعبة والتنازلات المؤلمة والتراجعات المحرجة وهو التأجيل الذى لم يكن لسوريا يد فى صنعه، فالتغيير - بغض النظر عن الأسباب - وقع فى الطرف الآخر. إسرائيل وليس سوريا، هى التى انسحبت من مفاوضات واى فى ميريلاند فى ٣ مارس ١٩٩٦، فى الواقع كانت هذه المرة الأولى التى لم يلق فيها أحد باللوم على سوريا - سواء محليًا أو إقليميًا أو عالميًا - بتعمد إعاقة مفاوضات السلام أو السعى للقضاء عليها بشكل صريح، ويمكننى كذلك إضافة أننى لم أر قط الدبلوماسيين الغربيين فى دمشق أكثر صراحة وشدة فى انتقاد إسرائيل مما كانوا عليه فى فترة وجود نتنياهو فى الحكم.



سرعان ما فُهم وصول نتنياهو وسياساته فى دمشق على أنه ارتداد إلى سياسات حكومة شامير وتكتيكاتها المعرقلة، وعلى أنه نكوص إلى فكرة «السلام مقابل السلام» المتشددة لتحل محل فكرة «السلام مقابل الأرض» التى كانت تقوم عليها المفاوضات حتى ذلك الوقت، وشعر الرافضون السوريون بارتياح كبير ورضا نتيجة لتصريحات نتنياهو، خاصة لاءاته الثلاثة الشهيرة: لا للانسحاب من مرتفعات الجولان، لا لدولة فلسطينية مستقلة، لا لحل وسط بشأن القدس الشرقية، وكان الهدف مما أسماها «الترتيبات الفرعية» مع سوريا هو التطبيع التدريجى للعلاقات بين البلدين دون أى انسحاب من الجولان، كما أكدت الخطوط العريضة التى أرسلها إلى الكنيست على أن حكومته «ترى مرتفعات الجولان على أنها ضرورية لأمن الدولة» وأن «الاحتفاظ بالسيادة الإسرائيلية على الجولان سيكون الأساس لأية ترتيبات مع سوريا»، كما اعتبر الرافضون مجئ نتنياهو إلى السلطة تأكيدًا لأطروحاتهم القائلة أنه فى لحظة الحقيقة لا بد لإسرائيل من أن ترتد إلى طبيعتها الأصلية كمجتمع استعمارى استيطانى وكدولة عدوانية محاربة يهمها التوسع والهيمنة والأرض والاستيطان والموارد أكثر بكثير مما يهمها السلام.

وفى الوقت ذاته كان هناك ترقب فى المجتمع المدنى السورى - وخاصة فى أوساط الانتلجنسيا - ما إذا كان التصلب الإسرائيلى الجديد، سوف يؤدى بالنظام الحاكم فى سوريا للارتداد إلى مواقفه وممارساته وخطاباته السابقة على مؤتمر مدريد، إلا أن أيًا من هذه المخاوف لم يتحقق، بل على العكس من ذلك، استفادت الحكومة السورية بدهاء من الفترة التى أمضتها حكومة نتنياهو فى السلطة باستخدام خطاب «سلامى» عاقل ومتوازن رفع الموقف السورى إلى مواقع أرقى سياسيًا وأخلاقيا فى نظر المجتمع الدولى وذلك بالإصرار المتكرر، أولا، على أن الذى انسحب من المفاوضات فى ميريلاند هو إسرائيل وليست سوريا، وثانيًا، على أن الذى أعاد النظر فى عملية السلام وبدّل رأيه فيها هو إسرائيل وليست سوريا، وثالثًا، على أن سوريا هى المستعدة لاستئناف محادثات السلام فورًا من حيث انقطعت وليس إسرائيل، أما على المستوى المحلى فلم تطرأ أية تغييرات مهمة على الخط الرسمى أو الإعلامى حتى بالنسبة للمواد المعدة للاستهلاك الداخلى فقط، واضح إذن أن سياسات سوريا قد وضعت بمهارة خلال فترة حكم نتنياهو، بحيث تستميل الرأى العام للمجتمع الدولى قدر الإمكان وتجد لها صدى إيجابيا لدى «هيئة المحلفين» الدولية وهى الهيئة المؤلفة عمليًا من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبى والغرب بصورة عامة.

فى مطلع فترة وجود نتنياهو فى السلطة، اتهمت سوريا بتضييع فرصتين نادرتين للتوصل إلى معاهدة السلام مع إسرائيل واستعادة مرتفعات الجولان، ومن المفترض أن تكون الفرصة الأولى قد سنحت قبيل تبنى رئيس الوزراء الإسرائيلى إسحق رابين الاختراق السرى للغاية الذى كان قد تم التوصل إليه على المسار الفلسطينى فى أوسلو وذلك بدلاً من الاستمرار فى مفاوضات المسار السورى.

أما الفرصة الثانية فسنحت، طبقًا لهذا المنطق، بعد اغتيال رابين وعندما قرر رئيس الوزراء بيريس الدعوة لإجراء انتخابات عامة مبكرة بدلاً من استكمال فترة رئاسة سلفه، ويمضى الاتهام ليقول إن حذر الرئيس الأسد الزائد وتشككه وتسويفه هى المسئولة عن ضياع الفرصتين، وأشار وزير الخارجية الأمريكى وارن كريستوفر إلى هذه التهمة فى مقابلة أجرتها معه صحيفة «ها آرتس» الإسرائيلية فى أواخر أكتوبر ١٩٩٧، فى حين أورد السفير ايتامار رابينوفيتش هذه الاتهامات فى كتابه الجيد: «حافة السلام: المفاوضات الإسرائيلية السورية» The Brink of Peace: The Israeli Syrian Negotiations كان من الطبيعى أن يتداول مصنع الشائعات فى دمشق هذه الاتهامات كذلك، ولكن دون التوصل إلى أية نتائج هامة أو استنتاجات بينة فى ذلك الوقت.

وطبقًا لما ذكره رابينوفتش، فقد أرسل رابين فى ٣ أغسطس رسالة إلى الأسد، عبر وارن كريستوفر ودينيس روس، يستكشف فيها إمكانيات الاتفاق على «اتفاقية سلام محددة جدًا» تشمل كلا من سوريا ولبنان، وعاد الوسيطان الأمريكيان من دمشق برد «اعتبراه إيجابيا، إلا أن رابين رآه مخيبًا لأمله، وجعل هذا الجواب السورى، وفقًا لرابينوفيتش، رابين يتبنى على الفور اختراق أوسلو، الذى كان جاهزًا بسرية تامة، بدلاً من الاستمرار فى المفاوضات مع سوريا.

نعرف الآن أن الرسالة التى بعثها رابين للأسد كانت اقتراحًا بانسحاب الإسرائيليين الكامل من مرتفعات الجولان مقابل التزام

سوريا الكامل بأمن إسرائيل وشروط التطبيع، ونعلم كذلك أن رد الأسد، الذى اعتبره الوسيطان الأمريكيان إيجابيا، بينما رآه رابين مخيبًا للآمال، كان يسعى لتوضيح ما إذا كان الانسحاب المقترح سوف يمتد إلى خط الرابع من يونيو ١٩٦٧ أم أنه سيتوقف عند الحدود الدولية لسنة ١٩٢٣ كما رسمتها سلطات الانتداب الفرنسية والبريطانية فى سوريا وفلسطين على التوالى، وكان الانسحاب لحدود ١٩٢٣ سيمنع سوريا من العودة إلى الركن الشمالى الشرقى من بحيرة طبرية ومن استعادة الأرض التى صارت الآن منتجع المياه المعدنية الحارة المعروف باسم الحمة والذى كان فى الأصل قرية فلسطينية عربية قديمة تحمل هذا الاسم، وطبقًا لما ذكره بعض المراقبين والمحللين لعملية السلام، ضيع الرعاة الأمريكيون فى هذه المفاوضات غير المباشرة فرصة جيدة لتحقيق اختراق هام على المسار السورى الإسرائيلى بعدم متابعتهم مع الجانب الإسرائيلى التوضيح الذى سعى إليه الرئيس الأسد فى حينه.

ويمضى رابينوفتش قائلاً إنه عندما تولى بيريس رئاسة الوزراء، بحث من جانبه فى إحياء المسار السورى من خلال عدد من المقترحات الاقتصادية الاستثنائية والإجراءات السياسية الدراماتيكية (اجتماع قمة مبكر مع الرئيس الأسد، على سبيل المثال) قصد بها تعزيز فرصه الانتخابية حين يحين موعد حملة الانتخابات، إلا أنه طبقًا لما ذكره رابينوفيتش، فإن رد الرئيس الأسد على محاولات بيريس هذه جاء رد إيجابيا بحذر، وشديد التحفظ، ولكنه أخفق فى التحليل الأخير، فى إرضاء بيريس وفى «توفير الشروط اللازمة له لعقد اتفاقية جيدة فى الوقت المناسب» ونتيجة لذلك، لم يقرر بيريس الدعوة لإجراء انتخابات مبكرة فحسب، بل أجاز للجيش القيام بعملية «عناقيد الغضب» العسكرية ضد حزب الله فى جنوب لبنان.

جاء الرد السورى الأول والجزئى على هذه التهم على لسان باتريك سيل فى دراسته المنشورة فى «مجلة الدراسات الفلسطينية» (خريف ١٩٩٦، الطبعة الانكليزية) حيث بين أنه فى حين عرض الرئيس الأسد على رابين إتمام صفقة تتناول الجولان استنادًا إلى مبدأ «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل»، لم يرد رئيس الوزراء الإسرائيلى وقتها التحية بمثلها، بل كان يربط دومًا مسألة الانسحاب بشروط صريحة وخفية متنوعة مثل إخضاع عملية الانسحاب إلى استفتاء شعبى عام فى إسرائيل وإعادة هيكلة القوات المسلحة السورية مما كان يعطل بدوره الفرصة للتوصل إلى اتفاق.

أما الرد الأكثر إحاطة فقد جاء على لسان سفير سوريا إلى واشنطن فى تلك الفترة ورئيس وفدها المفاوض السيد وليد المعلم فى مقابلة شاملة نشرتها له «مجلة الدراسات الفلسطينية» فى طبعاتها العربية والإنكليزية والفرنسية (شتاء ١٩٩٧)، تشكل هذه المقابلة، دون أدنى ريب، أفضل عرض لوجهة النظر السورية الرسمية بالنسبة لمجريات الأمور فى المفاوضات مع إسرائيل وأكثرها تفصيلاً وعمقا.

فنّد السفير وليد المعلم التهمة الموجهة إلى سوريا بشأن تفويت أكثر من فرصة ذهبية لاسترجاع الجولان المحتل بتأكيده أن سوريا ما كانت لتدخل فى أية مساومات جدية حول مطالب إسرائيل المتعلقة بالترتيبات الأمنية وعلاقات السلم العادية (التطبيع) والجدول الزمنى لإتمام الصفقة .. إلخ، إلا بعد انتزاع موافقة إسرائيلية على الانسحاب العسكرى والمدنى الكامل من هضبة الجولان. وقد عبّر رابينوفيتش عن هذا الموقف السورى فى كتابه المذكور سابقا بقوله إنه منذ بدء المفاوضات فى شهر أغسطس ١٩٩٣ رفض السوريون أن يتزحزحوا قيد أنملة عن موقفهم قبل سماع كلمتين: الانسحاب الكامل. ويتابع وليد المعلم قائلاً إن الجانب السورى تفاجأ مفاجأة كاملة مزدوجة عند الإعلان عن اتفاقيات أوسلو وعند متابعته للتطورات السريعة اللاحقة على المسار الأردنى ـ الإسرائيلى والتى أدت إلى توقيع اتفاق سلام منفرد وسريع بين الدولتين. بعبارة ثانية، إن الذى دمّر فرصة حدوث اختراق حقيقى فى المفاوضات السورية ـ الإسرائيلية وقتها ليس التردد أو التعثر أو التعنت السورى، بل خروج اتفاقيات أوسلو السرية إلى العلن وما لحق ذلك من ترتيبات جديدة وحاسمة مع الأردن.



أما فيما يتعلق بالفرصة «الضائعة» الثانية، على أثر استلام بيريس السلطة بعد اغتيال رابين، يؤكد المعلم أن دعوة بيريس لإجراء انتخابات مبكرة وتعليقه لمحادثات السلام فى ميريلاند كانا مفاجئين لسوريا بما لا يقل عن اتفاقية أوسلو. وهو يرجع القرارين لضغوط إسرائيلية داخلية وهموم حزبية وليس لأى فرص سلام سنحت فجأة. وتأييداً لموقفه، يشير المعلم إلى مصادر إسرائيلية اتهمت بيريس نفسه بإضاعة فرصة ذهبية للتوصل إلى سلام مع سوريا. والإشارة هى هنا فى المقام الأول إلى الكشوف الدقيقة بشأن التفاصيل الخاصة بمفاوضات رابين مع سوريا التى أعلنها أورلى أزو لاى كاتز (Orly Azulay - Katz) فى سيرة شيمون بيريس التى كتبها بعنوان: الرجل الذى لم يتمكن من الفوز (The Man Who Could not Win) ويلمح المعلم كذلك إلى مقابلة تلفزيونية أذيعت كثيراً أجريت مع كبير المفاوضين مع سوريا فى عهد بيريس، يورى سافير، وفيها (أ) اعتراف بأن الكثير من التقدم كان قد تحقق مع سوريا فى مفاوضات ميريلاند و (ب) تأكيد أن الجانبين أوشكا بالفعل على الوصول إلى اتفاق عندما انسحب بيريس من المحادثات، و (ج) غياب كل ذكر لأية فرصة ضائعة أو غير ضائعة مع سوريا.

فى الوقت ذاته، تبين لدمشق الناس أنه لم تكن هناك أية فرص ضائعة حقا للسلام واسترداد الجولان الخ، بل مناورات علاقات القوة المعتادة بين الطرفين وتكتيكات كل واحد منهما لتحقيق ما يمكن تحقيقه من أهدافه الصريحة والمضمرة. على سبيل المثال، نحن نعرف الآن أن المبادرة التى قام بها رابين باتجاه سوريا فى اللحظة الأخيرة قبل تبنيه العلنى لخيار أوسلو ـ أى العرض الذى بعث به إلى الرئيس الأسد بواسطة كريستوفر ودينيس روس فى ٣ ـ ٤ أغسطس ١٩٩٣ ـ لم يكن المقصود منها إلا إحراج الرئيس السورى بوضعه أمام أمر واقع ناجز يعرف رابين جيداً أن الأسد سيرفضه إما بلغة ديبلوماسية أو بلغة أكثر فجاجة. بعبارة أخرى، لم تكن مبادرة رابين مبادرة حقيقية غرضها الاستمرار فى المفاوضات أو تعجيلها أو تسهيلها بقدر ما كانت تنطوى على صفقة فجة ومتعالية مطلوب من الأسد إما أن يقبل بها على علأتها وكما هى أو أن يرفضها على علأتها وكما هى. معلوم أيضا أن قبول الأسد بهكذا صفقة كان سيضعه فورا فى الموقع الذى وجد ياسر عرفات نفسه فيه بعد أوسلو، أى موقع المحطّم للصف العربى والمتخلى عن شركائه العرب فى المفاوضات، بالاضافة الى تحويل كل الجهود التى بذلها للحفاظ على حد أدنى من تماسك «الجبهة العربية الشرقية» فى التفاوض مع إسرائيل إلى مهزلة لا أكثر. تنطبق اعتبارات مشابهة على المبادرة السريعة التى يفترض أن بيريس توجه بها إلى سوريا عند استلامه السلطة بعد رابين ولكن دون نتيجة جاءت محاولة بيريس هى أيضا مثقلة بالمطالب والشروط التى كان على سوريا تلبيتها بصورة شبه فورية أو أن تتحمل نتائج الانتظار والمجازفات والمخاطر التى يمكن أن تترتب على الانتخابات الإسرائيلية المبكرة. وفيما يلى أبرز المطالب والشروط التى رافقت المبادرة المذكورة:

(١) اجتماع قمة يكاد يكون فوريا مع الرئيس الأسد، على أن ينعقد فى القدس كخيار أول أو فى دمشق كخيار ثان أو فى واشنطن كخيار ثالث. فى الواقع لم يجعل بيريس استمرار المفاوضات الجادة على المسار السورى متوقفة على مثل هذا الاجتماع وحسب، بل مضى إلى حد اعتبار القمة «الاختبار الحاسم» (حسب توصيف رابينوفيتش) لأى اتفاق سلام مع سوريا.

(٢) تحويل هضبة الجولان إلى منطقة اقتصادية حرة أو منطقة تنمية اقتصادية أو كليهما، كجزء من الشرق الأوسط الجديد الذى أخذ بيريس يدعو إليه من جانب واحد.

(٣) إنشاء وتطوير مشروعات اقتصادية ومصالح مشتركة فى المناطق المحيطة بالحدود بين البلدين بحيث تشكل المعيار الأهم لـ «نوعية السلام الآتى وعمقه».

(٤) إنشاء منظمة أمن إقليمية تحت إشراف أمريكا ورعايتها يتم طرحها تحت اسم «خطة كلينتون».

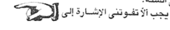
فى دمشق ما كان لمبادرة بيريس هذه أن تجد أية آذان مصغية بسبب من إهمالها لحقيقة بسيطة وهى أن سوريا دولة أمينة على جميع المستويات مما يعنى أن درجة سيطرة الهم الامنى فيها وعليها لا تقل أبدا عن درجة سيطرته فى إسرائيل وعليها. لذا من الطبيعى أن تجد سوريا استيعاب اتفاقية سلام قائمة على الأمن، الذى تفهمه سوريا وتعرف كيف تتعامل معه جيداً، أسهل عليها بكثير من استيعاب اتفاقية مثقلة بخطط ومشروعات اقتصادية مضخّمة تعرف سوريا أنها غير جاهزة للتعامل معها. من هنا الاعتقاد الذى ساد دمشق بعدم جدية المبادرات الإسرائيلية هذه كلها لأن إسرائيل نجحت بالفعل فى تفتيت جبهة المفاوضات العربية وفى تعزيز اتفاقاتها على المسارات العربية الأخرى وتثبيتها عازلة بذلك سوريا وتاركة إياها وحيدة حتى نهاية عملية التفاوض مع العرب بأكملها.

جاء رد ثالث على التهم الموجهة إلى سوريا بإضاعة أكثر من فرصة لتحقيق السلام واستعادة الجولان بقلم باتريك سيل مرة أخرى وذلك فى ثلاث مقالات نشرتها له صحيفة «الحياة» (نوفمبر ٢١ و ٢٢ و٢٣، ١٩٩٩). بعد أن راجع سيل مسار المفاوضات السورية ـ الإسرائيلية استنتج بأن العرض الذى وجهه رابين إلى الأسد قبل تبنيه العلنى والصريح للاختراق الحاصل على المسار الفلسطينى فى أوسلو لم يكن فى حقيقته إلا «حيلة» أو خدعة سياسية من جانب رابين غرضها تغطية قراره المسبق بالسير قدما على المسار الفلسطينى استنادا إلى أوسلو وترك المسار السورى للمستقبل. كان رابين يحتاج إلى مثل هذه التغطية، وفقا لـ سيل، أولا لأنه لم يكن يعتبر أن لديه تفويضا من الشعب الإسرائيلى بالانسحاب الكامل من الجولان وثانيا، لأن الطرف الأمريكى كان يضغط وقتها باتجاه تحقيق اختراق هام على المسار السورى.



أما بالنسبة لفرصة استعادة الجولان الثانية والتى يقال أن سوريا أضاعتها عند استلام بيريس السلطة، فإن باتريك سيل يتفق مع وليد المعلم فى الرد عليها مع إضافة ألقى فيها بالمسئولية على عاتق بيريس بالنسبة لجلب الهجمات الانتحارية الإسلامية الشهيرة على الإسرائيليين حين أذن الأخير للمخابرات باغتيال خبير المتفجرات فى حماس يحيى عياش (المعروف بالمهندس) على الرغم من أن المهندس كان قد علّق نشاطاته كلها منذ ما يزيد على السنة.

يجب ألا تفوتنى الإشارة إلى



من الطبيعى أن تجد سوريا استيعاب اتفاقية سلام قائمة على الأمن، الذى تفهمه سوريا وتعرف كيف تتعامل معه جيداً، أسهل عليها بكثير من استيعاب اتفاقية مثقلة بخطط ومشروعات اقتصادية مضخّمة تعرف سوريا أنها غير جاهزة للتعامل معها. من هنا الاعتقاد الذى ساد دمشق بعدم جدية المبادرات الإسرائيلية هذه كلها

صورة معينة للرئيس الأسد يجرى تداولها فى الوقت الحاضر فى أجواء المفاوضات السورية - الإسرائيلية - الأمريكية. تقدّم هذه الصورة الرئيس السورى على أنه زعيم شديد الحذر إلى درجة إعاقة الذات، وعلى أنه حاكم وسياسى متردد، مليء بالشكوك من كل شيء، مماطل إلى حدود إضاعة الفرص الذهبية لتحقيق أهدافه، مسكون بالشكل والشكليات والاعتبارات الإجرائية أكثر بكثير من المحتوى والجوهر الخ....

من ناحية أخرى، لاشك ان صفات مثل الحذر والشك والتردد والتروى والإصرار على سلامة الشكليات تُعدُّ فى دمشق مزايا هامة جداً لابد من التحلى بها عند تعامل رئيس دولة مثل سوريا مع دول مثل الولايات المتحدة وإسرائيل. يضاف إلى ذلك أن مثل هذه الصورة تبقى مُضلِّلة إلى حد بعيد، لأن دمشق كلها تعرف أن الرئيس الأسد كان قادرا فى لحظة الأزمات الكبيرة على القرارات الحازمة وعلى المبادرات الجريئة وعلى الأفعال الحاسمة حتى لو كانت كلها غير شعبية داخليا وعربياً. لحظة اتخاذها ووضعها موضع التنفيذ، مع العلم بأن التطورات اللاحقة أثبتت، فى النهاية، نجاعتها وفعاليتها وبعد النظر الكامن خلفها لكونها صادرة عن تقدير ممتاز لموازين القوى الإقليمية وميولها ولاتجاهات الدولية ومناخيها المرجحة. أما الأمثلة على ذلك فهى حية فى ذاكرة كل سورى وأهمها:

(١) التدخل السورى المسلح فى الحرب الأهلية اللبنانية سنة ١٩٧٦ إلى جانب حزب الكتائب ضد حلفاء سوريا الطبيعيين والتقليديين فى لبنان، ومن بينهم الفلسطينيون.

(٢) القضاء بسرعة على التمرد الإسلامى المسلح فى أوائل الثمانينيات.

(٣) التدمير الجسور لمعاهدة السلام اللبنانية الإسرائيلية المنفصلة التى رتَّبها وقتها وزير الخارجية الأمريكى جورج شولتز من وراء ظهر سوريا وعلى حسابها سنة ١٩٨٤.

(٤) التحالف الذى لم يتزعزع مع إيران أثناء الحرب العراقية الإيرانية، فى وقت كان العالم العربى بأسره والغرب يقفان مع صدام حسين بقوة.

(٥) المشاركة الجريئة فى حرب الخليج إلى جانب التحالف الغربى فى حملته لتحرير الكويت.

فى منتصف ولاية نتنياهو، ثار جدل حاد من جديد فى العالم العربى كانت مصر وسوريا بؤرتيه. وهذا هو ما يعرف بمناقشات كوبنهاجن. ومرة أخرى لم يكن للنظام الحاكم فى سوريا دخل كبير فى بدء الجدل أو فى مسيرته وتطوره، وإن استغل المتنازعون الإعلام المحلى فى عرض وجهات نظرهم. فما هى معركة كوبنهاجن هذه؟

نتيجة الاستياء العربى الحاد من نتنياهو وسياساته أخذت حقيقة نوعية جديدة تتبين وهى أنه أصبح للطرف العربى الآن مصلحة حيوية فى من يحكم إسرائيل وفى أى حزب يمسك بزمام السلطة هناك، حتى فى سوريا أخذ إحساس ينمو فينا بأن الحكمة المحلية التقليدية القائلة بأنه لا فارق بين حزبى العمل والليكود فى القضايا الجوهرية قد عفى عليها الزمن ولم يعد لها أية صلة بالواقع الجديد فى منطقتنا. لذا أخذت شئون إسرائيل الداخلية تحظى باهتمام نوعى جديد وصميم فى دمشق مما لم تعرفه العاصمة السورية سابقا.



فى هذا المناخ، بدأ عدد من المفكرين المصريين البارزين - على رأسهم الكاتب والصحفى والناشط الشهير لطفى الخولى - بالإعداد لمؤتمر مع زملاء لهم من الفلسطينيين والأردنيين والإسرائيليين يعقد فى كوبنهاجن، لمعرفة ما يمكن عمله بشأن التخلص من نتنياهو وإرجاع حزب العمل للحكم وإعادة عملية السلام، بالتالى، إلى مسارها مرة أخرى. وكانت تلك هى المرة الأولى بالفعل التى ينظم فيها العرب علناً وصراحة اجتماعا بغرض التأثير مباشرة على اختيار الحكومة الإسرائيلية. واضح إذن أنه لم يعد بالإمكان تمويه أو تصعيد أو تبديد الإحساس بأن للجانب العربى مصلحة حقيقية الآن فى من يحكم إسرائيل. مع ذلك كان الجدل العربى بشأن مبادرة كوبنهاجن وهدفها وبرنامجها كبيرا ومتنوعا وانفعاليا وشرسا فى كثير من الأحيان وبلغت هذه المناقشات ذروتها فى المواجهة التى تمت على الهواء بين لطفى الخولى من ناحية والأمين العام لاتحاد الكتاب العربى فى سوريا على عقلا عرسان من ناحية ثانية وذلك فى البرنامج التلفزيونى «الاتجاه المعاكس» الذى تبثه أنجح المحطات التلفزيونية الفضائية فى العالم العربى حالياً، وهى قناة الجزيرة ومقرها دولة قطر.

من المؤسف أن لطفى الخولى توفى قبل وصول باراك إلى السلطة فى مايو ١٩٩٩، إلا أن هناك إجماعا بين مراقبى عملية السلام فى دمشق فى الوقت الراهن على أن فكرة كوبنهاجن وما دار حولها من جدل قد خدمت أغراضها بشكل ممتاز. صحيح أنه أثناء الجدل كان الاتجاه العام فى سوريا منتقداً للفكرة ومشروعها، بل معاديا لهما. مع ذلك حدث تطور سورى كبير مع بداية الحملة الانتخابية الإسرائيلية الجديدة: لم يحدث من قبل أن تتبعت سوريا الرسمية والشعبية انتخابات إسرائيلية بهذا القدر من الترقب، وناقشتها بهذا العمق، وراقبتها بهذه العناية كما تتبعت المنافسة بين باراك ونتنياهو وناقشتها وراقبتها، قد لا أكون مبالغا كثيرا إن قلت إن دمشق تتبعت المنافسة الانتخابية الإسرائيلية هذه المرة وكأنها شأن داخلى. ومما أثار سخط البعض أنه بات واضحا للكل أنه حتى سوريا أصبح لها مصلحة حيوية مباشرة فى نتائج الانتخابات الإسرائيلية.

استقبلت دمشق انتصار باراك بارتياح غير معتاد مع تحسن فى التوقعات المتعلقة بالسلام وعملية السلام. ومما أدهش معظمنا تبادل الابتسامات والمجاملات بين الرئيس الأسد ورئيس الوزراء الإسرائيلى الجديد مرّ مرور الكرام دون استنكار سواء كان فى العلن أو فى الجلسات الخاصة.

تبين لى فى تلك اللحظة أن سوريا ربما تجاوزت مزاج التسليم الرواقى المترفع بشر لابد منه اسمه السلام مع إسرائيل فلو أن الرئيس الأسد مدح رئيس وزراء إسرائيل فى مرحلة الاتصالات اللاحقة على مؤتمر مدريد، على سبيل المثال، لدهش المراقبون فى دمشق كما لم يدهشوا من قبل، ولتلقوا الخبر باستهجان وقلق شديدين. ولكن عندما مدح الأسد باراك بعد فوز الأخير فى انتخابات مايو ١٩٩٩، اندهشت دمشق من نفسها لأنها تعاملت مع الخبر ببرود واعتياد، وكأن الحكاية برمتها مسألة طبيعية. والأمر الأكثر إفصاحاً هو أنه لم يثر أى جدل حتى الآن بشأن قضايا تطبيع العلاقات، على سبيل المثال، كما لم نسمع عن أية استنكارات من النوع الذى واجهته فكرة كوبنهاجن.

فى الوقت الراهن تنظر دمشق إلى الفاصل الذى قضاه نتنياهو فى الحكم بثلاث طرق مختلفة: أولا: على أنه شر كان لابد منه للجمع بين الطرفين ولتعميق الدرس بأن هناك فرقا كبيرا بين حزبى العمل والليكود عندما يكونان فى السلطة، وثانيا: على أنه مخطط امبريالى - استعمارى ومؤامرة صهيونية - يهودية لجعل حزب العمل يبدو مقبولاً ومتساهلاً فى نظر سوريا والعرب، وثالثا: على أنه مثال على «مكر التاريخ» (كما يقول الفيلسوف هيجل) وهو يشق طريقه فى اتجاه تسوية سلمية مع إسرائيل. والآن يفكر بعض الماركسيين الهيجليين فى احتمال نشوء تركيب شرق أوسطى أعلى جديد نتيجة التجاوز التاريخى للأطروحة العربية القديمة من ناحية وللأطروحة الإسرائيلية المضادة والأجد، من ناحية ثانية.

كما يرى بعض المثقفين فى دمشق أن سقوط نتنياهو يشير أيضا إلى درس من نوع آخر. فعندما دخل هذا الرجل المعترك الانتخابى للمرة الأولى قيل الكثير عنه باعتباره شخصية تلفزيونية هائلة، وعن مقدرة أجهزة الإعلام فى الوقت الحاضر على صنع المرشحين والسياسيين والقادة والزعماء أو على تدميرهم بغض النظر عن البرامج التى يحملونها أو القضايا التى يمثلونها أو المواقف التى يتخذونها، أو المؤهلات التى يتميزون بها. قيل الكثير أيضا - وبخاصة من قبل بعض دكاترة الإعلام وخبرائه من البعد حداثيين - كيف أنه لم يعد من شيء مهم فى العمل السياسى هذه الأيام سوى الصورة الخارجية، والمظهر التليفزيونى المناسب، والتلاعب الإعلامى الشاطر، والكلام التبسيطى المخاتل لكن ها هو نتنياهو يسقط سقوطًا مدويا على الرغم من كونه صاحب الشخصية الإعلامية الأنجح بامتياز، والصورة الخارجية الأفضل بما لا يقاس، والمظهر التلفزيونى الأكثر روعة، والتلاعب الإعلامى الأرقى، والكلام التبسيطى الأكثر مخاتلة وخداعاً. واضح إذن أنه خلافاً لهذا اللغو الإعلامى مازالت البرامج السياسية والقضايا الساخنة والمواقف المدروسة ومسائل الحرب والسلم هى الحاسمة فى العمل السياسى فى منطقتنا من العالم على أقل تقدير.



معروف أن سوريا متصلبة بشأن استعادة كامل هضبة الجولان - حتى خط يوم ٤ يونيو ١٩٦٧ - مقابل إبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل والموافقة على الترتيبات الأمنية المطلوبة وعلى إقامة علاقات سلم عادية بين البلدين.

أما الجانب الإسرائيلى فإنه يطرح انسحابا من الجولان إلى الحدود الدولية بين فلسطين وسوريا كما رسمها كل من الانتدابين البريطانى والفرنسى سنة ١٩٢٣. وتحتج إسرائيل هنا بسابقة إرجاعها سيناء بالكامل استنادا إلى الحدود الدولية بين مصر وفلسطين كما رسمها الحكم الاستعمارى البريطانى فى مصر بالاتفاق مع السلطات العثمانية فى فلسطين سنة ١٩٠٦. واضح أن الانسحاب الإسرائيلى إلى الحدود الدولية فقط سوف يحرم سوريا من تواجدها السابق فى الزاوية الشمالية الشرقية من بحيرة طبريا ومنطقة الحمة المذكورة سابقا.

بالنسبة للجانب الأمريكى فى المفاوضات، فإنه يعمل على التوفيق بين هذين المفهومين للانسحاب الكامل من الجولان عبر طرح صيغة من صيغ «الغموض الأمريكى البناء» المعروفة بحيث يتفق الطرفان المتفاوضان على خط مناسب للانسحاب ثم يجرى اعتبار ذلك، أولا بمثابة الانسحاب الإسرائيلى المطلوب إلى خط ٤ يونيو ١٩٦٧ وثانيا، بمثابة الحدود الدولية بين الدولتين على سبيل المثال، ما كان بالإمكان عودة سوريا وإسرائيل إلى طاولة المفاوضات فى واشنطن فى نهاية العام الماضى لولا لجوء الرئيس كلينتون مرة أخرى إلى صيغة من صيغ الغموض البناء بإعلانه يوم ٩ ديسمبر ١٩٩٩ استئناف المفاوضات السورية الإسرائيلية «من النقطة التى توقفت عندها» متعمداً عدم ذكر أى شيء محدد أو مفيد عن طبيعة النقطة التى انقطعت عندها مفاوضات ميرلاند فى مارس ١٩٩٦. أما الداعى الأساسى لهذا النوع من «الإعلان الغامض» فيكمن فى التأكيدات السورية التالية:



من المؤسف أن لطفى الخولى توفى قبل وصول باراك إلى السلطة فى مايو ١٩٩٩، إلا أن هناك إجماعا بين مراقبى عملية السلام فى دمشق فى الوقت الراهن على أن فكرة كوبنهاجن وما دار حولها من جدل قد خدمت أغراضها بشكل ممتاز. صحيح أنه أثناء الجدل كان الاتجاه العام فى سوريا منتقداً للفكرة ومشروعها، بل معاديا لهما. مع ذلك حدث تطور سورى كبير مع بداية الحملة الانتخابية الإسرائيلية الجديدة



فى واحدة من أكثر الرسائل الصادرة عن دمشق تفاؤلا منذ انهيار المحادثات السورية الإسرائيلية فى يونيو الماضى، قال نجل الرئيس حافظ الأسد فى مقابلة معه إن اتفاقا للسلام مازال ممكنا وإن الوقت لم يتأخر والزمن لم يفت بعد، كما أن المواقف التى يجب اتخاذها والعمل عليها معروفة بالتفصيل وهناك حاجة لاتخاذ قرار والوقت المتوفر كاف لاتخاذه (١٨ ابريل ٢٠٠٠)

(أ) لو لم يتعهد رئيس الوزراء رابين سنة ١٩٩٣ بالانسحاب إلى خط الرابع من يونيو ١٩٦٧، لما سمحت سوريا أصلاً باستمرار المفاوضات بشأن كل القضايا والتفاصيل الأخرى قيد البحث. (ب) إن هذا التعهد السرى جدا والذى نقله وزير الخارجية وارن كريستوفر للرئيس الأسد، أخذ شكل وثيقة مكتوبة مودعة لدى وزارة الخارجية الأمريكية. (ج) مع أن كريستوفر أبلغ الأسد فى ديسمبر ١٩٩٥ باستمرار تعهد بيريس بـ «وديعة رابين» فقد انسحب بيريس رغم ذلك من مباحثات السلام فى ميرلاند ودعا إلى انتخابات مبكرة. (د) لذلك فإن سوريا لن تستأنف المفاوضات مع إسرائيل إلا من النقطة التى توقفت عندها - أى «وديعة رابين» ولابد من النظر إلى هذا الإصرار السورى فى ضوء حقيقة هى أن نتنياهو كان قد انتخب على أساس برنامج يرفض صراحة الانسحاب من هضبة الجولان.

يضاف إلى ذلك موقف سوريا الثابت من أنه مادامت الجولان أرضا محتلة، فإن تسوية مستقبلها يجب أن تنبع من مبادىء القانون الدولى وليس من مبادىء السيادة الإسرائيلية. بعبارة أخرى ليس هناك ما يدعو إلى طرح أية اتفاقية سورية إسرائيلية بشأن الجولان لاستفتاء شعبى أو لإقرار من الكنيست.

جدير بالإشارة كذلك أن باراك لم يعترف علنا ورسميا بوجود وثيقة اسمها «وديعة رابين» وبالتزام بالانسحاب الكامل من الجولان (إلى نقطة قريبة جدا من خط الرابع من يونيو ١٩٦٧) فى مقابل مراعاة سوريا لحاجات إسرائيل الأمنية ومطالبها التطبيعية، إلا فى ٢٧ فبراير من العام الجارى. أوردت صحيفة «النيويورك تايمز» خبر هذا الاعتراف على النحو التالى:

«أبلغ اليوم رئيس الوزراء الإسرائيلى إيهود باراك مجلس وزرائه أن إسحاق رابين.. كان قد قدم ضمانات بأن إسرائيل سوف تنسحب انسحابا كاملا من مرتفعات الجولان مقابل التزامات أمنية من سوريا... وبدا السيد باراك وكأنه يؤكد ما كانت قد أكدته سورية طويلاً - وهو أن السيد رابين قد ترك «وديعة» لدى الأمريكيين، وهى عبارة عن وعد بإتمام انسحاب كامل إن لبت سوريا مطالب إسرائيل بشأن الأمن». (٢٨ فبراير ٢٠٠٠)

على الرغم من ذلك كله أظهر الجانب السورى مرونة فائقة جداً فى المفاوضات التى جرت فى بلدة شيبردزتاون فى ولاية فيرجينيا الغربية فى مطلع العام الجارى وذلك فى محاولة جديدة لاختبار نوايا إسرائيل بدقة وبالعمق بالنسبة لتنفيذ الشق الثانى من مبدأ «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل». ويمكننا استشفاف هذه المرونة، ورد الفعل الإسرائيلى السلبى عليها، من مسودة اتفاقية السلام» التى صاغها الطرف الأمريكى، استنادا إلى ما جرى فى المباحثات، وسلمها إلى الوفدين المتفاوضين قبل مغادرتهما الأراضى الأمريكية.

وجدير بالإشارة هنا أن تسريبا جزئيا لمحتويات الوثيقة الأمريكية جرى إلى صحيفة «الحياة» بتاريخ ٩ يناير، تبعه نشر نصها الكامل فى صحيفة «هاآرتس» الإسرائيلية بتاريخ ١٣ منه. وواضح من هذه الوثيقة أن سوريا تعاملت بمنتهى المسئولية والرزانة والمرونة مع المطالب الإسرائيلية الأساسية وأهمها:

(أ) الاعتراف من جانب سوريا بأن خط الرابع من يونيو ١٩٦٧ هو خط عسكرى وليس حدودا وأنه قابل للتعديل وفقا للطبيعة الجغرافية والطوبوغرافية للأرض (الحياة ٩يونيو٢٠٠٠) لذا علّقت صحيفة «هاآرتس» على هذه المسألة فى تقديمها لنص مسودة المعاهدة بقولها: «وفقاً للوثيقة الأمريكية لا يوجد خلاف بين سوريا وإسرائيل حول عدم وجود خط حدود واضح بين البلدين (١٣يناير٢٠٠٠).

(ب) الموافقة على إنشاء محطة أرضية للإنذار المبكر فى جبل حرمون (جبل الشيخ) تكون تحت الإشراف الأمريكى والفرنسى المشترك بالكامل.. أو وفقا لنص مسودة المعاهدة: «السماح بإمكانيات للإنذار المبكر بما فى ذلك محطة أرضية للإنذار المبكر فى جبل حرمون يجرى تشغيلها من جانب الولايات المتحدة وفرنسا على مسئوليتهما الكاملة وتحت إشرافهما التام». جدير بالذكر هنا أن محطة المراقبة الأرضية كانت محط خلاف حاد بين سوريا وإسرائيل حتى بعد انقطاع مفاوضات ميريلاند فى مارس ١٩٩٦ .

(ج) يتناول البند الثالث من مسودة المعاهدة قضية علاقات السلم العادية (أى التطبيع) بين البلدين بتوسع كبير وبأدق التفاصيل وتتراوح النقاط الوارد ذكرها فى النص بين إقامة علاقات دبلوماسية كاملة وتبادل السفراء من ناحية وحرية السياحة والسفر والتجارة من ناحية ثانية، مرورا بالطرقات والسكك الحديدية والمرافىء والشحن والطيران المدنى والبريد والبرق والهاتف والفاكس والتلكس والكهرباء واللاسلكى إلى آخر اللائحة الطويلة الواردة فى البند الثالث من المسودة.



بالمقارنة مع هذه المرونة السورية غير المسبوقة قام الجانب الإسرائيلى:

(أ) بتعطيل اجتماعات وأعمال اللجنة المشتركة المسئولة عن رسم الحدود بين البلدين فى الوقت الذى اجتمعت فيه اللجان الأخرى، أى اللجان المسئولة عن قضايا المياه والأمن والتطبيع. هذا على الرغم من أن مسودة المعاهدة تنص تحديداً وصراحة على أنه تم تشكيل لجنة مشتركة للحدود» ولا تنص على تشكيل اللجان الأخرى. إضافة إلى أن الاتفاق كان قد تم فى واشنطن عند إنشاء هذه اللجان فى ديسمبر ١٩٩٩ على أن تجتمع كلها متزامنة وتقوم بوظائفها فى وقت واحد أى بحيث تعمل كل لجنة بشكل متواز مع باقى اللجان وقد ذكرت بعض المصادر الموثوقة بها والمطلعة أن باراك عطّل عمل لجنة الحدود، بمسايرة من الرئيس كلينتون، لأنه يرفض البحث فى موضوع رسم خط الحدود إلا مع الرئيس حافظ الأسد شخصيا. يعنى هذا بدوره بقاء الشرط الإسرائيلى المسبق لحدوث اختراق حقيقى على المسار السورى على حاله، أى موافقة سوريا على عقد اجتماع قمة بين الأسد وباراك.

(ب) بالحئول دون ورود عبارة «الانسحاب» فى نص مسودة المعاهدة كلها وبأى شكل من الأشكال والاستعاضة عنها بعبارة «إعادة تموقع القوات الإسرائيلية» (Relocation) على الرغم من أن عملية التفاوض برمتها كانت تجرى لإيجاد الصيغ العملية المناسبة لتطبيق مبدأ «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل» على الأرض.

(ج) بترك مسألة جلاء المستوطنين من الجولان عالقة وغامضة فى نص مسودة المعاهدة وكأن «الانسحاب» الكامل هو إعادة تموضع عسكرى فقط لايطال بالضرورة الاستيطان المدنى أيضا.

لم أفاجأ على الإطلاق حين رد الرئيس الأسد فى قمة جنيف مع الرئيس كلينتون فى شهر مارس المنصرم الصاع صاعين للطرفين الأمريكى والإسرائيلى بسحبه جملة وتفصيلا المرونة كلها التى كانت سوريا قد أبدتها فى مفاوضات شبردزتاون مما أدى إلى إخفاق الاجتماع وخروجه بلا نتائج ملموسة.

حين كانت أجهزة الإعلام الأمريكية تصف موقف الرئيس الأسد فى قمة جنيف الأخيرة بـ «العناد» و «التحجر» و «التصلب» و«التمترس» وما إليها، كانت دمشق ترى فى صلابته رداً مناسبا على ما حدث فى مفاوضات واشنطن وشيبردزتاون وتصفية لحسابات ظلت عالقة لغير مصلحة سوريا فى تلك الجولة من المحادثات.

وجدير بالملاحظة كذلك أنه ما أن تمت تصفية الحسابات المذكورة حتى عادت سوريا للتعبير عن رغبتها فى تجديد المباحثات لإيجاد الصيغ العملية الملائمة لتطبيق مبدأ «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل» على الأرض. خاصة بعد اضطرار إسرائيل المشهود للخروج من جنوب لبنان بقرار من طرف واحد وهو القرار الذى حاولت إسرائيل تجنبه والتهرب منه لأطول فترة ممكنة.. على سبيل المثال. حين اقترح وزير الدفاع اللبنانى أن ترافق قوات سورية الجيش اللبنانى عند دخوله الجنوب للحلول محل قوات الاحتلال المنسحبة قتل وزير خارجية سوريا، السيد فاروق الشرع، الفكرة من أصلها وفى بيروت ذاتها بإعلانه أننا نسير نحو السلام والمفاوضات وليس الحرب.



وفى الفترة ذاتها أجرت مجلة «الوسط» مقابلة مطولة مع الدكتور بشار الأسد تناول فيها عملية السلام بطريقة إيجابية جدا جعلت صحيفة النيويورك تايمز» تكتب عنها وتصفها بالعبارات التالية: فى واحدة من أكثر الرسائل الصادرة عن دمشق تفاؤلا منذ انهيار المحادثات السورية الإسرائيلية فى يونيو الماضى، قال نجل الرئيس حافظ الأسد فى مقابلة معه إن اتفاقا للسلام مازال ممكنا وإن الوقت لم يتأخر والزمن لم يفت بعد، كما أن المواقف التى يجب اتخاذها والعمل عليها معروفة بالتفصيل وهناك حاجة لاتخاذ قرار والوقت المتوفر كاف لاتخاذه (١٨ ابريل ٢٠٠٠).

بعد أن صار الدكتور بشار الأسد رئيسا للجمهورية العربية السورية، تدل المؤشرات كلها على أنه لم يتراجع عن موقفه هذا.

منذ وصول باراك للسلطة يلاحظ متابعو عملية السلام فى دمشق أن عددا من خطوط الاهتمام تتضافر وتتقاطع باتجاه التوصل إلى اتفاقية سلام فى المستقبل القريب. ومن بين خطوط الاهتمام هذه:

(١) تعهدات باراك العلنية بالتفاوض بشأن إطار لتسوية دائمة مع الفلسطينيين وإنهاء مفاوضات الوضع النهائى قبل نهاية عام ٢٠٠٠ بالإضافة إلى انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان بحلول يوليو من العام نفسه، على أساس اتفاق مع سوريا إن أمكن، ومن جانب واحد إذا دعت الضرورة لذلك.

(٢) الموعد النهائى الذى حدده عرفات لإعلان الدولة الفلسطينية قبل نهاية العام الحالى.

(٣) الرغبة الشديدة الواضحة لدى الدول العربية الرئيسية (مصر والمملكة العربية السعودية والجزائر والمغرب) بالانتهاء من عملية السلام فى الشرق الأوسط برمتها بأسرع ما يمكن.

(٤) رغبة الرئيس كلينتون الطبيعية فى إنهاء فترة رئاسته بنجاح كبير ودائم فى منطقة شديدة الاضطراب والحيوية مثل الشرق الأوسط.

(٥) رغبة سوريا فى إنهاء الصراع بشروط معقولة لكى تنتبه لمشاكلها الداخلية وللإصلاحات الملحة المطلوبة فى ضوء الضغوط المتزايدة التى يمارسها النظام العالمى المعولم لما بعد الحرب الباردة.

أخيرا حين يحل السلام، لن يكون ساعتها سلام الشجعان بقدر ما هو سلام المتعبين والمنهكين والمستهلكين. ■









طلاق امبراطورة!

أظهرت لى تحرياتى أن الأسرة المالكة الإيرانية اغتبطت اغتباطا بزواج ولى العهد من فوزية، وأنها رحبت ترحيباً حاراً، وأن الشاه الوالد - رضا بهلوى - أحبها حباً جماً وأحاطها بعنايته وحنانه، وأنه بلغ من شدة تعلقه بها وحدبه عليها، أنه أضحى يتفاءل بوجودها بالقرب منه

كريم ثابت

«لما أعلن طلاق شاه إيران والامبراطورة فوزية لم يعرف الناس أسبابه، بل إن الشاه نفسه لم يعرف الأسباب الحقيقية، وفوزية نفسها لم تعرفها كذلك! هذه الفصول تميط اللثام لأول مرة عن هذه القصة الفريدة فى نوعها، وهى قصة تبدو فى بعض أجزائها أقرب إلى القصص الخيالية منها إلى القصص الواقعية، ومع ذلك أؤكد أنه ليس فى هذا العرض سطر واحد من نسج الخيال!

وفى وقائع هذه القصة يتجلى بأجلى مظهر أنه كانت فى فاروق شخصيتان مختلفتان تتنازعان السيطرة على إرادته ومشاعره».

كريم..

[١]

كانت للجناح الخاص بفاروق فى قصر «المنتزه» بالإسكندرية شرفة تطل على جانب من الحديقة والبحر معًا، ولا أعرف مناظر طبيعية كثيرة تضارع بجمالها ورونقها، المنظر البديع الذى كنت أراه أمامى كلما وقفت على تلك الشرفة وسرحت الطرف فى أرجاء تلك البقعة الساحرة، وكانت الليالى القمرية تعزز فتنتها وروعتها وتزيدها سناء وبهاء، فيخيل إلىّ أن قطعة مختارة من خليج «نابولى» قد انتقلت وارتمت فى أحضانها.

ولما وصلت فى تلك الليلة إلى «المنتزه» وصعدت إلى الجناح الخاص بالملك، دعيت إلى الانتظار على تلك الشرفة بأمر من فاروق ريثما ينتهى من ارتداء ملابسه، فتمنيت فى تلك اللحظة أن تمضى السهرة فى القصر، ولم تكن هذه أول مرة سألت فيها نفسى كيف يهجر فاروق هذه الجنة الصغيرة مع ما يمكن أن يتوافر فيها من أسباب التسلية ويؤثر عليها الأماكن التى يغشاها فى المدينة!

غير أنه أقبل علىّ «بالروب دى شامبر» ففرحت ورجوت أن يكون قد عدل عن الخروج من القصر فنستمتع بسهرة هادئة، وخصوصًا أن القمر كان بدرًا فى تلك الليلة فزاد ما حولنا فتنة وضياء.

وصافحنى فاروق صامتا، ولم يرد علىّ ما وجهته إليه من تحية، ولم تفتر شفتاه عن ابتسامة ما وأدركت أن هناك ما يهمه ويزعجه، فقد كانت هذه هى عادته فى لقائى متى كان مشغول البال، قلقا.

واتجه إلى سور الشرفة، واتكأ عليه، وحدّق النظر فى الفضاء كمن يتأمل فى شىء بعيد يسترعى انتباهه، ولكن نظراته وملامح وجهه كانت تنم عن أنه شارد الذهن، حزين، ثم أخذ يتأوه بصوت مسموع كالمكلوم، وهو صامت كئيب لا يتفوه بكلمة واحدة.

وكان الهدوء والسكون يخيمان على حدائق «المنتزه» فى تلك الساعة، فلم تكن الأذن تسمع سوى صوت الأمواج وهى تداعب الصخور وتعانقها، وصوت مسامير حذاء الجندى الذى يسير تحت الشرفة ذهابا وإيابا ليقاوم ضجره ويطرد نعاسه، فبدت لى كل دقيقة كأنها حقبة من الزمان، ولأول مرة شعرت فى ذلك المكان بوحشة حجبت عنى جماله وسحره، ولم يلبث هذا الشعور أن اقترن بانقباض شديد إذ أيقن أن فاروق يطوى صدره على نبأ خطير، وأن هذا النبأ ينذر بشر مستطير!

وحاولت أن أعين نوع هذا الشر، فعرضت فى ذهنى جميع «الموضوعات» التى يحتمل أن تنشئ له هذه الأزمة، فلم أجد بينها موضوعًا واحدًا يعلل وجومه ويفسر اضطرابه.

ففى حياته الخاصة كانت القطيعة تامة بينه وبين زوجته فريدة لا ينقصها سوى إمضاء وثيقة الطلاق. فلا يمكن إذن أن تكون علاقاته الزوجية مصدر هذه الكآبة الفجائية.. وكانت صحة بناته على ما يرام، فلا شاغل له إذن من هذه الجهة، ولا هَم.

أما فى حياته العامة، فكان على وفاق مع الوزارة القائمة، وليس فى أفق السياسة الداخلية أو الخارجية ما يزعجه أو يقلقه.

فما الذى يؤلمه إذن، وما الذى يفجعه؟

وإذا هو يقول بالفرنسية فجأة: إن شقيقتى فوزية تعيسة جدًا.

فاه بهذه العبارة من غير أن يلتفت إلىّ، واستمر يحدق فى الفضاء كأنه يخاطب القمر ولا يخاطبنى.

وأذهلنى ما سمعته منه، ولم يسعفنى الفكر فى تلك اللحظة بعبارة مناسبة أقولها.

فلزمت صمتى، واكتفيت بالاقتراب منه، وأرهفت سمعى، فإذا هو يقول بالعربية: «أنا المسئول»! وسكت.

فقلت: إنى لم أر مولانا على هذه الحالة قط.. فما الذى جرى.. وهل هناك شىء لا يمكن معالجته؟

واستهل حديثه عن شقيقته بقوله: إن فوزية تعيسة جدًا، وتعيش عيشة قاسية، عيشة كلها مرارة، وكلها نكد، وكلها شقاء، وكلها بكاء، وأنا المسئول عن ذلك!

فقلت: لنترك الآن الكلام عن المسئولية، فالحديث فيها لا يعالج الموقف، ولنبحث الأخبار التى وصلت إلى جلالتك لعلنا نهتدى إلى ما يمكن عمله.

فقال: لقد لخصت لك الأخبار التى بلغتنى حتى الآن.. إن فوزية تعيش فى جحيم. وهذه هى الأخبار!

فقلت: وهل أنت واثق من صحتها؟

فقال: ثقة تامة!

فقلت: هل هى من سفير مصر فى إيران؟

فقال: لا.. ولا يمكن للسفير أن يعرف المعلومات التى تضمنها التقرير السرى الذى تلقيته!

فقلت: ألا يحسن سؤال السفير عنها لربما أمكنه أن يحققها، ثم يوافى جلالتك بنتيجة تحقيقه، فيكون لديك سند يعتمد عليه.

فقال غاضبا: قلت لك إن لى ثقة تامة بمصدر التقرير!

فقلت: اعذرنى يا أفندم إذا عدت إلى الكلام فى هذه النقطة، فالموضوع خطير جدًا، ودقيق جدًا، ولذلك أعتقد أنه يتعين علينا أن نستوثق من صحة هذه الأخبار قبل أن نخطو أى خطوة، فإن الأمر أخطر من أن..

فلم يطق إلحاحى وقاطعنى قائلا: أنا أعلم غرضك.. أنت تريد أن تعرف اسم كاتب التقرير ولكنى لن أريحك، ويكفيك أن تعلم أنه شاب مصرى مقيم فى طهران ويتصل بالامبراطورة عن طريق آنسة مصرية مقربة إليها.. فهل يقنعك ذلك؟

فقلت: أود أن أقول أنه لو أرادت الامبراطورة أن تبلغ هذه الأخبار لجلالتك لأفضت بها إلى سفير مصر وكلفته إبلاغها لك.

فقال: ربما لم يتيسر لها ذلك.

فقلت: وهناك زوجة السفير. كان يمكنها أن تعطيها رسالة سرية لجلالتك.

فقال: ربما لم يتيسر لها هذا أيضًا. وانت لا تعرف فوزية.. إنها أعجز من أن تلجأ إلى أى حيلة من هذا القبيل.. وحتى لو أتيحت لها الفرصة لمنعتها أنفتها من الإفضاء بشكواها إلى السفير أو إلى زوجته!

فقلت: إذن جلالتك تطلب أن نصدق الأخبار التى وصلت إليك اليوم، كأنها أخبار رسمية ثابتة لا داعى لتحقيقها.

فقال: إن الخبر الخاص بمرض فوزية ليس جديدًا علىّ فإنى أعرف أنها كانت مريضة وأنها ضعيفة جدًا.

ثم استطرد يحدثنى عن ظروف زواجها فقال: كانت فوزية «خام» جدا وهى فتاة ولا تعرف عن الحب إلا اسمه، ومن المحقق أن حديثها مع أى شاب عرفته قبل زواجها لم يجاوز عبارات التحية. ولم يكن لها فى الزواج أو فى الرجل الذى تود أن تكون زوجة له رأى معين. فلما كاشفتها بفكرة زواجها من الشاه (وكان يومئذ وليا للعهد) قالت لى بهدوئها المعتاد: «إذا كنت تريد منى أن أتزوج به فليكن ما تريد». فقلت لها: إننى أود أن يتم هذا الزواج، ولكنى لا أجبرك عليه إن كنت لا تميلين إليه، فقالت: «ما دمت أنت تراه مناسبا، فلابد أن يكون كذلك» ثم أطلعتها على صورته، فابتسمت وقالت: «إنى لا أعرفه ولا أعرف غيره ولكنى أعتمد على رأيك وأعمل به فقبلتها، وهنأتها، ورجوت لها زواجًا سعيدًا موفقًا، وأبلغت الشاه موافقتى على المشروع.

فصول من كتاب «طلاق امبراطورة» تأليف: كريم ثابت والذى صدر حديثا عن دار الشروق فى ١٣٦ صفحة

ولما انهى حديثه عن ظروف زواج فوزية من الشاد قلت له: ولكن ألم توافق فائزة على زواجها من محمد على رءوف بالطريقة نفسها؟

فقال: إننى لم أخف على فائزة يوما واحدا.. إنها ليست كفوزية.. إن فوزية بسيطة وعاقلة وتتحمل وتسكت وترضخ.. أما فائزة فقوية،وعصبية، وتعرف ما تريد، ولا يستطيع زوجها «أن يمشى لها على طرف»!

ولم ينتظر منى تعليقًا على حديثه، وعدت إلى الفندق، وأنا أفكر طبعًا فيما سمعت.



وكنت لا أزال أقلب حديثه المحير على كافة وجوهه حين تغلب علىّ النعاس، فنمت وأنا أقول لنفسى: لو عرف الناس أحوال أصحاب القصور على حقيقتها!

انتهزت فرصة وجودى فى القاهرة فزرت بعض المفوضيات الأجنبية التى كان لى فيها أصدقاء تدور الأحاديث بينهم وبينى بصراحة. واستطلعتهم أخبارهم ومعلوماتهم عن الامبراطورة فوزية وحياتها فى طهران وعن نوع العلاقات القائمة بينها وبين زوجها الشاب.

وأظهرت لى تحرياتى أن الأسرة المالكة الإيرانية اغتبطت اغتباطا بزواج ولى العهد من فوزية، وأنها رحبت ترحيبا حارا، وأن الشاد الوالد - رضا بهلوى - أحبها حبا جما وأحاطها بعنايته وحنانه، وأنه بلغ من شدة تعلقه بها وحدبه عليها، أنه أضحى يتفاءل بوجودها بالقرب منه، ويحرص على أن تكون فى مقدمة الجالسين حوله إلى المائدة ساعة غدائه، حتى أنه لما دخل حجرة الأكل يوما وسأل عنها وقيل له أنها متخلفة لوعكة طارئة قطب حاجبيه واستغنى عن غدائه وعاد إلى مكتبه، ولم يهدأ له بال حتى أبلغود أنها استردت عافيتها.

وكأنما أراد أن يساعدها على التأهب لليوم الذى يخلفه فيه زوجها على العرش فكان يقابل الوزراء أحيانا بحضورها، ويناقشهم فى شئون الدولة على مسمع منها!

هذا من جهة الوالد، وقد كان الوالد «كل شىء »فى إيران كما هو معلوم!

أما من جهة ولى عهده، فإن جميع الدلائل كانت تدل على أنه يحب عروسه، ويقدرها، ويحترمها، وأنه يبذل جهده لينسيها غربتها، وليعودها على حياتها الجديدة فى وطنها الجديد!

ولما ارتقى العرش، وغاب نفوذ الشاد الوالد عن القصر والبلاد،لم يطرأ تغيير ما على علاقات الشاد الشاب بزوجته وقد زادها توثقا تعلقهما بالابنة التى رزقاها.

تلك كانت خلاصة المعلومات التى وقفت عليها فى الدوائر التى زرتها!

وفجأة طاف بذهنى خاطر لا أدرى كيف شق طريقه إليه.

وإذا هذا الخاطر يقول لى: ألا يحتمل أن يكون لأحد مصلحة فى أن يلقى فى روع فاروق أن شقيقته تعيسة وشقية وأن يوقع بينه وبين «جلالة أخيه شاد إيران»! فكلنا يعلم المشكلات التى تواجهها إيران وما يكتنفها من مطامع دولية، وكلنا يعلم ما تعانيه بسبب المؤامرات والدسائس الخارجية، فلماذا لا تكون الأخبار التى نميت إلى كاتب التقرير شطرا من مؤامرة تدبر ببراعة ومهارة لإفساد الجو بين الامبراطورة والشاه، ومن ثم بين مصر وإيران،تحقيقا لأغراض يتوخاها أصحاب المؤامرة ومدبروها!

الشاه محمد رضا.. والأميرة فوزية.. صورة الزفاف

وبعد ما تأملت مليا فى الاتجاه الجديد الذى اتجه إليه تفكيرى لمت نفسى على استرسالى فى الخيال، وحاولت أن أطرد هذا الخاطر من ذهنى، فلم أفلح، وأخيرا اهتديت إلى حل يريح بالى: فمن جهة لا أغفل هذا الاحتمال ولا أستبعده، ومن جهة أخرى لا أجعله حجر الزاوية فى بحثى.

ولما عدت إلى الإسكندرية، وقابلت فاروق، لاحظت تحسنا جليا فى حالته العصبية المعنوية، وخيل إلىّ أنه أكثر استعدادا لتحكيم العقل والمنطق فى الموضوع الذى بات شغله الشاغل.

وحدثته عن زيارتى للمفوضيات التى تربطنى ببعض رجالها صلة صداقة، ونقلت إليه المعلومات التى استقيتها منهم بإسهاب، ومع أنه كان يصغى إلىّ بانتباه شديد لم يفتنى أن أنوه غير مرة بأن معلومات تلك المفوضيات تناقض المعلومات الواردة فى «التقرير» مناقضة تامة!

ولما أفرغت كل ما فى جعبتى قال لى: ومن أين للذين زرتهم أن يعرفوا نوع العلاقات التى تقوم بين الشاه والامبراطورة؟

ثم قال: «مع تقديرى للمجهود الذى قمت به لا زلت أصدق الأخبار التى وردت فى التقرير الذى تلقيته!».

فقلت: ولكننا لا نستطيع أن نعتمد عليها اعتمادا كليا..

فقال: وما السبيل الى التحقق منها؟ .. ألم أطلب منك أن تفكر فى ذلك؟

فقلت: هناك خطة أخرى أرجو ألاّ أكون مخطئا إذا قلت أن تنفيذها يكفل معرفة الحقيقة من غير أن يثير شبهة ما، ومن غير أن يفطن أحد إلى الغرض الذى ترمى إليه جلالتك.

فقال: وماهى هذه الخطة؟

فقلت: أن تعلن الأميرة فائزة أنها بمناسبة قرانها، قررت أن تسافر إلى طهران لتزور الامبراطورة شقيقتها، ولتقدم عريسها لجلالتك ولجلالة الشاه. وفى خلال هذه الزيارة العائلية الطبيعية، سوف يتسنى للأميرة فائزة أن تتقصى كل ما يهم جلالتك معرفته عن أحوال الامبراطورة فوزية وشئونها.

فقال: هذه فكرة حسنة.. سأخاطب الآن فائزة، وأطلب منها أن تحضر لمقابلتى غدا لأكلمها فى الموضوع، فتتصل بفوزية وتبلغها عزمها على زيارتها، وتشرع فورا فى الاستعداد للسفر إليها!

وفى الساعة الثالثة من بعد ظهر الغد رن جرس التليفون الخصوصى فى حجرتى بالفندق وإذا فاروق يقول لى: تعال حالا.. فقد وصلت إلىّ أخبار جديدة!

فقلت: خيرا إن شاء الله.

فقال: سيئة جدا!

وقفل التليفون.

ولما دخلت الجناح الخاص به فى القصر، التقيت بأحد حلاقيه فبادرنى بقوله: الحمد لله اللى سعادتك جيت.. حاكم إحنا النهاردة فى «ثورة»!

فسألته: من إمتى؟

فقال: من ساعتين.. من ساعتين ما شفناش الراحة دقيقة واحدة.

فقلت: وأين الشمشرجى النوبتجى؟

فقال: عند مولانا وسيخرج حالا.

ودخل فاروق فجأة الحجرة التى كنت جالسًا فيها، وقد امتقع وجهه امتقاعًا شديدًا وبدت على قسماته علائم الانفعال والقلق.

وكأنما رأى فى السلام والمصافحة مضيعة للوقت فقال لى فورًا: إن خطتك لم تعد تنفع، أعنى أن سفر فائزة إلى طهران لم يعد ينفع. يجب علينا أن نبحث عن خطة جديدة!

ودعانى إلى الجلوس واستأنف حديثه قائلا: لقد تلقيت اليوم تقريرا جديدا من طهران



كانت فوزية خام جداً وهى فتاة ولا تعرف عن الحب إلا اسمه، ومن المحقق أن حديثها مع أى شاب عرفته قبل زواجها لم يجاوز عبارات التحية. ولم يكن لها فى الزواج أو فى الرجل الذى تود أن تكون زوجة له رأى معين، فلما كاشفتها بفكرة زواجها من الشاه (وكان يومئذ وليا للعهد) قالت لى بهدوئها المعتاد «إذا كنت تريد منى أن أتزوج به فليكن ما تريد»



الامبراطورة فوزية

من المصدر نفسه، وهو «ألعن» من التقرير الأول بمراحل، وإذا لم أعالج الموقف بسرعة فقد نواجه كارثة من أكبر الكوارث ونكبة من أعظم النكبات!

فقلت: هل أخبار التقرير الجديد خطيرة لهذه الدرجة؟

فقال: أخطر جدا مما تظن. وأخطر جدا مما كنت أنا نفسى أظن. إنى حقيقة لا أعلم ماذا جرى لفوزية! ولولا ثقتى بكاتب التقرير لترددت كثيرا فى تصديق ما كتبه لى عنها، ولكن يظهر أن تعاستها وخيبة أملها ولدتا فيها يأسًا وأن هذا اليأس دفعها إلى سلوك أخطر المسالك لعلها تنسى الجحيم الذى تعيش فيه!

فقلت: أليس هناك تفاصيل؟

فقال: التفاصيل كلها موجودة، وخلاصتها فى كلمتين أن فوزية أحبت المعلم الذى يعلمها، وتعلقت به حتى أصبح له سلطان قوى عليها! فما رأيك فى هذه المصيبة، ولكن دعنى قبل ذلك أقول لك أن ما سمعته ليس كل شىء، فقد أضاف كاتب التقرير إلى ما تقدم أن فوزية تفكر فى الفرار مع المعلم إلى جهة مجهولة، أملا منها بان تجد فى العيش معه السعادة التى هى محرومة منها الآن، فتصور الفضيحة العظيمة التى ستنشأ إذا أقدمت فوزية على ذلك، إن عقلى كاد يطير عند اطلاعى على هذه الأخبار! ولذلك قلت لك أن فكرة سفر فائزة إلى طهران لم تعد تنفع، فإن جميع الدلائل تدل على أن الحالة أسوأ مما قدرنا، وإن الأحداث تسير بسرعة لا تسمح لنا بمواجهتها بخطط بطيئة، فإلى أن تسافر فائزة إلى طهران، وإلى أن تصل إليها، وإلى أن تعود منها، وإلى أن تبلغنى نتيجة بحوثها ومشاهداتها، وإلى أن نتخذ عندئذ التدابير التى تقتضيها الحالة، تكون الكارثة قد وقعت!

فقلت: أية كارثة يا أفندم؟

فقال: إما موت فوزية أو فرارها مع المعلم. يلوح لى أنك لا تقدر خطورة الموقف لأنك مصمم على التشكيك فى صحة الأخبار التى جاءتنى!

فقلت: عندى كلمة بسيطة أرجو من جلالتك أن تسمعها، فإما أن تكون الامبراطورة غير مراقبة وإما أن تكون مراقبة، فلو كانت غير محاطة بمن يرصد حركاتها لاستطاعت حتما أن تبلغك رسالة سرية عن الجحيم الذى قيل أنها تعيش فيه سواء كان ذلك عن طريق سفير مصر فى طهران أو عن طريق زوجته، أما لو كانت محاطة بعيون تسجل تصرفاتها وتتعقب خطواتها، لما خفى على الشاه سر المعلم الذى يقول كاتب التقرير أنه استهواها.

فقال مدافعا عن التقرير: إن كاتب التقرير أبلغنى ما سمعه، وهو يستحق الشكر على كل حال.

فقلت: إذا كان كاتب التقرير قد سمع ما ذكره فى تقريره، فلا بد إذن أن يكون هناك من يعرف ما بين الامبراطورة وذلك المعلم، فهل يعقل فى هذه الحالة ألا يكون الشاه على علم بالأمر، ثم إن مولانا نفسه أكد لى أن الامبراطورة أبسط من أن تلجأ إلى الحيل والخطط الخفية، فكيف يستقيم ذلك مع ما يعزى إليها الآن. وهل المرأة التى تعجز عن إبلاغ شقيقها رسالة سرية هى المرأة التى تستطيع أن تهرب مع رجل غريب وأن تكفل سلامة خطتها، لا تؤاخذنى يا مولاى إذا قلت لك إننى لا أصدق هذه الرواية كلها!

فقال: إن شاء الله يصدق كلامك، وعلى كل حال وبقطع النظر عن هذه الرواية لا أرى ضررًا فى أن أعمل شيئا سريعا لأعرف حقيقة حالة فوزية ونوع الحياة التى تحياها فى طهران.

فقلت: هل فكرت جلالتك فى تدبير معين؟

فقال: فكرت فى «قلب» فكرة سفر فائزة إلى طهران، فبدلا من أن تسافر فائزة إلى طهران، لماذا لا نقترح على فوزية أن تستأذن من الشاه فى القدوم إلى مصر للاجتماع بشقيقتها بمناسبة زواجها ولقضاء بعض الوقت مع أهلها، فتتيح لى هذه الزيارة أن أجلو حقيقة الموقف بنفسى من غير أن أثير شبهات الشاه وشكوكه، ولكن هل تظن أن الشاه سيسمح لفوزية بالسفر إلى مصر؟

فقلت: أرجح كثيرًا أن يوافق على ذلك، وخصوصًا إذا قالت له أنها تود أن تشاهد شقيقتها بمناسبة زواجها، وإن هذه الرحلة ستساعدها على الاستجمام بعد مرضها الأخير.

فقال: سنرى.

وقبل انصرافى من القصر اتصلت بالأستاذ أحمد يوسف «بك» السكرتير الخاص للملك واتفقت معه على موعد نجتمع فيه.

فقد كان أحمد يوسف أستاذ فاروق وشقيقاته فى اللغة العربية، وكنت أقدر علمه وفضله تقديرى لسماحته ورزانته.

ولما اجتمعت به طلبت منه أن يحدثنى عن أخلاق فوزية وطباعها كما عرفها منذ حداثتها. فقال: إنها كانت دائما فتاة «عاقلة» و«جد» و«قليلة الكلام جدا» وإنها كانت أكثر شقيقاتها رصانة وهدوءا وأقلهن حركة و«مرحا» حتى أن من يعرفها كان يظن أنها تشكو بعض «الكآبة» ولم يكن أحب إليها من أن تجلس فى مكان هادئ منعزل وتمضى فى المطالعة!

وأيدت لى مدام «تابوريه» المربية الفرنسية فى حديثها عن فوزية ما ذكره لى عنها أحمد يوسف بالحرف الواحد تقريبا!

وسألت أحمد يوسف ومدام «تابوريه» هل يعتقدان، وقد عرفا فوزية معرفة جيدة وخبرا أخلاقها وطباعها، أنها المرأة التى تقدم على

مغامرة غرامية محفوفة بالخطر والفضيحة، فاتفق رأيهما على أنها ليست المرأة التي تخطو خطوة واحدة في هذا السبيل بحال ما!

وكأنما أرادت مدام «تابوريه» أن تؤكد لي رأيها، فعادت وقالت بالفرنسية: فوزية.. محال.. محال.. ألف مرة محال!

وكان غرضي من هذا الحديث مع الأستاذ أحمد يوسف ومدام تابوريه أن «أقابل» بين فوزية كما وصفها لي شخصان «محايدان» عرفاها قبل زواجها، وبين فوزية كما سأراها عند قدومها إلى مصر، إذ قدرت أن هذه المقابلة لن تخلو من فائدة. وقد أثبتت لي الأيام فيما بعد أنها كانت ذات فائدة عظيمة على نحو ما سيرى القارئ في الصفحات التالية.



وما كاد الشاه يُكاشف بفكرة سفر الإمبراطورة إلى مصر لزيارة أهلها ومشاهدة شقيقتها بمناسبة زواجها حتى رحب بالفكرة ووافق عليها!

ورأيت في هذه الموافقة دليلا على أن لا خلاف بين الشاه وزوجته أو شقاق!

بل رأيت فيها دليلا على أن العلاقات بينهما عادية وطبيعية، وإلا ما سمح الشاه لزوجته بالسفر إلى مصر في تلك الظروف!

أو على الأقل لما سمح لها بالسفر «بهذه السرعة»، وقد كان فاروق نفسه أول من دهش لها كما اعترف لي بذلك!

ورأيت فيها أبلغ دليل على كذب أسطورة غرام الإمبراطورة بالمعلم!

ومع أن فاروق لم يكن في حاجة إلى من يبرر له معنى هذه الدلائل ومغزاها وجدت لذة خاصة في التنويه بهما أمامه غير مرة.

ولم يمض يومان على وصول نبأ موافقة الشاه على الزيارة، حتى انضمت إلى الدلائل المتقدمة دلائل شتى أخرى، وفي مقدمتها ما أبدى البلاط الامبراطوري الإيراني من اهتمام فائق ببحث تفاصيل استقبال الامبراطورة في مصر مع البلاط الملكي المصري عن طريق السفارة الإيرانية بالقاهرة.

وخطر لفاروق في بادئ الأمر أن تحل الامبراطورة ضيفة عليه في قصر «المنتزه» فهمس الجانب الإيراني في آذان المتصلين به من رجال البلاط المصري بأنه من الأوفق أن يعد لإقامة الامبراطورة قصر خاص، فتنزله محاطة بالحاشية التي ستصحبها من طهران.

ولما أخبر فاروق برأي الجانب الإيراني قال: «ما دامت هذه رغبتهم فلنعمل بما يرضيهم» فقد أراد أن يتجنب كل ما من شأنه أن يؤخر الزيارة أو يلغيها، ولذلك كانت جميع أوامره إلى رجاله يذكرهم دائما بوجوب بذل أقصى ما يستطاع بذله لإرضاء السفير الإيراني وتحقيق رغباته، وللحال شرعت الجهات المختصة في استيفاء إعداد قصر «انطونيادس» ليكون تحت تصرف الامبراطورة وحاشيتها طول مدة إقامتها في الإسكندرية، وهو القصر الذي استضاف الملوك والملكات الذين زاروا مصر رسميا في عهد الملك فؤاد، ثم استضاف الملك فكتور عمانوئيل الثالث، وزوجته الملكة هيلانة، والملك ابن سعود، والملك عبد الله في عهد فاروق.

وزار فاروق قصر انطونيادس بنفسه ليتحقق من أن جميع أسباب الراحة والرفاهية ستتوافر فيه للامبراطورة وحاشيتها، ولاحظ عند طوافه ببعض الصالونات أن حرير الستائر والمقاعد قد فقد بهجته، إما لقدم عهده أو لقلة العناية به فأمر بتغييره، وقال: إنها فرصة حسنة لتجديد رونق أثاث القصر ورياشه.

وقبل أن تصل الامبراطورة إلى الإسكندرية بأيام اتصل بي «الشمشرجي النوبتجي» بالتليفون من قصر «المنتزه» وأبلغني أن الملك يريد أن أذهب إليه فورًا، فسألته عن «الأحوال عندهم» فقال: «كان مزاجه رايق ثم اتلخبط فجأة بعد اطلاعه على تقرير ما أعرفش مصدره».

وكانت تعليماته هذه المرة أن أدخل عليه «بمجرد حضوري».. فألفيته متمددا على سريره وهو «يسلخ» الجلد المحيط بإبهام إحدى يديه حتى بدا منه الدم، وكنا نعرف فيه هذه الخصلة عندما يكون في حالة عصبية شديدة، ولا يجد ما يلهيه فيعمد إلى تشويه بعض أصابعه بهذه الكيفية، وكانت «المانوكرست» التي تسوى له أظافره كل أسبوع تشكو هذه الخصلة ولكن بدون جدوى.

ودعاني إلى الجلوس على كرسي صغير قريب من سريره، وقال: أمامنا مصيبة جديدة!

فقلت: ألم ننته من المصائب بعد؟ بلاش ياأفندم كلمة «مصيبة» دي!

فقال: إن فوزية مصابة باضطراب عصبي شديد!

فقلت: اضطراب عصبي؟

فقال: قيل لي إنه اضطراب عصبي، ولكني أظن أن حالتها أسوأ من ذلك وإن اصطلاح «اضطراب عصبي» استعمل لتلطيف الخبر وتخفيف وقعه في نفسي.

فقلت: وهل وصل هذا الخبر إلى جلالتك من المصدر نفسه؟

فقال: نعم، فقد تلقيت منه اليوم تقريرًا جديدًا لم يتضمن سوى هذا الخبر المشئوم!

فقلت: من الغريب أنه لم يخبر به جلالتك في التقريرين السابقين.

فقال: ربما لم يظهر عليها هذا العارض إلا أخيرًا، أو ربما لم يشأ أن يفاجئني به وفضل أن يعد ذهني لسماعه بما ذكره عنها في التقريرين السابقين، أو ربما لما علم أنها ستحضر إلى مصر لم ير مفرا من مصارحتي بالحقيقة، وخصوصًا أنه أراد بهذه المناسبة أن ينصحنا نصيحة يشكر عليها فعلا، وهي أن نبعدها عن الناس في بادئ الأمر بقدر الإمكان وأن نكون متيقظين لجميع حركاتها خوفا من حدوث أي حادث مكدر!

فقلت: معنى هذا بصراحة أنها مصابة بأكثر من اضطراب عصبي!

فقال: إذن أنت ترى مثلما أرى، أي أنه لابد أن تكون مصابة بأكثر من اضطراب عصبي، وإنما أريد تهوين الخبر عليّ.

فقلت: لا شك أن هذا هو ما يفهم من مدلول كلام المصدر الذي تعتمد عليه جلالتك. أما رأيي الشخصي، فهو أن الامبراطورة تتمتع بجميع قواها العقلية ولا تشكو من اضطراب ما، لا عصبيا، ولا عقليا، فلتطمئن جلالتك من هذه الناحية!

فقال: وعلام تبني هذا الرأي؟

فقلت: على مدلول الحوادث ومنطقها، فهل تعتقد جلالتك أن الشاه كان يقبل أن تزور الامبراطورة مصر في هذه الأيام لو كانت مصابة بأي اضطراب من هذا القبيل؟ هل كانوا يطلبون أن يعد لها كل هذا الاستقبال وأن تقابل في المطار بجميع هذه المراسم؟ لو كانوا يعلمون أنها مريضة وأنها بحركة صغيرة قد تخلق لهم فضيحة عالمية، إن هذا وحده لأعظم دليل على أن الامبراطورة سليمة من كل مكروه!



لما ذهبت في الغد إلى المطار تعمدت أن أطيل الوقوف مع سفير إيران وأنا أتفرس في ملامح وجهه، فاستوقفت من انشراحه، وقلت في نفسي أن الأخبار المفزعة التي تلقاها فاروق عن الامبراطورة، لا تستقيم مع هذا الانشراح غير المصطنع، فازدت تفاؤلا واغتباطا.

ووصل فاروق فحيا سفير إيران وسائر كبار المستقبلين الرسميين تحية سريعة تنم على قلقه، وسمعنا أزيز الطائرة في الموعد المحدد لوصولها، وما كادت تهبط وتفتح أبوابها حتى بدت الامبراطورة على سلمها، ولما شرعت الموسيقى في عزف السلام الامبراطوري الإيراني وقفت أمام السلم وقفة وقار وجلال، ثم تقدم فاروق للسلام عليها فتبادلا القبلات، وتقدمت مندوبة «جلالة الملكة» (فريدة)، وقدمت لها طاقة من الورد فتقبلتها وشكرتها، ثم صافحت سفير إيران ومن معه من رجال السفارة الإيرانية، فكبار المستقبلين من المصريين، ولما انتهت مراسم الاستقبال طبقا للبرنامج المقرر لها دعاها فاروق إلى سيارته وأجلسها إلى يمينه، فانطلقت بهما إلى قصر «انطونيادس» بين تحية الجند وقصف المدافع.

ولم يستوقف نظري في الامبراطورة عند نزولها من الطائرة سوى ضآلة جسمها، وكنت أعرف مما سمعته عنها أن «حبتها صغيرة» منذ نشأتها، وكنت من جهة أخرى أعلم أن مرضها الأخير أفقدها بعض وزنها، فلم أعر ضعفها اهتماما كبيرا، وكذلك لم أهتم بما كان يبدو على وجهها من علائم التعب، فقد أدخلت في تقديري أن الرحلة بطريق الجو من طهران إلى القاهرة ترهق من لم يألف الطيران، وأن الامبراطورة قضت ليلتها في التأهب للسفر، وأنها غادرت طهران مع الفجر.

أما ما كان فاروق يتوجس منه خيفة فلم أكتشف له أثرا.. لا في طلعتها، ولا في مشيتها، ولا في حركاتها، ولا في صورتها!

ولا ريب أنه لولا المعلومات التي استخرجتها من حديث الأستاذ أحمد يوسف ومدام «تابوريه» لرأيت مظهرها أنها امرأة غير سعيدة، ولفسرت عدم ابتسامتها بأنها امرأة حزينة، ولعللت انحباس الكلام في فمها بأنها امرأة فقدت نضارة الحياة، حتى أضحت مخارج الألفاظ لا تجد القوة التي تحركها بين شفتيها، ولكن الصورة التي زودني بها الأستاذ أحمد يوسف ومدام تابوريه كانت ماثلة في ذهني فلما طلع عليّ «الأصل» لم يذهلني بنظره!

ومع ذلك فلا الضعف قلل من جمالها، ولا التعب حجب شيئا من دقة ملامحها، فاتفقت آراء الذين كانوا في المطار على أنها «حقيقة جميلة»، ومع ذلك لم يتجل لي جمالها وحسنها على حقيقتها إلا بعد ما استراحت من عناء السفر ووعثائه.

ولما بلغت قصر انطونيادس كان فاروق والامبراطورة قد نزلا من السيارة ووقفا أمام باب القصر، بينما كانت الموسيقى تعزف السلام الامبراطوري الإيراني، وما انتهت الموسيقى من عزفه حتى كان التعب المستولي على الامبراطورة قد أنهك قواها، فكادت تتعثر وهي ترقى آخر درجة من درجات السلم الصغير المؤدي إلى داخل القصر، وكانت شقيقتها فائزة في انتظارها عند الباب فخفت إليها وطوقتها بذراعيها وانهالت عليها بقبلاتها، ثم رافقتها إلى الجناح الخاص بها، وأشرفت على إراحتها من قبعتها، وقدمت لها الشاي بيدها، وهي تكرر تقبيلها بين لحظة وأخرى في لهفة وحماسة أبرزتا حالا ما بين الشقيقتين من فارق كبير في الأخلاق والطبائع!

وبعدما استراحت فوزية قليلا، فتحت حقيبة صغيرة حملتها إليها خادمتها المصرية القادمة من طهران، وأخرجت منها صورتين فوتوغرافيتين، إحداهما للشاه والأخرى لكريمتهما، ووضعتها على منضدة في حجرة جلوسها، فبهت الحاضرون ونظر بعضهم إلى بعض في صمت خيل إليّ في تلك اللحظة أنه أبلغ من كل كلام، فقد كانوا بعد الذي سمعوه من فاروق عن تعاسة فوزية وشقائها، يتوقعون أن تفاجئهم فوزية بكل شيء إلا بأن تزين حجرة جلوسها بصورة زوجها!

وقالت لها فائزة بالفرنسية وهي لا تفكر فيما تقول «إنها صورة لطيفة».. فأجابتها بقولها: «إنه أحسن جدا من صوره»!

ونظرت في تلك الدقيقة إلى فاروق مستطلعا وقع هذه الكلمات في نفسه، فإذا هو ينهض ويقول: لينصرف الرجال الآن ولنترك فوزية في عناية السيدات.

ثم التفت إلى فوزية وقال لها بالفرنسية: «سأتركك الآن يا حبيبتي العمل ينتظرني.. ثم إنك في حاجة إلى تنظيم أمورك وستجدينهن جميعا في خدمتك، فلا تجهدي أنت نفسك.. وسأعود إليك بعد قليل». ثم اقترب منها وقبلها، وقال لفائزة بالفرنسية أيضا: اهتمي بها واسهري على أن تتهيأ لها جميع أسباب الراحة، وإذا رأيت نقصا في الجناح الخاص بها، فأخبريني به فورا.

وسار في الحديقة قليلا ثم ناداني وقال لي: تظاهر وأنا أكلمك بأنك تتلقى توجيهات مني، فإن أكثر من عين واحدة تتجه إلينا!

لم يستوقف نظري في الامبراطورة عند نزولها من الطائرة سوى ضآلة جسمها، وكنت أعرف مما سمعته عنها أن «حبتها صغيرة» منذ نشأتها، وكنت من جهة أخرى أعلم أن مرضها الأخير أفقدها بعض وزنها، فلم أعر ضعفها اهتماما كبيرا



سألت أحمد يوسف ومدام «تابوريه» هل يعتقدان، وقد عرفا فوزية معرفة جيدة وخبرا أخلاقها وطبائعها، أنها المرأة التى تقدم على مغامرة غرامية محفوفة بالخطر والفضيحة، فاتفق رأيهما على أنها ليست المرأة التى تخطو خطوة واحدة فى هذا السبيل بحال ما!

فسرت إلى جانبه متأخرا عنه نصف خطوة، وقد أطبقت يدا على أخرى كما كان رجال القصر يقفون فى حضرته أو يسيرون بمعيته، ثم قال: ما رأيك؟

فقلت: أظن يا أفندم أن كل شىء قد سار على ما يرام!

فقال: أنا أسألك عن فوزية.. إن أمرها محيّر!

فقلت: هل تعنى جلالتك حكاية الصورة الفوتوغرافية؟

فقال: ليس الصورة فقط.. فقد سألتها ونحن فى السيارة عن أحوالها، فأجابتنى بأنها «مبسوطة!» فسألتها عن علاقاتها بزوجها، فقالت إنها «كويسة» وأنه «ظريف جدا معها!»

فقلت: الحمد لله على ذلك.

فقال: ولكن أنا مرتاب فى هذا الكلام.

فقلت: لماذا يا أفندم؟

فقال: لأنه يخالف كل ما جاء فى التقارير التى تلقيتها!

فقلت: ولماذا نصدق التقارير ولا نصدق الامبراطورة نفسها؟

فقال: ولذلك ترانى متحيرًا!

فقلت: اطمئن جلالتك فإنها سليمة ولله الحمد.

فقال: عندما أتحقق من أنها غير تعيسة وغير «مهزوزة» سيستريح قلبى من كابوس فظيع. وسيكون ذلك اليوم من أسعد أيام حياتى!

وهنا أقبل إلينا أحد خدم القصر وقال لفاروق: إن فلانا يقول لمولانا إن كل شىء جاهز.

فقال له: قل له إننى سأحضر حالا.

وانطلق الرجل عائدا إلى القصر، فقال لى فاروق: عندى «مشغولية» ستشغلنى نحو نصف ساعة فانتظرنى فى «الصالون»، وحاول فى تلك الأثناء أن تتكلم مع بعض رجال حاشية الامبراطورة وأن تعرف رأيهم فى الاستقبال وفى الترتيبات التى عملت لهم، فإنه يهمنى أن يكونوا مستريحين وراضين!

وعند وصولنا إلى القصر قال لى: ادخل أنت من الباب الذى خرجنا منه. أما أنا فسأدخل من باب الخدم لأنى أريد أن أتجنب لقاء الضيوف منعا لتكرر «السلامات» والتحيات.

وفى «الصالون» صادفت بعض رجال حاشية الامبراطورة. فتصافحنا مرة أخرى وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث، وكان من الطبيعى أن يدور حول الاستقبال الرائع الذى أعد لجلالة الامبراطورة والرعاية والعطف العظيمين اللذين شملهم بهما جلالة الملك، فقلت لهم أنه أمرنى بأن أسألهم مرة أخرى هل هم مرتاحون إلى «الترتيبات»التى عملت لهم وأن أستطلعهم بصراحة هل هناك ما يرغبون فى تعديله فى النظام الذى وضع لخدمتهم، فأجابوا بأنهم عاجزون عن شكر جلالته على ما أحيطوا به من عناية وتكريم!

ولم يزل الحديث ينتقل من موضوع إلى آخر حتى دخل أحد خدم القصر وقال لى:

«عن إذن سعادتك لحظة». فودعتهم أملا أن يتكرر لقاؤنا قريبا، ولما خرجت من «الصالون» قال لى الخادم همسا إن الملك أمره بإبلاغى أنه عاد إلى قصر المنتزه وأنه سيتصل بى فى الفندق فيما بعد!

ولما عدت إلى الفندق قيل لى أنهم سألوا عنى بالتليفون من قصر المنتزه، فاتصلت بالشمشرجى النوبتجى وأعلمته بوجودى فى الفندق، فكلمنى فاروق بعد برهة وجيزة ليخبرنى أن «المشغولية» التى شغلته فى قصر أنطونيادس بعد افتراقنا أخذت من وقته أكثر مما كان مقدرا لها، فاضطر بعد فراغه منها أن يعود إلى «المنتزه» مسرعا وبدون أن يرانى لارتباطه بموعد هام!

ثم أضاف إلى ذلك قوله: ولعلهم لم يتوانوا فى إبلاغ رسالتى إليك، فلم يطل انتظارك بعد انصرافى!

ولم يكن من العسير علىّ وقد خبرت اطواره وبلوتها فى مختلف تقلباتها، أن ألاحظ أن لهجته فى هذه المكالمة التليفونية كانت تنم عن ارتياح من المحقق أنه كان منتفيا أثناء سيرنا فى حديقة قصر أنطونيادس، فما الذى أنشاد بعد ذلك؟

إننا لما تقابلنا فى حديقة قصر أنطونيادس عقب وصول الامبراطورة إليه، كان فاروق قد سمع من شقيقته أنها «مبسوطة» وأن العلاقات بينها وبين الشاه حسنة وأنه ظريف جدا معها، وكان قد ظهر له أيضا أن شقيقته «طبيعية» فى تصرفاتها وحركاتها وأقوالها. فكان كل شىء إذن يدعو إلى مقابلة هذه الدلالات السارة بارتياح، ومع ذلك لم يشأ أن يطرح التشاؤم جانبا، وأبى إلاّ أن يكون متحفظا.

وها هو الآن، ولم ينقض على لقائنا فى حديقة قصر أنطونيادس سوى ساعتين، يكلمنى تليفونيا فى أمور ثانوية تحتمل كلها التأجيل يوما، بل أياما وإذا لهجة كلامه تنم عن ارتياح حاولت منذ قليل أن أبثه فيه فلم أنجح.

فما الذى جدّ فى خلال هاتين الساعتين؟

وما السر فى هذا التحول الفجائى الذى طرأ على حالته النفسية وكيف أفسره؟

وكان من الطبيعى أن أسائل نفسى كذلك، لماذا حرص على مغادرة قصر أنطونيادس من غير أن يرانى مع أنه هو الذى طلب منى أن أنتظره فى «صالون» القصر إلى أن ينتهى من «مشغوليته».

ولم أصدق أن سبب استعجاله هو تأخرد عن «موعد هام» أو خوفه من أن يتأخر على «موعد هام»! فقد كنت أعلم أنه لا يبالى بالوصول إلى أى موعد متأخرا مهما كان الموعد هاما!

ثم هل كانت الدقائق التى سيستغرقها استدعائى من «الصالون» هى التى ستعوقه عن موعده، أو تزيده تأخيرا؟

إذن ماذا؟

ولم يتح لى أن أكتشف الحقيقة إلاّ بعد مدة غير قصيرة، فاتضح لى أن فاروق تعمد فى ذلك اليوم أن يغادر قصر انطونيادس بدون أن يرانى لأنه لم يشأ أن يستصحبنى معه فى سيارته واتضح لى كذلك أن تذرعه «بالموعد الهام» لم يكن عذرا انتحله ليطيب به خاطرى، بل كان زعما زعمه ليتستر على عمل عمله، وأراد أن يحول دون اطلاعى عليه!

ومن اللحظة التى اكتشفت فيها الحقيقة،



الملك فاروق يتوسط أمراء وأميرات الأسرة المالكة

وضح لي اللغز الذى طالما حيرنى وأعنى لغز تحول حالة فاروق النفسية فى خلال ساعتين من تشاؤم إلى ارتياح، فقد كان هذا الارتياح وثيق الصلة بالسبب الذى من أجله انصرف من قصر أنطونيادس من غيرى، بل كان نتيجة له!

فماذا كان السبب؟

أو بعبارة أخرى: ماذا كانت النتيجة التى اكتشفتها؟

وهنا تبدأ قصة من أعجب قصص فاروق: فإنه على أثر وصوله إلى قصر أنطونيادس من المطار بصحبة الامبراطورة استدعى كبير خدم القصور الملكية، وقال: له إنه يريد أن يلقى نظرة على حقائب الامبراطورة عند وصولها إلى القصر من المطار قبل أن يراها أحد ولو كانت الامبراطورة نفسها، وعين له الحجرة التى يروم أن «يحتجزوها» فيها، حتى يتسنى له مشاهدتها من غير أن يفطن أحد إلى ذلك، وأمره أن يخبروه بوصولها عندما ينتهون من «تستيفها» فى تلك الحجرة!

وامتثل كبير الخدم لمشيئته طبعا، ولما أتم نقل الحقائب أنفذ إليه من أنبأه بذلك، وكان فاروق ساعتئذ يحادثنى فى حديقة القصر، وقد ذكرت فى فقرة سابقة أن أحد الخدم جاءه أثناء وجودنا فى الحديقة وأبلغه رسالة غامضة، وأنه على أثر ذلك رجعنا إلى داخل القصر وطلب منى أن أنتظره فى «الصالون» ريثما ينتهى من «مشغوليته».

ودخل فاروق الحجرة التى صفت فيها الحقائب، وخلع سترته، وعكف على معالجة أقفالها بمجموعة من المفاتيح من مختلف الأحجام والأشكال أحضرها من قصر المنتزه، خصيصا لهذا الغرض فافلح فى فتح بعضها وعجز عن فتح أغلبها، فلم ترضه هذه النتيجة وأمر بإحضار آلة حادة، ولم يزل يخلع الأقفال التى عاندته ويهشمها حتى استراح منها كلها!

أخذ فاروق بعد ذلك يتفقد محتويات الحقائب تباعا.

وكان يستخرج من كل حقيبة ما يستوقف نظره، ويحلو له الاحتفاظ به، ويضعه على حدة ثم يقفل الحقيبة وينتقل إلى غيرها.

ولم تمنعه حرارة الحجرة ورطوبتها من المضى فى هذه العملية حتى أتى على الحقائب جميعا، فتركها غير حافل بحالة إقفالها ودلالتها،ولم يهتم إلا بما استولى عليه من محتوياتها، فأمر بعض خدمه بنقله إلى سيارته فى رفق وعناية، فأذعنوا وهم لا يصدقون ما تراه أعينهم!

ثم خفّ فاروق إلى سيارته، وانطلق بها إلى قصر «المنتزه» فرجا بما سلبه من الامبراطورة شقيقته وضيفته!

ولما وقفت على تلك المعلومات، وحققتها، وتأكدت من صحتها، أدركت لماذا كتم عنى فاروق فى ذلك اليوم نوع «المشغولية» التى كان مشغولا بها!

وفهمت لماذا تعمد أن يبرح قصر أنطونيادس من غير أن يرانى ومن غير أن يستصحبنى معه، فقد ملأت «الأسلاب» سيارته، وكان يبغى أن يظل أمرها مكتوما عنى، خافيا علىّ!

وفى الوقت نفسه، أزاحت تلك المعلومات النقاب عن التحول الفجائى الذى تحولته حالته النفسية فى ذلك اليوم، فاكتشفت سر الارتياح الذى تجلى فى حديثه التليفونى معى ولم يمض على حديثنا فى حديقة قصر أنطونيادس سوى ساعتين اثنتين!

فقد كان اغتباطه عظيما «بالأشياء» التى زينت له نزواته الاستيلاء عليها، فعاد إلى المنتزه عودة الفاتح الظافر، ولما استوى على سريره ليستريح من عناء مجهوده، أمر بأن يعرضوها أمامه مرة أخرى، فاستحلاها وازداد اغتباطا بها!

وفى غمرة هذا الاغتباط أدنى إليه التليفون وكلمنى ليقول لى إنه اضطر للعودة إلى «المنتزه» مسرعا بدون أن يرانى لارتباطه بموعد هام وأنه يأمل أن تكون رسالته قد بلغتنى فى حينها، فلم يطل انتظارى!

وفى غمرة هذا الاغتباط شعر بالارتياح الذى تجلى فى روح حديثه ولهجته، ولم أدر يومئذ إلى أى سبب أعزوه، وإلى أى عامل أرجعه!

وكنت حتى ذلك الحين أظن أننى «عرفت» فاروق، ولكن اتضح لى يومئذ أن فى نزواته نواحى لم أعرفها بعد، وأنى قد لا أعرف بعضها أبدا.

وقد كان من المحال أن أتوقع أن تسول له نفسه يوما أن يعبث بحقائب شقيقته، وأن يراوده الطمع فى جانب من محتوياتها، ولولا عبارة قيلت أمامى عرضا لظلت قصة هذه الحقائب مجهولة منى، غير أن هذه العبارة التى ترامت إلى سمعى مصادفة استرعت انتباهى، فلم أزل أتعقب ما أغلق علىّ من معاينتها ومراميها، حتى عرفت القصة بحذافيرها وأحطت بها من جميع نواحيها.

واهتممت بمعرفة ماذا صنعت الامبراطورة لما جلبوا لها حقائبها، ولاحظت أن يدا غريبة قد لعبت باقفالها وامتدت إلى محتوياتها. فقيل لى أنها وقفت تنظر إليها مذهولة ولم تفه بكلمة واحدة فى بادئ الأمر، ثم قالت أن جميع الأقفال كانت سليمة عند نقل الحقائب من الجناح الخاص بها فى القصر الامبراطورى إلى مطار طهران، فسألتها إحدى السيدتين اللتين كانتا معها ألا يحتمل أن تكون الحقائب قد فتشت بأمر من الشاه قبل نقلها من القصر، فهزت رأسها وقالت بالفرنسية: «مستحيل» ثم أردفت ذلك بقولها: ولماذا يفتشها؟ كأنما أرادت أن تقول أن العلاقات بيننا على ما يرام، وقد غادرت طهران بموافقته ورضائه، فلماذا يقدم إذن على تفتيش حقائبى؟

ولما زال عنها بعض ذهولها، رغبت إلى وصيفتها فى أن تعاونها على تفقد محتويات الحقائب لتحصر ما انتزع منها، وقد تذكرت جانبا منها،ولم تسعفها الذاكرة فى تذكر الجانب الآخر، وبينما كانت تتفقد حقائب الفراء ومعاطف الفراء قالت بالفرنسية كأنها تخاطب نفسها: أنا واثقة من أن هذه الحقائب قد فتحت هنا.

واقترحت عليها إحدى السيدتين أن تستدعى كبير خدم القصور الملكية، وأن تطلعه على أقفال الحقائب وتخبره أن هناك أشياء كثيرة قد أخذت منها، إذ لا يجوز السكوت على ما حدث بحال ما.

وتشاغلت الامبراطورة عن التعقيب على هذا الاقتراح كأنه لم يطرق سمعها.

وبينما كانت غارقة فى تفكيرها استأذن سليمان قاسم رئيس خدم القصور الملكية فى مقابلتها بحجة أنه يود أن يتلقى أوامر جلالتها ورغباتها.

وكانت فوزية تعرفه منذ حداثتها، وتعطف عليه عطفا خاصا، فحيته تحية لطيفة، ولم توجه إليه أى سؤال بشأن الحقائب كان أمرها لا يعنيها، ولكن رئيس الخدم قال لها من تلقاء نفسه «إن مولانا هو الذى فتح هذه الحقائب بيده!».

وأطرقت الامبراطورة.. فغادر سليمان قاسم الحجرة مهرولا حتى لا يزيد الموقف حرجا.. ليدفع عنه شبهتها وليبرئ نفسه أمامها مع علمه بخطورة سعيه وسوء عواقبه لو نمى خبره إلى سيده!

ولما رفعت الامبراطورة رأسها كانت عيناها مغرورقتين بالدموع ثم قالت للسيدتين: إننا لم نسمع شيئا!

ولم تنبس السيدتان ببنت شفة، وكانت إحداهما شقيقتها فائزة والأخرى وصيفتها.

ونهضت فائزة وقبلت شقيقتها، وأعطتها منديلها لتكفكف به دموعها.

وأيقنت فائزة أن فوزية لم تذرف الدمع أسفا على ما اختفى من محتويات حقائبها، ولكنها امتثلت لرغبتها، فلم تعقب بكلمة واحدة على ما أنبأها به رئيس خدم القصور الملكية.

ولم تخاطب فوزية شقيقتها فى هذا الموضوع قط!



وكان من الطبيعى أن يؤدى بى البحث والاستقصاء إلى الاستفسار عن أنواع الأشياء التى اختفت من حقائب الامبراطورة، فعلمت أنها كانت «تشكيلة» من الفراء، ومعاطف الفراء، والمعاطف العادية، وفساتين السهرة، وحقائب اليد، وأدوات الزينة، والروائح العطرية، والطرف الصغيرة على اختلاف أصنافها وأشكالها وبعضها من الذهب، والبعض الآخر من الذهب المرصع بحجارة كريمة.

أما «الخسارة» فى المجوهرات فكانت يسيرة، لأن الامبراطورة جمعت أغلاها فى حقيبة صغيرة لم تفارق يد خادمتها الخاصة، حتى ساعة وصولها إلى قصر أنطونيادس، فلم تلق مصير الحقائب التى عنى فاروق «بإلقاء نظرة عليها»!

وهنا لا يسع المرء إلا أن يسأل: هل كان فاروق محتاجا إلى فراء، أو إلى معاطف فراء، أو إلى فساتين وحقائب يد، وإلى أدوات وطرف للزينة، حتى يسطو على الحقائب التى سطا عليها؟ هل كان مفتقرا إلى هذه الأشياء، عاجزا عن شراء ما يماثلها، حتى يزين له الشيطان أن يسرقها من شقيقته وضيفته؟

هل كانت هذه الأشياء فريدة فى نوعها، لا يستطيع أن يجد لها بديلا، حتى يحرضه الغرور وحب الاقتناء على ارتكاب ما ارتكب فى سبيل الاستيلاء عليها؟

إن الرد على كل سؤال من هذه الأسئلة هو: حتما لا!

فقد كان يستطيع أن يشترى عشرات الفراء ومعاطف الفراء والمعاطف العادية والفساتين وحقائب اليد وأدوات الزينة وطرف التجمل والتبرج، من غير أن يؤثر ذلك فى ثروته بحال ما!

بل إن موارده المالية فى يوم أو يومين، كانت تكفيه لشراء ما يضارع الأشياء التى خطفها من حقائب شقيقته، أو لاقتناء ما يمتاز عليها نوعا ويبزها عددا!

ولم يكن بين الأشياء التى اغتصبها شىء واحد لا يتيسر له ابتياع مثله أو ما يشبهه، فقد كانت جميعا أشياء يسهل العثور عليها فى الأسواق متى توفر المال اللازم لابتياعها!





ألفيته متمددا على سريره وهو «يسلخ» الجلد المحيط بإبهام إحدى يديه حتى بدا منه الدم، وكنا نعرف فيه هذه الخصلة عندما يكون فى حالة عصبية شديدة، ولا يجد ما يلهيه فيعمد إلى تشويه بعض أصابعه بهذه الكيفية، وكانت «المانوكرست» التى تسوى له أظافره كل أسبوع تشكو هذه الخصلة

إذن لماذا اقترف ما اقترفه، لماذا أخذ تلك الأشياء؟

كانت «فريدة» لا تزال زوجته الشرعية فى ذلك الوقت، ولكن خزائنها كانت تضم بين جوانبها ما لا يحتاج قط إلى مدد من حقائب الامبراطورة أو غير الامبراطورة.

ثم إن الخلاف الذى نشأ بين فاروق وفريدة وأفضى إلى طلاقهما، كان يومئذ فى مرحلته الأخيرة، ولم يكن فاروق فى أثناء تلك المرحلة يرى فريدة أو يحادثها أو يجتمع بها، فلم يكن غرضه إذن من حرمان شقيقته مما انتزعه من حقائبها أن يهديه إلى زوجته، ليوهمها بأنه اشتراه خصيصا لها!

فنحن والحالة هذه أمام سؤالين لا سؤال واحد!

السؤال الأول: لماذا أخذ فاروق تلك الأشياء؟

والسؤال الثانى: لمن أخذها؟

ومن المعروف أن فاروق كان مصابا بمرض يدفعه إلى «الخطف» كلما تحركت فيه عوامله، فامتداد يده إلى محتويات حقائب شقيقته، لم يكن سوى مظهر من مظاهر هذا المرض، وضرب آخر من ضروب ذلك «الخطف» أما الأساس فكان دائما واحدا.

وأكبر دليل على أن ما وصفته بأنه مرض كان فى الحقيقة مرضا، أن فاروق كان يمد يده إلى أشياء هو فى غنى عنها، لعدم حاجته إليها، وإلى أشياء يقتنى مثلها وأحسن منها، أو إلى أشياء يستطيع أن يجد فى السوق ما يضاهيها أو يفضل عليها، من غير أن تتأثر ماليته بما ينفقه على شرائها!

إذن لم يكن فاروق «يمد يده» عن حاجة، أو رغبة فى الاستئثار بتحفة نادرة، وإنما كان «يخطف» عن شهوة، وكانت هذه الشهوة فى كثير من الأحوال أقوى من إرادته، وهى الأحوال التى كانت نزوات المرض وعوامله تسيطر على مشيئته ومشاعره وتخضعها لتصرفات شهوته.

وكان قضاء هذه الشهوة يبعث فيه غبطة وانشراحا يفوقان بمراحل ما تستحقه «قيمة» الشىء المخطوف. فقد كان فرحه ينشأ قبل كل شىء عن شعوره بأنه نجح فى إدراك وطره شأن كل ذى شهوة إذا وفق إلى قضاء شهوته.

ثم إنه كان يفرح لشعوره بأن الشىء المخطوف «مكسب» له ومغنم، مهما قلت قيمته وبخس ثمنه!

ولم يكن، فى غبطته وانشراحه، يذكر عواقب مسلكه، أو يقدر ما يخسره كرجل، وكملك، من جراء استهتاره.. ولا جدال فى أنه كان لشعوره بأنه «لا يسأل عما يقترف» تأثير كبير فى حضه على الاسترسال فى غيّه والاستسلام لنزوات مرضه!

فهو إذن لما هشم أقفال حقائب الامبراطورة واستولى على جانب من محتوياتها لم يفعل ذلك إلا مدفوعا بالشهوة التى تحدثت عنها، فلما قضيت أحس بالارتياح الذى أنساه قلقه وانزعاجه على نحو ما رأينا فى الفصل السابق، ولا ريب أنه لولا ثقته بأن شقيقته فوزية لن تسائله عما صنع ولن تتكلم، ولن تحتج، ولن ترفع صوتا، ولن تناقشه، ولن تحاسبه - أقول لولا ثقته بذلك لما كان يعرفه عن أخلاقها وطبائعها، لتردد فى الإقدام على ما أقدم عليه، ولكنه كان يعلم أن فوزية «ملاك» كما قال لى فى وصفها!



ولما امتدت إقامة فوزية فى مصر وتعددت الحفلات والمجتمعات التى أصبحت تتردد عليها بصحبة فاروق، كانت تلتقى فى بعض مجالسه بنساء من اللواتى أهدى إليهن هدايا «مستخرجة» من حقائبها، ولم ينتبه فاروق لذلك، أو لم يكترث له، فلم يطلب إلى اللواتى آلت إليهن تلك الهدايا أن يمتنعن عن الظهور بها فى المناسبات التى ستحضرها الامبراطورة! وكن من جهتهن يجهلن صلة الامبراطورة بهداياه إليهن، فلا يتحرجن فى الظهور بها أمامها، بل كن يتعمدن التحلى بها فى تلك المناسبات فى حرصهن على الظهور بأبهى ما عندهن «فى الحفلات التى يشرفها جلالة الملك وجلالة الامبراطورة»، وبخاصة أن أغلبهن كن يعرفن عن فاروق أنه يحب أن تتحلى صديقاته بهداياه إليهن فى المجتمعات التى تجمعهن به، إذ كان يرى فى ذلك دليلا على تقديرهن «لعطاياه» واعتزازهن بها!

ونتج عن ذلك أنه كثيرا ما كانت الامبراطورة «تكتشف» بعض فرائها ومعاطفها وملابسها وحاجاتها وحليها الصغيرة على بعض السيدات المحيطات بها، فكان منظر هذه الأشياء على غيرها يؤلمها أكثر من تأسفها على فقدها، كما قالت يوما لإحدى المقربات إليها!

والآن، وبعد هذه الصورة السريعة للشقيقتين اللتين أتاحت لى تلك المأدبة أول فرصة للمقابلة بينهما مجتمعتين، أعود إلى ما جرى لى أثناء عشائى، ذلك العشاء الذى أجلست فيه إلى يسار فوزية بأمر من فاروق «لأسهل لها مهمة الكلام».. ولا أذكر أننى عانيت فى مأدبة سابقة أو لاحقة مثل التعب الذى عانيته فى تلك المأدبة لما بذلت من مجهود فى حديثى مع فوزية.

لم تتخلف فوزية عن مأدبة واحدة أو حفلة واحدة من المآدب والحفلات التى دعاها إليها فاروق بعد وصولها إلى الإسكندرية من إيران..

ولم يبد عليها فى جميع تلك المناسبات ما يدل على أنها امرأة حزينة تعيسة، يدمى الشقاء قلبها، على نحو ما صورتها تلك التقارير السرية التى تلقاها فاروق من طهران!

ولئن كان وجهها قد احتفظ بتلك المسحة الطفيفة الشبيهة بالكآبة، فإنا لم نستغربها ولم نقلق لها، فقد تجلت فيها منذ طفولتها ولازمتها فى جميع مراحل حياتها، كما أجمعت على ذلك أقوال الذين عرفوها فى سنى حداثتها..

بل إن العين البصيرة تبينت فى مظهر فوزية، بعد وصولها إلى الإسكندرية، علامات كثيرة لا تجتمع فى المرأة عادة، إلا إذا كانت ناعمة البال، راضية مطمئنة!

ومن تلك العلامات أو الدلالات، أنه مع كثرة الملابس التى جلبتها معها من طهران، وكانت كلها مستوردة من باريس، لم تكد تنزل الإسكندرية حتى جعلت الاتصال بأشهر خياطاتها واستقبالهن، واقتناء أحدث الموديلات منهن، فى مقدمة مشاغلها!

وما يقال عن الفساتين يقال عما يتفرع عنها من مقتضيات!

وكان من غير المعقول فى نظرى أن امرأة قيل عنها أنها تعيش فى «جحيم» تقبل على الاهتمام بفساتينها وثيابها بهذه الحماسة العظيمة بين عشية وضحاها، وخاصة إذا كانت فى غير حاجة ملحة إليها، وكانت حقائبها على ما علمت تضيق بأحدث «الموديلات» الباريسية وغيرها..

ولم تكن ظاهرة الفساتين الظاهرة الوحيدة التى وقفت عندها متأملا..

ففى كل مأدبة، وفى كل حفلة، كنت أمعن النظر فى «تواليت» وجهها، فأسمع صوتا خفيا يقول لى: انظر هذا التبرج وافحص ما فى أجزائه وتفاصيله من دقة وعناية وفكر فيما اقتضاه ذلك من مزاج ووقت وجهد، ثم قل هل تصدق أنه من المتيسر لامرأة قيل إن الحزن حرمها النوم أن تبرز هاتين العينين النجلاوين، وأن تعزز جمالهما بهذه المهارة وهذا الإتقان، وهل تصدق أن هذا الوجه الذى أحكمت زينته وجه امرأة أدبر هناؤها وذبلت حياتها؟ وأين تجد فى هذا كله ما يؤيد فقرة واحدة من فقرات تلك التقارير السرية وهى كما تعلم ليست المرأة التى تبدى غير ما تبطن، وتظهر غير ما تضمر أو تتكلف حالة ليست طبيعية فيها!

وسألت كيف تمضى الامبراطورة يومها فى قصر أنطونيادس؟

فقيل لى إنها تستيقظ من نومها متأخرة، ولا تغادر فراشها، إذ يطيب لها فى تلك الساعة أن تعكف على قراءة رواياتها وهى مستلقية

على وساداتها، وتفطر فطورا خفيفا سريعا لا يبعدها عن كتبها ولا يلهيها عنها..

ويتوقف نشاطها بعد ذلك على برنامج يومها، فإذا كانت ذاهبة إلى قصر «المنتزه» لتستحم في البحر مع فاروق ولتتغدى معه، نهضت واستعدت للذهاب إليه، وإلا آثرت البقاء في فراشها والاستمرار في مطالعاتها إلى أن يأزف موعد غدائها، ويندر طلبه قبل الساعة الرابعة بعد الظهر.

ثم تتأهب لاستقبال الخياطات أو بعض الزائرات، وإذا لم تكن مرتبطة بمقابلات تباطأت في ارتداء ملابسها، وقضت بعض الوقت مع شقيقتها أو مع وصيفتها، إلى أن تحل الساعة التي يتعين عليها فيها أن تبدأ هندامها (التواليت)، ليتسنى لها لقاء فاروق في الموعد المتفق عليه.

وكان هندامها يستغرق وقتا طويلا، وقلما كانت تفرغ منه في الوقت المحدد، وكانت وصيفتها تلقى عناءً كثيرا من هذه الناحية، بوصفها المسئولة عن مواعيدها وعن ضرورة تقيدها بها، وكثيرا ما أغضبت فاروق لتراخيها، ووصولها إلى بعض الحفلات متأخرة، مع أنه هو نفسه كان شديد الفوضى في مواعيده غير الرسمية..

وفي هذا كله أيضا لم أكتشف أثرا واحدا «للشقاء» الذي أكدت التقارير السرية أنه سلبها بهجة الحياة وهدد مصيرها!

أما من جهة حالتها العصبية وقواها العقلية، فلولا ما ذكرته التقارير السرية عنها، ولولا حديث فاروق معي بشأنها، لما اتجه تفكيري إلى هذا الموضوع بتاتا، ولما شغلت به نفسي لحظة واحدة..

بقي الأمر الآخر، وهو: هل كانت فوزية على خلاف مع الشاه؟

وردي الأول على هذا السؤال أنه في جميع المناسبات التي جمعتني بها لم أسمع منها، ولو تلميحا، ما يستدل منه على أن هناك خلافا بينها وبين الشاه، مع أنني أشرت في خلال أحاديثي معها إلى موضوعات كثيرة كان من العسير عليها أن تقابلها بما قابلتها به، لو كانت علاقاتها بالشاه على غير ما يرام..

بل إن جميع ردودها، سواء كان الرد ابتسامة أو كلمة، كانت «بروح» تلك الحركة التي بدرت منها عقب دخولها الجناح الخاص بها في قصر أنطونيادس، وأعني حركة الصورة الفوتوغرافية التي أخرجتها من حقيبتها الصغيرة وعرضتها في أبرز مكان في حجرة جلوسها الخصوصية..

وسألتها مرة عن ابنتها وهل تشبه جلالتها أم جلالة الشاه؟

وكان من المعروف أن الأميرة الصغيرة تشبه جلالة والدها شبها كبيرا، فقصدت أن أعلم كيف ستلقي إليّ ذلك، وبأي «نغمة» ستلقيه، لما كنت أجد في هذه القرائن الصغيرة من معونة ذات فائدة عظيمة في استيفاء تحرياتي عن حقيقة الموقف بينها وبين الشاه!

فقالت بدون تردد: فيها ملامح منا نحن الاثنين، ولكنها تشبه زوجي أكثر مما تشبهني!

وهل يمكن أن تكون هذه اللهجة لهجة امرأة يسود الشقاء حياتها الزوجية؟



وفي كل مرة جاء ذكر الشاه في أحاديثي، كنت لا أقنع بالكلمة التي أسمعها منها، وإنما كنت أرصد وجهها بعناية، مستطلعا وقع حديثي في نفسها، فلم أر في ملامحها قط ما قلل من ثقتي بصدق لهجتها!

وباحثت في ذلك بعض الذين كانوا على صلة مستمرة بها في قصر أنطونيادس، فأيدت أقوالهم ما نوهت به من دلالات، وأجمع





سألتها مرة عن ابنتها وهل تشبه جلالتها أم جلالة الشاه؟ وكان من المعروف أن الأميرة الصغيرة تشبه جلالة والدها شبهًا كبيرًا، فقصدت أن أعلم كيف ستلقي إلى ذلك، وبأي «نغمة» ستلقيه، فقالت بدون تردد: فيها ملامح منا نحن الاثنين، ولكنها تشبه زوجي أكثر مما تشبهني!

رأيهم على أنهم لم يكتشفوا في أحاديثها وحركاتها ما ينم عن أن هناك فتورا ما في العلاقات بينها وبين الشاه!

وكانت فائزة دائمة التردد عليها، وكانت كل منهما تحب الأخرى حبا جما وتخلص لها إخلاصا صادقا، ولم تكن فوزية تفتح قلبها إلا لفائزة وحدها، فلو كانت غير سعيدة مع زوجها، ولو كانت تعيسة وشقية كما قيل في التقارير السرية، لأفضت حتما إلى شقيقتها بأسباب عذابها ومحنتها.. غير أن فائزة أكدت لي مرارا أن ما سمعته منها عن حياتها الزوجية يناقض شائعات التقارير السرية ورواياتها، ويدحضها من أساسها!

وأفرحتني جميع هذه النتائج، فقد كنا في غنى عن مشكلات جديدة، فضلا عن أنها جاءت مطابقة لما قلته لفاروق من اليوم الأول، فصممت على مواجهته بها، إذا عاد إلى هذا الموضوع وردد ما تضمنته التقارير السرية!

غير أنه أمسك عن كل كلام عنه، فكان آخر حديث لنا في صدده هو ذلك الحديث الذي دار بيننا في حديقة قصر أنطونيادس يوم وصول الامبراطورة إلى الإسكندرية..

ولما لاحظت أنه لا يستأنف هذا الحديث، ولا يعود إلى موضوعه، مع أننا نجتمع بفوزية كل يوم تقريبا، لم أشك في أنه يتعمد عدم إثارته، وعللت مسلكه بأن الأكاذيب والفرايا التي قامت عليها التقارير السرية، قد استبانت له، فاطمأن إلى أن شقيقته لا تعيش في جحيم، وأن العلاقات بينها وبين زوجها طبيعية لا تشوبها شائبة، واقتنع بأن أعصابها وقواها العقلية سليمة، وأنه ليس هناك ظل من الحقيقة لما ابتكره خيال كاتب التقارير السرية وصانعها..

وكأنما أردت أن أزيد نفسي راحة واطمئنانا، فقلت إنه لو كان فاروق مقيما على قلقه وجزعه، لما صبر عليّ هذا السكوت، ولما كان هذا شأنه معنا، ولما بدا في الأيام الأخيرة بهذا المرح، وهذا الانشراح..

ولم يدر في خلدي في ذلك الحين، أنني بعيد عن الحقيقة، بعد القاهرة عن طهران، وأن السبب الحقيقي لسكوت فاروق يختلف عن السبب الذي عللته به اختلاف الليل عن النهار، وأن بين الباعث الحقيقي لارتياحه وانشراحه، والباعث الذي عزوتهما إليه بونا شاسعا، الأرض أحد طرفيه والمريخ طرفه الآخر!

كنت أحسب أنني عرفت فاروق، وفهمته وخبرته وبلوته..

وكنت أحسب أنني أحطت بأخلاقه وطويته وأطواره ونزواته..

وعلى هذا الأساس بنيت استنتاجي وتقديري، فاعتقدت أنه طوى تلك التقارير السرية المشئومة وطوى معها أحاديثه عنها بهواجسها ومخاوفها، وأراحنا من مشكلة اسمها «مشكلة فوزية»!

فإذا الأيام والأحداث تثبت لي أن تفاؤلي كان في غير محله، وأنني كنت على خطأ مبين!

فقد كان في فاروق رجل آخر لم أعرفه، ولم يعرفه أحد..

وبينما بنيت استنتاجي وتقديري على ما أعلمه عن الرجل الذي أعرفه، كان الرجل الذي لا أعرفه يفكر تفكيرا آخر ويعد العدة لخطة أخرى!

وفي ذات ليلة قال لي فاروق همسا: لا تكلم فوزية عن ابنتها ولا تذكرها أمامها..

ولم أكن قد رأيته منذ ثلاثة أيام، فأذهلني أمره، وأردت أن أستطلعه سره، فلم يتيسر لي ذلك، فقد كانت فوزية جالسة على مقربة منا..

ولاحظت بعد ذلك أنه في حالة عصبية شديدة، وأنه يتجنب الانفراد بي، فأدركت أنه لا يروم أن يزيدني بيانا، ولم يدهشني مسلكه، فقد ألفته منه في مناسبات شتى!

ولاحظت من جهة أخرى، أن فوزية أكثر صمتا، وأقل ابتساما، منها في الليالي الماضية الأخيرة، فربطت بين ذلك وبين ما قاله لي فاروق، وقلت ربما بلغها أن ابنتها منحرفة الصحة، فأزعجها النبأ، ولم أعلق أهمية خاصة على مظهرها في تلك الليلة!

وفي طريق العودة إلى الفندق، بعد انتهاء السهرة، جعلت أفكر فيما سمعت، وفيما رأيت..

وفجأة عرض لي أن وجوه فاروق وفوزية وفائزة وبعض الآخرين، كانت وجوه أناس يخفون خبرا مهمًا، أفلا يحتمل أن يكون الخبر متعلقا بشيء أخطر من انحراف صحة الأميرة الصغيرة؟!

وفي الصباح، وقبل أن أغادر حجرتي، اتصلت بي عاملة التليفون بالفندق قائلة إن «ي.ي» يرغب في مقابلتي لأمر مهم، فدعوته إلى موافاتي في «الصالون» الخاص، الملحق بحجرة نومي..

كان «ي.ي» ضابط بوليس على جانب كبير من الذكاء والنشاط، وكان بحكم منصبه وعمله مطلعا اطلاعا واسعا على أحوال البلاد الداخلية، وقد اعتاد أن يتردد عليّ بين الفينة والفينة، فأجد في جعبته من الأخبار والمعلومات السياسية ما لا يرد ذكره في التقارير الرسمية، فكان من الطبيعي ألا أرى في زيارته لي في تلك الساعة ما يوجب التساؤل والدهشة، وخاصة أنني كنت أسر بزيارته في كل وقت.. أما في صباح ذلك اليوم فتمنيت لو جاء في يوم آخر، فلا يؤخرني حديثه عن الذهاب إلى القصر، وكنت أنوي أن أمضي إليه رأسا، لعلي أتنسم من الأخبار ما يعوضني عما لم يتيسر لي تسقطه من فاروق في الليلة السابقة، ويكشف لي عن بعض ما أغلق عليّ..

ودخل عليّ «ي.ي» وعلى وجهه شحوب القلق، وفي عينيه نظرة الحيرة والاستغراب..

وبعد التحية قال لي بصوت خافت مضطرب: هل بلغتك حكاية الامبراطورة؟

فقلت واجما: ماذا حدث لها؟

فقال مرتبكا: خطفها جلالة الملك!

فقلت مشدوها: خطفها؟؟ كيف خطفها؟

فقال: علمت أنه لما استيقظ رجال الحاشية الإيرانية في هذا الصباح، لم يلقوا في قصر أنطونيادس أحدا، ولم يجدوا للامبراطورة أثرا، فأسرعت بإبلاغك الخبر لربما لم يبلغك بعد، ويظهر أن ظني كان في محله..

فقلت وقد أذهلني ما سمعت: أشكرك جدا، والواقع أنني لم أخبر به إلا منك.. ولكن من قال لك أن الملك خطف الامبراطورة؟

فقال: ضابط من ضباط البوليس المكلفين بحراسة قصر أنطونيادس، وهو على اتصال وثيق ببعض خدم الملك..

فقلت: وماذا قيل للحاشية الإيرانية؟

فقال: كل ما أعرفه حتى الآن هو أنه استيقظ رجال الحاشية الإيرانية، ففوجئوا بعدم وجود أحد في القصر..

فقلت: ماذا تعني بعدم وجود أحد في القصر؟

فقال: لم يكن هناك موظف واحد أو خادم واحد في جميع أرجاء القصر.. أما التفاصيل فلم أعرفها بعد.. وقد سمعت أنهم ذهبوا إلى قصر «رأس التين»، ليقابلوا كبار رجاله ويسألوهم عن سر هذه المفاجأة!

فقلت: وأين الامبراطورة الآن؟

فقال: في قصر «المنتزه»..

ثم سألني بماذا أفسر هذه «الحكاية العجيبة»؟

فأجبته: بأنه لابد لي من معرفة التفاصيل أولا!

فقال: ألا يحتمل أن تكون هناك رغبة في الطلاق؟

فقلت: كل شيء محتمل. وسأذهب الآن إلى قصر «رأس التين»، فإذا تسربت إليك معلومات جديدة، فأرجو أن تحيطني بها في مكتبي فورا!

وأخذت طريقي إلى «رأس التين» مغموما مهموما، وقد وضح لي الاتجاه الذي اتجهه «تفكير الرجل الآخر» في فاروق..

وعندئذ أدركت أن تفاؤلي كان في غير محله، وأنني كنت على خطأ مبين، على نحو ما ذكرت قبلا.

ولما بلغت قصر «رأس التين»، علمت أن أعضاء الحاشية الإيرانية، انصرفوا منه قبل وصولي إليه

بدقائق، وإن أحدهم سأل عنى فقيل له إنى لم أحضر إلى مكتبى، وأن حضورى إليه غير مقيد بموعد معين، فلم ينتظرنى وانصرف مع زملائه، فحمدت الله على تأخيرى!

وطفت بمن قابلوا من كبار رجال القصر ووقفت منهم على ما أفضوا به إليهم، فاجتمعت لدى معلومات وبيانات كثيرة، ولما ضممت بعضها إلى بعض، ورتبتها، تألفت منها قصة نادرة ليس فى تاريخ القصور الملكية ما يماثلها!

بل قلما شاهدنا فى أعجب الأفلام السينمائية ما يضارعها!

وهذه هى القصة:

كان رجال الحاشية الإيرانية يقيمون فى الجناح الذى أفرد لهم فى قصر أنطونيادس منذ قدومهم إلى الإسكندرية، ولما عادوا إلى القصر ليلة اختفاء الامبراطورة، لم يستوقف نظرهم أى حركة غير اعتيادية، فقد كان كل شىء تحت سقف الدار يسير طبقا للنظام الذى ألفوه، سواء كان ذلك من حيث ترتيب المائدة وألوان الطعام وانتظام الخدمة، أو من حيث نظام الحراسة العسكرية والمراقبة السرية، فناموا مطمئنين..

ولما استيقظ أولهم فى الصباح، ودق الجرس كعادته، ولم يبادر الخادم إلى تلبية ندائه، دقه مرة أخرى، وانتظر قليلا، فلم يأت إليه أحد، فظن أن فى الجرس خللا، وأن نداءه لا يبلغ سمع من يستدعى، فخرج من حجرته ليكلف أول حاجب يلتقى به أن يوفد إليه الخادم المخصص لخدمة غرفته، فلم يصادف فى طريقه أحدا، فاستغرب أن يتأخر خدم القصر هذا التأخير غير المألوف، ولم يزل يجد فى البحث عنهم، حتى وصل إلى «الأوفيس»، حيث يجتمعون عادة، فلم يعثر على أحد منهم، فعاد أدراجه، وهو يتساءل عما طرأ عليهم اليوم، فحال دون مواظبتهم على مواعيد عملهم..

وكان زملاؤه قد استيقظوا فى تلك الأثناء، ودقوا الأجراس تباعا، وجلسوا ينتظرون قهوة الصباح التقليدية، فأعلمهم بما اتفق له، فاختلفت آراؤهم فى تعليل هذا التأخير، ثم اتفقوا على الانتظار فترة أخرى قبل أن يستفسروا عن علته من الضابط المشرف على نظام الحراسة فى القصر.

وفى خلال تلك الفترة، اتجه أحدهم إلى نافذة حجرته عفوا، وعن غير قصد، وأخذ يسرح الطرف فى أرجاء حديقة القصر، وسرعان ما نادى زملاءه، وقال لهم وهو يشير إلى الحديقة: «لقد استرعى انتباهى الآن أمر غريب.. انظروا إلى الحديقة جيدا، ليس فى جوانبها جندى واحد من الجنود الذين كنا نراهم فيها، أليس هذا أمرا غريبا؟!

فقال الآخرون: لا خدم.. ولا حرس.. ترى ماذا حدث؟

وبدلا من أن يضيعوا الوقت فى الانتظار والتساؤل، أسرعوا إلى ارتداء ملابسهم ليقابلوا ضابط القصر أو من يقوم مقامه..

وبينما كانوا مشغولين بملبسهم، خطر لأحدهم أن يمد بصره إلى «سارية» القصر من شرفة قريبة من حجرة نومه، فإذا العلم الامبراطورى لا يرفرف فى أعلاها، فخفق قلبه قلقا، وخف إلى إخوانه وأنبأهم بالأمر، فشاطروه جزعه، ولم يكن لإنزال العلم الامبراطورى سوى معنى واحد، وهو أن الامبراطورة لا تقيم فى القصر!



ومن المرجح أنه لولا الظواهر غير العادية التى استرعت انتباههم منذ استيقاظهم، لما أذعرهم احتجاب العلم قبل أن يستطلعوا سر احتجابه، أما وقد اكتشفوا اختفاءه بعد





بهت الحاضرون ونظر بعضهم إلى بعض فى صمت خيل إلىّ فى تلك اللحظة أنه أبلغ من كل كلام، فقد كانوا بعد الذى سمعوه من فاروق عن تعاسة فوزية وشقائها يتوقعون أن تفاجئهم فوزية بكل شىء إلا بأن تزين حجرة جلوسها بصورة زوجها! وقالت لها فائزة بالفرنسية وهى لا تفكر فيما تقول «إنها صورة لطيفة».. فأجابتها بقولها: «إنه أحسن جدا من صوره»!

اكتشاف اختفاء الخدم، واختفاء الحرس، كان من الطبيعى أن يربطوا بين تلك الظواهر جميعا وأن يلوح لهم أن فى الجو شيئا!

وهرولوا إلى بهو القصر فلم يجدوا فيه مخلوقا، وكذلك لم يلقوا أحدا فى الردهات والصالونات، ولما دخلوا قاعة الأكل، لم يلمحوا على المائدة، أو بجوار المائدة، أثرا لطعام ما، ولما قنطوا من العثور على أحد من خدم الدار، أسرعوا إلى حيث كان رؤساء الحرس يجلسون، فألفوا المكان خاليا من الرؤساء والمرءوسين، سواء كانوا من رجال الحرس أو من رجال البوليس، وأخيرا صادفوا «مخبرا» (بوليسا سريا)، فانهالوا عليه بالأسئلة، فقال لهم، إنه لا يعرف أكثر من أن القصر قد هجر، ولم يبق فيه أحد!

وبعدما تشاوروا فى الأمر، قرروا أن يطرقوا الجناح الخاص بالامبراطورة، لعل خادمتها قد تخلفت عنها لتتولى إعداد حقائبها فتفيدهم بما عندها من أخبارها، فلما بلغوه لم يطرقوا بابا، فقد كانت الأبواب جميعا غير موصدة، والحجرات خاوية إلا من أثاثها، ولا أثر فيها للخادمة طبعا!

ولما فتحوا الخزائن (الدواليب) فى غرف الامبراطورة، اتضح لهم أن جلالتها قد أخذت معها كل ملابسها وحاجاتها، ولم تخلف وراءها حقيبة واحدة، فادركوا أنها رحلت عن قصر أنطونيادس نهائيا!

وبينما كانوا يتباحثون فى موقفهم، أقبل عليهم ضابط من ضباط البوليس الملحقين بالقصر، وأنهى إليهم فى أدب وكياسة، ما يفهم منه أن قصر أنطونيادس بعد سحب طهاته وخدمه وحجابه، لم يعد فى حالة تتوافر فيها أسباب الضيافة اللائقة بهم!

ثم قال لهم إن التعليمات صدرت إليه بأن يضع نفسه تحت تصرفهم متى أرادوا أن ينقلوا حقائبهم وأمتعتهم إلى مكان آخر، فزادهم هذا الكلام حيرة ودهشة، ولما حاولوا أن يرووا غليلهم بسؤاله عن بعض ما خفى عليهم، أجابهم بأنه لا يعرف شيئا، فقرروا عندئذ أن يتوجهوا إلى قصر رأس التين..

تلك هى قصة ما حدث فى قصر أنطونيادس!

وفى قصر رأس التين دارت أسئلة رجال الحاشية الإيرانية حول:

لماذا رحلت الامبراطورة عن قصر أنطونيادس، ولماذا لم يكاشفهم أحد بعزمها على الارتحال عنه؟

وإلى أين ذهبت، ولماذا لم يخبروا بذلك، ولو على سبيل الإحاطة؟

ولماذا تم هذا كله سرا ومن غير أن يتصل بهم أحد من البلاط المصرى؟

وكيف عدل برنامج الإقامة بهذه الكيفية من غير استئذان البلاط الامبراطورى فى تعديله؟

وماذا سيكون رأى جلالة الشاه فى ذلك؟

ثم قالوا إنهم لا يدرون كيف يفسرون المعاملة التى عوملوا بها على حين غفلة، ولا يرون لماذا يفاجأون بسحب الخدم والحجاب من قصر أنطونيادس، إلا إذا كانت هناك رغبة فى أن يخلوا القصر وفى هذه الحالة كان من المتيسر للجانب المصرى أن يفهمهم ذلك بالحسنى صونا لكرامة الفريقين، أما طردهم على تلك الصورة المزرية، فأمر من المحقق أن جلالة الملك فاروق لن يقره ولن يرضى عنه!

وكان آخر سؤال لهم: والآن ماذا يمكننا أن نقول لجلالة الشاه فى تفسير هذا كله، وفى كل مكتب دخلوه لقوا مجاملة وعناية وإصغاء إلى حديثهم وأسئلتهم، وفى كل مكتب كانت علامات الدهشة والحيرة والارتباك، ترتسم على وجه صاحبه، ولكن فى مكتبى ظل حديثهم بدون تعقيب، وظلت أسئلتهم بدون ردود!

ولم يظفروا إلا بجواب واحد، إنا لا نعلم عن هذا كله شيئا، ونؤكد لكم أن حديثكم هذا هو أول ما سمعنا عن هذا الموضوع، وسنرفعه حالا إلى جلالة الملك لمعرفة أوامره وتوجيهاته وإن شاء الله ينتهى كل شىء بخير!

والواقع أن كبار رجال القصر كانوا صادقين حين قالوا إنهم لا يعلمون عن الموضوع شيئا، فقد كتمه فاروق عنهم جميعا كتمانه عنى، ومع أنه توقع حتما أن يهرع رجال الحاشية الإيرانية إلى قصر رأس التين فى طلب بيانات وإيضاحات لم يهتم بتزويد رجاله بالتعليمات التى تعينهم على مواجهة الموقف المؤلم الذى وقفوه عند زيارة «الضيوف» الإيرانيين لهم!

وكان فاروق شديد الاستخفاف ببعض المواقف الحرجة التى يقفها رجاله لأجله أو بسببه، وكثيرا ما لاح لى أنه يغتبط بالحرج الذى يسببه لهم ويفرح بسماع قصص المآزق التى يزجهم فيها، وإن كان من الإنصاف له أن أنوه بأنه لم يجد من كبار رجال القصر فى يوم من الأيام ما يبعثه على عدم الاسترسال فى استهتاره بهم!

وما كاد أعضاء الحاشية الإيرانية يودعون كبار رجال القصر حتى ردّ هؤلاء على أنفسهم الأبواب واتصلوا تليفونيا «بالشمشرجى» النوبتجى فى قصر المنتزه وأبلغوه أحاديث الحاشية الإيرانية وأسئلتها ليعرضها على مولانا ويتلقى تعليماته فى صددها.

وانقضت ساعات العمل فى مكاتب القصر، وتوجيهات فاروق وأوامره لم تعرف بعد، فعاود بعضهم الاتصال «بالشمشرجى النوبتجى»، واستعلم منه هل تسنى له عرض الموضوع: فأجاب بالإيجاب، فسألوا: وما هى الأوامر والتوجيهات؟ فرد عليهم: بأن مولانا لم يقل شيئا!

فقالوا له: ولكن ألم تذكر لمولانا أننا فى انتظار توجيهات؟

فقال: طبعا ذكرت ذلك.

فقالوا: وماذا كان رده؟

فقال: لم يقل شيئا!

ولما قرب موعد قفل المكاتب، أسرع كبار رجال القصر إلى سياراتهم، وعجلوا انصرافهم، حامدين الله على عدم اتصال «الضيوف» الإيرانيين بهم مرة أخرى فى هذا اليوم، آملين أن يتلقوا «التوجيهات السامية» قبل حلول مواعيد الزيارات فى الغد!

وآثرت من جهتى ألا أحاول الاتصال بفاروق فى هذا الشأن لثلاثة اعتبارات: أولها «نظرى»، وثانيها: «عملى»، وثالثها: «واقعى».

أما نظريا، فلأنه لم يكن لى «دور» فى هذا الموضوع، وبخاصة أنه لم يدر بين رجال الحاشية الإيرانية وبينى أى حديث يمكننى أن أتذرع به لأطلب مقابلة الملك.

وأما عمليا فخشية أن يظن فاروق أننى على أحر من جمر لاستطلاع ما يدبره فى الخفاء، فيحرك هذا الظن بعض نزواته فتحضه على تأجيل مقابلتى ليطيل «أمد» حيرتى وقلقى.. وكان يسره فى أحوال كثيرة أن يشعر أنه وفق إلى إطالة هذا «الأمد»، وأن الشخص الآخر «على نار»!

وأما واقعيا فلثقتى بأنه سيستدعينى من تلقاء نفسه «فى الظاهر» ليقف منى على وقع الخبر فى نفوس الذين عرفوه، وفى الحقيقة ليتباهى بالخطة التى نفذها ولم يعلم أحدا بها إلا بعد تنفيذها!

وتحقق ما توقعته، ففى نحو الساعة السادسة مساء، كلمنى «الشمشرجى النوبتجى» ودعانى إلى مقابلة الملك فى قصر المنتزه..



لما دخلت على فاروق قال لى مازحا ومتهكما: أهلا بالصحفى الكبير!

وكان ذلك بمعنى: أهلا بالصحفى الكبير الذى كان فى غفلة!

فحييته تحية لا كلام فيها ولا ابتسام، وكان يعلم أن هذه طريقتى فى لقائه حينما أكون مستاء من تصرف تصرفه، وعازما على مفاتحته فى موضوعه.

ولما لم أتكلم غيّر ملامح وجهه وأبدل لهجته، وقال بالعربية: لابد أنك عرفت ما حدث، ثم استطرد قائلا بالفرنسية: لقد عملت ما كان يجب علىّ عمله لإنقاذ شقيقتى!

وذكرنى حاله فى تلك الساعة بأولئك الذين يقتلون زوجاتهم أو شقيقاتهم ثم يذهب القاتل إلى البوليس ويسلم نفسه وهو يقول: لقد قتلتها! وليكن الآن ما يكون!

ولم يقل فاروق: لقد قتلتها! وإنما قال: لقد عملتها، وليكن الآن ما يكون!

وتأملت مظهره ولهجته، فليس هذا مظهر الرجل «الذى أعرفه» فى فاروق، وليست هذه لهجته..

بل هذا مظهر ولهجة «الرجل الآخر» فى فاروق، الرجل الذى «لا أعرفه» ولن أعرفه!

ونظرإلىّ نظرة من ينتظر منى تعقيبا على قوله، فقلت: هل كان حدوث ما حدث ضروريا؟ فصاح قائلا: حتما كان ضروريا، إن شقيقتى كانت مهددة فى صحتها وفى عقلها وفى سلامتها، وبعد ذلك تسألنى هل ما عملته كان ضروريا؟

فقلت: كنت أعتقد أننا اقتنعنا بأنها على أحسن حال، وأن ما جاء فى التقارير السرية غير صحيح!

فقال: أنت اقتنعت بذلك، أما أنا فلم أقتنع، ويحسن أن تعلم أن تلك التقارير كانت صحيحة بوجه عام!

فقلت: من الغريب أن جميع المتصلين بالامبراطورة لم يلاحظوا عليها شيئا مما أكدته التقارير المذكورة!

فقال: لأن فوزية تضغط على أعصابها ولا تدع شيئا يظهر على وجهها!

فقلت: ولكن التقارير ذكرت أشياء لا يتيسر إخفاؤها مهما اجتهدت الامبراطورة فى ذلك.. ولما تبين له أننى مصمم على مناقشته ومحاجته، خشية أن أضيّق عليه بأسئلتى وحججى فقال: أنت تعلم أننى أحبك وأثق بك، ولكن فوزية انتزعت منى قسما بألا أبوح لأحد بما ستكاشفنى به، ولما اطمأنت إلى ذلك، فتحت قلبها لشقيق يحبها ويخلص لها!

وكان معنى كلامه: أن هناك أسرارا لا يجوز لك أن تعرفها، ولو عرفتها لعذرت عملى! ولم أصدق طبعا!

وقلت فى نفسى: لو كانت هناك حقيقة أسرار كما يزعم، لما تردد دقيقة واحدة فى اطلاعى عليها تعزيزا لموقفه وتبريرا لمسلكه، وليس الرجل الذى لم يحبس عنى قبلا أسرار علاقاته بزوجته هو الذى يحرص هذا الحرص الشديد على أسرار شقيقته!

ولما لم أستطع أن أقول له أننى لا أصدقه، تركت تلك «النقطة» وانتقلت إلى نقطة أخرى، فقلت: إذن الامبراطورة عازمة على طلب الطلاق..

فقال: ألم تفهم ذلك بعد؟

فقلت: فهمته منذ هذا الصباح يا أفندم وإنما أردت أن أستوثق..

فقال: هل استوثقت الآن؟ نعم يا سيدى سنطلب الطلاق!

فقلت: مادامت النية منصرفة إلى الطلاق فلماذا تركت الامبراطورة قصر أنطونيادس سرا، ولماذا نقلت حقائبها وأمتعتها فى الخفاء؟

فقال: لأنها لم تعد تطيق «أى جو» يذكرها بحياتها فى طهران!

وهنا أيضا لم أصدقه..

فقلت: ولكن لماذا تمّ ذلك سرا وفى الخفاء، فيقال إن الملك خطف الامبراطورة!

فقال: لأنى أردت أن أتفادى عقبات كان من المحتمل أن يثيرها رجال الحاشية الإيرانية!

وأردت أن أفهمه أننى لا أصدق حديثه، فقلت: وهل كانوا يستطيعون منعها من الانتقال إلى قصر «المنتزه» لو قالت لهم أنها تبغى الانتقال إليه؟

فلم يرد على هذا السؤال، وقال: أحببت أن أواجههم بالأمر الواقع ليعلموا أننا جادون فى حركتنا!

فقلت: وحكاية تركهم بدون خدم وحجاب.. ماذا كان الغرض منها؟

فقال: لا شىء، ولكن بما أن فوزية تركت





نوهوا فى خلال حديثهم عنها بالمكانة الرفيعة التى عرفت جلالتها كيف تكتسبها فى قلوب الشعب الإيرانى، كما اكتسبتها فى قلوب أعضاء الأسرة الشاهانية، وأشاروا إلى حب الشاه لها وتعلقه بها بعبارات موفقة، تؤدى المعنى المنشود مع عدم ظهور المتحدث بمظهر من يتعمد الإشارة ويقحمها فى الحديث تكلفا!

المكان، لم يبق ما يدعو إلى استمرار إقامتهم فيه!

فقلت: أكانت المعاملة التى عوملوا بها السبيل الوحيد إلى إفهامهم ذلك؟

فقال: آه، الآن فهمت سؤالك، لا أخفى عليك أننى تعمدت المبالغة فى استفزازهم ليعجلوا الطلاق!

فقلت: كل هذه الأمور أثارت هياجا شديدا فى دوائرهم..

فقال بالفرنسية: ليذهبوا إلى الشيطان! إن سلامة شقيقتى وسعادتها مقدمتان عندى على كل اعتبار آخر، وهما الشىء الوحيد الذى أحسب حسابه الآن، إن شقيقاتى أمانة فى عنقى مادمن محرومات من الوالدين، وأنت تعلم أننى أعد والدتى فى حكم غير الموجودة، فليس لشقيقاتى «ملجأ» غير عندى!

ولم تمنعنى ملاحقة أقواله من الانتباه لكلمة تكلف تكرارها فى هذه المناسبة، وهى كلمة «شقيقتى»..

وعجبت لضربه على هذا الوتر مع علمه بأننى لا أجهل «مبلغ» حبه الحقيقى لشقيقاته، و«مدى» استعداده الفعلى للبذل فى سبيلهن!

ولم يكن فاروق رجلا يعوزه ذكاء أو تنقصه فطنة..

ولكن «الرجل الآخر» فى شخصه كان يسدل على ذكائه وفطنته ستارا من الشهوات والنزوات، ويوقف نشاطهما، كلما شاءت المقادير أن يسيطر على إرادته، وأن يسلبه مشيئته!

ولما ظهر له أن حديثه عن سلامة شقيقته وسعادتها، وعن الأمانة التى فى عنقه، وعن الملجأ الذى هو ملاذ شقيقاته، لما ظهر له أن هذا الحديث لم يغير شيئا من وقع أقواله فى نفسى. قال: وعلى كل حال فإن هياجهم سيزيد كثيرا عندما يعلمون أن شقيقتى ستطلب الطلاق!

فقلت: إنهم يعلمون ذلك يا أفندم، أو بالأحرى أنهم يتوقعون!

ورددت له ما سمعته من الضابط «ى.ى»، فعلق عليه بقوله: الحمد لله، إنهم يسهلون لى مهمتى!

ثم سألنى هل ترامى إلى شىء من أحاديث رجال الحاشية الإيرانية فى قصر «رأس التين»، فقلت له:

إننى عرفتها برمتها. فضحك وقال: كلما تصورت كيف كانت وجوههم لما استيقظوا هذا الصباح ووجدوا قصر أنطونيادس مهجورا، أكاد أموت من الضحك.. وكم وددت لو أتيح لى أن أراهم فى تلك الساعة من خلال أحد الأبواب أو من خلف إحدى الستائر!

وأردت أن أشعره بأن الموضوع أخطر من أن يقابله بهذا الاستخفاف فقلت: هل فكرت جلالتك فيما سيكون لهذا الحادث من تأثير فى علاقات مصر بإيران؟

فقال وهو يهز كتفيه ازدراءً: وما أهمية علاقاتنا بإيران، ولماذا تتأثر علاقاتنا بها إذا حدث طلاق.. هل هو أول طلاق من نوعه فى التاريخ؟ ومع ذلك إن علاقاتنا بإيران لا تهمنا!

وكنت أعلم أن الرجل «الذى أعرفه» فى فاروق لا يشرب ولا يسكر..

أما «الرجل الآخر» الذى كان يكلمنى فى هذه المقابلة، فكان يتكلم كأنه تحت تأثير سكره، ولكنها لم تكن سكرة الخمر..

كانت سكرة الاقتدار! أو على الأصح: توهم الاقتدار!

وإذا هو يقول فجأة: دعنا الآن من العلاقات الرسمية بإيران، ألا ترى أن خطة هجر قصر أنطونيادس قد نفذت بمهارة وبراعة، بدأت أولا بدعوة فوزية إلى العشاء معى كما تعلم، ولم يكن فى ذلك ما يريب رجال الحاشية الإيرانية لأنها اعتادت أن تتعشى فى ضيافتى كل ليلة تقريبا. وفى تلك الأثناء كان كل شىء فى قصر أنطونيادس يسير فى الظاهر سيرا عاديا منتظما، فلم يكن فى استطاعة رجال الحاشية الإيرانية أن يلاحظوا شيئا يسترعى انتباههم أو يحرك ظنونهم، ولما انتهوا من عشائهم وسهرتهم، وانتقلوا إلى حجراتهم، شرع رجالى فى تنفيذ أوامرى وتعليماتى بحذر واحتراس، اتقاءً لكل جلبة أو حركة تنبه الضيوف إلى أن هناك شيئا يجرى تحت جنح الظلام، وكانت فوزية قد جمعت ملابسها، وأعدت حقائبها بمساعدة خادمتها، فأنزلها الخدم من الباب الخلفى إلى السيارة التى كانت فى انتظارها إلى هنا.. وكان «السفرجية» قد اشتغلوا بعد العشاء بجمع كل ما كان فى قصر أنطونيادس من مآكل وشراب، فلما



هدأت الحركة فى القصر، نقلوا صناديقهم بخفة وسرعة إلى سيارة كبيرة وضعت تحت تصرفهم لهذا الغرض.. ثم ركب جميع الطهاة والخدم والحجاب السيارات التى أعدت لهم، وكانت تنتظرهم فى مكان لا يصل منه صوت محركاتهم إلى حجرة نوم رجال الحاشية الإيرانية، وكان هؤلاء على كل حال يعلمون أن هناك سيارات تجىء وتذهب فى كل وقت لنقل لوازم الضيافة والخدم المعينين لخدمتهم، وإنما اتخذنا هذا الاحتياط كيلا يلاحظوا أن حركة السيارات فى هذه الليلة زادت على الحركة المعتادة، وبعدما انصرف الخدم والحجاب، جاء دور رجال الحرس، فاحتشدوا جميعا فى جهة واحدة، واستقلوا السيارات الكبيرة، التى أقلتهم إلى ثكناتهم ولم يتركوا أمام باب القصر سوى رجل واحد من رجال البوليس و«مخبر»، لا يعرفان أكثر من أن الأوامر قد صدرت بإخلاء القصر، ونفذت الخطة بإحكام فلم تقع غلطة واحدة، وأخلى القصر فى أقصر وقت مستطاع، وحضرات الضيوف غارقون فى نوم عميق لا يدرون شيئا عن المفاجأة السارة التى ستنزل عليهم كالصاعقة عند استيقاظهم.. ولعلك أدركت أن فوزية لم تعد بعد العشاء إلى قصر أنطونيادس، فنامت فى الجناح الذى أفردناه لها هنا. أما بقية القصة فقد عرفتها من أحاديث رجال الحاشية الإيرانية!

وكان «الرجل الآخر» فى فاروق يتكلم عن «خطة» إخلاء قصر أنطونيادس كأنها الخطة التى اختطف بها هتلر حليفه موسولينى من المعتقل الذى اعتقله فيه الملك فكتور عمانوئيل الثالث فى أواخر الحرب العظمى الماضية. ويغرق فى الضحك كلما ذكر المفاجأة «السارة» التى فوجئ بها رجال الحاشية الإيرانية فى الصباح، حتى كان يخيل إلىّ أنه لم يفكر فى هذه الخطة ولم ينفذها إلا ليبعث فى نفوسهم الحيرة والقلق والارتباك فيضحك لذلك!

ولما استتم وصف «خطته» حاولت مرة أخرى أن أشعره بجدية الموقف، فقلت: ترى ماذا سيكون رأى الحكومة؟

فقال على الفور محتدا: وما علاقة الحكومة به؟ ما شأن الحكومة ومسائلنا العائلية؟!

فقلت: ألا ترى جلالتك أن للموضوع ناحية سياسية من الواجب على رئيس الحكومة أن يهتم بها؟

فقال: إنى أشفق من الآن على رئيس الوزارة مما سيسمعه منى فى اليوم الذى يتجاسر ويكلمنى فى موضوع لا يعنيه!

وبعدما أطرق لحظة قال: لا أتصور أن رئيس الوزارة «يفقد عقله» ويقدم على ما ذكرت.. لا، لا أعتقد ذلك، فقد «علّمت» رؤساء الوزارات منذ ارتقائى العرش أن يكونوا شديدى الاحتراس فى علاقاتهم بى، وألا يتدخلوا فى شئون لا تعنيهم وليس لهم أن يتدخلوا فيها!

فقلت: ولنفرض أن رئيس الوزارة قدّر أنه بالتكلم مع جلالتك يؤدى فرضا عليه..

فقال ضاحكا: الحل سهل جدا.. ألحقه بالحاشية الإيرانية!

وهكذا كان يلف ويدور ثم يعود إلى ذكر الحاشية الإيرانية!

وهنا سألته: هل أبلغ المختصين فى «رأس التين» توجيهاته بشأن ما يقولونه لرجالها؟

فقال: ليس عندى كلام لهم، إن سفير مصر فى طهران هو الذى سيتصل بالشاه فى هذا الموضوع!

فقلت: وهم.. ماذا يصنعون؟

فقال: لم يعد أمرهم يهمنى سواء بقوا فى مصر أو غادروها عائدين إلى بلادهم، مادامت فوزية لن

تقابلهم بعد الآن، وماداموا ليسوا ضيوفا علينا من اليوم!

فقلت: وإذا أحب السفير الإيرانى مقابلة الامبراطورة؟

فقال: إن الامبراطورة فى حالة لا تمكنها من مقابلته، وقد فوضت إلىّ أمرها!

ثم قال مستدركا: ولكن هذا لا يعنى أن نخرج عن حدود آداب المعاملة والمجاملات التقليدية المعتادة، فإن إنهاء العلاقة الزوجية بين فوزية والشاه، مسألة شخصية وعائلية، ويجب ألا تؤثر فى العلاقات العامة والرسمية!

وتساءلت وأنا أسمع هذا الكلام، أى الرجلين فى فاروق هو الذى يتكلم الآن؟!

فأين كانت آداب المعاملة والمجاملات التقليدية المعتادة حين فكر فى خطة اختطاف الامبراطورة وإخلاء قصر أنطونيادس؟!

وأين كانت آداب المعاملة والمجاملات التقليدية المعتادة حين استيقظ رجال الحاشية الإيرانية وواجهوا تلك المعاملة المشينة الشاذة؟!

وأدرك فاروق معنى الابتسامة التى قابلت بها كلامه فقال: أنا فاهم مغزى ابتسامتك، فانت لا ترى كيف يستقيم ما سمعته منى الآن مع الذى حدث. فاكرر لك أن الضرورة هى التى حتمت علىّ العمل الذى عملته، ولولا ذلك لما لجأت إلى الخطة العنيفة التى نفذتها، أما التزام حدود آداب المعاملة والتقاليد والمجاملات فيبدأ من الآن..

فقلت: وإذا طلب الآن أحد رجال الحاشية الإيرانية أن يقابلنى؟

فقاطعنى قائلا: تقابله طبعا بكل أدب وإكرام!

فقلت: وإذا كلمنى فى الموضوع فماذا أقول له؟

فقال: قل إنك لا تعرف شيئا، ثم تظاهر له بانه استدرجك فى الكلام ودعه يفهم أن الامبراطورة ستطلب الطلاق، وانك لا تظن أنها سترجع عن قرارها، لا تقل له إنك «تعلم» ذلك، بل قل إنك «تظن».. أى أن هذا هو رأيك الشخصى لأنك لم تكلمنى فى الموضوع بعد!

فقلت: ولكن عندما ساقول «لا أظن أنها سترجع عن قرارها»، سيفهم أن هناك قرارا، وأننى على علم به!

فقال: لا ضرر من أن يفهم ذلك، وفى الوقت نفسه دعه يفهم أن سفير مصر فى طهران هو الذى سيتولى مهمة الاتصال بالشاه، وأنه لذلك ليس لدى رجالى هنا أى توجيهات فى هذا الصدد!

وانقضت الأيام التالية من غير أن يطلب أحد من رجال الحاشية الإيرانية مقابلتى، فحمدت الله على ذلك، لأنه ليس أبغض إلىّ من أن أواجه رجلا قوى الحجة بحجة أشعر مقدما بانها واهية وخاسرة!

وأخذت أراقب موقف الوزارة..

وفى كل يوم كنت أسأل: هل تحرك رئيس الوزارة؟ فيقال لى: لا!

وبعد أسبوع كان الرد على السؤال نفسه: لا!

وبعد أسبوعين، وثلاثة أسابيع، وأربعة أسابيع، كان الرد دائما: لا!

***

وتم الطلاق بين الشاه وفوزية ورئيس الوزارة لا يزال يشاور عقله: هل يكلم فاروق أم لا يكلمه؟!

ألم يقل لى فاروق: لقد «علّمت» رؤساء الوزارات!

أبرزت قصة طلاق فوزية بجلاء أنه كان فى فاروق شخصيتان أو رجلان. أولهما: الرجل الذى قلت عنه فى الفصول السابقة أننى كنت أعرفه. والثانى: هو «الرجل الآخر» الذى كنت لا أعرفه ولم أعرفه قط!



من المعروف أن فاروق كان مصابا بمرض يدفعه إلى «الخطف» كلما تحركت فيه عوامله، فامتداد يده إلى محتويات حقائب شقيقته، لم يكن سوى مظهر من مظاهر هذا المرض، وضرب آخر من ضروب ذلك «الخطف» أما الأساس فكان دائما واحدا

ولما انتهى موسم الاصطياف وعاد البلاط إلى القاهرة، رجع فاروق إلى الإقامة فى قصر القبة، وعادت فريدة إلى قصر عابدين، وخصص للامبراطورة جناح كامل فى قصر القبة مع استمرار النظام الذى كان معمولا به فى المنتزه..

وكانت فوزية تنفق من مالها الخاص المتوافر لها عند الخاصة الملكية، وكانت الخاصة الملكية هى التى تسدد جميع فواتير مشترياتها مادام على الفاتورة «تأشيرة» منها بأنها تقر قيمتها وتوافق على صرفها..

وكان لها سيارتها الخاصة، وسائقها الخاص، وكانت «الجراجات» الملكية تحت تصرفها فى كل وقت..

وبينما كان فاروق يبذل قصارى طاقته لإراحة الامبراطورة وإرضائها، كان من جهة أخرى يصدر أوامره إلى الجهات المختصة بأن تحبس عنها الرسائل البريدية التى ترد من طهران باسمها، وأن ترفعها إليه بدلا من رفعها إليها، وقال فى تبرير ذلك أنه يبغى أن يحول بينها وبين كل ما قد يثير أعصابها ويسىء إلى صحتها!

والحقيقة أنه كان يخشى أن تتلقى رسائل وصورا من ابنتها فتهز اشتياقها إليها، فتضعف أعصابها، فتتردد فى المضى فى الطريق الذى اقتنعت بأن تسير فيه..

وفعلا حجز عنها صورا كثيرة أرسلتها إليها ابنتها، وحجز كذلك الكلمات التى كانت تكتبها إليها وترفقها بها، ولم يطلعها على شىء منها! بل قال لها يوما أن عدم ورود «كلمة واحدة» من طهران ظاهرة خليقة بأن تتامل فى مغزاها!

ومن الطبيعى أن الابنة كانت تنتظر ردا على كلماتها وصورها، فلما طال انتظارها وخاب أملها، كفت عن الكتابة إليها فاستراح فاروق من هذه الناحية..

وأمر فاروق جميع الذين يختلطون بالامبراطورة ألا يذكروا إيران، أو الشاه، أو الابنة فى أحاديثهم معها..

وكان يتصفح بنفسه ما يجلب لها من صحف ومجلات محلية وأجنبية ليطمئن إلى خلوها من كل حديث أو صور عن إيران وعن الأسرة الامبراطورية، وكان يهتم بالصور بصفة خاصة!

ونشرت يوما إحدى المجلات المصرية طائفة من الصور للأميرة «نازشاه» كريمة الشاه والامبراطورة فوزية، فأقام الدنيا واقعدها، وطاف بحجرات «الحرملك» حجرة حجرة خيفة أن تكون نسخة من تلك المجلة قد تسربت إليها عمدا، أو سهوا، ولم يهدأ له بال إلا لما تاكد أن نظر فوزية لم يقع على المجلة التى أزعجته صورها!

وأصدر تعليمات مشددة إلى الموظف المختص بالسينما فى القصر أن يستبعد كل شريط يحتمل أن يحتوى على مناظر تذكر الامبراطورة بإيران، ولاسيما الأشرطة الإخبارية..

وحتى موسيقى القصر حُذف من برامج ألحانها لحن مشهور اسمه «السوق الفارسية» (The Persian Market).

وعلى أثر انتقال فوزية إلى المنتزه، جاءت «الأميرتان» الصغيرتان فريال وفوزية لزيارتها، والسلام عليها، وكانتا شديدتى التعلق بها، وكانت هى من جهتها تبادلهما حبهما وتعطف عليهما عطفا كبيرا.

وأوعز فاروق إلى شقيقته بالا تسأل الصغيرتين عن أمهما، وقال لها إن ذكرها لا يرد أبدا عندما تكون «البنات» عنده، ولذلك لن يستغربن عدم سؤالها عنها..

وكان فاروق يشير إلى كريماته تارة بقوله «البنات»، وتارة أخرى بقوله «الأولاد»، وإذا كان يتحدث بالفرنسية قال: "Les Enfants".

وأوعز إلى مربية «البنات» بأن توصيهن بعدم سؤال عمتهن عن ابنتها، أو عن «عمهن» (الشاه)!

وكانت «البنات» فى إدراكهن لحقيقة العلاقات بين والديهن لا يطلبن تفسيرا لهذه التعليمات، وقد ألفن وضعهن الشاذ، وتعودنه، و«دربن» عليه، فعرفن أنه ينبغى لهن عند وجودهن فى مجلس أبيهن أن يغفلن كل إشارة إلى أمهن حتى إذا رجعن إليها، وجب عليهن أن يمسكن عن ذكر أبيهن، وقد رأيتهن بصحبة والدهن فى مناسبات شتى، فلم ألاحظ يوما أن لسان



إحداهن زل ونطق كلمة «ماما» عفوا مع كثرة الموضوعات التى كن يتكلمن فيها، كأن النظام الذى دربن عليه أضحى جزءًا من طبيعتهن! فلما وصين بعدم سؤال الإمبراطورة عن الشاه وابنتها لم يرد فى الأمر جديد عليهن!

وفى أثناء إقامة البلاط فى الإسكندرية، كانت «البنات» يمضين يوم الجمعة برفقة عمتهن فى ضيافة والدهن فى استراحته البحرية على مقربة من قصر رأس التين، فلما عاد البلاط إلى القاهرة، قلّت اجتماعاتهن بها، إذ كن يقمن مع والدتهن فى قصر عابدين ولا يذهبن إلى قصر القبة إلا فى المناسبات.

ورأى فاروق أن الحصار الذى ضربه حول فوزية لن يمنعها من التفكير فيما يحجبه عن نظرها، ويحجبه عن سمعها، فقرر أن يشغل ذهنها بزيادة عدد الحفلات والمجتمعات والرحلات التى يستصحبها إليها، فلا يتسع لها وقت للتامل فيما سيؤول إليه أمرها حتى ينتهى سفير مصر فى طهران من تسوية موضوع الطلاق فى البلاط الامبراطورى.

وكان يحيطها فى كل مجلس وفى كل محفل، بأعظم مظاهر الحب والعطف والعناية، من جهة ليرضيها وينسيها همومها، ومن جهة أخرى ليكتسب تقدير الناس لهذا البر بشقيقته، وليستدر عطفهم على حالته فى الخلاف القائم بينه وبين زوجته!

ولكنه بالغ فى تمثيل الدور وغالى، وما لبث فريق من الناس أن رأى فى بعض المظاهر التى يحيط بها شقيقته ما يجاوز المألوف فى العلاقات الأخوية، فاستغل خصومه سوء التأويل وروجوه!

وكان قد فكر من زمان طويل فى تنظيم رحلة بحرية فى البحر الأحمر لزيارة شواطئه وصيد السمك، فخطر له أن ينفذ هذه الفكرة فى تلك الأيام ليسرى عن شقيقته ويروح عن نفسها، فقابل الناس نبأ هذه الرحلة باستهجان وعدوها ضربا من ضروب الاستهتار، إذ كانت أخبار مفاوضات الطلاق قد انتشرت فى الأندية والمجالس، وانتشرت معها طبعا مجموعة من الشائعات والروايات!

والخلاصة أنه بدلا من أن تكسبه «مظاهره» لفوزية العطف الذى كان يمنى به نفسه، جرت عليه سخطا جديدا كان فى غنى عنه!

وبعد عودتهم من تلك الرحلة البحرية، لفت بعضهم نظر فاروق إلى «الثروة» التى تنفقها فوزية على شراء الفساتين والملابس، وقالوا له إن رصيدها المتجمد فى الخاصة الملكية نقص نقصا كبيرا بسبب المال الطائل الذى أنفقته فى هذا السبيل، والتمسوا منه أن ينصح لها بالاعتدال فى نفقاتها، فنهرهم وأنبهم، وقال لهم: «إن جلالة الامبراطورة حرة فى مالها وفى اختيار الوجوه التى تنفقه فيها»!

والواقع أن فوزية كانت تسرف فى ذلك الحين إسرافا لا حد له فى اقتناء الملابس، مع عدم حاجتها إلى أغلبها، وكان فى خزائنها مجموعة كبيرة من الفساتين لم تلبسها سوى مرة واحدة، بل كان عندها فساتين كثيرة لم تظهر بها قط لزيادة عددها على عدد المناسبات التى يمكنها أن تلبسها لها، ومع ذلك كانت تواصل شراءها وتكديسها بلا انقطاع، دون أن تعلم لماذا تشتريها أو متى سترتديها، ودون أن يخفى عليها أن الأزياء تتغير باستمرار وأن ما تشتريه اليوم لن تلبسه فى السنة القادمة!

ومع أن فاروق كان يعلم أن الشكوى فى محلها.. وأن شقيقته تبذر المال تبذيرا، تظاهر بعدم الاكتراث لذلك، إذ رأى أن الوقت غير مناسب للتكلم معها فى هذا الموضوع، وأنه يحسن به أن يرجئ التعرض له حتى يتم

طلاقـهـا: هذا الطلاق الذى كان يسعى لاستتمامه بكل وسيلة!

وفى تلك الأثناء، كانت الاتصالات تجرى فى طهران للاتفاق على الطلاق..

ولما كوشف جلالة الشاه بموضوعه، قال إن دهشته عظيمة، فهو يحب زوجته، وزوجته تحبه، والعلاقات بينهما على ما يرام، فما الذى طرأ ؟!

وبعد مفاوضات طويلة تعددت خلالها مقابلات سفير مصر للشاه، وافق جلالته على الطلاق! وقد أبدى الشاه فى جميع مراحل المفاوضات نبلا وكرما عظيمين، وكانت مهمة سفير مصر شاقة ودقيقة، فعالجها بكفاءة ولباقة كبيرتين..

ورضى جلالته أن تحتفظ فوزية بجميع المجوهرات التى أهداها إليها فى مناسبات مختلفة!. وبعدما اتفق الجانبان على الطلاق، واستعد الشاه لإعلانه، أبلغوه رغبة «أخوية» لفاروق وهى أن يرجئ الإعلان قليلا..

وقال فاروق إنه سينفذ قريبا مشروع طلاقه من فريدة، فيود أن يعلن «الطلاقان» فى مصر فى وقت واحد! فلم ير الشاه مانعا من تحقيق رغبته..



وامتد تأجيل الإعلان من شهر إلى آخر، والشاه صابر على هذا الوضع العجيب!

وفى كل شهر كان يقال له: بعد أسبوعين..

وأخيرا طلق فاروق فريدة، فأذيع نبأ طلاقهما ونبأ طلاق الشاه وفوزية فى وقت واحد!

واعتقد فاروق أن إذاعة النبأين سويا سيساعد على تلطيف الجو فى مصر، فكانت النتيجة أن تشاغل الناس عن طلاق الشاه بالتعليق على طلاق فاروق وحده!

واستمرت فوزية بعد إعلان طلاقها تقيم فى قصر القبة..

واستردت لقبها القديم الذى كانت تعرف به قبل زواجها..

وقرر فاروق بعد انقضاء فترة قصيرة على طلاقه أن تقوم «سموها» مقام الملكة، وأن تنهض بمهام السيدة الأولى فى البلاد إلى أن يتزوج مرة أخرى!

وكانت شقيقتها فائزة تشترك معها أحيانا فى الترحيب بضيوفها، أو تنوب عنها فى بعض الحفلات إذا اعتذرت عن عدم حضورها لوعكة طرأت عليها، وكانت فوزية تكره الاستقبالات والحفلات الرسمية، وترحب بكل طارئ يحول دون تمكنها من الاشتراك فيها!

ولما حلّ عيد ميلاد فريال لأول مرة بعد طلاق والديها، أقام لها فاروق فى قصر القبة حفلة شاى عائلية على غرار الحفلة التى كانت أمها تنظمها لها، فكانت أول مرة حلّت فيها فوزية محل فريدة فى حفلة عائلية من هذا النوع، ولم تنجح الابتسامة الصغيرة التى كانت ترتسم على فمها، ثم تختفى بسرعة البرق فى إخفاء ما كانت عليه فى ذلك اليوم من وجوم وقلق، وقد خيل إلىّ طول الوقت أنها كانت تفكر فى ابنتها وفى من سيجلس إلى جانبها عندما ستحتفل بعيد ميلادها!

ولما وافق فاروق على ذهاب فريال وفوزية إلى دار الأوبرا أول مرة لمشاهدة تمثيل إحدى الروايات الفرنسية «الكلاسيكية»، طلب إلى فوزية أن تكون فى صحبتها مع مربيتها..

وكذلك صحبتهما فوزية فى أول زيارة «لحديقة الحيوان»..

وبالاختصار أصبحت تقوم مقام سيدة القصر فى جميع المناسبات الرسمية والعائلية!

غير أنه لم يمض على إعلان طلاقها أمد قصير حتى أخذت معاملة فاروق لها تتحول تحولا ملحوظا!

ففى داخل القصر، قلل من اجتماعه بها، ولم يعد يدعوها إلى مائدته إلا فى فترات غير متقاربة..

وفى خارج القصر، كف عن استصحابها معه إلى الأماكن العامة إلا فى القليل النادر..

وبعدما كان يحيطها بجميع مظاهر العناية والرعاية، صرنا نسمعه يوجه إليها الملاحظات علنا فتتقبلها صاغرة فى صمت وطاعة..

وأبطل الإشارة إليها بقولة «شقيقتى»، فإذا تكلم عنها قال «فوزية» أو «فوزية الكبيرة» تمييزا لها عن فوزية الصغيرة، ابنته الثانية.

وأصبحت معظم اتصالاتهما تتم بواسطة وصيفتها وعن طريقها!

وذهبتُ إليه يوما لعمل، فما كدتُ أدخل الجناح الخاص به، حتى سمعته يصيح غاضبا: هو ده كلام معقول؟ ١٤ ألف جنيه ثمن فساتين، ده شىء يجنن ويطيّر العقل!

ولم أعلم فى بادئ الأمر لمن يقول ذلك، أو عمن يقول ذلك..

ولكن لما سمعته يقول: «أنت فاكرة عندك كام ١٤ ألف جنيه، أنت يظهر عاوزه تعيشى باقى حياتك فقيرة!»، أدركت أنه يخاطب شقيقته فوزية، وخصوصا أننى لم أسمع ردا على كلامه!

وخطوت خطوتين أخريين إلى الأمام، فلمحته قادما من الباب الذى يفصل بين الجناح الخاص به، و«الحرملك»، فقدرت أن فوزية كانت واقفة معه بالقرب من الباب من الجهة الأخرى، فتواريت عن نظره خوفا من أن يقول لى شيئا عنها على مسمع منها، وحسبها الذين سمعوا صياحه من خدمه وخدمها!

وأراد بعض خدمه أن يهدئوا من ثورة غضبه، فأعلموه بقدومى، فما رآنى حتى انفجر مرة أخرى قائلا: اسمع يا سيدى الأخبار، فقد عرفت اليوم أن فوزية اشترت فى أقل من سنة واحدة فساتين بأربعة عشر ألف جنيه، أيوه يا سيدى فساتين بس بـ ١٤ ألف جنيه.. ولولا الصدفة لما عرفت ذلك فى وقته، ولاستمرت فى هذا الإسراف، فهل تتصور ذلك وهل تصدقه؟ فساتين بـ ١٤ ألف جنيه فى أقل من سنة مع كل الفساتين اللى كانت عندها، ليه وعشان إيه؟ علشان شوية عشوات وسهرات تقوم تصرف ١٤ ألف جنيه ثمن فساتين بس، إنت مش شايف إن دى حاجة تجنن؟! هى عندها كام ١٤ ألف جنيه، مش كفاية أختها فائزة! لا هى كمان، علشان يجئ يوم ما يلاقوش مصروفهم.. وتعال يا فاروق ساعدنا، كانه انا ناقص مصاريف والتزامات.. وكان أنا ما عنديش ثلاث بنات لازم أصرف عليهم لما يكبروا، ومصاريف بكام، بكره يطلع الحساب ٢٤ ألف جنيه، حاجة حلوة، حاجة تجنن صحيح!

فقلت: هوّن عليك يا مولانا، ومادمت قد نبهـ

فقاطعنى قائلا: بس أهوّن على نفسى إزاى؟ يعنى إنت موافق على الشغل ده؟

فقلت: اللى فات فات، ومادمت جلالتك قد نبهتها إلى الأمر، فلابد أنها ستمسك يدها من الآن فصاعدا!

فقال: أنا أحب المعقول وما عنديش مانع تصرف على ملابسها ولكن مش بالطريقة دى! وإلا حتروح فين بعدين؟

فتقدمت وقلت له: لابد أنها ستراعى ذلك فى المستقبل..

فقال: لما نشوف!■

كتاب الزاوية

من أشعار سعدى الشيرازى

لن أصغى لمن عذلوا

فافتحْ لنا سبل التوْحيد وامض بها
عسى نُحطِّم أصناماً هى البلوى
فَلذّة الخمر فى عهد الشباب هوى
وفى المشيب نراها عكس ما نهوى
فلا تُضيّعْ إذا ما كنتَ ذا رَشَد
بغفلة منكَ أياماً هى السلوى
فلن تعود لكَ الأيام ثانية
فإنْ تكنْ عاقلاً حاذرْ بها السَّهوا
فإنْ تبختر سَرْوٌ فى حديقته
راحتْ تُجارَى بها قاماتُنا السَّرْوا
أنا المُقيَّد فى حبّى لفاتنتى
أشكو هواها ولم تعرفْ به شكوى
لم تحفظ العهد يوماً لا ولا سئمتْ
عيناىَ منْ نظر يُذكى بها النجوى
تعيش آمنةً وهى التى سلبتْ
قلبى، فلا تُخدعَنْ يوماً بما يُروى

أمر المصير

نحن ما زلنا نغنّى طرباً
وليالينا تُنادى للقبورْ
تحفر القبر لنا أيّامنا
دون أن يشغلنا أمر المصيرْ



علاج الركود وحده لا يكفى

جذور الأزمة فى

أحمد الغندور

إن التضخم بالتهامه شرائح كبيرة من القوة الشرائية للفقراء ولأصحاب الدخل المتوسط، بل وأصحاب الدخل فوق المتوسط، وإطلاقه العنان لارتفاع دخل الأثرياء ، يجرد جبهة عريضة من أنشطة الجهاز الإنتاجى من عملائها من الطبقة ذات الدخل المتوسط و فوق المتوسط. وهكذا يصبح استمرار الإنتاج أو نموه محصورا فى نطاق سلع الفقراء (الحبوب - البقول - السالامون - الملابس الشعبية)



ثار الحوار العام، حادا، حول نقص السيولة والركود، ثم انتهى الحوار سريعا بإعلان الحكومة لعدد من التدابير العاجلة : حقن السيولة المحلية على مراحل فى حدود ١٨ مليارا من الجنيهات ، تعديل قانون الجمارك ـ وقد تم فعلا ـ ليسمح بتعقب السلع المستوردة عقب الإفراج عنها، وعدد من الوعود الحكومية المطمئنة .

لقد فُتح باب الحوار ، ثم أغلق ، تاركا وراءه عددا من التساؤلات أكبر بكثير مما أجاب عليه: هل نقص السيولة والركود وجهان لعملة واحدة ، يؤدى القضاء على أحدهما، بحكم اللزوم، إلى القضاء على الآخر؟ أم أننا أمام ظاهرتين ، لكل منهما أسبابها المستقلة ، و إن ارتبطت الظاهرتان ـ ككل الظواهر فى عالم الاقتصاد ـ ارتباطا معضدا أو متنافرا ؟ ثم سؤال آخر : ما هو حجم كل من الظاهرتين؟ إن ما أعلنته الحكومة من تدابير يشير إلى أن الاقتصاد عرف انحرافا يسيرا عن مساره الطبيعى ، غير أن هذا الإعلان سبقه القول أن معدل نمو السيولة ، قد زاد فعلا خلال السنة السابقة على الإحساس بالأزمة ، بما يقرب من ١٢٪ ، وهو ـ أى المعدل ـ أكثر من اللازم وفقا للحسابات الاقتصادية، ويبشر ـ فى الظروف العادية ـ بوفرة فى السيولة، وليس بنقصها، وبالمثل فإن الوقوف أمام التهريب ، و إن كان إجراء، ضروريا، إلا أنه ليس إجراء كافيا للانتقال من الركود إلى الانتعاش . فما عرفناه من زيادة غير مسبوقة فى قيمة وارداتنا ومن جمود عنيد لقيمة صادراتنا يؤكد، وفقا للتعاليم الاقتصادية الراسخة، أن أمر القضاء على الركود ليس هينا .

كل هذه الأسئلة وأمثالها تعنى أن الحوار حول ظاهرتى نقص السيولة والركود لم يكن شافيا، ولا يمكن النصح بقلب صفحته . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الأدب الاقتصادى ـ بنظرياته ومعامله ـ يدعو إلى رد الظاهرة إلى جذورها الكامنة فى طبيعة تطور الاقتصاد القومى خلال مدة سابقة طويلة نسبيا، فهذه الجذور هى التى تحدد الإطار الحاكم لمولد الظاهرة وانقضائها ، يصبح واضحا أن أمام المجتمع السياسى ـ بقواه الضاغطة وأحزابه ومفكريه وحكومته من التكنوقراط ـ عملا ضخمًا ، يسبقه حوار ضخم، قبل انتخابات تدل كل الدلائل أنها تتجاوز سابقاتها فى المضمون والأبعاد.

ظاهرتان منفصلتان :

من الصعب أن تنحو بنا، النظرة العابرة إلى ظاهرتى نقص السيولة والركود، ناحية القول أننا أمام وجهين لعملة واحدة . فالركود لا يعرف نقص السيولة ، بل يصطحب عادة بالوفرة فى السيولة. ووفرة السيولة ـ بما تحتويه من انخفاض لسعر الفائدة ـ تمهد الطريق إلى الانتعاش، والانخفاض معناه الإقبال على الاقتراض من أجل زيادة الاستثمار وزيادة الاستهلاك، وهما يمثلان الخطوة الأولى على طريق الانتعاش. إذا كان ذلك صحيحا ـ وهو كذلك ـ فلا مناص من الإقرار بأن الركود لا يتصل بنقص السيولة ، اتصال السبب بالنتيجة، والعكس أيضا صحيح. ومع ذلك فإن المعاصرة بين الظاهرتين لابد أن تزيد من وطأة كل منهما .

وتبدو الحقيقة السابقة أكثر وضوحا متى تذكرنا أن الظاهرتين لم تتحدا فى تاريخ الصعود إلى السطح ، فبينما كان الحديث عن «الركود» مستمرا منذ ما يقرب من خمسة عشر عاما، لم يتجه النظر إلى نقص السيولة إلا منذ ما لا يزيد على عام مضى . فقد عرفنا «الركود التضخمى» منذ أوائل حكومة عاطف صدقى ، أى منذ ما يقرب من خمسة عشر عاما. وفى تشخيص هذا النوع من الركود ، يبرز التضخم، ذو المعدل المرتفع والمستمر لمدة طويلة نسبيا ، كسبب مباشر للركود . فالتضخم بالتهامه شرائح كبيرة من القوة الشرائية للفقراء ولأصحاب الدخل المتوسط، بل وأصحاب الدخل فوق المتوسط، وإطلاقه العنان لارتفاع دخل الأثرياء ، يجرد جبهة عريضة من أنشطة الجهاز الإنتاجى من عملائها من الطبقة ذات الدخل المتوسط وفوق المتوسط. وهكذا يصبح استمرار الإنتاج أو نموه محصورا فى نطاق سلع الفقراء (الحبوب - البقول - السالامون - الملابس الشعبية) بعد تحول أصحاب الدخل المتوسط وفوق المتوسط إلى شرائها. والأمر كذلك أيضا فى نطاق الأنشطة التى تنتج للأثرياء (الملابس الفاخرة - السيارات - القصور والمنتجعات). ويزيد من سوء الحال أن السلع المذكورة، سواء كانت للفقراء أو الأثرياء، لا ينتجها الجهاز الإنتاجى الوطنى

الاقتصاد المصرى

بالوفرة اللازمة ، بل يعتمد الاقتصاد ، في جزء كبير منها ، على الاستيراد.

ثم جاء برنامج الإصلاح الاقتصادى والمالى، وهو في جوهره ذو طبيعة انكماشية غالبة، فزاد ذلك من مستوى الركود. ويكفي في تجسيد هذا المعنى أن نذكر أن برنامج الإصلاح قام على أساس رفع أسعار الفائدة إلى مستويات لم يعرفها الاقتصاد القومي من قبل. فقد عرفنا ، لأول مرة في تاريخنا الاقتصادى ، تكلفة للاقتراض من أجل الاستثمار أو الاستهلاك تبلغ ٢٠٪ ، وقد تصل إلى ٢٢٪ . وسعر فائدة كهذا، وإن ساعد على تصفية التضخم ، إلا أنه يساعد، من ناحية أخرى ، على استمرار الركود. ومع ذلك لا نستطيع أن ننكر أن بعض جوانب البرنامج خففت كثيرا من أثره الانكماشي ، فتخفيض العملة الوطنية إلى مستواها الحقيقي ، أدى إلى تمدد القطاع الإنتاجي المحلي وزيادة محدودة في التصدير ، فضلا عن تدفق الاستثمار الأجنبي بمعدلات مرتفعة نسبيا.

إن الظاهرتين - إذن - تختلفان ، في تاريخ الصعود إلى مسرح الأحداث ، لكنهما تختلفان أيضا في أسبابهما وامتداد هذه الأسباب إلى الماضى . وإذا كنا قد أرجعنا الركود في أسبابه إلى ما يقرب من خمسة عشر عاما مضت، فأغلب الظن أن نقص السيولة يمتد ، في أسبابه ، إلى ما قبل هذا التاريخ بكثير. فالسيولة النقدية ، وهي مجموع الدخل النقدى ، تتكون من تراكم الدخل النقدى ونموه عبر السنين . والسيولة النقدية ، طبقا لهذا التعريف، تنبع من حجم الإصدار النقدى وزيادته سنويا، ومن حجم قروض البنوك لعملائها وزيادتها سنويا ، ومن ثم فإن نقص السيولة لابد أن يرد إلى أحد أمرين: أن حجم الإصدار الجديد وحجم القروض الجديدة من البنوك لم يزد بالقدر الكافي، أو أن حجم السيولة النقدية القائم قبل الإصدار الجديد والإقراض الجديد قد تآكل لسبب أو لآخر .

وإذا كنا قد استبعدنا منذ البداية الأمر الأول ، فلم يبق إلا الأمر الثانى. وحجم السيولة النقدية لا يمكن أن يصيبه النقصان إذا كان تيار ما تقرضه البنوك إلى العملاء ، يقابله تيار عكسى من الأقساط والفوائد يلتزم بدفعها عملاء الأمس القريب والبعيد. غير أن بنيان «قروض» الجهاز المصرفي في مصر - وبنوك القطاع العام أساسا - أصابه التركز في أيد محدودة من العملاء ، كما أن آليات الإقراض في هذه البنوك تسمح أن يكون الإقراض على أساس استحسان شخصى - أيا كان منبعه - تجاه العميل الكبير. ومن هنا تزيد مخاطر استرداد البنك لأقساطه ، فضلا عن فوائده. وهكذا أصبح من المقبول منطقيا أن يرد نقص السيولة - في جزء منه - إلى امتناع هؤلاء العملاء الكبار عن دفع الأقساط وملحقاتها إلى الجهاز المصرفي .

أضف إلى ذلك ، أن ما استنفدته المشروعات «العملاقة» من السيولة النقدية بطريق مباشر، من خلال بنك الاستثمار القومي، وبطريق غير مباشر ، من خلال قروض البنوك إلى العملاء المستثمرين في نطاق هذه المشروعات ، لابد أن يكون مسئولا عن جزء من المعاناة . وقد كان للركود أيضا أثره الكبير في حرمان السيولة النقدية من استرداد جانبي الأقساط والفوائد.

والسيولة النقدية شقان ، يتكون أولهما من النقود الوطنية ، أما الشق الثاني فيتكون من العملات الأجنبية . والتحليل المتقدم ينطبق برمته دون تحفظ على السيولة من النقود الوطنية. أما نقص السيولة النقدية في شقها الأجنبي ، فهو الوجه الآخر للعجز في ميزان المدفوعات الدولية، وقصور الاحتياطيات الدولية - أيا كان حجمها - عن سد النقص في السيولة الأجنبية أولا بأول. إذا كان ذلك كذلك ، فإن أمانة القول تقضي أن نرد «نقص السيولة» ، في شقها الأجنبي ، إلى تراكم العجز في موازين مدفوعاتنا منذ بداية الخمسينيات إلى الآن. ومن ثم كان طبيعيا ألا تؤدى التضحية بما يقرب من ثمانية مليارات من الدولارات ، أى ما يقرب من ٣٠٪ من احتياطياتنا الدولية، إلى وقف نزيف تدهور هذه الاحتياطيات، أو إلى إنعاش الأمل في وقفه .

والحق أنه إذا كنا لا نزال نعتقد في سلامة القواعد التي تم على أساسها تصميم برنامج الإصلاح الاقتصادى والمالى، فإن الوقوف أمام تداعيات نقص السيولة والركود يوجب أن تتجه السياسة النقدية للحكومة نحو إجراءين لا ثالث لهما : رفع سعر الفائدة ، والعدول عن ثبات سعر الجنيه أمام الدولار من خلال السماح بالتحرك ارتفاعا وانخفاضا في حدود معينة (٥٪ أو ١٠٪). فالإجراء الأول يؤدى إلى تحجيم الطلب على السيولة وحصره في نطاق العملاء الراغبين في تنفيذ مشروعات ذات جدوى اقتصادية عالية، تضيف إلى الاقتصاد القومي إنتاجا جيدا وتخفف من أعبائه . أما الإجراء الثانى ، فإنه يفتح الطريق أمام زيادة إمكانات التصدير وإمكانات تدفق رأس المال الأجنبي ، وتمدد الجهاز الإنتاجي تمددا يحد من اندفاع سيل الواردات .

ولا يستطيع المرء أن يغالب الشعور بحساسية الحكومة البالغة تجاه رفع سعر الفائدة. وإذا كنا نقدر مخاوف الحكومة - سياسيا - من ارتفاع كبير لأسعار الفائدة ، إلا أننا يجب أن ننبه إلى أن مثل هذا الموقف ، يلقى العبء كله على تخفيض قيمة الجنيه المصرى، وهو أمر تكرهه الحكومة كراهية شديدة ، وفضلها معروف في حض الرأى العام على كراهيته!، فاصبح يعتقد خطأ في ارتباط قيمة العملة بكرامة الاقتصاد الوطنى!! والأمر ليس كذلك على الإطلاق .

ظاهرتان
أم ظواهر عديدة؟

إن التفكير المستمر الملح في ظاهرة نقص السيولة وظاهرة الركود وتداعياتهما، يجب ألا ينسينا ، العديد من الظواهر الاقتصادية ، التي أرقتنا - و لا تزال تؤرقنا - إلى اليوم .

إن ظواهر الفقر، وتواضع مستوى المعيشة والادخار وتمويل الاستثمار، والعجز المزمن في ميزان مدفوعاتنا ، وجمود الصادرات ، وتباطؤ التخصيصية والتردد في الاندماج في الاقتصاد العالمي، هي ظواهر نعيشها منذ زمن سحيق .

هذه الظواهر الغائبة، والحاضرة دوما ، هي المسئولة في حالات كثيرة عن غيرها من الظواهر ، التي لا تعدو في حالات كثيرة أن تكون من قبيل الإفرازات الجانبية لكل أو لبعض الظواهر التي لم تصعد بعد إلى مسرح الأحداث.

بل إن الظواهر السابقة جميعا تتشابك مع بعضها البعض تشابك نسيج العنكبوت، فيصعب التخلص من إحداها دون التخلص من الظواهر الأخرى ، ويصعب أن ننتهي إلى قرار في تحديد نقطة البداية ونقطة النهاية.

دعنا نطبق ما قلناه على ظاهرة نقص السيولة . إن ظهور النقص في السيولة لا يمكن أن ينفصل عن حجم تمويل المشروعات وأنماطه في الاقتصاد ككل، وظهور النقص في السيولة لا يمكن أن ينفصل عن طبيعة التنظيم المؤسسى للجهاز المصرفي وأسلوبه في الإقراض. وأخيرا - وليس آخرا - فإن النقص في السيولة لا يمكن أن ينفصل عن مسار عملية التخصيصية واستخدام حصيلتها. ولنفصل ما أوجزناه.

المفروض أن توزع الدولة بأسلوب مباشر أو غير مباشر ما في حوزة الاقتصاد القومي من أموال على مشروعاته. وأيا كان اسم الوثيقة التي احتوت هذه المشروعات : خطة خمسية ، برنامج بنك الاستثمار القومي، برامج الأعمال الخاصة أو العامة، بل وتصريحات رئيس الوزراء والوزراء. والمفروض أيضا أن الدولة في هذا التوزيع تراعي أولويات معينة ، تمثل قيدا حديديا على «التمويل» في جوانبه المختلفة، وفي التنسيق فيما بين هذه الجوانب . إذا كان ذلك صحيحا - وهو كذلك - فلا يتأتى أن تقرر الحكومة السابقة فجأة تمويل عدد من «المشروعات العملاقة» ، لم ترد في وثيقة الخطة ، دون أن تكلف الحكومة نفسها مشقة تفسير أثر ذلك على ما جاء في الوثيقة من مشروعات ، وتأثير ذلك على مشروعات قطاع الأعمال العام والخاص ....!! إذا حدث هذا ، فلا يتأتى والحال هذه، أن نشكو من اضطراب السيولة أو نقصانها.

أيضا إن الحديث عن حجم السيولة وزيادتها أو نقصانها، يفترض ابتداء جهازا مصرفيا رشيدا في الإقراض، وفي المطالبة والتحصيل عند مواقيت معينة . وهذا الافتراض يفترض بدوره ، أن قمة بنوك الجهاز المصرفي سلطة تخضع لحسابات الثواب والعقاب Accountability، وتسعى جاهدة لتعظيم الأرباح ، والأخير لا ينحصر في النزول بالتكلفة إلى أدنى مستوى ممكن وزيادة العائد إلى أقصى مستوى ممكن ، ولكنه ينسحب ، إلى جانب ذلك ، بل قبل ذلك ، إلى الاطمئنان الكامل إلى عودة أصل القرض. ويختلف الوضع تماما في بنوك جهازنا المصرفي، وعلى وجه الخصوص في بنوك القطاع العام ، صاحبة الجزء الأكبر من قروض الجهاز المصرفي. فهذه البنوك تخضع مباشرة في إقراضها القطاع العام والقطاع الخاص، لأوامر الحكومة ، التي تستقل دون سواها باختيار مجالس إدارة البنوك . فإذا أضفنا إلى ذلك أن آليات الإقراض في هذه البنوك تنتهي في الواقع إلى الاتفاق ، أو غياب الاتفاق ، مع رغبة السيد رئيس مجلس الإدارة، وعدد محدود من المديرين ، الذين يخضعون في ترقياتهم وحوافزهم إلى إرادته المباشرة ، أدركنا على الفور أن الإقراض في هذه البنوك لا يتم في حالات كثيرة بما يكفل عودة القروض - نتيجة لجودة المشروع وجودة صاحبه - إلى تيار السيولة. ولذلك كان طبيعيا، وبعيدا عن المفاجأة ، أن يؤدى انتفاء الموضوعية في الإقراض إلى استبعاد الآليات والضوابط المسئولة عن ضبط إيقاع تغيرات تيار السيولة ارتفاعا وانخفاضا. ولا يجدى حينئذ في تعويض نقص السيولة إصدار جديد، أو رفع لسعر الفائدة ، أو تخفيض لقيمة العملة ، ما دام الجهاز المصرفي بإقراضه المشروع الفاسد والعميل الفاسد ، قد صادر على احتمال عودة أصل القرض وفوائده إلى تيار السيولة. ولعل في ذلك ما يبرئ المؤسسات الدولية، بإصرارها على استبدال الإطار البيروقراطي للجهاز المصرفي بإطار المشروع الخاص، من شبهة التعسف والإضرار.

دعنا الآن ننتقل لمناقشة ارتباط الركود بما أسميناه الظواهر الغائبة الحاضرة . إن ارتباط الركود بهذه الظواهر لا يقل وضوحا ، إن لم يزد. فالفقر وتداعياته هو قيد حديدى على حجم السوق الداخلية، الذى قام جهازنا الإنتاجي

وتطور لإشباعه، بعد أن أوصدت أمامه - لسبب أو آخر - أبواب التصدير. أيضا وبالمنطق نفسه، فإن الأثر الموجب «للتخصيصية» على الركود لا يقل، إن لم يزد ، عن أثرها في تدعيم السيولة النقدية للاقتصاد القومي . فالتخصيصية ، بتحريرها المشروع الإنتاجي من إسار البيروقراطية اللعين ، دفعة قوية لإنتاجية الاقتصاد القومي، فتزيد إمكانياته في النفاذ إلى الأسواق الدولية، وتزيد إمكانياته كذلك في الاحتفاظ بالسوق المحلية والوقوف أمام الواردات، والأمران من الضربات القاضية للركود. إن كل ما تقدم من قول ، يدفع إلى القول ، باطمئنان ، بأن الاهتمام في معالجة كل من نقص السيولة والركود ، بمعالجة ما يحيط بهما من ظواهر، يجب ألا يقل عن الاهتمام بمعالجة كل منهما في أسبابه المباشرة . وهكذا يصبح التخلص من الظاهرتين أمراً شاقاً وصعباً.

إن ما استنفدته المشروعات «العملاقة» من السيولة النقدية بطريق مباشر، من خلال بنك الاستثمار القومي، وبطريق غير مباشر، من خلال قروض البنوك إلى العملاء المستثمرين في نطاق هذه المشروعات ، لابد أن يكون مسئولا عن جزء من المعاناة . وقد كان للركود أيضا أثره الكبير في حرمان السيولة النقدية من استرداد جانبي الأقساط والفوائد



التطور الاقتصادى والاجتماعى ومسئوليته:

والسؤال الآن هو كيف قدر لنا أن نعيش كل الظواهر السابقة بقسوتها وعنادها ؟ هل داهمتنا بين عشية وضحاها ؟ من المسلمات العلمية أن الظواهر السابقة جميعا وأمثالها لا تولد من فراغ، بل هي الميراث الشرعي لتطور ، وبعبارة أدق لتطوير، اتخذ مسارا معينا خلال حقبات عديدة ماضية. ومن ثم يصبح من السذاجة ، أن نقف عند حد التساؤل ، كيف نزيح هذه الظواهر أو بعضها باقتلاع أسبابها المباشرة . إن التساؤل الصحيح المنتج ، هو كيف نقتلع جذور ما نعانيه من ظواهر من مسار تطورنا الاقتصادى والاجتماعى، فهذا المسار هو المسئول الأول والأخير عن مولدها ونموها.

إن الحكم على التطور الاقتصادى والاجتماعى، ومسئوليته عما عانيناه أو نعانيه من ظواهر اقتصادية سلبية ، يتطلب ابتداء ، وقبل كل شيء ، تحديد موقف هذا التطور وأدائه في نطاق ثلاث من القضايا : الإنتاجية - توزيع الدخل - البطالة والعمالة . هذه القضايا قدمها حامل جائزة نوبل الاقتصادى الأمريكىPaul Krugma في مؤلفه «عصر التوقعات المتناقصة / The Age of Diminishing Expectations. كأساس للتقييم الموضوعي للتطور الاقتصادى والاجتماعي ، وكمقدمة ضرورية للحكم على تطور الاقتصاد الأمريكي إبان ولاية كلينتون، أي كمقياس لتقييم الأداء الاقتصادى لرئاسة كلينتون بعد أن اشتهرت برفعة هذا الأداء. فاتجاهات التغيرات الثلاثة، هي المقياس الدقيق لنجاح أو إخفاق تشكيل مضمون التطور، بما يتفق ومقتضيات النمو والتقدم والرفاهة . وهكذا فإن الانشغال ببحث الظواهر الأخرى كالعجز التجارى أو عجز الموازنة العامة أو التضخم أو التنافسية الدولية ، هو من قبيل الانشغال بالفروع دون الأصول، بل إن الانشغال بمعالجة كل أو بعض الظواهر السابقة لن يثمر كثيرا إلا عند مستويات مقبولة وصلدة من النمو والتقدم ومستوى المعيشة. والعكس صحيح ، فالنمو المطرد للإنتاجية ولمستويات الدخول وللعمالة يجنب الاقتصاد القومي ، أو يخفف عنه، حدة الظواهر السابقة .

لقد نجح كلينتون خلال ولايته ، أن يعكس اتجاه الاقتصاد الأمريكي منذ بداية السبعينيات نحو زيادة حدة البطالة. فخلال ولايته نزل حجم البطالة إلى الحدود الآمنة (٥٪). وهذا إنجاز ضخم. غير أن الأمر لم يكن كذلك في نطاق الإنتاجية ، وفي نطاق توزيع الدخل . فقد عرف الجيل الحالي نموا في إنتاجيته أقل بكثير من جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة . فقد كان معدل نمو الإنتاجية ٢,٨٪ خلال الفترة ١٩٤٥ - ١٩٧٠ ونزل إلى ١٪ خلال الفترة ١٩٧٠ - ١٩٩٩ . وهذا التدهور في الإنتاجية عكس نفسه على دخل الغالبية العظمى من الأمريكيين ، الذى سجل ثباتا واضحا خلال الخمسة والعشرين عاما الماضية. وفي المقابل عرف دخل الأغنياء ارتفاعا باهظا، وتعاظم الفقر في أبعاده وكثافته . وهكذا لا يرى Krugma في تطور الاقتصاد الأمريكي ما يبشر مستقبلا باستمرار الاتجاه نحو زيادة العمالة ، أو بصلابة أسس النمو والتقدم الاقتصادى والاجتماعي .

وتأسيسا على ذلك إذا كان الرئيس كلينتون قد استطاع - في تقدير Krugma - أن يكون محل رضاء المواطن الأمريكي ، إلا أن هذا الرضاء لا يستند إلى إنجازات اقتصادية حقيقية شاملة وعميقة . وليس هناك تفسير لذلك - في تقدير Krugma أيضا - إلا أنه مع نهاية السبعينيات، أصبح واضحا أن الاقتصاد الأمريكي قد استنفد فرص «الظرف التاريخي» الذى جعله يخرج من الحرب سالما ليقود عمليات إعادة البناء الأوروبي وسد احتياجات العالم من السلع والخدمات ورؤوس الأموال. ومنذ بداية السبعينيات أصبح الحال غير الحال ، وأصبح على المواطن الأمريكي، بالتالي ، أن يكون أكثر تواضعا في توقعاته ، وأن يعيش مع Krugma «عصر التوقعات المتناقصة» ، أي أن يعيش برضاء اليائس وليس برضاء الأمل.

دعنا الآن نطرق ، أو بعبارة أدق نتحسس، مجرى المتغيرات الثلاثة في حالة اقتصاد مصر ، بالاستناد إلى عدد من الوقائع التي تسمح باتخاذ موقف محدد من اتجاهات هذه المتغيرات خلال ما يقرب من أربعين عاما مضت:

أ - ثمة وقائع ثلاث - يكشف عنها دائما تطور الاقتصاد في مصر - تميل بنا إلى الاعتقاد أن اتجاه الإنتاجية في الماضي لم يكن اتجاها متزايدا أو ثابتا ، وأن اتجاه الإنتاجية إلى التزايد في المستقبل يدعو إلى تغيير واسع النطاق في مضمون التطور وفي القوى المسئولة عن تشكيله:

- لا يختلف الكثيرون في أن مشروع السد العالي كان ولا يزال أحد المحددات الأساسية لإنتاجية الإنسان ورأس المال والأرض. ولا يختلف الكثيرون أيضا في أن تقييم هذا المشروع قد ظلم كثيرا . فقد انقسم المفكرون والاقتصاديون والزراعيون وخبراء الري إلى أنصار لا يعرفون إلا جوانبه الإيجابية الفاضلة، وأعداء لا يعرفون إلا جوانبه السلبية الرذيلة. وقد استمر هذا الوضع إلى الآن ، وتناسى الأنصار والأعداء أن المشروع قد تم فعلا، وأننا لم نول اهتماما ما لبحث آثاره السلبية والقضاء عليها قضاء مبرما ، فهذا القضاء هو الضمان الوحيد لأن يكون للمشروع «أثر إيجابي صاف» يعضد إنتاجية الإنسان والأرض ورأس المال. لقد اكتمل السد العالي «كبناء» ولم يكتمل «كمشروع».



وفي علاقة نمط التصنيع بالإنتاجية نجد الشيء نفسه . فقد اختارت الثورة نمطا صناعيا يقوم - في جزء هام منه - على الحديد والصلب وتجميع السيارات والصناعات الهندسية . ويتميز هذا النمط ، ابتداء ، بانخفاض إنتاجيته والحاجة إلى الحماية العالية المستمرة. فالاقتصاد القومي لا يتميز في إنتاج هذه الصناعات منذ البداية ، وهي لم تكتسب بمرور الزمن إنتاجية أعلى ، فأصبحت تحت تهديد مستمر بالزوال فور رفع الحماية أو تخفيضها إلى المستوى المعتدل دوليا.

- ويمثل نموذج التوطن الصناعي أخطر العوامل شأنا في تفسير تواضع مستوى الإنتاجية وجموده أو تدهوره. فقد حدث أن توطنت الصناعة في شمال القاهرة وجنوبها (حلوان وشبرا الخيمة) ، ليربط بينهما وبين أطراف القاهرة وقلبها ، شرائط ضيقة من الطرق، شرائط لا تطيق التكدس في الناحيتين . وهكذا أصبح على الاقتصاد القومي أن يتحمل إنفاقا رهيبا لإنشاء المرافق العامة ، كنتيجة لازمة عن طبيعة التوطن والتكدس، وهذا الإنفاق الرهيب لا يزيد من الإنتاجية ، ولكنه يوقف أو يخفف من تدهورها.

ب - والآن فلنضف إلى ما تقدم أن اتجاه توزيع الدخل لم يعمل «كرافعة» للتطور الاقتصادى والاجتماعي في مصر. لقد كان موقف ثورة يوليو من توزيع الدخل واضحا . فالثورة - في تعبير موجز - مع طبقة الفقراء وضد طبقة الأغنياء. أو قل - في تعبير رشيق - إن الثورة «تنحاز» إلى طبقة الفقراء ضد طبقة الأغنياء . ولنترك جانبا الآن أية محاولة لتقييم مدى التوفيق في تحقيق هذين الهدفين ، ولنعمق النظر في أثر تطور توزيع الدخل على دخول الطبقة المتوسطة ودخول الشرائح العليا للطبقة فوق المتوسطة. فهذه الطبقة وتلك الشرائح تمثل العمود الفقري «للسلطة» في مصر. وهذه الطبقة وتلك الشرائح تمثل في استهلاكها وادخارها واستثمارها أهم روافع التصنيع والتنمية الاقتصادية عموما.

لقد وجهت الثورة ، في غمار حربها ضد الأغنياء ، إلى هذه الطبقة وتلك الشرائح ضربات قاسية. وما علينا لفهم ذلك إلا أن نسترجع قانون الإصلاح الزراعي ونزوله بالحد الأدنى للملكية الزراعية، وقانون تجميد عقود إيجار الأطيان الزراعية، وقانون تحديد إيجارات المساكن وتأميم المصانع والمشروعات المتوسطة . هذه القوانين وأمثالها جردت الطبقة المتوسطة والشرائح الدنيا من الطبقة فوق المتوسطة من إمكانياتها في الاستهلاك والادخار والاستثمار . ثم جاء الانفتاح وعشوائيته، ثم الموجات التضخمية ليزداد الطين بلة ، على نحو ما أسلفنا بعضه فيما سبق.

ج - وأخيرا ولكل ما تقدم ، لم يعد غريبا ما حمله إلينا التطور الاقتصادى والاجتماعي من بطالة ضخمة ، تقدر - في أكثر الإحصاءات تلطفا ورقة - بالملايين، وتزيد سنويا بمئات الألوف.

التطور المؤسسى ومسئوليته:

إذا كان مضمون التطور الاقتصادى والاجتماعي هو المسئول - في التحليل الأخير - عن اتجاه الاقتصاد القومي إلى الأفضل ، بلا عائق من الظواهر الاقتصادية السلبية التي توقفه وتشده إلى أسفل، فإن السؤال الطبيعي إذن هو ما هي القوى الدافعة إلى تشكيل هذا المضمون وقيادة التطور. ليس علينا في الإجابة عن هذا السؤال إلا أن نتذكر عددا من الحقائق التي تشكل جوهر علم الاقتصاد :

إن ثمة قوانين اقتصادية أساسية تحكم



مسار الاقتصاد القومى وتقدمه، وليست هذه القوانين إلا تأصيلا للقواعد التى تحقق التقدم الاقتصادى من خلال إدارة المواجهة بين محدودية الموارد المتاحة والاحتياجات غير المحدودة للمجتمع . وتستمد هذه القوانين شرعيتها من متابعة وملاحظة تفاعل قوى السوق فى النظام الاقتصادى الليبرالى عبر ما يزيد على قرنين من الزمان . ففى خلال تلك الفترة الممتدة من الزمان ، عُمِّدت هذه القواعد ، كأساس لتوجيه المتغيرات الاقتصادية جميعا ، وكأساس أيضا للسياسات الاقتصادية فى توجيه المتغيرات هذه الوجهة أو تلك . وإذ نكتفى بمثال واحد فحسب، فلننظر إلى تفاعل قوى السوق فى حالة تحديد سعر صرف العملة الوطنية بالعملات الأجنبية . فهذه العملات هى من الموارد النادرة فى ظروف البلاد النامية عموما ، ومن ثم فإن قوى السوق تؤدى - من خلال الارتفاع بسعر العملة الأجنبية - إلى الاقتصاد الكبير فى استخدامها ، لسد احتياجات المجتمع فى نطاق الاستهلاك وفى نطاق الاستثمار.

إن صياغة السياسات الاقتصادية للدولة ليست إلا تطبيقا للقوانين الاقتصادية ، ومن ثم فإن مخالفة هذه القوانين تستتبع جزاء صادما . فإذا أصرت الدولة أن تبقى سعر العملة منخفضا ، نفدت إيرادات وأرصدة الاقتصاد من العملات سريعا ، وواجهت الدولة فى توفير الاستهلاك والاستثمار المعقول الأمرين. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن الحاجة إلى تخفيض العملة الوطنية دليل على قصور السياسات الاقتصادية للحكومة والبنك المركزى - سواء كان مستقلا أم تابعا - فى مجالات كثيرة أهمها: السياسة النقدية ، السياسة المالية ، دعم الإنتاج المحلى، والنفاذ إلى الأسواق الخارجية. ومن هنا فإن إصرار الحكومة والبنك المركزى على تجنب التخفيض يعد من قبيل الخوف من المسألة بأنواعها وأطيافها.

- إن نجاح القوانين والسياسات الاقتصادية فى تحقيق مراميها لصالح المجتمع ككل، رهن بسلامة الإطار المؤسسى الليبرالى والمؤسسات المكونة له . ولنسهب بعض الشىء فى عرض هذه الحقيقة.

ليست المؤسسات الليبرالية إلا الديموقراطية كنظام سياسى ، ودولة القانون كنظام قانونى، وتوزيع السلطة الاقتصادية ، بين الفاعلين Actors فى الحياة الاقتصادية والدولة ، كنظام اقتصادى. (سلطة الدولة فى تصميم وتنفيذ السياسات الاقتصادية والرقابة والعقاب من خلال المؤسسة القانونية - سلطة المنتجين فى اختيار المشروع والمنتج - سلطة النقابات فى المساومة على تحديد مستوى الأجر - اتحادات المستهلكين ....)

والحق أن انهيار النظام الاشتراكى فى الاتحاد السوفيتى فى لحظات معدودة، وبعد ما يقرب من قرن من تطبيقه، باعتباره «البديل» الأمثل للنظام الاقتصادى الليبرالى، جاء أبرع «اختبار تاريخى» لمصداقية قوانين ومؤسسات النظام الليبرالى. لقد تنكرت التجربة الاشتراكية « للمؤسسات الليبرالية جميعا»، واعتقدت خطأ أن إحلال السلطة المركزية الشاملة بديل أكثر عقلانية وأكثر عدلا.

وإذا كان الفكر الاشتراكى وتطوره لم يجرؤ على إنكار القوانين الاقتصادية الليبرالية، إلا أنه اعتقد خطأ أن السلطة المركزية الشاملة «وأجهزتها» تستطيع بسهولة أن تتقمص روح هذه القوانين، وأن تصدر القرارات والأوامر التى تضمن تطبيقها واستبعاد ما يشوب هذا التطبيق من شوائب. ولكن سرعان ما تبدد هذا الأمل فى إقامة المدينة الفاضلة. فسرعان ما تبين أن النظام الاشتراكى قد أحل محل «المؤسسات الليبرالية» المؤسسة البيروقراطية ، وأن هذه المؤسسة عاجزة عن تقمص القوانين الاقتصادية الطبيعية القائمة على قوى السوق أو أن تضع بديلا عنها، وليس هنا مجال حديث مفصل عن المؤسسة أو الطبقة البيروقراطية، ولكن يكفى أن نشير إلى حقيقتين، كان الفضل فى إبرازهما لحامل جائزة نوبل الأستاذ Hayek ولأئمة المدرسة المؤسسية فى علم الاقتصاد: وأولى هاتين الحقيقتين ، هى أن الطبقة البيروقراطية تستقل بوجودها وحياتها عن وجود المجتمع وحياته . أما الحقيقة الثانية فهى أن قيادات النظم الاشتراكية والشمولية فى اختيارها للأعوان من الطبقة البيروقراطية تستبعد عادة أفضل العناصر ، وتتحيز للعناصر الانتهازية الضعيفة مهنيا وثقافيا . والنتيجة الطبيعية لتفاعل هاتين الحقيقتين هى فى كثير من الحالات أن تتناقض المصالح الخاصة للطبقة البيروقراطية مع المصالح الاقتصادية للمجتمع.

إن التحليل السابق - على إيجازه - يمدنا بكل مقومات مسئولية التطور المؤسسى، على امتداد ما يقرب من أربعة عقود كاملة ، عن طبيعة التطور الاقتصادى والاجتماعى فى مصر ، وعما واجهناه ونواجهه من ظواهر اقتصادية واجتماعية ، إيجابية كانت أم سلبية.



منذ بداية الستينيات أزاح النظام الاشتراكى تماما الإطار المؤسسى الليبرالى، وأحل محله الإطار المؤسسى الاشتراكى. ففى



من أشعار سعدى الشيرازى

أخبار الحبيب

يا منْ لديكَ من المحبوب أخبارُ
لا ترو إلا الذى نهوى ونختارُ
ما كان أجمل منه أنْ تُحدثنا
أو كان من سامعيه منكَ إخبارُ!

* * *

إعلام

فيا خليليَّ هل علمٌ بقافلة
حتى نُقَبِّلَ للحادينَ أقداما
إنْ كان بالمال فَدّى الناس مَنْ عشقوا
فنحن بالروح نَفدى عنه إعلاما

* * *

إنى صريع هوى

إنّى صريعُ هواه والذى نظرتْ
عيناه حالى ينادى : يرحم اللهُ
إنْ فزتُ يوماً بوصلٍ صرتُ خادمَهُ
وكلّ ما يرتضى منّى سأرضاهُ
يفارق الناسُ دنياهم بكلّ أسىً
أمّا شهيدُ الهوى فالسعد يغشاهُ
ما مرّ فى قلب سعدى غيرُ فاتنه
وليس يملأه إلاّهُ إلاّهُ

* * *

لا يستطيع المرء أن يغالب الشعور بحساسية الحكومة البالغة تجاه رفع سعر الفائدة. وإذا كنا نقدر مخاوف الحكومة - سياسيا - من ارتفاع كبير لأسعار الفائدة، إلا أننا يجب أن ننبه إلى أن مثل هذا الموقف، يلقى العبء كله على تخفيض قيمة الجنيه المصرى، وهو أمر تكرهه الحكومة كراهية شديدة، وفضلها معروف فى حض الرأى العام على كراهيته!

نطاق النظام الاقتصادى كان التأميم، والنزول بالحد الأقصى للملكية الزراعية، والحراسات. وإذ اتسعت ملكية الدولة لوسائل الإنتاج اتساعا شاملا، أقيم نظام التخطيط المركزى الشامل. وهكذا ولدت ونمت البيروقراطية فى مصر لتتولى - بالاشتراك مع مراكز السلطة السياسية والاقتصادية - قيادة التطور الاقتصادى والاجتماعى.

ويعتبر إعداد الخطة الخمسية الأولى (٦٠ - ٦٥) نموذجا جيدا للسلوك البيروقراطى فى مجال تسيير الاقتصاد القومى. ففى إعداد الخطة الخمسية الأولى تناست البيروقراطية - أو لم تستطع - دراسة نماذج التنمية وأنماطها، ومن ثم جاءت مشروعات الخطة تجميعا للمشروعات المقترحة من الإدارات الفنية، دون أن تمر بمصفاة الأولويات الاقتصادية القائمة على ما للمشروع من أثر على ميزان المدفوعات والعمالة والقدرة على التصدير والإحلال محل الواردات. وقد سار الأمر على المنوال نفسه فى الخطط التالية. ويضيق المقام عن الاستطراد فى تحليل آثار «السلوك» السابق على التقدم الاقتصادى، ومع ذلك نجتزئ أمرين:

- أهملت البيروقراطية المصرية - ممثلة فى جهاز التخطيط - فى إعدادها للخطة الخمسية الأولى النماذج والسيناريوهات التى أعدها الاقتصاديان الدوليان Ragner (Frisch - Tinbergen) تلبية لطلب جهاز التخطيط ذاته! وليس هناك من تفسير لذلك إلا حرص البيروقراطية المعروف على إقناع السلطة العليا بأنها قادرة دائما على الإنجاز السريع.

إن اختيار مضمون التطور الاقتصادى والاجتماعى فى مصر، منذ بداية الثورة إلى بداية الليبرالية الاقتصادية المتواضعة سنة ١٩٧٥، هو اختيار بيروقراطى، فرضته السلطة. وهذا الاختيار يختلف، جملة وتفصيلا، عن الاختيار الليبرالى فى نطاق اتخاذ القرار الاقتصادى. فالقرار الاقتصادى، فى إطار الليبرالية، هو تأصيل «Synthesis» لمصلحة المجتمع، كما انتهى إليها التفاعل الحر للقوى الاقتصادية المتعارضة (رجال الأعمال، النقابات، ....) وبعد تهذيبه، من خلال تدخل الدولة بمؤسساتها، وفى ظل توجيه ومتابعة ورقابة المؤسسة السياسية الليبرالية والمؤسسة القانونية الليبرالية. وهذا التفاعل الحر للقوى الاقتصادية لا يتم اعتباطا، بل وفقا لقوانين اقتصادية موضوعية تستمد أسبابها من الواقع الاقتصادى والاجتماعى والسياسى، وفقا لقوانين اقتصادية عَمَّدتها التجربة الليبرالية خلال ما لا يقل عن قرنين من الزمان. ولقد أثبتت تجربة النظام الاشتراكى، خلال ما يقرب من قرن كامل، أن جزاء الانحراف عن المسار، كما تحدده هذه القوانين، هو الانهيار الكامل.

ومنذ بداية الانفتاح عاودت البيروقراطية سيرتها الأولى، بسلوك ينسجم والظروف الاقتصادية الجديدة. «فالانفتاح» اختيار فرضته السلطة السياسية العليا، ثم أسلمت قيادته للقاعدة البيروقراطية، فاستطاعت أن تغير مساره وأن تطوعه لخدمة مصالحها. وهكذا رأينا قطاع أعمال خاصا يخرج من رحم القطاع العام، ثم يتفقان سرا وعلانية على اقتسام الغنم دون الغرم. وما على القارئ إلا أن يتذكر استئثار رجال القطاع العام، وهم رجال الأعمال الجدد، بالوكالات التجارية الأجنبية للقطاع العام الأم، بالشركات المشتركة فيما بينهم وبين القطاع الأم، بالمقاولات من الباطن، وبالاستيراد ..... !!!



وإذا كانت الثمانينيات والتسعينيات قد رأت بدايات المعالم الأساسية للإطار الليبرالى: الأحزاب، حرية الصحافة، الانتخابات النيابية، أحكام المحكمة الدستورية العليا، التخصيصية، إلا أنها رأت أيضا التفاف البيروقراطية حول أهداف النظام السياسى والاقتصادى لحماية مكاسبها الاقتصادية: صب حصيلة التخصيصية فى محفظة الشركات القابضة لإصلاح الشركات الفرعية التى أفسدتها من قبل، تأجيل التخصيصية فى البنوك وشركات التأمين ضمانا للاستمرار فى الإقراض الفاسد، وفى إنشاء الشركات المشتركة مع رجال الأعمال الجدد .... !!



لقد نجحت البيروقراطية القارضة أن تحل محل الرأسمالية المستغلة والقوة العاملة المستغلة، وأن تقتات علىَ حقوقهما وحقوق الشعب أجمع.

والحق أن استقراء ماضى التطور الاقتصادى والاجتماعى فى مصر يجعل من استكمال بناء النظام الليبرالى، بمؤسساته جميعا، هو الضمان الوحيد لتطور مستقبلى صحى وعادل. فلندع التردد جانبا، ولنذكر دائما أنه - بانهيار الاتحاد السوفيتى - أصبح الإطار المؤسسى الليبرالى بمؤسساته نوعا من «الحتمية الواقعية».

من يسيطر على الماضي

■■ عندما كنت أثير، أنا وغيري، موضوع الخطر الإسرائيلي على الثقافة العربية، كان يتصدى لنا من يقول بأنه لا خطر هناك بالمرة على ثقافتنا. ثقافتنا قوية وراسخة الجذور، هكذا كان يقال لنا، ولا خوف عليها من إسرائيل أو من غيرها. كان هؤلاء المعترضون على استعداد لمناقشة أخطار إسرائيل الاقتصادية أو السياسية، أما الثقافة فلا، إذ كيف نتصور، هكذا كانوا يقولون لنا، أن دولة بهذا الحجم الصغير من السكان، وبلا تاريخ يذكر، وبلا ثقافة متميزة، تشكل تهديدا لثقافة عريقة، ذات تاريخ ممتد إلى أقدم العصور، أو للغة راقية كاللغة العربية، قدمت إلى الإنسانية أعمالا خالدة في الشعر والنثر، ويصونها ويحفظها إلى الأبد القرآن الكريم، فهي باقية ما بقي القرآن. فإذا كان المقصود بالثقافة شيئا أوسع من هذا، بحيث تشمل مجموعة القيم والتقاليد والعادات وأنماط السلوك، فكيف نخاف على ثقافتنا، بهذا المعنى، من الإسرائيليين؟ إن الإسرائيليين لا يملكون ثقافة مستقلة بهذا المعنى، فثقافتهم، في أحسن الأحوال، جزء من ثقافة الغرب. وإذا كان الغرب لم يستطع استئصال الثقافة العربية من جذورها والإطاحة بها، فكيف بالإسرائيليين؟ بل فلننظر إلى الثقافة السائدة داخل إسرائيل نفسها، هكذا ردّ علينا هؤلاء الذين استخفوا كلامنا عن الخطر الثقافي الإسرائيلي، فإذا كان هناك بعض أنواع الطعام المنتشرة داخل إسرائيل والمتميزة عما يعرفه الغربيون، فهي أنواع من الطعام العربي، وتليفزيونهم يعتمد اعتمادا كبيرا على الافلام العربية، والعرب داخل إسرائيل لازالوا يمارسون عاداتهم وتقاليدهم العربية، فلم تنجح خمسون عاما من خضوعهم لإسرائيل في النيل من هذه العادات والتقاليد، فإذا كان الأمر كذلك داخل إسرائيل نفسها، فكيف نستشعر الخطر على الثقافة العربية خارج إسرائيل؟

لم يكن لأيّ من هذه الردود أي أثر عليّ، ولم تنجح في التخفيف من خوفي من الخطر الثقافي الإسرائيلي قيد أنملة، بل كان خوفي يزداد مع مرور الأيام منذ رفع شعار «التطبيع»، ولم يكن هذا الخطر في نظري شيئا يُخشى وقوعه في المستقبل بل كنت أراه كشيء بدأ حدوثه بالفعل، وكأنه السكين التي أغمد طرفها في الجسم العربي ويزداد الضغط عليها يوما بعد يوم فيزيد نفاذها في الجسم شيئا فشيئاً. كنت مثلا أكاد أرتجف عندما أسمع عن زيارة لحاخام إسرائيلي للشيخ الأكبر للجامع الأزهر ثم أسمع بعدها ببضعة شهور عن تخفيض الساعات المخصصة لتعليم اللغة العربية في المعاهد الأزهرية. كنت أيضا أرتجف خوفا عندما أسمع عن مشروع لتطوير التعليم عن طريق تغيير المقررات لجعلها أكثر اتفاقا مع مقتضيات «عصر السلام» وأكثر تشجيعا على قبول «الآخر»، والآخر بالطبع ليس إلا إسرائيل، (إذ إني لا أعرف «آخر» آخر يمكن أن تكون له مصلحة في تغيير مقرراتنا التعليمية على هذا النحو). بل إني كنت دائما منذ أن رفع شعار التطبيع ثم شعار الشرق أوسطية، أجد نفسي أشتد امتعاضا بكثير من أي خطوة تتخذ نحو التطبيع الثقافي بالمقارنة بخطوات التطبيع الاقتصادي رغم أني أشتغل بتدريس الاقتصاد وليس بتدريس الأدب أو علم الاجتماع. نعم، كان خبر مثل بيع مصر للغاز الطبيعي لإسرائيل له وقع ثقيل جدا على نفسي، ولكن من المؤكد أن جزعي منه كان أقل من جزعي من العبث بمقررات اللغة العربية في الأزهر أو خارج الأزهر أو من تطوير التعليم في المدارس ليتفق مع اعتبارات «السلام» و «قبول الآخر» الخ.



ليس من المستحيل عليَّ تفسير هذا التغليب للثقافة على الاقتصاد، ولكن هذا التفسير كان بالنسبة لي شيئا لاحقا لرد الفعل الطبيعي والتلقائي لما كنت أشاهده من تطبيع في هذا الأمر أو ذاك. فإذا أراد القارئ مني أن أقدم له حيثيات هذا التغليب للخطر الثقافي على غيره من الأخطار، فها هي ذي بعض هذه الحيثيات.

إن العلاقات الاقتصادية بين الناس تتعلق في نهاية الأمر بتبادل السلع. صحيح أنها أيضا تتعلق بتبادل الخدمات، ولكن معظم هذه الخدمات التي تدخل في العلاقات الاقتصادية تتعلق بتسهيل حركة السلع، كالنقل والتأمين وخدمات البنوك، وتجهيز وتوصيل السلع للمستهلك النهائي أو الدعاية للسلع وترويجها..إلخ ونحن نعرف أن عالم السلع شيء مختلف عن عالم الثقافة. صحيح أن لكل منهما تأثيرا لا يمكن إنكاره على الآخر، ولكنهما يظلان مع ذلك عاملين مختلفين أشد الاختلاف. إنه ليس مجرد لعب بالألفاظ القول بأن «المرء يملك السلعة، ولكن الفكرة تتملكه». صحيح أن السلع يمكن، هي بدورها، أن تتملك الشخص إذا زاد شغفه بها عن حد معين، كما أن الفكرة التي قد تتملك الشخص قد تتعلق بحيازة سلعة أوجمع مزيد من المال. ومع ذلك فإن التمييز بين العاملين يظل مفيدا وضروريا، وهذا هو بالضبط ما يجعلنا جميعا نعلق أهمية كبيرة على نوع التعليم الذي يتلقاه أولادنا في المدارس، ونوع البرامج التي يشاهدونها في التليفزيون، أهمية كثيرا ما تفوق ما نعلقه من أهمية على زيادة الإنتاج من هذه السلعة أو تلك. فبالتعليم والتليفزيون يمكنك أن تتحكم في عقول الناس وميولهم بأكثر مما يمكنك تحقيق ذلك عن طريق زيادة أو إنقاص حجم السلع المطروحة في الأسواق أو تغيير نوعها.

من هنا كان أثر الثقافة عميقا وراسخا بأكثر من أثر أي تنظيم اقتصادي. إن من السهل على أية حكومة أن تصدر من القرارات ما من شأنه قلب النظام الاقتصادي في الدولة رأسا على عقب، بين يوم وليلة، وتغيير نمط العلاقات الاقتصادية تغييرا هائلا في غمضة عين - ولكن ليس من الممكن أن تتصور مثل ذلك في عالم الثقافة والأفكار والقيم - مهما كان توزيع الدخل والثروة ظالماً، فإن من الممكن أن نتصور أن يجرى تصحيحه في فترة قصيرة، بمجرد أن تتهيأ لأصحاب السلطة الرغبة والقدرة على إصدار القرارات اللازمة، إذ لا يتطلب الأمر أكثر من أن تأخذ من هذا بعض ما يملكه لتعطيه لذاك. أما تغيير رغبات الناس وميلهم إلى نوع من السلع بدلا من نوع آخر، وتحويل أذواقهم من منتجاتهم الوطنية إلى منتجات غيرهم، أو تفضيل عادات أجنبية على عاداتهم وترويضهم على هجر التعبير عن أنفسهم بلغتهم القومية، إلى التعبير بلغة أخرى فامر ليس بهذه السهولة، فإذا حدث فإن من أصعب الأمور إصلاحه - نعم، ليس من السهل إضعاف تملك اللغة العربية لنفوسنا وحبنا لها وشغفنا بها، ولكن متى تم إضعاف ثقتنا بها، وبث الشعور بالاحتقار لها، وتعويدنا على التعبير عن أنفسنا أو حتى التفكير بغيرها، فمن أصعب الأمور أن تستعيد اللغة العربية مكانتها المفقودة.



لهذا كان من أكثر الطرق فعالية للسيطرة على الاقتصاد السيطرة على الثقافة ومن يستطيع أن يسيطر على ثقافة أمة ما، يسهل عليه التحكم في اقتصادها إن رواج سلعة كالبلوجينز أو الكوكاكولا أو سندوتش الماكدونالد لا يعود إلى الصفات الذاتية لأي من هذه الأشياء، بل إلى سطوة نمط معين من أنماط الحياة هو النمط الذي يرمز إليه كل منها. فارتداء البلوجينز ليس مجرد ارتداء لسروال أو مجرد تغطية للساقين بل هو إعلان للناس بانضمامك إلى ما يمثله البلوجينز من طريقة في الحياة. والكوكاكولا ليست مجرد طريقة للتخلص من العطش، بل ولا هي طريقة فعالة لذلك إذا قورنت بغيرها، كما أن سندوتش الماكدونالد ليس مجرد وسيلة للتغذية ولكن كلا منهما رمز لنمط الحياة الأمريكي، ومن ثم فإن نجاح كل من هذه الرموز في الانتشار والرواج يتضمن ترويجا لبقية الرموز الاخرى لنفس النمط من أنماط الحياة، وهزيمة وتراجع بعض السلع الوطنية المنافسة لبعض هذه الرموز يتضمن هزيمة وتراجعا لسلع وطنية أخرى قد لا تكون هناك أي صلة بينها، اللهم إلا انتسابها لنوع معين من الثقافة.

على أن كل ما ذكرته حتى الآن لا يمس إلا مساً خفيفاً المبرر الحقيقي لتغليب الثقافة على الاقتصاد، فهذه الأمور كلها تصب في نهاية الأمر في شيء واحد وهو أن الثقافة بمعناها الواسع، الذي يشمل، ليس فقط الإنتاج الفكري للأمة، بل يشمل أيضا عاداتها وقيمها ونوع نظرتها للأمور وأسلوب تعبيرها عن نفسها، ليست إلا شخصية الأمة نفسها وروحها، بينما الاقتصاد ليس إلا ما تحوزه وتملكه - الخسارة الاقتصادية التي قد تصيب الأمة ليست إلا نقصانا في الثروة، أما فقدانها لثقافتها فشئ أقرب إلى الموت. والثروة يمكن تعويضها أو استعادتها ولكن الموت حاسم ونهائي. صحيح أن كل الثقافات تتعرض للتغيير، ويتأثر بعضها ببعض، وليس هناك من الثقافات ما يبقى على حاله إلى الأبد، ولا حتى هذا بالأمر المطلوب أو المرغوب فيه، تماما كما أن شخصية الفرد تذوي بالعزلة وتقوى بالاتصال بالغير. ولكن تفاعل الثقافات شيء وقهر واحدة لأخرى شيء آخر. وهذا القهر من ثقافة لأخرى هو الذي يشبه الموت، بينما الاتصال الحرّ بين الثقافات، الخالي من أي مظهر من مظاهر القهر والإذلال هو الأمر المطلوب والمرغوب فيه.

عندما أفكر في ضوء ذلك، في اعتراضات المعترضين على كل من يحذر من خطر إسرائيل على الثقافة العربية، وفي ادعائهم أن الثقافة العربية راسخة وباقية ولا خوف عليها من إسرائيل أو من غيرها، يتضح لي أن هذه الاعتراضات ليس منشؤها في الحقيقة ثقة عالية بقدرة الثقافة العربية على الصمود، بل منشؤها الحقيقي قلة الاكتراث بأمر هذه الثقافة أصلا. إن الذين يقولون لنا إنه لا مبرر للخوف على الثقافة العربية إنما يقولون ذلك ليس بسبب ثقتهم بقوة الثقافة العربية وإنما بسبب استخفافهم بأمرها. هذا الاستخفاف قد يكون سببه هذا الميل الشائع في العصر الذي نعيش فيه لتغليب أمور الاقتصاد على كل ما عداها. فإذا كان تطبيع العلاقات مع إسرائيل يساعد على التقدم التكنولوجي، ويزيد من معدل نمو الناتج القومي، كما يعتقد بعض هؤلاء، فما الذي يقلقك بالضبط؟ وما أهمية تلك الثقافة التي تتكلم عنها وتصدّع رءوسنا بسببها إذا قورنت بمعدل النمو الاقتصادي؟

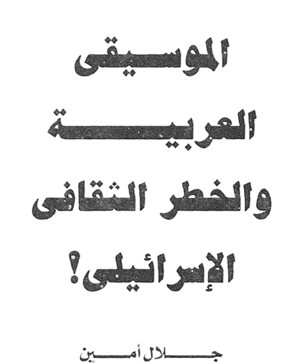
ولكني أعتقد أن السبب الأهم لهذا الاستخفاف بالخطر الثقافي هو شيء أفظع وأشنع من مجرد تغليب الاقتصاد على الثقافة. إنه في الحقيقة احتقار هذه الثقافة التي ندعو لحمايتها. فهؤلاء لا يقلقهم مصير اللغة العربية أو الأدب العربي أو القيم الأخلاقية أو الاجتماعية العربية أو الإسلامية ليس بسبب ثقتهم بقدرتها كلها على الصمود أمام القوة الإسرائيلية، ولا حتى في الأساس بسبب تغليبهم للاعتبارات الاقتصادية على مصير اللغة أو الأدب أو الفنون أو القيم، وإنما لأنهم لا يشعرون بولاء خاص لهذا التراث من اللغة والأدب والفنون والقيم، بل إنهم لو أتيحت لهم فرصة الكلام بمطلق الحرية لأشبعوا هذا التراث استهزاء وتحقيرا.

ولكن ليس كلنا، لحسن الحظ، من هذا النوع من الناس، بل ولا معظمنا، وإن كان بعضنا يهيم حبا بهذا التراث أكثر من غيره. وقد توفي منذ أسابيع قليلة في القاهرة رجل كان يهيم بجزء معين من هذا التراث، هو تراثنا الموسيقي. اسم الرجل عبدالعزيز عناني. لم يكن مشهورا، بل ولم تحظ وفاته باهتمام كبير من وسائل الإعلام في مصر أو غيرها. ذلك أنه لم يكن مؤلفا للموسيقى بل ولا حتى عازفا أو مطربا. ومع ذلك فإن الخدمة التي أداها للموسيقى العربية قد تفوق ما أداه لها كثير من المؤلفين الموسيقيين والعازفين والمطربين، فقد كان ما عكف عليه هذا الرجل طوال حياته ليس أقل من محاولة مستميتة للاحتفاظ للمصريين والعرب بذاكرتهم فيما يتعلق بهذا الفن الجميل.

سمعت عنه لأول مرة من صديق فلسطيني يقيم بالولايات المتحدة، وجاء إلى القاهرة لسبب

إن الإسرائيليين لا يملكون ثقافة مستقلة بهذا المعنى، فثقافتهم، في أحسن الأحوال، جزء من ثقافة الغرب وإذا كان الغرب لم يستطع استئصال الثقافة العربية من جذورها والإطاحة بها، فكيف بالإسرائيليين؟ بل فلننظر إلى الثقافة السائدة داخل إسرائيل نفسها، هكذا ردّ علينا هؤلاء الذين استخفوا كلامنا عن الخطر الثقافي الإسرائيلي





الموسيقى العربية والخطر الثقافى الإسرائيلى!

جلال أمين

واحد هو أن يحظى بمقابلة عبدالعزيز عنانى. كان هذا الصديق الفلسطينى موسيقيا موهوبا وعاشقا بدوره للموسيقى العربية ولكنه اكتشف أن هناك دورا لحنه محمد عثمان فى أواخر القرن التاسع عشر ولم يسمعه قط. وقيل له إن أمله الوحيد فى الاستماع إليه هو أن يذهب إلى عبدالعزيز عنانى الذى يملك أكبر مكتبة للموسيقى العربية. فإن لم يجد تسجيلا لهذا الدور عنده، فالأرجح أنه لن يجده لدى أى شخص آخر. أخذت من صديقى عنوان عبدالعزيز عنانى ورقم تليفونه، واتصلت به وطلبت زيارته فقبل ذلك بأدب وذهبت إليه. كان يسكن فى شقة متواضعة فى شارع صغير من شوارع جزيرة الروضة. وكنت قد سمعت من صديقى الفلسطينى عما يعانى منه عبدالعزيز عنانى من الشعور بالاكتئاب بعد حادث سيارة أضعف بشدة من قدرته على الحركة. وقد رأيته يمشى بصعوبة مستندا على عكاز ولا حظت بالفعل قلة ابتهاجه بالحياة وإن كان هذا لم يمنعه من التدفق فى الحديث عن ذكرياته عن بعض كبار الموسيقيين المصريين الذين عرفهم عن قرب. لم يشب حديثه معى أى افتخار أو تباه بمكتبته الموسيقية وإن كان قد أخرج من درجه عددا كبيرا من الكراريس التى دون فيها أسماء ما جمعه من تسجيلات لكل من يخطر ببالك ومن لا تعرفه من المطربين والمطربات والموسيقيين المصريين منذ منتصف القرن التاسع عشر، سواء ما غنوه بأنفسهم أو غناه لهم آخرون بعد وفاتهم وسجلوها بأكثر وسائل التسجيل بدائية، حتى قبل اختراع الأسطوانات فاحتفظوا لنا بالألحان الأصلية.

لم تكن مهنة عبدالعزيز عنانى الموسيقى، بل كان يعمل حتى سن المعاش أستاذا للرياضيات فى بعض المدارس الثانوية ولكن حبّه للموسيقى غلب على أى شاغل آخر، فراح يجمع ويسجل ويقرأ عن تاريخ الموسيقى العربية، وألقى عنها محاضرات وأحاديث فى الإذاعة كلما طُلب منه ذلك، وساعد كل من أراد الحصول على بعض التسجيلات النادرة ولكنه، كما يبدو من شقته المتواضعة وطريقة حياته، لم يجمع ثروة من وراء ذلك ولا كان هذا واحدا من طموحاته.

سألته عن محمد القصبجى ورأيه فى مكانته فى تاريخ الموسيقى العربية بالمقارنة بزكريا أحمد والسنباطى وعبدالوهاب، فقال: إن عبقرية القصبجى ربما فاقت عبقرية الجميع ولكن مشكلته كانت قلة اعتزازه بنفسه، وقد جعله ذلك يقبل معاملة من أم كلثوم لم يكن يقبلها زكريا أو السنباطى. كان الوحيد الذى لم تكن أم كلثوم تجرؤ على إغضابه هو السنباطى، وعندما تجرأ القصبجى مرة وسألها عن السبب فى إعطائها أجرا للسنباطى على ما يلحنه لها يفوق بكثير ما تعطيه له هو، قالت له أم كلثوم إن لكل امرئ الثوب الذى يناسب حجمه، وسكت القصبجى ولم يعترض.

فوجئت منذ أسابيع قليلة بخبر وفاة عبدالعزيز عنانى مقرونا بالخبر الفظيع التالى، وهو أن إسرائيل عرضت عليه فى أواخر أيامه أن تشترى منه مكتبته الموسيقية، فرفض وليس لدىّ بالطبع ما يؤكد صحة الخبر المتعلق بإسرائيل أو ينفيه ولكنى أصدقه، فهذا بالضبط هو ما أتوقع أن تفعله إسرائيل ليس فقط مع التراث الذى تركه عبدالعزيز عنانى، ولكن أيضا مع كل تراث عربى مماثل، سواء تعلق بالموسيقى أو السينما أو أى قطعة غالية من التاريخ المصرى أو العربى أو الإسلامى. وقد قرأنا منذ بضعة أيام خبرا عن صدور موسوعة جديدة موجهة للطفل المصرى، ولكن تم إعدادها فى أمريكا، تعيد كتابة التاريخ المصرى على النحو الذى يمحو من عقل الطفل المصرى أى اعتزاز يمكن أن يشعر به بحادث قومى، أو شخصية وطنية عظيمة فى تاريخه، ويعيد كتابة أحداث التاريخ بما يتفق مع ما تريد إسرائيل أن يستقر فى العقل المصرى والعربى، بحيث تستقر فى الذهن صورة عن إسرائيل مخالفة تماما للحقيقة، ولكنها متفقة تماما مع مصالحها ومطامحها. عندما قرأت ذلك عدت إلى التفكير فى خبر العرض الإسرائيلى بشراء مكتبة عبدالعزيز عنانى فى الموسيقى، ورأيت الهدف الواحد فى الحالين: السيطرة على العقل العربى وإعادة تشكيل الذاكرة العربية.

ما الذى يمكن أن تحققه إسرائيل بالضبط من وراء هذا أو ذاك؟ ما قيمة التاريخ عندما يكون الغرض السيطرة على الحاضر والمستقبل؟ وما قيمة الذاكرة خاصة إذا تعلقت بشىء كالموسيقى، عندما يتعلق الأمر بمصالح اقتصادية وسياسية ومكاسب مادية ملموسة؟

قد تبدو الموسيقى مجرد فن من الفنون، كما قد يبدو التاريخ وكأنه شىء حدث فى الماضى وانتهى أمره - ولكن الفنون هى التعبير عن روح الأمة، والتاريخ هو ذاكرتها. والأمة التى تحرم من تراثها الفنى والأدبى كالشخص الذى فقد ذاكرته وفقد القوة الدافعة إلى الحركة والحياة، ومن ثم يصبح من السهل توجيهه إلى أى وجهة وتشكيله على أى صورة - ليست المسألة هى فقط فقدانه لمصدر مهم من مصادر اعتزازه بنفسه وثقته بها، بل المسألة أخطر من ذلك. إنها تنطوى على فقدان القدرة على الإبداع فى المستقبل، إذ لا يتصور إبداع بدون استناد إلى تراث وفقدان القدرة على الإبداع يجعل المرء غير قادر إلا على التقليد والمحاكاة، وعلى الانصياع لما يصدر إليه من توجيهات.

ما الذى يمكن أن تفعله إسرائيل بتراثنا الموسيقى أو غيره مما يمكن أن يصل بالعرب إلى مثل هذا المصير؟ هل يمكن أن تمحو بعضه محوا؟ أو تتحكم فيما نسمعه وما لا نسمعه؟ هل يمكن أن تقص علينا قصة تطورنا الموسيقى على النحو الذى يلائمها ويتفق مع رؤيتها لتاريخها وتاريخنا؟ هل يمكن أن تزعم أن أعظم موسيقيينا كلهم من اليهود أو الصهاينة؟ وهل يمكن أن تظل تلح على هذا إلحاحا حتى نصدّقه إذ لن يكون بيدنا حينئذ ما نقدمه لدحض ما تزعمه؟

نعم، كل هذا هو بالضبط ما يجب أن نتوقعه، إذا سمحنا لإسرائيل بأن تضع يدها على تراثنا الموسيقى أو على أىّ جزء آخر من تراثنا.





فى رواية جورج أورويل الشهيرة (١٩٨٤) كان بطل الرواية يعمل فى وزارة اسمها وزارة الحقيقة، ولكن وظيفتها الحقيقية كانت هى إعادة كتابة التاريخ بما يتفق مع مصالح أصحاب السلطة فى أى لحظة من اللحظات. وكان هذا البطل مسئولا عن قراءة الصحف والمجلات القديمة ومحو ما قد يجده فيها متعارضا مع ما تقوله السلطة فى هذه اللحظة الراهنة، واستبدال غيره به، حتى يصبح التاريخ متفقا تماما مع ادعاءات الحاضر. وكان المبدأ الذى يحكم سياسة وزارة الحقيقة هذه هو أن «من يسيطر على الماضى يسيطر على المستقبل». وقد حاولت فيما تقدم أن أبين لماذا أعتقد أن هذا المبدأ صحيح تماماً، ولماذا أرجّح أن إسرائيل تعتقد أيضا فى صحته، وأنها لن تكفّ عن محاولة تطبيقه والإفادة منه، وأنها سوف تنجح فى ذلك ما لم نفق لأنفسنا ونخرج من حالة الغيبوبة التى تسيطر علينا.

لاحظت أنني كلما تحدثت عن تلك الأفكار والرؤى الإنسانية العقلانية، كان حديثي يقابل بالابتسام والسخرية المهذبة ممن كنت أتحدث معهم. فاهتمام كبار مثقفي الولايات المتحدة. كما اكتشفت حينذاك. كان يتركز على موضوعات مثل اللاوعي والأساطير والانتحار والمخدرات والاغتراب واللذة الجنسية.



التفكيكية تحول اللغة إلى أصوات والإنسان إلى صرصار!

عبدالوهاب المسيرى

حينما ذهبت إلى الولايات المتحدة للدراسة عام ١٩٦٣ كان من حسن حظى أننى ذهبت إلى جامعة رتجرز، إذ كانت مجلة البارتيزان ريفيو Partisan Review قد انتقلت لتوها إلى هذه الجامعة، وكانت حينذاك من أهم المجلات الفكرية، يرأس تحريرها البروفيسور وليام فيليبس، وهو مثقف أمريكى تخلى عن توجهاته الماركسية، ومع هذا ظل مؤمنا بالوظيفة الاجتماعية للثقافة والأدب وبالقيم الإنسانية والاجتماعية التى تعد مكونا هاما للماركسية. ولحسن حظى أيضا كان البروفيسور فيليبس يدعونى للحفلات التى كانت تعقدها المجلة كان يحضرها كبار المثقفين الأمريكيين فى منطقة نيويورك، وكان من بينهم دانيال بل وإرفنج هاو ولسلى فيدلر وغيرهم. وكنت مثل كثيرين من أبناء جيلى فى العالم العربى أومن بالعقلانية والاستنارة ومركزيتهما فى التراث الحضارى الغربى، وانطلاقا من ذلك كنا نؤمن بمقدرة الإنسان على أن يغيِّر واقعه وأن ينشر العدل فى الأرض.

ولكننى لاحظت أننى كلما تحدثت عن تلك الأفكار والرؤى الإنسانية العقلانية، كان حديثى يقابل بالابتسام والسخرية المهذبة ممن كنت أتحدث معهم. فاهتمام كبار مثقفى الولايات المتحدة، كما اكتشفت حينذاك، كان يتركز على موضوعات مثل اللاوعى والأساطير والانتحار والمخدرات والاغتراب واللذة الجنسية والشكل الذى لامضمون له أو المضمون الذى لايمكن لشكل أن يحتويه. (ولكن كانت هناك بطبيعة الحال حركة اليسار الجديد التى انخرطت فى صفوفها كانت تدافع عن الإنسان والعدالة، ولكن جماهير هذه الحركة ومثقفيها، رغم كثرتهم، ورغم نجاحهم فى نهاية الأمر فى إيقاف حرب فيتنام، ظلوا خارج ما يسمى «التيار الرئيسى للفكر الأمريكى»).

وقد قابلت فى إحدى الحفلات التى كانت تعقدها البارتيزان ريفيو (بجامعة رتجرز) سوزان سونتاج الكاتبة الأمريكية اليهودية وكانت آنذاك تُعدّ من أهم الكتّاب، فقد اكتسح كتابها «ضد التفسير» Against Interpretation الجميع عند صدوره فاشتريته وقرأته بشغف.

الحضارة التفكيكية الحديثة:

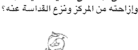
كان الكتاب مثيرا وجديدا ومختلفا تماما عما كنا نعرفه عن الحضارة الغربية، ولذا حينما عدت إلى مصر عام ١٩٦٩، كان أول مقال نشرته هو عرض لهذا الكتاب (حضارة الكامب: دراسة فى مذهب نقدى جديد، المجلة ديسمبر ١٩٧٠)، وأشرت فى المقال إلى اللاعقلانية الفلسفية التى بدأت تمسك بتلابيب الغرب بل وتهيمن عليه (العمل الفنى ليس محاكاة وإنما سحر - الاستجابة الحسية المباشرة للعمل الفنى التى تستعصى على التفسير - مظهرنا هو وجودنا الحقيقى، والقناع هو الوجه - فى عالم الحداثة لا يوجد شكل مفهوم، إذ يفقد الإنسان ما يميّزه كإنسان ويتساوى الرجل مع الشىء، بل تتحرر الأشياء من الإنسان وتسيطر عليه). وأشرت أيضا إلى تحول الجنس إلى موضوع أساسى (الرغبة فى العودة إلى حالة البراءة الأولى قبل أن يسقط الإنسان فى التاريخ - المطلوب هو جنسيات للأدب [إيروطيقا] وليس تفسيرات له hermenutics [هيرمنيوطيقا] - أرستقراطية حضارة الكامب هم المخنثون فالإنسان الخنثى لايمكنه أن ينتمى لمجتمع جاد يحكم على نفسه بمعايير أخلاقية اجتماعية). وقد صدق حدسى بخصوص الكتاب، فكثير من مؤرخى الفكر فى العالم الغربى يعدون تاريخ صدور هذا الكتاب هو أيضا تاريخ مولد ما بعد الحداثة.

مهما كان الأمر، كانت تجربتى فى البارتيزان ريفيو (والولايات المتحدة) مغايرة لتجربة كثير من المثقفين العرب الذين ظلوا ينهلون من معين الفكر الغربى الذى كان يدور فى إطار الفكر الإنسانى (الهيومانى) الاستنارى، ذلك الفكر الذى يمنح مركزية للإنسان ويؤكد عقلانيته ومقدرته على تجاوز ذاته وبيئته، دون أن يدركوا لا عقلانية وعدمية الفكر الغربى الجديد، بل وعداءه للإنسان. ولعل إدراكى المبكر لهذا التطور للفكر الغربى قد غيّر من الصورة الإدراكية التى أنظر من خلالها لهذه الحضارة، فقد لاحظت - على سبيل المثال - أن هذه الحضارة قد تكون قد بدأت بإعلان موت الإله باسم الإنسان ومركزيته، ولكنها انتهت بإزاحة الإنسان عن المركز Decenter لتحل محله مجموعة من المطلقات أو الثوابت مثل: المنفعة المادية - التقدم - معدلات الإنتاج - قوانين الحركة - اللذة الجنسية - مطلقات أو ثوابت يتم اختزال كيان الإنسان المركب إليها.

وقد أدى بى هذا إلى ملاحظة شيوع الأفعال التى تبدأ بالمقطع de فى وصف بعض مظاهر الحضارة الغربية الحديثة، فهناك «دى هيومانيز de humanize» أى ينزع الصبغة الإنسانية، ودى سانكتفى de sanctify والكلمة المرادفة لها دى ساكرالايز descralize أى ينزع القداسة عن، وهناك أيضا «ديس إنشانتمنت أوف ذاورلد disenchantment of the world» أى نزع السحر والجلال عن العالم، وهى عبارة ماكس فيبر التى يستخدمها للإشارة إلى التحديث والترشيد والعلمنة، وقد استخدم رورتى فعل دى ديفينايز dedivinize بمعنى «ينزع الألوهية والقداسة عن» كل شىء لوصف المجتمع العلمانى الحديث، وهناك كذلك دى ميستفى demystify أى «ينزع الأسطورة عن»، وهناك فعل قريب منه وهو «دى بانك debunk»، أى يحطم الأسطورة المثالية، وهناك فعل ميتافيزيكاليز demataphysicalize أى ينظر للظاهرة نظرة غير ميتافيزيقية أى نظرة مادية يُقال لها علمية، ويُضاف إلى كل هذا فعل دى بيرسوناليز depersonalize أى ينزع الصبغة الشخصية عن، ويُستخدم فى الإنجليزية الآن فعل دى كريستيانيز dechristianize أى ينزع الصبغة المسيحية عن، وفعل دى تكستوالايز detextualize أى ينزع عن النصوص - أى نصوص - حجيتها، وهناك بطبيعة الحال أهم الأفعال دى كونستراكت deconstruct أى يفكك أويقوض الذى سنتناوله بالتفصيل فيما بعد.

تفكيك الشكل:

وقد وجدت أن هذا الفعل الأخير يشكل مدخلا حقيقيا لفهم الحضارة الغربية الحديثة، فلننظر، على سبيل المثال، إلى تاريخ الأدب الغربى منذ نهاية العصور الوسطى، سنجد فى حكايات كانتربرى لتشوسر ثم فى مسرحيات شكسبير وكورنيل وراسين، فى عصر النهضة الغربية شخصيات لها أبعاد إنسانية وبطولية مركبة تشغل مركز الكون، قد ينتابها الشك وقد ترتكب أفعالا مأساوية تؤدى بها إلى التهلكة، ولكنها مع هذا تظل لها مرجعية إنسانية (تؤمن بمسئولية الإنسان عن أفعاله وبمقدرته على التجاوز وعلى السقوط) وتدور فى إطار منظومات قيمية ومعرفية قد تخرقها وتتمرد عليها ولكنها مع هذا تظل الإطار النهائى لأفعالها. ويستمر وجود هذا الإنسان فى أدب القرن الثامن عشر والتاسع عشر (وردزورث - فيكتورهوجو - ديكنز - دوستويفسكى - تولستوى) وإن كان يلاحظ تزايد معدلات الفردية والحتمية فى ذات الوقت ومعها معدلات تهميش الإنسان (خاصة مع نهاية القرن التاسع عشر)، إلى أن نصل القرن العشرين. فيكتب ت. س. إليوت الأرض الخراب (ملحمة القرن العشرين فى رأى البعض) حيث يختفى الأبطال تماما ويختفى الإنسان الإنسان ويظهر بدلا منه «الرجال الجوف» الذين يعيشون فى أرض مجدبة ويتحركون بلا اتجاه مثل الذرات المتناثرة، فى عزلة قاتلة، خاضعين فى الوقت ذاته لحتميات عديدة صارمة. ويكتب كافكا قصصه حيث يخضع الإنسان تماما إلى حتميات لايفهم كنهها فيتحول إلى صرصار ويُحاكم ويُعدم لسبب لايعرفه، ثم يأتى مسرح العبث حيث تجلس الشخصيات فى إحدى المسرحيات فى صندوق قمامة فى انتظار جودو الذى لايأتى، ثم يكتب أنطوان أرتو (صاحب مسرح القسوة) قصيدة عبارة عن أصوات خالصة بلا معنى، ألا يمكن القول إن تحول الإنسان إلى ذرات متناثرة ثم إلى صرصار وجلوسه فى صندوق قمامة ينتظر من لايجئ وخضوعه للحتميات المختلفة وتحول اللغة الإنسانية إلى مجرد أصوات لامعنى لها، هى عملية تفكيك لهذا الإنسان وإزاحته من المركز ونزع القداسة عنه؟



ولايختلف الأمر كثيرا فى عالم الفنون التشكيلية، فبعد لوحات وأيقونات العصور الوسطى المسيحية فى الغرب، المليئة بالتقوى والورع، تظهر رسوم عصر النهضة، الدينية والعلمانية، ذات الأبعاد الثلاثة والتى ينبع منها الفن الرومانسى والفن الواقعى، ثم يظهر الفن الانطباعى وما بعد الانطباعى. ورغم كل التطورات والتحولات الجوهرية يمكن القول بأن الشكل فى الفن الغربى منذ عصر النهضة (حتى نهاية القرن التاسع عشر) ظل متماسكا يحاكى شيئا ما سواء فى الطبيعة المادية أم الإنسانية، ويضع الإنسان فى مركز الكون. ولكن مع بدايات القرن العشرين يحدث شىء ما، فيتفكك الشكل ويظهر الواقع الإنسانى والطبيعى فى لوحات الفنانين على هيئة مكعبات ومربعات ودوائر وألوان متداخلة، فى آخر عرض للوحات موندريان فى التيت جاليرى ١٩٩٦ فى لندن، والذى كان يهدف إلى توضيح تطور الشكل فى أعماله الفنية تتضح هذه النقطة بشكل جلى. يبدأ المعرض بمنظر طبيعى فيه أشجار ومنازل وينتهى بلوحة مكونة من أربعة مربعات وخطين: واحد أحمر والآخر أزرق، أى أن المضمون يختفى تماما ليظهر الشكل الخالص، فهو شكل بلا مضمون، [أو دال بلا مدلول، كما يُقال الآن].

وتزداد الأمور تفككا إلى أن نصل إلى فنان مثل آندى وورهول الذى يضرب بفكرة الفن نفسها عرض الحائط ويُسقط فكرة الحكم والمرجعية والمعيارية، ويقوم بتوقيع علب شوربة كامبل (وبلون صناديق القمامة) فتتحول بقدرة قادر إلى أعمال فنية تباع بآلاف الدولارات! وإذا كانت سوزان سونتاج قد تحدثت عن إيروتكس (جنسيات) للأدب بدلا من هرمنيوتكس (هرمنيوطيقا أو تفسيرات) له، فقد وصف أحد النقاد أعمال آندى وورهول بأن الاستطيقا (الجماليات) فى أعماله تتحول إلى أنستطيقا (بنج - أى دواء مخدر).

ولكن التفكيك الحقيقى نجده فى أعمال جو واتكين، هذا «الفنان» الذى يستخدم جثثا حقيقية فى

صوره الفوتوغرافية وموضوعه المفضل هو قضيب دق فيه مسمار. نحن لانقابل في هذا العالم الإنسان الذئب، والإنسان الثعلب، والإنسان الثعبان، (فهؤلاء ينتمون إلى عالم المادية القديمة الصلبة، كما سنبين فيما بعد) وإنما نقابل الإنسان الزئبق والإنسان الزَبَد، والإنسان السائل، والإنسان الفقاعات. في هذا العالم لا يُحلّق الإنسان، ولايسبح، وإنما يطفو على السطح، مثل قطعة من الفلين المليئة بالهواء، مما يجعلنا نتساءل مع صلاح عبدالصبور «أين الإنسان الإنسان»؟

المادية القديمة الصلبة:

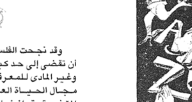
من الواضح أن إزاحة الإنسان عن المركز وتفكيكه ونزع القداسة عنه ليست مسألة مزاج شخصي أو أزمة نفسية عارضة وإنما هي ثمرة منظومة حضارية كاملة، ولايمكن فهم هذه الظاهرة إلا في إطار تحليل حضاري فلسفي عام. ويمكننا القول إن النموذج المهيمن على الحضارة الغربية هو النموذج العقلاني المادي (ونحن نستخدم كلمة «مادي» هنا بالمعنى الفلسفي، أي الإيمان بأن المادة هي الأصل والمحرك الأساسي للكون، وهي رؤية فلسفية ليست لها علاقة بحب المال. فهناك من الماديين من هم أكثر زهدا من كثير من المؤمنين!). وقولنا بأن النموذج المهيمن هو النموذج المادي لايعني أنه النموذج الوحيد. فالمثقفون الغربيون يدورون في إطار نماذج معرفية أخرى تتحدى النموذج المهيمن، ولكنها مع هذا لاتتمتع بنفس المركزية أو الفعالية في المجتمع، وهيمنة النموذج المادي لاتعني أن الجميع في الغرب قد أصبح ملحدا، فقد ظلت الأغلبية الساحقة محتفظة بإيمانها الديني، ولكن مع هذا ظل النموذج المادي يتحكم في كل جوانب الحياة العامة وفي كثير من جوانب الحياة الخاصة، وأولا وأخيرا، في الخريطة المعرفية التي يدرك الإنسان العادي العالم من خلالها.

والعقلانية المادية هي الإيمان بأن الواقع المادي الموضوعي يحوي داخله ما يكفي لتفسيره دون حاجة إلى وحي أو غيب، وأن هذا الواقع يشكل كلا متماسكا مترابطة أجزاؤه برباط السببية الصلبة، بل والمطلقة، وعقل الإنسان حينما يدرك الواقع فإنه لايدرك أجزاء متفرقة متناثرة وإنما يدرك هذا الكل المتماسك الثابت المتجاوز للأجزاء المتغيرة، ويدرك أن حركة الأجزاء ليست حركة عشوائية وإنما هي تعبير عن الكل الثابت المتجاوز، ولذا فهي حركة لها معنى وهدف، ولها معياريتها ومعقوليتها، فما يحدث يحدث حسب قانون مطّرد ثابت وليس بالصدفة العمياء.

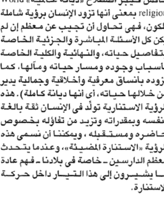


وقد ترجمت هذه العقلانية المادية نفسها إلى ما يُسمّى «حركة الاستنارة» التي ذهبت إلى أن عقل الإنسان قادر على الوصول إلى قدر من المعرفة ينير له كل شيء أو على الأقل معظم الأشياء والظواهر، ويعمق من فهمه للواقع ولذاته. وكان الافتراض أن هذه المعرفة هي التي تضفي على الإنسان مركزية في الكون، وهي التي ستمكنه من تجاوز عالم الطبيعة بل وذاته الطبيعية، ومن تغيير العالم والتحكم فيه بحيث يصبح الإنسان إلها أو بديلا للإله أو لاحاجة له به، يولد من داخل ذاته معياريته ويصبح ما يريده (على حد قول بيكو دبلا ميرانديلا المفكر الإنساني [الهيوماني] الإيطالي)، وهذا هو جوهر النزعة الإنسانية الهيومانية التي تعد، في تصورنا، المرحلة الأولى أو التمهيدية لحركة الاستنارة العقلانية





إن تحول الإنسان إلى ذرات متناثرة ثم إلى صرصار وجلوسه في صندوق قمامة ينتظر من لايجئ وخضوعه للحتميات المختلفة وتحول اللغة الإنسانية إلى مجرد أصوات لامعنى لها، هي عملية تفكيك لهذا الإنسان وإزاحته من المركز ونزع القداسة عنه



المادية، وهذه الرؤية الاستنارية رؤية شاملة للكون (يطلق عليها عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر اصطلاح «ديانة عالمية» World religion بمعنى أنها تزود الإنسان برؤية شاملة للكون، فهي تحاول أن تجيب عن معظم إن لم يكن كل الأسئلة المباشرة والجزئية الخاصة بتفاصيل حياته، والنهائية والكلية الخاصة بأسباب وجوده ومسار حياته ومآلها، كما تزوده بأنساق معرفية وأخلاقية وجمالية يدير من خلالها حياته، أي أنها ديانة كاملة). هذه الرؤية الاستنارية تولّد في الإنسان ثقة بالغة بنفسه وبمقدراته وتزيد من تفاؤله بخصوص حاضره ومستقبله، ويمكننا أن نسمي هذه الرؤية «الاستنارة المضيئة»، وعندما يتحدث معظم الدارسين ـ خاصة في بلادنا ـ فهم عادة ما يشيرون إلى هذا التيار داخل حركة الاستنارة.



وقد نجحت الفلسفة العقلانية المادية في أن تقضي إلى حد كبير على الأساس الديني وغير المادي للمعرفة والأخلاق خاصة في مجال الحياة العامة، بأن جعلت المادة المتغيرة وقوانينها هي المرجعية الوحيدة والركيزة الأساسية لأية رؤية للواقع. ولكنها رغم ماديتها الصارمة هذه، أسست نظما معرفية وأخلاقية تستند إلى نقطة ثبات مثل العقل والطبيعة البشرية والقوانين العلمية... إلخ، وهي مطلقات توجد داخل عالم المادة، خاضعة لقوانين الحركة المادية. إلا أنها مع هذا زُعم أنها تتمتع بقدر من الثبات يجعلها تنفصل عن المادة المتغيرة وعن صيرورة النظام الطبيعي، كما أنها يُفترض فيها أنها تستند إلى وجود كل مادي يتجاوز الأجزاء وإلى مركز تدور حوله الأشياء، كل هذا يعني أن الفلسفة العقلانية المادية طوّرت رؤية ميتافيزيقية شاملة، ونحن نطلق على هذه الرؤية المادية التي تدور حول مركز «المادية القديمة» أو المادية في مرحلة الصلابة.

المادية الجديدة السائلة:

ولكن ثمة تناقضا أساسيا في النسق الفلسفي العقلاني المادي (القديم) كشفه بعض المفكرين الماديين فراحوا يتهمون هذا النسق بعدم الاتساق مع نفسه، وطرحوا العديد من الأسئلة الوجيهة في تصوري، من بينها ما يلي: أليس العقل الإنساني هو الدماغ، وهذا الأخير إن هو إلا مجموعة من الخلايا المادية شأنه شأن كل ما هو مادي؟ لماذا يُنسب للعقل إذا المقدرة على تجاوز الأجزاء وإدراك الكليات والإفلات من قبضة الصيرورة؟ أليس هو ذاته جزءا من المادة المتغيرة وما ينطبع عليه هو أحاسيس مادية متغيرة وليست ظواهر مترابطة متماسكة لها معنى؟ وإذا كان العقل كذلك، فالذات الإنسانية ليس لها وجود مستقل عن العالم المادي، ولايمكنها تجاوزه.

أما بخصوص الموضوع، فقد ذهب هؤلاء المفكرون إلى أن الكل المادي الثابت المتماسك المتجاوز ذا الغرض هو مجرد وهم إنساني، فكيف يمكن للكل أن يكون ماديا والمادة أجزاء؟ وكيف يمكن أن يكون ثابتا، والمادة في حالة حركة وصيرورة؟ وكيف يمكن أن يكون متجاوزا، والمادة لاتعرف التجاوز، وكيف يمكن أن يكون ذا غرض خاضع لسببية صلبة والمادة حركة بلاهدف ولاغاية؟

بل إن الأمر ازداد اتساعا فقد أدرك الماركيز دي صاد، المفكر الاستناري، في مرحلة مبكرة أن الطبيعة محايدة، غير مكترثة بالإنسان لايمكنها أن تمده بمنظومات معرفية وأخلاقية، كما كان الظن والزعم، ولذا كان يتلذذ بتعذيب النساء اللائي كان يعاشرهن ليتغلب على عدم اكتراث الطبيعة وحيادها. وبيّن داروين أن الطبيعة هي عالم الفوضى، غابة ليس لها قانون، أو إن كان ثمة قانون فهو القوة، ثم ظهرت النظرية النسبية ونظريات عدم التحدد والكم والتي تبين للإنسان أن الذات لاتدرك الواقع بشكل دقيق وأن الواقع نفسه متغير متحول لايمكن الوصول إليه.



وهكذا تم ضرب الإنسان أنطولوجيًا (فالإنسان إن هو إلا مجموعة من الدوافع المادية والاقتصادية والجنسية لايختلف في سلوكه عن سلوك أي حيوان أعجم ولذا لايستحق أية مركزية في الكون) وإبستمولوجيًا (فإدراك الإنسان للواقع ليس عقلانيا وإنما تحكمه مصالحه الاقتصادية وأهواؤه الجسمية). وتم تسديد ضربة لفكرة الواقع الموضوعي والمطلقية المعرفية والأخلاقية إذ لا ثبات في الطبيعة أو المجتمع أو الذات الإنسانية، وإنما هو تغير مستمر وصراع دائم، أي أن كلا من الطبيعة الإنسانية والمادية قد تم تقويضهما كنقطة ثبات لايمكن للأنساق الفلسفية والأخلاقية أن تستند إليها.

ثم طرح هؤلاء الشكاكون الماديون السؤال الجوهري التالي: كيف يمكن أن نؤسس أنساقا أخلاقية (تتسم بالثبات وبالمطلقية وبالتجاوز) بعد القضاء على الأخلاق المسيحية والتقليدية، وبعد سقوط كل شيء في قبضة الصيرورة؟ وكيف يمكن أن نفترض وجود معرفة يقينية بالعالم الخارجي وهو في حالة حركة وتغير دائمين؟ إن الأنساق الأخلاقية الثابتة والمعرفة اليقينية تستدعي فكرة الأصل النهائي الثابت (ربانيا كان أم ماديا) ويشكل عودة للغيبية والثنائية (الدينية) التقليدية بعد أن أخذت شكلا جديدا، ويمثل سقوطا في ميتافيزيقا التجاوز رغم المادية المعلنة المزعومة. ذلك أن افتراض وجود مثل هذه الثوابت يتناقض مع الرؤية العقلانية المادية الصارمة التي لابد أن ترد الكون بأسره إلى مبدأ واحد كامن في الطبيعة / المادة لا يتجاوزها، وهذا المبدأ في حالة حركة دائمة، مبدأ مادي محايد لايعرف الخير أو الشر أو القبح أو الجمال أو الضحك أو البكاء، ولايصلح أن يشكل أساسا لأية فلسفات تجاوز. ولذا اتهم هؤلاء الشكاكون المادية القديمة بأنها «ميتافيزيقا مادية» أو «إنسانية (هيومانية) ميتافيزيقية» أو حتى «مثالية مادية» (والعياذ بالله). كما بيّنوا أن المنظومات المعرفية والأخلاقية والجمالية المادية، ليس لها أي أساس مادي كما تدعي، فهي من إفراز عقل إنساني يخدع نفسه بشكل واع أو غير واع لأنه يبحث عن الطمأنينة ويود أن يطبع الثبات على الواقع. ومن ثم على الإنسان أن يقبل وضعه باعتباره كائنا زمنيا مكانيا، محدودا بحدود الزمان والمكان، خاضعا لحتميات الطبيعة، وأن يكف عن الثرثرة عن التجاوز والقيم والقانون والسببية، ونحن نطلق على هذا الاتجاه «المادية الجديدة»، أو «المادية في مرحلة السيولة واللاعقلانية المادية».

وقد جعل هؤلاء الفلاسفة همهم تحطيم أوهام الإنسان عن نفسه وتوضيح العنصر التفكيكي الكامن في المقدمات الاستنارية العقلانية المادية، فقاموا بتوجيه الضربات للإنسان حتى يحطموا صورته المثالية عن نفسه فلايستمد أي عزاء زائف من وهم المركزية والمرجعية الإنسانية، ولايتمسك بأي

أمل وهمى عن مقدرته على التجاوز، ولايتعلق بأهداب أى تصور رومانسى عن طبيعته الخيّرة الاجتماعية وعن مقدرته على التوصل للحقيقة، وبذل هؤلاء الفلاسفة قصارى جهدهم أن يذكّروا الإنسان بتلك الحقائق التى تصوروا أن المفكرين الماديين قاموا بتناسيها مثل زمنية كل الظواهر والقيم، ومادية وجود الإنسان ودوافعه وغرائزه، وأن الإنسان الطبيعى هو ابن الطبيعة وحسب ليس له أى وجود متجاوز لحركة المادة ، ولذا ، بدلا من حلم الذات الإنسانية المتماسكة المتكاملة التى تدرك الواقع وتصوغه وتهيمن عليه، ظهرت الذات بعد أن تم تفكيكها وردها إلى عناصر مادية فى الواقع، فالإنسان حيوان لايعرف غير التربص والافتراس والصراع وحب البقاء والأنانية والبحث عن المنفعة واللذة ، شأنه فى هذا شأن أبناء الطبيعة الآخرين من قوارض وهوام وحشرات، وهو شأنه شأن الحيوان الأعجم يعيش وحيدا منعزلا عن غيره من البشر المتربصين به فى كون غير مكترث به أو بهم. ولاتهدف هذه المعرفة إلى تحرير الإنسان من المخاوف والأغلال والظلم.. إلخ، وإنما تهدف إلى تحطيمه وتفكيكه كمقولة ثابتة مستقلة فى عالم الطبيعة المتغير، إن دعاة الاستنارة المظلمة ببساطة شديدة ينزعون الخصوصية والقداسة عن الإنسان ويردونه إلى قوانين الطبيعة / المادة، وهى قوانين الحركة العامة التى لاتعرف ثباتا أو استقرارا أو خصوصية أو قداسة، والتى لايمكن للإنسان السيطرة عليها، وبذا يصبح الإنسان جزءا لايتجزأ من الصيرورة المادية التى لاتعرف ثباتا ولا وحدة ولا تجاوزا ولامعنى.

نيتشه والسيولة:

ورائد الفلسفة المادية اللاعقلانية السائلة الجديدة بلا منازع هو نيتشه الذى لخص رؤيته فى عبارته الشهيرة «لقد مات الإله» ، ويمكننا أن نتجاوز المضمون الدينى الإلحادى المباشر لهذه العبارة لنحدد مضمونها ومن ثم تضميناتها المعرفية التى لا تشمل الإله وحسب بل وتشمل الإنسان والكون، ويُلقى الفيلسوف الألمانى هايدجر الضوء على عبارة نيتشه بقوله: إن الإله بالنسبة لنيتشه هو العالم المتسامى ، العالم الذى يتجاوز عالمنا، عالم الحواس، الإله هو اسم عالم الأفكار والمثاليات والمطلقات والكليات والثوابت والقيم الأخلاقية.

وانطلاقا من هذا ، أعلن نيتشه أن الإيمان السائد بأن العقل الإنسانى قادر على التوصل إلى علم يستطيع أن يزوده بمعرفة يقينية وأنساق أخلاقية (أى أن بوسع العلم والعقل أن يحلا محل الدين) هو وهم ليس إلا، وأن المركزية التى تخلعها الفلسفة الهيومانية على الإنسان مركزية زائفة، فهوكائن طبيعى ليست له أهمية خاصة، بل وأعلن نيتشه أن الطبيعة ذاتها لا قداسة لها، فهى مجموعة من القوى المتصارعة، والحديث عن أى مطلقية - من ثم - هو عبث، فكل الأمور مادية ، وكل الأمور المادية متساوية ، وكل الأمور المتساوية نسبية.

إن الفلسفة الحديثة الحقة (حسب تصور نيتشه) هى فلسفة تصدر عن فكرة موت الإله، أى إنكار وجود أى نقطة ثابتة أو صلبة أو أية مرجعية متجاوزة، هى فلسفة تبذل قصارى جهدها أن «تزيل ظلال الإله» التى تتبدى بالدرجة الأولى فى أوهام المادية القديمة، فالواجب - من منظور نيتشه - هو التحرك داخل إطار مادى طبيعى صارم يتسم بالسيولة الكاملة ،يساوى بين الأشياء كلها ويسويها.

ترجمت هذه العقلانية المادية نفسها إلى ما يُسمّى « حركة الاستنارة » التى ذهبت إلى أن عقل الإنسان قادر على الوصول إلى قدر من المعرفة ينير له كل شىء أو على الأقل معظم الأشياء والظواهر، ويعمق من فهمه للواقع ولذاته. وكان الافتراض أن هذه المعرفة هى التى تضفى على الإنسان مركزية فى الكون، وهى التى ستمكنه من تجاوز عالم الطبيعة بل وذاته الطبيعية، ومن تغيير العالم والتحكم فيه بحيث يصبح الإنسان إلهًا أو بديلا للإله أو لاحاجة له به

ولذا جعل نيتشه همه أن يحرر الإنسان من أى أوهام متبقية عن الثبات والتجاوز والكلية. ويطهرد من أى قيم وثوابت وكليات وثنائيات وغايات (أخلاقية ومعرفية) تتجاوز المادى والمباشر. إن نيتشه حاول تحطيم كل ما كان الفلاسفة يسمونه فى الماضى (أى قبل نيتشه) مقدّسا وخيّرا وحقا وجميلا ومطلقا وكليا، وذلك حتى يتم القضاء تماما لا على اليقين المعرفى والأساس الدينى للأخلاق وحسب وإنما يتم القضاء أيضا على أى يقين معرفى، بل وعلى مفهوم أو فكرة الأخلاق ذاتها، وعلى أية مركزية لأى كائن، إلها كان أم إنسانا، بل وعلى فكرة الوجود الثابت ذاتها وفكرة الكل الذى يتجاوز الأشياء، أى أن العالم بذلك يصبح نسقا سائلا بلا يقين أو معنى أو غاية أو كينونة أو هوية، والإنسان يصبح بلا ذات ولاحدود ولااستقلال ولامركزية.

إشكالية الدال والمدلول:

من المعروف أن المشروع الإنسانى بأسرد يستند إلى اللغة كوسيلة للتواصل بين البشر وللاحتفاظ بثمرة تفاعلهم مع الطبيعة حتى لاتبدأ كل تجربة مع الطبيعة وعالم الأشياء من نقطة الصفر (وهذا هو التاريخ والوعى التاريخى) والتواصل اللغوى يعنى أن ثمة إنسانية مشتركة وأن ثمة ثقة فى أنه يمكن توصيل المعنى وأن ثمة علاقة بين الذات والموضوع والفكر والواقع والدال والمدلول.

وقد ظهر الاهتمام بفلسفة اللغة فى الحضارة الغربية باعتبارها واحدة من أهم المباحث الفلسفية ، فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، وهذا يرجع إلى اهتزاز فكرة الكليات، فالتواصل بين البشر يفترض وجود مثل هذه الكليات وبغيابها تنشأ مشكلة علاقة اللغة بالواقع والذات المدركة بالموضوع المدرك. وكما قال فوكوه إن مشكلة اللغة تحاصر الإنسان فى عالم الصيرورة الكاملة. وقد صرح بول دى مان (الناقد التفكيكى) أن الفكر الغربى الحديث هو فكر لغوى أكثر من كونه فكرا أنطولوجيا أو تفسيريا. وقبلها تنبأ إرنست كاسيرر بأن اللغة ستصبح سلاح الشك العدمى وسلاح العداء للفلسفة بعد أن كانت سلاح الفلسفة. وبالفعل أصبحت اللغة هى هاجس الإنسان الغربى. وأصبح هدف كل العدميين، بعد أن اكتسبت اللغة هذه المركزية، إثبات فشلها ، حتى تُصاب الإبستمولوجيا نفسها بالشلل، فالهجوم على اللغة كأداة للتواصل بين البشر هو هجوم على المشروع الإنسانى بأسره وعلى مفهوم الإنسانية المشتركة وعلى مقدرة الإنسان أن يراكم المعرفة وأن يتعامل مع الآخرين من خلال منظومات معرفية وأخلاقية مشتركة، أى أنه تعبير عن العدمية الفلسفية الناجمة عن تبنى موقف لاعقلانى مادى سائل.

وقد تمت مناقشة الإشكاليات الفلسفية الكبرى من خلال مناقشة إشكالية قد تبدو وكأنها إشكالية لغوية محضة وهى إشكالية علاقة الدال والمدلول، و«الدال» هو الجانب المحسوس sensible من الكلمة، فهو الصورة الصوتية أو مساويها المرئى ، أما «المدلول» فهو الجانب المفهوم من المعنى intelligible وكان بوسعنا أن نقول ببساطة أن الدال هو الاسم والمدلول هو المسمّى، وأن الدال هو الكلمة التى تشير إلى شىء والمدلول هو الشىء الذى يشار إليه، ولكن حيث إن كلمة «دال» لا تشير إلى الكلمات وحسب وإنما تشير إلى النظم الإشارية «علامات المرور - الرموز - إلخ..) فإننا نؤثر استخدامها لأنها أكثر شمولا.

وقضية علاقة الدال بالمدلول هى فى واقع الأمر قضية علاقة العقل بالواقع(والإنسان بالطبيعة / المادة والذات بالموضوع . وفى نهاية الأمر ، الخالق بالمخلوق) . فالبعض يرى أنها علاقة قوية ومركبة، فعلى الرغم من أنه لاتوجد علاقة تطابق بين الواحد والآخر، وعلى الرغم من أنه توجد مسافة تفصل بين الدال والمدلول (أى أن اللغة ليست شفافة تماما) . فالدال جزء من النظام الإشارى اللاشخصى وله قواعده ومنطقه. أما المدلول فهو جزء من نظام المعنى وتسرى عليه قواعد مختلفة ويختلط فيه المنطق باللامنطق. على الرغم من كل هذا إلا أنه توجد وسائل وآليات لتحسين الأداء اللغوى للوصول إلى ما نسميه «الحقيقة» أو على الأقل قدر كاف منها وإلى توصيله للآخرين. وهذا يعنى أن العقل قادر على إدراك الواقع وعلى تجريد المعرفة منه وعلى توصيلها للآخرين.



وتشكل إشكالية علاقة الدال بالمدلول المدخل الحقيقى لدراسة فكر عالم اللغة السويسرى فرديناند دى سوسير (١٨٥٧- ١٩١٣) واضع أساس علم اللغة البنيوى (ورائد الثورة البنيوية) الذى ذهب إلى أن علاقة الدال بالمدلول لا تستند إلى أية صفات موضوعية كامنة فى الدال، ومن ثم فالعلاقة بينهما ليست ضرورية أو جوهرية أو ثابتة، فهى علاقة اعتباطية أو عشوائية. فلايوجد أى سبب منطقى أو موضوعى لأن تكون كلمة «قطة» العربية ، أو كلمة كات Cat الإنجليزية هى الإشارة الوحيدة الضرورية والمنطقية إلى هذا الحيوان الصغير الذى يشبه النمر ويسير على أربع ويغطى جسدد نوع من الفراء.

ويرى دى سوسير أن النظام اللغوى هو نسق إشارى مبنى على علاقة الاختلاف بين الثنائيات المتعارضة ، فالاختلاف بين «قطة» و«بطة» ليس هو الاختلاف بين الحيوان الذى يحمل ذلك الاسم والطائر الذى يحمل ذلك الاسم، وإنما هو اختلاف بين الأصوات والإشارات الدالة (بين القاف والباء) تقابلها اختلافات بين الأفكار والأشياء (المدلولات) دون أن تكون هناك علاقة ضرورية (تستند إلى قانون «طبيعى» كامن فى طبيعة الأشياء [أنطولوجى أو ربانى]) بين الاختلافات القائمة بين الثنائيات فى عالم الدوال من جهة والاختلافات القائمة بين المدلولات من جهة أخرى، فاللغة نظام من العلاقات والاختلافات الثنائية المتعارضة ليس لأجزائها هوية أو جوهر أو حتى وجود خارجها.

وطرح دى سوسير لإشكالية انفصال الدال عن المدلول يستند إلى الافتراضات الفلسفية التالية:

١ - اللغة نسق مكتف بذاته، قوانينها كامنة فيها، وهى لاأصلَ لها، أو أنها غير معروفة الأصل (وهذا لايختلف عن قول الفلاسفة الماديين أن أصل العالم هو مادة قديمة ذاتية التنظيم، لم يخلقها أحد، والخلق ذاته عملية غير مفهومة وغير معروفة تمت بالصدفة، وإن وُجد إله خالق، فهو المحرك الأول وحسب).

٢ - اللغة هى التى تنتج الواقع وليس الواقع هو الذى ينتج اللغة (تماما مثل قول الفلاسفة الماديين إن المادة هى التى تشكل الوعى وليس الوعى هو الذى يشكل المادة).

٣ - أسبقية اللغة على العقل الإنسانى تعنى إزاحة الإنسان عن مركز الكون (وهذا يقابل أسبقية الطبيعة / المادة على الإنسان).

يمكن القول بأن مقولة اللغة حلت محل مقولة المادة، فقد أصبحت المبدأ الواحد (قوة كامنة فى الكون [الطبيعة والإنسان] دافعة له تتخلل ثناياه وتضبط وجوده وتوحده، قوة لاتتجزأ ولايعلو عليها أحد، وهى النظام الضرورى والكلى للأشياء).

وقد وجدت الفلسفة الغربية

ضالتها فى اللغة فهى نظام مستقل له قواعده المستقلة عن الإرادة الإنسانية (فهى موضوعية) ولكنها تحتاج إلى الإنسان كى تتحقق (فهى ذاتية)، ولكنها رغم هذا تدور فى الإطار المادى، فاللغة تسبق الوعى الإنسانى والإرادة الإنسانية، وكما يقول البنيويون نحن لانتحدث عن اللغة وإنما تتحدث اللغة من خلالنا.

انفصال الدال عن المدلول:

كل هذا يقف على طرف النقيض مما فعله العدميون من الماديين الجدد حينما قالوا: «بانفصال الدال عن المدلول» وهى عبارة اصطلاحية تُستخدم فى علم اللغة ولكنها أصبحت مقدمة فلسفية لكثير من النتائج التى يتأسس عليها النظام المعرفى ما بعد الحداثى بكل ما يضمر من عدمية فلسفية، والعبارة تعنى أن الأسماء لاعلاقة لها بمسمياتها، وأن الإشارات ليس لها علاقة بما تشير إليه، وإن وُجدت مثل هذه العلاقة فهى علاقة واهية خلافية. كل هذا يعنى أن العقل ليست له علاقة كبيرة بالواقع وأنه غير قادر على الإحاطة به كما يعنى أن النسق اللغوى ذاته يسقط فى قبضة الصيرورة والعدم، ولذا لاغرو أن نيتشه، الفيلسوف الأعظم للمادية الجديدة السائلة، كان من أوائل من أشار إلى انفصال الدال عن المدلول، فيأخذ كلمة روح على سبيل المثال، ليبيّن أنها «فى الفلسفات التقليدية» تشير إلى كلّ متجاوز لعالم الجسد والمادة، وهو مايفترض وجود مسافة بين الروح والجسد، ينكر نيتشه هذا تماما ويؤكد لنا، انطلاقا من رؤيته المادية، أن الروح فى واقع الأمر لاتشير إلا إلى الجسد، والجسد «إن هو إلا» ترتيب لبعض القوى الطبيعية وعمليات تجسد إرادة القوة، فالدال التقليدى «الروح» فقد علاقته تماما بمدلوله واكتسب فى فلسفة نيتشه مدلولا جديدا، مناقضا تماما لمدلوله التقليدى، فالروح حسب الفهم النيتشوى لها إنما هى عنصر من عناصر العالم المادى، أى أن ثنائية الروح والجسد القديمة، ثنائية غير حقيقية من وجهة نظره.

ونيتشه أيضا هو من أوائل الفلاسفة الذين شككوا فى موضوعية أى نص، فالرؤية التقليدية للنص - كما نعلم - تنطلق من ثنائية النص والحقيقة (التى تقابل ثنائية الجسد والروح)، وتذهب هذه الرؤية التقليدية إلى أن النص نسيج يحاول أن يوصل الحقيقة لنا، التى تتبدى من خلال سدة النسيج ولحمته (بنيته).

فالنص بهذا المعنى يمثل، بشكل من الأشكال، الواقع أو على الأقل بعض جوانبه، ومهمة المفسر لذلك هى الوصول عبر النسيج إلى الحقيقة الكامنة وراء النص، يلغى نيتشه المساحة بين النص والحقيقة ويصفى تلك الثنائية تماما، ويقرر أن النص هوفعلا نسيج، ولكن النسيج هو ذاته الحقيقة، والحقيقة إن هى إلا جيش من الصور المجازية القديمة تكلس واستقر، وأصبح الناس يتصورون أنه هو الحقيقة! والذات المبدعة هى ذاتها جزء من هذا النسيج، فهى كالعنكبوت فى بيت العنكبوت.

ولايلغى نيتشه المسافة بين المبدع والنص والحقيقة وحسب، وإنما يلغى المسافة بين نص وآخر، وقد طرح فكرة التناص باعتباره حوارا لاينتهى بين النصوص، فكل ما نعرفه هو النص، والنص لايحيلنا إلى حقيقة متجاوزة له وإنما إلى نص آخر، ولذا

بالفعل، نجد أن المثل الأعلى للوضعية المنطقية هى لغة الجبر التى تتطابق تماما مع مضمونها لأنها لامضمون لها، وقد أصر الوضعيون على أن الجمل الإخبارية هى جمل يمكن التأكد من زيفها أو صدقها من خلال التجربة والاختبار، وما لايمكن التأكد منه بهذه الطريقة هو ليس بجملة. ومن ثم، فإن كل الجمل عن الأخلاق والجمال والإحساس الدينى هى شبه جمل

فإن معرفتنا لا يمكن أن تدّعى لنفسها حالة أكثر استقرارا وصلابة من أن تكون نصا، وهذا يعنى أن كل الحدود تختفى بين الذات والموضوع، وبين الداخل والخارج، والمعنى واللامعنى، والمعرفة والرأى، والحقيقة والخطأ، لكل هذا، يذهب نيتشه إلى أنه لايوجد نص برئ طاهر أصلى، فمثل هذا النص إما لم يوجد أساسا أو فُقد إلى الأبد، وكل ما نقرأ هو التفسيرات وحسب أو الإحالات إلى نصوص أخرى، والتفسير هنا ليس هو الاجتهاد، فالاجتهاد يفترض أن ثمة علاقة اتصال وانفصال بين الدال والمدلول، وأن هذه العلاقة ليست بسيطة ولامباشرة ولارياضية وإنما مركبة (بسبب طبيعة اللغة كأداة مركبة للتوصيل، تستخدم المجاز)، ومن ثم تكون مهمة القارئ المجتهد أن يُعمل عقله ليسبر غور العلاقة المركبة بين الدال والمدلول ليصل إلى معنى النص، معنى ليس هو بالمعنى المطلق أو الوحيد أو النهائى، وإنما هو معنى يقارب الحقيقة وقابل للاختبار من قبل قارئ آخر. الأمر جدّ مختلف عند نيتشه، فالقراءة ليست البحث عن معنى النص وإنما هى فى الواقع استيراد معنى من الخارج وفرضه على النص، فالنص، مع انفصال الدال عن المدلول، لامعنى له فى حد ذاته، ومن ثم لايوجد معنى سوى ما تفرضه إرادة القوة (كما هو الحال دائما فى المنظومة النيتشوية).

أسباب انفصال الدال عن المدلول:

ويحق لنا أن نسأل كيف تأتى أن تصبح إشكالية لغوية هامشية مقصورة فى الماضى على المتخصصين مثل انفصال الدال عن المدلول، إشكالية فلسفية مركزية كبرى فى الوجدان الغربى، أى أننا فى واقع الأمر لن نسأل تلك الأسئلة التى شاعت فى خطاب معظم من ينقلون الفكر الغربى إلى العربية، أسئلة من نوع: ماهو المعنى الدقيق لانفصال الدال عن المدلول؟ وماذا تعنى هذه العبارة أو تلك عند نيتشه أو سوسير أو دريدا أو غيرهم؟ أو «هل نجحنا فى نقل المعنى الموجود فى النص الأصلى الغربى بدقة إلى العربية؟ بدلا من كل هذا سنسأل السؤال التالى: لِمَ يهتم الفكر الغربى أساسا بمثل هذه الإشكاليات؟ أى أننا سنسأل سؤالا عن السياق الحضارى والاجتماعى والفلسفى وعن مركب الأسباب الذى أدى إلى تحرك إشكالية انفصال الدال عن المدلول من الهامش الأكاديمى إلى المركز الحضارى. لِمَ تحول الإنسان الغربى من الهيومانية والاستنارة إلى البنيوية ومنها إلى مابعد البنيوية، وما خفى كان أعظم؟

الإجابة عن هذه الأسئلة ستلقى كثيرا من الضوء على هذه الإشكالية وستجعلنا ندرك مضمونها الفلسفى والحضارى الحقيقى، وبدونها ستصبح العبارات الفلسفية أشباحا لفظية تتحرك على الورق أمامنا، وفى تصورنا أن انفصال الدال عن المدلول فى الحضارة الغربية يعود إلى مركب من الأسباب نذكر منها ما يلى:

١ - يمكن أن نبدأ بالإشارة إلى الأحداث التاريخية الكبرى فى الحضارة الغربية مثل الإمبريالية (تجربة الإنسان الغربى الأساسية فى العصر الحديث ابتداءً من أواخر القرن السادس عشر) والحربين العالميتين الغربيتين الأولى والثانية، والإبادة الغربية للسكان الأصليين فى بلاد مثل أمريكا الشمالية، والإبادة النازية لبعض العناصر «غير المفيدة» وبعض أعضاء الأقليات الإثنية والدينية والعرقية مثل الغجر واليهود وكبار السن والمعوقين... إلخ والأيديولوجية العنصرية (الداروينية النيتشوية) التى ساندت الغزوة الإمبريالية للعالم، فها هى حضارة العقلانية والإنسانية (الهيومانية) تكتشف أن سلوكها لا تضبطه قواعد العقلانية والإنسانية، وأنها حضارة النهب الإمبريالى والإبادة المتوحشة.

٢ - يمكن أن نشير إلى ما سبقت الإشارة إليه من تقويض للذات والموضوع من خلال الرؤى الفلسفية والفيزيائية والبيولوجية التى ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وعملية التقويض هذه تعنى صعوبة وجود علاقة بين الذات المدركة والموضوع المدرَك، أى صعوبة وجود علاقة بين الدال اللغوى والمدلول الذى يشكل جزءا من الواقع.

٣ - تصاعد معدلات الترشيد الإجرائى فى المجتمعات الغربية، أى اكتشاف أنجع السبل لتوظيف الوسائل (أى وسائل) فى خدمة الغايات (أى غايات)، أى أنه ترشيد ينصرف إلى الإجراءات ولايهتم بالغايات. ففى إطار اقتصاديات السوق الحرة أصبحت القضية هى كيف يمكن تحقيق أعلى معدلات الأرباح بغض النظر عن نوعية المنتج (الأسلحة - الأفلام الإباحية - الطعام)، أى أن الاقتصاد انفصل عن الإنسان وأصبح هدفا فى حد ذاته. وقد حدث نفس الشىء فى مجالات أخرى للنشاط الإنسانى (السياسة - الفلسفة - الوجدان - الجنس)، بحيث أصبح كل نشاط مرجعية ذاته يحكم عليه بمعايير مستمدة منه هو ذاته، وهذا يعنى انفصاله عن الواقع الإنسانى المركب.

٤ - وقد واكب كل ذلك تزايد معدلات انفصال العلم الطبيعى عن القيمة، والتجريب عن العقل بحيث أصبح التجريب، المنفصل عن أية غائيات إنسانية أو أخلاقية، هدفا فى حد ذاته، كما تزايدت معدلات الاستهلاك إلى أن تحول الاستهلاك (الوسيلة) إلى غاية وأصبحت الأمور ملتفة تماما، الاستهلاك من أجل الإنتاج، والإنتاج من أجل الاستهلاك (ماهو الدال وماهو المدلول فى هذه الحالة؟)، كل هذا نجم عنه انفصال الحقائق عن القيمة، والحقيقة الكلية والتفاصيل عن المعنى، والوسائل عن الغايات، والأجزاء عن الإطار، وأخيرا الذات (الإنسانية) عن الموضوع (الطبيعى / المادى).

٥ - ويمكن أن نسأل ماذا حدث للإنسان فى إطار الحضارة الغربية الحديثة؟ ماذا حدث لمركز الكون وسيد المخلوقات؟ مع تزايد معدلات الترشيد المادى الإجرائى، تزايد نقل الظواهر الإنسانية من عالم الإنسان إلى عالم الأشياء، إلى أن تم نقل الإنسان بقضه وقضيضه إلى عالم الأشياء، حتى أصبح الإنسان / الإنسان هو الإنسان / الشىء أو الإنسان الطبيعى / المادى، جزءا لا يتجزأ من الطبيعة / المادة خاضعا لقوانينها وحتمياتها، وليس له وجود خارجها، أى أنه إنسان فقد تركيبته وحريته ومقدرته على التجاوز، يُعرَّف على أنه مجموعة من الدوافع والحاجات (البرانية) ليس لها مضمون أخلاقى إنسانى وعلى أنه ليس ذاتا جوانية لها أبعادها وأسرارها، فهو واحد من اثنين: إنسان اقتصادى لا يُعرَّف فى ضوء إنسانيته المتعينة وإنما فى ضوء حواسه الخمسة وجهازه الهضمى ومعدلات إنتاجه واستهلاكه ودخله ومستواه المعيشى وعلاقات أو وسائل الإنتاج (التى تتحكم فيه وفى رؤيته)، أو إنسان جسمانى أو جنسى يُعرَّف فى ضوء غرائزه واحتياجاته الجسدية والجنسية ويُرد إلى جهازه التناسلى، وهو فى جميع الأحوال إنسان داروين وماركس وفرويد، جزء من سلسلة الوجود الطبيعية، كائن طبيعى من

الداخل ومن الخارج، أى أن الإنسان أصبح إنسانا ذا بُعد واحد (ماركوز) مجرد عقل أداتى رشيد يوظف الوسائل فى خدمة الغايات دون أن يتساءل عن جدواها أو مضمونها الأخلاقى أو الإنسانى (مدرسة فرانكفورت)، شيئا مجردا من القداسة والسمات الشخصية والإنسانية، أى أن الإنسان فقد ما يميزه كإنسان ووقع فى قبضة الصيرورة وأصبح من ثم دالا دون مدلول (إنسانى).

٦ ـ وإذا كان الإنسان دالا بلا مدلول وغاية المجتمع حركة بدون غاية. يلاحظ أن كل الوسائل تتحول إلى غايات وتختفى الغايات تماما. فالدولة (والمؤسسات الخاصة والعامة الأخرى)، تلك الأداة التى ابتدعها الإنسان لتنظيم حياته، تصبح هى التنين الذى يبتلع الفرد. (وتتحقق نبوءة هوبز). والآلة التى طورها لتقوم على خدمته تصبح هى التى تحدد له إيقاع حياته. وإنتاج السلع الذى كان يهدف إلى إسعاده يصبح هدفا فى حد ذاته يوظفه ويحوسله (أى يحوله إلى وسيلة)، وكما أسلفنا القول يصبح الهدف من الإنتاج هو زيادة الاستهلاك والهدف من الاستهلاك هو زيادة الإنتاج.

٧ ـ فقدت كثير من الدوال مثل «الأسرة» مضمونها التقليدى، فالأسرة لم تعد وحدة اجتماعية من رجل وامرأة وأطفالهما، فقد أصيبت بالتعددية المفرطة، فهى يمكن أن تكون مكوّنة من رجلين أو امرأتين أو رجل وامرأتين، ويظهر انفصال الدال عن المدلول فى عبارة مثل التفضيل الجنسى sexual preference وهى العبارة المستخدمة الآن للإشارة إلى طبيعة العلاقة الجنسية التى يختارها المرء، هل هى مع فرد من الجنس الآخر أم مع فرد من جنسه هو، وكأن المسألة مسألة اختيار.

٨ ـ ومع تزايد إنتاج السلع، يزداد التسلع والتشيؤ بحيث تصبح العلاقات بين البشر هى علاقات بين أشياء ذات قيمة تبادلية، ولذلك يصبح عالم الإنسان المفعم بالمعنى خاليا تماما من المعنى، فحياته الإنسانية حياة شيئية، فهى دال دون مدلول، ويمكن القول أن أزمة المعنى فى جوهرها هى اكتشاف الإنسان الغربى أن حياته دال بدون مدلول حركة بلا معنى، ويصل هذا الاتجاه إلى ذروته فى الترشيد الإجرائى وفى أخلاقيات الصيرورة، أى التزام جميع الأطراف بقواعد اللعبة وبالإجراءات دون الاتفاق على الهدف النهائى منها.

٩ ـ تم ترشيد اللغة وتحييدها فى المجتمع الصناعى الحديث مثلما تم ترشيد وتحييد معظم جوانب الحياة، فاللغة فى المجتمع الصناعى أصبحت لغة واحدية تشير إلى أشياء محددة، فهى مجرد أداة للتعبير عن الأفكار العلمية والمعادلات الرياضية وعمليات البيع والشراء والإعلان والتعاقد القانونى والأوامر وأصبحت هى لغة البيروقراطية التى تتعامل مع البشر بشكل تكنوقراطى من خلال نماذج كمية رياضية، ولغة البيروقراطية لابد أن تكون منضبطة تماما ولابد أن تتسم بالدقة البالغة، فهى أداة العقل الأداتى فى القمع والسيطرة والتوجيه، وهى لغة الصحافة الإخبارية والإعلام «العالمى» التى تقول كل شىء ولاتقول شيئا.

وفى هذا الإطار، ظهرت فلسفة الوضعية المنطقية وظهر الفكر الوضعى الضيق الذى يرى أن اللغة لابد أن تكون واضحة ومحايدة تماما، والفكر الوضعى يفترض أن اللغة لابد أن تكون شفافة تماما وموصلة بشكل كامل، وقادرة على تمثيل الواقع، ويمكن للقارئ من خلالها أن يمسك بواقع صلب متماسك ومحدد، بل ويفترض الفكر الوضعى أن مثل هذه اللغة طبيعية، فثمة تقابل بين قوانين العقل وقوانين الطبيعة، وثمة تقابل كامل بين اللغة والواقع إذ إنه لاتوجد أى مسافة بين الدال والمدلول، فكلمة «أسد» تشير إلى الحيوان الذى يحمل ذلك الاسم، الموجود فى الواقع، ومن ثم لايوجد أى لبس أو إبهام، ومثل هذه اللغة هى أقرب إلى لغة التجارب العلمية والمعادلات الرياضية والعلوم الطبيعية ولغة السوق والمصنع، وبالفعل، نجد أن المثل الأعلى للوضعية المنطقية هى لغة الجبر التى تتطابق تماما مع مضمونها لأنها لامضمون لها، وقد أصر الوضعيون على أن الجمل الإخبارية هى جمل يمكن التأكد من زيفها أو صدقها من خلال التجربة والاختبار، وما لايمكن التأكد منه بهذه الطريقة هو ليس بجملة، ومن ثم، فإن كل الجمل عن الأخلاق والجمال والإحساس الدينى هى شبه جمل.

لكن الجمل الإخبارية لاتفيد كثيرا إلا فى التعامل مع الأشياء وللتعبير عن علاقات الإنتاج والبيع والشراء، ولكنها عاجزة تماما عن غيرذلك، أما نشاطات الإنسان الإنسانية فهذه الجُمل غير قادرة على التعبير عنها، فجملة مثل: «إنها تبكى فى قلبى مثلما تمطر [السماء] فوق المدينة» ليس لها معنى دقيق واضح، ولايمكن البرهنة على صدقها أوكذبها، فالدوال لا تشير إلى مدلول محدد، ولذا فهى جملة ـ من منظور الوضعيين المنطقيين ـ لامعنى لها، شبه إخبارية، بل إن عبارات مثل: «الشجرة جميلة» هى الأخرى لامعنى لها لأن الجمال ليست له مقاييس محددة منضبطة، وبالتالى فالدال «جميلة» ليس مرتبطا بمدلول محدد، وباختصار شديد، يحاول التفكير الوضعى اللغوى أن يضيق الثغرة بين الدال والمدلول إلى أقصى حد بحيث تصبح العلاقة بالمدلول علاقة بسيطة ومباشرة، ولكنه فى الوقت ذاته ـ وهنا تكمن المفارقة ـ يفترض انفصال الدال عن المدلول فى معظم المجالات الإنسانية، التى تشكل المسافة الأكبر من الوجود الإنسانى.

١٠ ـ ظهر تمرد على هذا الاتجاه الوضعى المنطقى وعلى التسلع والتشيؤ، فبدلا من اللغة الموضوعية المغرقة فى الموضوعية ظهرت لغة ذاتية مغرقة فى الذاتية مكتفية بذاتها لاتشير إلى عالم الأشياء، وبذلك يكون دعاة اللغة الذاتية قد قبلوا إحدى مقولات الوضعية المنطقية، أى انفصال الدال عن المدلول فى المجال الإنسانى الذاتى، ودفعوا بها إلى نتيجتها المنطقية، وأصبحت هذه اللغة الذاتية هى اللغة الوحيدة المقبولة فى عالم الفن على وجه الخصوص.

فإذا كان المجتمع الصناعى يحاول تسليع وتشيىء وضبط كل شىء بما فى ذلك العمل الفنى، فإن الثورة على هذا الاتجاه هى إعلان أن العمل الفنى فريد مكتف بذاته لا علاقة له بالسوق أو المصنع فهو يعبِّر عن عالم المبدع الجوانى ولذا فهو مرجعية ذاته لامضمون له (تعليق المضمون)، ولهذا السبب نجد أن الفن الحداثى يزداد إبهاما وتعقيدا حتى أصبح أدبا نخبويا، رغم ثورته على البورجوازية! وقد عبّرت هذه الثورة عن نفسها فى مجالات المعرفة الإنسانية الأخرى مثل فلسفة العلوم وعلم اللغة. ■

■■ تجرى أكثر المشاهد دهشة فى كتاب «أليسون وينتر» فى مستشفى «كلكتا الوطنى» عام ١٩٤٦، حيث كان جميع الموظفين فى المستشفى - بمن فيهم الطاهى - قد تعلموا تنويم المرضى مغناطيسيًا إلى الحد الذى يصبح فيه التخدير أو فقدان الشعور كاملاً: يرقد الرجل على ظهره بينما يجلس المنوم المغناطيسى خلف رأسه ويميل عليه ليصبح فى وضع يواجه فيه المريض وجهًا لوجه.

تصل يد المنوم المغناطيسى اليمنى إلى تجويف معدة (بطن) المريض بينما تقوم يده اليسرى بحركات دائمة أمام وجهه. تتكرر هذه الحركة بشكل رتيب لفترات قد تصل إلى ست ساعات فى اليوم.

يستغرق المريض فى نوم عميق باستمرار، وهو مصاب بورم هائل فى كيس الخصية، الأمر الذى كان شائعًا فى الهند فى ذلك الوقت. كان هذا الورم ناتجًا عن تجمع السوائل فى الغشاء المحيط بالخصية بكميات كبيرة. وعندما يبدو أن المريض أصبح بلا وعى تمامًا، بعد تعرضه للتنويم المغناطيسى فترة قد تمتد لعدة أيام، يتم اختباره عن طريق لمسه بقطعة فحم متوهجة لدرجة الاحمرار. فإذا ثبت بجلاء أنه بلا وعى يجرى استدعاء الجراح الأسكتلندى جيمس إيسديل، وهو جراح علم نفسه بنفسه التخدير بواسطة التنويم المغناطيسى وذلك بقراءة كتيب كان قد جلبه من إنجلترا.

اكتشف جيمس إيسديل بعد ذلك أن خدم المستشفى يستطيعون القيام بعملية التنويم المغناطيسى المضجرة بنفس الدرجة التى يقوم بها هو نفسه. يدخل إيسديل مرتديا معطفا واقيا من الدم ومنتعلاً حذاء بحريا ذا رقبة، ويأخذ فى استئصال كيس الخصية المتضخم ثم يقوم بمساعدة معاونيه الهنود بربط

Mesmermized: Powers of Mind in Victorian Britain

(المسمرة: قوى العقل فى بريطانيا الفيكتورية)

Alison Winter

Chicago Publishing Co., 416pp., $30.00

التنويم المغناطيسى

سلطان العقل على البدن!

إيان هاكنج



المنومون المغناطيسيون كانوا في الأغلب رجالا، بينما كان من يتعرضون لهذه العملية (المنومين) من النساء غالبا. وهنا يكمن تفاعل معقد، لأن الغالبية العظمى من المنومين كانوا من فئات اجتماعية متواضعة

الأوعية الدموية.. وفي حالة أحد المرضى كان وزن الورم المستأصل ١٠٣ أرطال، في الوقت الذي لم يزد فيه وزن المريض بعد العملية عن ١١٤ رطلاً.

وعلى مدى ثمانية أشهر من عام ١٨٤٦ أجرى إيسديل ٧٣ عملية جراحية مختلفة على هنود مُنَوَّمين مغناطيسيا. تضمنت تلك العمليات بتر الأطراف، وإزالة عتامة عدسة العين (كتاراكت)، غير أن أغلب العمليات كانت استئصال الأورام من كيس الخصية.

وقد قامت لجنة مكونة من ثلاثة أطباء وثلاثة موظفين بمراقبة عشر من هذه العمليات ليتحققوا بالفعل مما يحدث. وأصدرت اللجنة بعد ذلك حكمها الذي شهد بأن معظم العمليات تم بنجاح ودون ألم.

هناك طريقتان لتناول مثل هذه الأحداث، إما أن تتحدث عنها بما تعتقده فيها، أو تصفها بلسان حال أصحابها أنفسهم، وتتحدث وينتر في كتابها بلغة هؤلاء الناس وسأحاول من جهتي أن أفعل نفس الشيء.

وبادئ ذي بدء فإن إيسديل كان يعتقد أنه يستخدم التنويم المغناطيسي (المسمرة) أو المغناطيسية الحية (animal magnetism) وليس التنويم الإيحائي (hypnotism).

وليس لدى أليسون وينتر إلا القليل لتقوله عن التنويم الإيحائي، فالكلمة نفسها «hypnotism» (من الإغريقية hypnos - بمعنى النوم) كانت في البداية تُسمى «التنويم الإيحائي العصبي»(nevrohypnotism)، وقد صكها جرّاح اسكتلندي آخر يعمل في مانشستر هو جيمس بريد (James Braid). كان بريد قد شاهد عرضًا للتنويم المغناطيسي سنة ١٨٤١ وحاول بنفسه ممارسته، وبحلول منتصف الأربعينيات من القرن التاسع عشر كان بريد قد كوّن آراءه الخاصة حول ذلك.

وكان يعتقد أنه يستطيع إبعاد الخزعبلات التي تحيط بالتنويم المغناطيسي ليتبقى في النهاية التأثير الإيحائي المنهج، أما آلان جولد (Alan Gauld) مؤلف إحدى الموسوعات الحقيقية عن التنويم الإيحائي فكان يفرق بين التنويم المغناطيسي والتنويم الإيحائي، كما كان يمارسه بريد والذين جاءوا من بعده، وقد جعل جولد من هذه المسألة موضوعًا مفتوحًا للنقاش لاستيضاح ما إذا كانت التأثيرات الناتجة هي نفسها في الحالتين - أي «وضع إنسان في حالة نوم».

تتفق معظم الروايات على أن جيمس بريد كان أول من استهل الدراسة «العلمية» لظاهرة الغشية أو فقدان الحس (trance)، ولكن ما المقصود بهذه الكلمة «أي العلمية؟».

إنها أحد الموضوعات الفرعية الكبيرة التي تناولها كتاب وينتر، وهو موضوع مناسب تمامًا لكل من الصراع الحديث من أجل الصدق والموضوعية في العلم من جهة ولدراسة بريطانيا الفيكتورية من جهة أخرى، فهي تضع التنويم المغناطيسي في لب الصراع الفيكتوري لتعريف العلم.

ولننظر أولاً في الفرق بين التنويم المغناطيسي mesmerism والتنويم الإيحائي hypnotism. تقول وينتر إن «إيحاء بريد Braid's hupnotism» - هكذا تضع المصطلح بين أقواس ربما لتعبر عن مدى نفورها منه - قد أزاح عن التنويم المغناطيسي السيولة المغناطيسية والأحاسيس الجنسية المترافقة مع حركات اليد والعلاقة الشخصية بين المنوم المغناطيسي وموضوع التنويم وهو الأمر الواضح في الادعاءات بأنه جسم وعقل ورغبات إنسان آخر.

أما التنويم المغناطيسي فعلى النقيض، بدأ بنظرية تفصيلية، وقد سُمي مسمرة (mesmerism) على اسم الطبيب النمساوي من فيينا فرانس أنطون مسمر Franz Anton Mesmer) ١٧٣٣ - ١٨١٥)، والذي كان يعتبر نفسه من أتباع اسحق نيوتن المخلصين، كان ذلك وقت أن كان الأوروبيون والأمريكان قد بدأوا في إلقاء أول نظرة خاطفة على الحقائق الأساسية للكهرباء والمغناطيسية.

كان بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin قد بدأ أبحاثه على الكهرباء سنة ١٧٤٦، لكن الفيزيائي الإيطالي ألكسندر فولتا Alexander Volta لم يتمكن من الحصول على تيار مستمر (باختراع البطارية) إلا في سنة ١٨٠٠. وهو تاريخ مثل البداية لأي شيء يتعلق بالكهرباء والمغناطيسية - وارتباطها ببعضها - ونعتبره الآن من المسلمات.

لقد كانت بداية مثيرة غير أنها لم تكن سهلة: ظلت العلاقة بين الكهرباء والمغناطيسية أمرًا غامضًا لمدة طويلة، وقد استغرق الأمر عشرين سنة قبل أن يضع العالم الدانمركي هانس كريستيان أورستد (Hans Christian Orsted) إبره البوصلة المغناطيسية تحت موصِّل يسري فيه تيار كهربي مما جعل الإبرة تنحرف فجأة، لتصنع زاوية قائمة مع الموصِّل. وبعد ذلك مباشرة، وفي سلسلة من المحاضرات المثيرة تمكن الفيزيائي الفرنسي أندريه أمبير (André Ampére) من التوصل إلى النظرية الكهرومغناطيسية. وتبعًا لـ «ستيفن وينبرج» (Steven Weinberg) فإن الكهرومغناطيسية في صورة معادلات ماكسويل هي الشيء الذي يمكن أن يكون أول ما تمخض عنه الكون، لكن قبل عام ١٨٠٠ كان كل شيء مستباحًا، فسمح مسمر لنفسه بالاستيلاء على المغناطيسية أو القوة النيوتونية عن بعد.

كانت المغناطيسية الحية (Animal Magnetism)، كما كان يسميها مسمر - إشارة إلى الحياة أو الروح (Anima' Soul)، وليس من كلمة «حيوان» - هي النفوذ أو السلطان الذي يمارسه شخص على شخص آخر عن طريق إجراءات معينة يقوم بها على جسمه، وبالقطع كان المنوم المغناطيسي يستطيع أن يجعل الناس ينامون مستحدثًا سَرْنَمَةً صناعية (السرنمة - السير أثناء النوم Somnambulism) وفي مقدوره علاج أنواع كثيرة من الأمراض وإخضاع أمور كثيرة عديدة لرغبته. كانت الفكرة النيوتونية تنص على أن الفراغ مملوء بالأثير - مائع غير مرئي. وكان الاعتقاد السائد أن مغناطيسية حجر المغناطيس، والتي كانت تؤثر عن بعد، فتجذب إليها الحديد، تحتاج إلى شيء من قبيل هذا المائع لتمرر قوتها من خلاله.

و«يروي روبرت دارنتون Robert Darnton في كتابه «المسمرة ونهاية التنوير في فرنسا الصادر عام ١٩٦٨» الذي أصبح من الأعمال الكلاسيكية أنه في الثمانينيات من القرن الثامن عشر كانت الصفوة العلمية الفرنسية قد روّعت بالنجاح الجماهيري لمسمر ومعاونيه (كان مسمر قد انتقل ليعيش في باريس)، فقامت بتشكيل لجنتين بغرض اختبار التنويم المغناطيسي. واشتركت أكاديمية العلوم مع الأكاديمية الطبية في الرد على الادعاء القائل بأن هناك تأثيرًا عن بعد لنوع من المغناطيسية، بينما تركت تمامًا المداواة والظواهر الغريبة الأخرى المرتبطة بمسمر دون مناقشة.

وقد شارك في هذه اللجان أكبر الكيميائيين في ذلك العصر، لكن التنويم المغناطيسي أصبح أمرًا غير مرغوب فيه وبدأت ممارسته سرًا ليصبح موضوعًا للكتيبات التي تطبع للعمال، لقد شجبت التشريعات الرسمية التنويم المغناطيسي، وبذلك أصبح لكل قدراته على إنتاج ردود الأفعال الوجدانية العميقة في الجموع - أصبح وبحق له أن يكون قوة مضادة لهذه التشريعات.

التنويم والملكة فيكتوريا:

استمر استخدام التنويم المغناطيسي أحيانا، وربما يرجع ذلك جزئيا إلى أن الناس يصبحون منطلقين غير مقيدين داخل حلقة التنويم المغناطيسي.

لقد كان طريقة للتنفيس عمن لا سلطة لهم في المظاهرات التلقائية وأعمال العنف الثوري. وكان التنويم المغناطيسي هو المضاد للعقل، وبذلك أصبح عاملاً أساسيًا مدمرًا في نهاية عصر «العقل» (Age of reason).

وقد كتبت أليسون وينتر دراسة مماثلة لما كتبه وارنتون، لكن تطبيقًا على بريطانيا فيما بين الأعوام ١٨٣٧ و ١٨٦٢، وكانت ذروة الأحداث قد وقعت في العامين ١٨٤٥، ١٨٤٦. لم يكن هذا زمن عمليات إيسديل فقط، ولكن هناك انطباعا بأن نصف الأحداث المفعمة بالحيوية والتي وردت في هذا الكتاب قد وقعت خلال هذين العامين بالذات. لقد كان ذلك التاريخ الاجتماعي المبكر لبريطانيا الفيكتورية. ماتت الملكة سنة ١٩٠١، غير أن التاريخ الذي تناولته وينتر عن المغناطيسية الحية كان قد تلاشى قبل ذلك بكثير، وتقول وينتر عارضة أحد آرائها: إن التيارات الاجتماعية للتنويم المغناطيسي في أواخر العهد الفيكتوري قد تحولت لتصير متداخلة في تجارب الظواهر الجديدة الخارقة مثل التخاطر والوساطة الروحية، وفي الحقيقة فإن الكلمة التي تشير إلى جلسة الوسيط الروحي «سيانس» Séance قد تحولت من معناها العادي لتصبح وفقًا على حلقة أو جلسة التنويم المغناطيسي.

وليس عندي أي فكرة عن المدى الذي وصلت إليه المغناطيسية الحية في أمة (يقصد الأمة البريطانية) كانت لفترة قصيرة من الزمن تتحكم في مجريات أمور العالم وتنتج تقريبًا كل الصلب في العالم وتستخرج معظم الفحم وتصنع نسبة كبيرة من الملابس، وتشكل - سواء حقيقة أو مجازًا - الصورة الغالبة للعصر، القاطرة البخارية، هذا عدا ارتباط بريطانيا ببقية العالم.

وتكتب أليسون وينتر عن الارتباط بين المغناطيسية الحية والنوم والأفيون وكارل ماركس وأفيون الشعوب، ويمكننا إضافة أكثر الأشياء سوءا في تاريخ الإمبراطورية البريطانية وهي حرب الأفيون عامي ١٨٤١و١٨٤٢، وفي اللحظة التي كان البريطانيون يقومون فيها بمحاولة جادة لإدارة شئون العالم بكل القلاقل والجيشان الداخلي الذي كان يزخر به، فإنهم عانوا من قلق شديد تجاه الطريقة غير العادية التي كان يمكن لأحد الناس أن يتحكم بها في آخر بشكل مرعب، وقد اعتقدوا أنهم كانوا يشهدون التأثير المباشر لعقل إنسان على بدن إنسان آخر، وصار التنويم المغناطيسي هو الميتافيزيقا للناس وارتبط بالراديكالية الشعبية في السياسة. (يمكن مقارنة ذلك بحماس العصر الحديث في الولايات المتحدة حيث تتشكل صورة العصر - الحاسب الشخصي).

وتظهر المغناطيسية الحية في كل الطبقات، وتستهل وينتر كتابها بقصة جين كارلايل «زوجة أحد السادة المحترمين» وهي في حفل شاي سنة ١٨٤٤ أثناء تعرضها لقوة أحد المنومين المغناطيسيين الذي ينتمي لطبقة اجتماعية أدنى منها،

في الثمانينيات من القرن الثامن عشر كانت الصفوة العلمية الفرنسية قد روّعت بالنجاح الجماهيري لمسمر ومعاونيه (كان مسمر قد انتقل ليعيش في باريس)، فقامت بتشكيل لجنتين بغرض اختبار التنويم المغناطيسي

بينما تصارع سلطان عقله بعقلها حتى يحدث التعادل.

وقد أبدى الكثير من المشاهير اهتمامًا بالمغناطيسية الحية وبعضهم قد مارسها فعلا، وقد أوردت وينتر على صفحات كتابها أسماء مثل ديكنز وداروين وهكسلي وهيربرت سبنسر وجورج إيليوت وجون ستيوارت ميل وويلكى كولينز.

وصل التنويم المغناطيسى إلى لندن للمرة الثانية سنة ١٨٣٧، لأنه كان معروفًا بالطبع منذ الأيام الأولى لمسمر نفسه، أما فى فرنسا فعلى الرغم من الرفض الذى قوبلت به المغناطيسية الحية من قبل الصفوة، إلا أنها لم تنجح كحركة هدامة فقط، بل عادت للظهور بنشاط وحيوية فائقة سنة ١٨١٥، وتقول وينتر في كتابها إن علماء مشهورين مثل لابلاس وكوفيير قد صرحوا بأن ظاهرة المغناطيسية الحية ممكنة فى النهاية، وفى عام ١٨١٦ قام بعض العلماء التجريبيين - من بينهم البارون تشارلز ديبوتيه دى سينيفوى بإقناع الأكاديمية الطبية بتشكيل لجنة جديدة، وقد جاء تقرير هذه اللجنة إيجابيا. ومن الأشياء التى تركت انطباعا جيدا لدى اللجنة بالتحديد كان تقرير بعنوان «عملية بدون ألم» وهو عبارة عن عملية استئصال ثدى سرطانى من مدام بلانتين سنة ١٨٢٨ . وقد أعيدت صياغة الخبرة الفرنسية فى المغناطيسية الحية فى ذلك الوقت فى كتاب ضخم من جزءين كبيرين - بلغ حجمهما ١٢١٨ صفحة - للمؤلف برتراند ميهوست. وتتقارب الأفكار فى الجزء الثانى من تقرير ميهوست مع المشهد الختامى فى كتاب وينتر، وبالأخص ما يتعلق بتحويل المنومين المغناطيسيين إلى وسطاء روحيين.

أصبحت صورة التنويم المغناطيسى شيئا مجازيا، ومن أوائل الرسوم الكاريكاتورية التى ظهرت فى مجلة «بونش» Punch سنة ١٨٤١ رسم عنوانه «المغناطيسية الحية أو سير روبرت بيل ينوم الأسد البريطانى مغناطيسيا» - تشير بيل إلى سير روبرت بيل الذى أصبح رئيسا للوزراء للمرة الثانية سنة ١٨٤١ .

وهناك الكثير من مثل هذه الرسوم، ففى عام ١٨٤٣ ظهرت الملكة البريطانية الشابة فيكتوريا فى رسم كاريكاتورى وهى تحاول تنويم الملك الفرنسى لويس فيليب مغناطيسيا ليوقع على معاهدة فى صف مملكتها وضد مملكته بشدة. كان المفهوم المجازى للتنويم المغناطيسى واضحا للجميع.

غير أن هذا الزمن كان بالنسبة للأطباء والجراحين والصيادلة - الذين لم يكن فى مقدورهم جميعا تقديم الكثير من العلاج - بداية تنظيم أنفسهم على شكل صفوة من الخبراء. بالإضافة لذلك كانت مجموعات كاملة من الخبراء الجدد تقوم بتنظيم صفوفها فى جمعيات علمية مثل: الجغرافيون والإحصائيون وخبراء الأرصاد الجوية وعلماء الحيوان والنبات.

وقد تأسست الرابطة البريطانية لتقدم العلوم بأقسامها المتميزة لفروع العلوم المستقلة خلال الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وسرعان ما ارتبطت فى تعاون وثيق مع رجال الصناعة الجدد. أخذت الجامعات الجديدة تتأسس وهى أكثر حرفة بادئة بالكلية الجامعية فى لندن، والتى كان مقدرا لها أن تكون مركزا للكثير من محاولات التنويم المغناطيسى.

وقد تمت صياغة المصطلح «عالم» Scientist بواسطة عالم اللغة الموسوعى وليم هيويل سنة ١٨٣٤ . نفر واشمأز هؤلاء الناس عندما شاهدوا الدجل والخرافات فى سلوك المنومين المغناطيسيين الرّحل، كانوا كذلك متخوفين من سيطرة بعض الناس على البعض الآخر وعازفين عن تداخل العقل والجسم بالشكل الغامض الذى شاهدوه. وكانوا على وجه الخصوص لا يرغبون أبدا فى إمكانية حدوث فيض حيوى من الناس الأدنى فى الطبقات الاجتماعية يؤدى إلى التأثير فى عقول وأبدان الطبقات الأرفع.

لم يكن الوضع تماما كما لو كان العلم فى جانب يواجهه العلم الكاذب فى الجانب الآخر. المثير أن ذلك الموضوع كان محورا للكتاب الذى أصدره برتراند ميهوست، وليس هناك ما يدعو للاعتقاد بأن أيا من المؤلفين قد سمع بكتاب الآخر. لكن من الواضح أنهما يشتركان فى الدافع المعاصر لهما لإيجاد الكيفية التى أصبح بها العلم هو مجموعة القوانين والمعاهد وهيكل من الخبرات قادر على تعريف صميم طبيعة المعلومات.

ولدى وينتر الكثير لتقوله عن القوة فى هذا الكتاب. فالمنوِّمون المغناطيسيون كانوا فى الأغلب رجالا، بينما كان من يتعرضون لهذه العملية (المنوَّمين) من النساء غالبا. وهنا يكمن تفاعل معقد، لأن الغالبية العظمى من المنوَّمين كانوا من فئات اجتماعية متواضعة على الرغم من وجود بعض كبار ملاّك الأراضى والأطباء والجراحين والمحامين ورجال الدين ضمن من يقومون بمحاولات التنويم المغناطيسى وينجحون أحيانا، لكنهم فى معظم الأحيان كانوا يوظفون لذلك منوِّمين مغناطيسيين.

ويُعَدُّ الألم إحدى المعضلات الصغرى التى تناولها كتاب وينتر. وهى - أى وينتر - تحاول البرهنة على أن التخدير قد غيّر من إحساسنا بالألم، بل وغيّر حتى فى معنى الألم. وفوق ذلك فإن النقطة الأصلية تماما عند وينتر هى أن التنويم المغناطيسى قد لعب دوراً أساسياً فى هذا التحول. والقصة النموذجية هنا هى قصة طبيب الأسنان وليم مورتون من مدينة بوسطن الأمريكية، فقد كان رائداً فى استخدام الأثير عام ١٨٤٦ فى عمليات جراحية صغرى للفك متبوعة بخلع الأسنان. وفى الحقيقة فإن زميله هوراس ويلز، كان يحاول لبعض الوقت التخدير بالتنويم المغناطيسى، لكنه لم يتمكن من تنويم أحد، ناهيك عن خلع أى سن بدون ألم. فبدأ يستخدم أكسيد النيتروز (الغاز الضاحك) مجرباً ذلك على نفسه أولا عام ١٨٤٥، الأمر الذى كلل بنجاح باهر. وعلى الفور قام بإعلان ذلك فى محاضرة عامة قائلاً: «عصر جديد لخلع الأسنان قد بدأ».

وما زلنا إلى اليوم نعانى من مواقف جدّ غريبة فى علاقتنا بالألم، وأفضل ما يصور تلك المواقف ما حدث بالنسبة للماريجوانا (الحشيش) فى ولاية كاليفورنيا، فقد صوّت المواطنون فى تلك الولاية لصالح تقنين استعمال الماريجوانا بناء على وصفة طبية، لذلك لتسكين آلام أمراض الشيخوخة مثل التهاب المفاصل ولمناهضة التأثيرات الجانبية للأدوية القوية المستخدمة فى علاج الإيدز (مرض نقص المناعة المكتسبة).

هل انتهى عصر التنويم المغناطيسى؟

لا يستدعى الأمر أن ننظر خلفنا تجاه الفيكتوريين بيقين تام لأننا قد تخلصنا من الألم ومعاناته، لكننا نزعم علي الأقل أننا نملك التحكم فى الألم تحت الظروف المواتية، فحتى الشراب الكحولى القوى أو الأفيون لم يكونا ضمن الخيارات المطروحة حتى سنة ١٨٤٥، وتذكر وينتر أن الطبيب لم يكن يعنى كثيرًا بإيقاف الألم عند المرض، ولم يبدأ الأطباء فى تجربة واستخدام أكسيد النيترور والأثير إلا تحت تهديد التنويم المغناطيسى كمخدر.

كان فى مقدور وينتر أن تقوى من ادعائها بان الطب لم يكن يهتم بآلام المرضى، وذلك بذكر ما حدث سنة ١٨٠٠، حيث كان أعظم العلماء البريطانيين سير همفرى ديفى يجرى تجاربه علي الغاز الضاحك في محاولة لتخفيف بعض الآلام الموضعية، فقد كتب يقول: «يبدو أن أكسيد النيتروز قادر علي القضاء على الآلام الحسية، لذلك يمكن استخدامه نظرًا لهذه الميزة في العمليات الجراحية التى لا يصاحبها فقد الدم بكميات كبيرة».

كما أن وينتر لم تذكر أن فاراداى، الذى كان مقدرًا له أن يصبح شخصية عامة مثل ديفى، قد بين أن للأثير تأثيرا مماثلا وذلك سنة ١٨١٨، ولم يعط الجراحون هذا الأمر أى اهتمام، وظلت هذه الغازات تستخدم كمواد منعشة أو ترفيهية.

(تورد وينتر بعض الرسوم من حفلات الطلاب) فقط عندما بدأ التنويم المغناطيسى كمخدر ينتشر أكثر فأكثر، تحول الأطباء إلى التخدير الكيميائى: أكسيد النيتروز والأثير والكلوروفورم الذى استخدمه لأول مرة سنة ١٨٤٧، وبذلك فإن وينتر تحاول البرهنة على أن استخدام التخدير أخذ يتنامى لأن الأطباء أرادوا أن يبعدوا المنوِّمين المغناطيسيين عن الطب وليس بدافع ذاتى للتحكم (لتخفيف) في الألم.

والنقطة التالية التى تعرض لها وينتر هى أنه لم يكن للأثير أو الكلوروفورم تاريخ أفضل من التنويم المغناطيسى، ولم يستبعد التنويم المغناطيسى من الجراحة لأنه كان أقل فاعلية. وفقط مع التوصل إلى جهاز استنشاق الأثير سنة ١٨٧٦ أصبح الأثير نسبيًا آمنًا، ثم حل محل الكلوروفورم فى عمليات جراحية كثيرة، وقد قبل الكلوروفورم عددًا قليلاً من الناس، وحتى نتمكن من إصدار حكم حول ما حدث بالضبط، فإننا نحتاج بالطبع إلى معلومات عن أمرين، فعالية طريقة التخدير المستعملة ومعدل النجاة بالنسبة للمرضى بعد الجراحة، ولا تستطيع وينتر أن تمدنا بمقاييس حاسمة لأى من هذين الأمرين، لكنها تلقى بشكوك حادة حول تاريخ التخدير.

ما الذى حدث للتنويم المغناطيسى؟ هل غُلب علي أمره ببساطة من قبل العملية (المذهب العلمى) الجديدة؟

وهل أهمل نتيجة ظهور الأثير والكلوروفورم ليحل محله فى أعظم تطبيقاته وهو التخدير؟ وبلا شك، لا يوجد سبب وحيد مسئول عن ذلك الأمر، ويحاول جوناثان ميلر أن يثبت أن الانتقال إلى التنويم الإيحائى لبريد كان نقطة حرجة وإن هناك طريقًا لا شك فيها تربط مباشرة بين إيحاء بريد والعلم المعرفى الحديث، وعلى وجه التحديد فى تعريف الجهاز العصبى المستقل، وتتبع كل من وينتر وميهوسب مسارات مختلفة.

وقد ذهب التنويم المغناطيسى إلى عالم آخر، عالم مأهول بالأرواح التى جاءت على شكل خبطات في منتصف القرن، ثم أخذت تقلب الموائد وتحل فى الأكورديونات الطائرة والوسطاء والمستبصرين (الذين يبصرون الغيب) والمتخاطرين (الذين يتخاطبون عن بعد) وفى قصص العودة إلى الحياة بعد الموت، وهناك العديد من الأدلة المحددة علي هذا الاتجاه فى الانحدار، وقد لجأت بعض المظاهر المزعومة للمغناطيسية الحية إلى الروحانية، فقد كان الاستبصار أحد أشكال عروض التنويم المغناطيسى النموذجية، وقد ظلت تستخدم نفس الكلمة للدلالة علي مقدرة الوسطاء علي رؤية ما حدث وما سوف يحدث دون استخدام عيونهم، وقد أصرت وأكدت الترتيبات الاجتماعية على إطلاق كلمة «جلسة» علي أمسية يتحاور فيها الوسطاء مع الموتى. ■

فى عام ١٨٤٣ ظهرت الملكة البريطانية الشابة فيكتوريا فى رسم كاريكاتورى وهى تحاول تنويم الملك الفرنسى لويس فيليب مغناطيسيا ليوقع على معاهدة فى صف مملكتها وضد مملكته بشدة. كان المفهوم المجازى للتنـــويم المغناطيسى واضحـا للجميــع

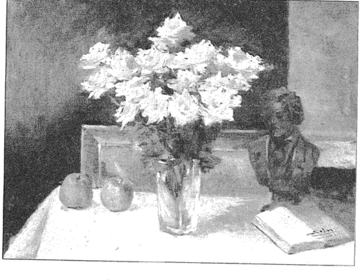
بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books

ترجمة: د. فتح الله الشيخ



صــــبـــــرى راغـــــب

رحيـل «مايسترو» البورتريه والـورود



مـــجـــدى يوســـف

■■ من مآسى هذا الزمان أن نرى ذلك اللهاث وراء آخر الموضات الغربية فى ميادين الفنون التشكيلية، وقد تبنتها الدولة وأغدقت عليها باسم «التحديث»، مما جعل الكثيرين من أنصاف وأرباع المواهب يقبلون على صنع ما يدعى الأعمال الفنية «المركبة»، أو «التجهيزات الفراغية» التى تجمع خليطًا عشوائيا من المرئيات، والمسموعات، والمتحركات والساكنات قد تكون ذات دلالة نقدية بإزاء تراث الفن فى مجتمعاتها الأصلية، ولكنها تصبح تقليدًا هزيلاً خاليًا من المعنى فى ثقافتنا الاجتماعية.

كان صبرى راغب (٣ ديسمبر ١٩٢٠ - ٢٢ يوليو ٢٠٠٠)، آخر الكبار فى ميدان التصوير، شديد النقد لهذا الزيف الذى عم حياتنا الفنية، وأصبح يتهددها بالانهيار والفناء فلم ينله شىء من أريحية جوائز الدولة التى صارت تغدق على هؤلاء الصغار.

لم يكن صبرى راغب معاديا للتجريد فى فن التصوير بصورة مطلقة، إذ كانت لوحاته خاصة فى المرحلة الأخيرة من حياته الفنية تنطق بهذا التجريد: تجريد تفاصيل وجه وأحيانًا جسد الموديل فى محاولة لتقديم «صورة» لإحساس الفنان ورؤيته له.. ولعل ذلك يبرز من بين ما يبرز فى لوحته التى رسمها لتوفيق الحكيم الذى أطلق عليه عبارة تشير إلى قاموس كاتبنا المسرحى الكبير: «مصور الروح».



ولعل صبرى راغب لم يبدأ حياته الفنية - كما يفعل الصغار المحتفى بهم الآن - بهذا التجريد الذى ختم به رحلة نضجه الفنى، وإنما بدأ أكاديميا محاكيا للموضوعات الخارجية التى يصورها، دارسًا مدققًا لمبادئ التشريح وأصول التكوين ومزج الألوان وأطيافها، حتى أن إحدى لوحات شبابه الباكر التى ما زالت تتصدر حائط منزله تصوره فى العشرينيات من عمره وفى إحدى يديه جمجمة، كان يتصور آنذاك أن به مرضًا عضالا سيودى بحياته وهو فى تلك السن الغضة، فرسم نفسه فى هذا البورتريه الذى يخيم عليه اللون الرمادى الحزين، إلا أنه ما كان ليستعين - أصلاً - بتلك الجمجمة لتصوير حالته النفسية فى تلك الفترة - أوائل الأربعينيات - إلا لأن الحصول على الهياكل العظمية للموتى كان متاحًا، وبقروش زهيدة آنذاك، لدارسى التشريح من طلبة الطب والفنون التشكيلية.

البدايات (التى لا يعرفها أحد حتى الآن!)

بينما كان صبرى فى منتصف الثلاثينيات من القرن الماضى يستذكر دروسه أمام نافذة مفتوحة، وهو فى الخامسة عشرة من عمره، إذ بريشة تسقط من حمامة طائرة لتستقر فوق منضدة مذاكرته، فراح يرسمها من تلقاء نفسه على الورق مستخدما الحبر الأسود الذى كان يغمس فيه ريشته التى يكتب بها، ليلون صورة لريشة الحمام بمختلف درجات وأطياف الأسود ما بين فاتح وداكن ورمادى، وراح يعرض لوحته هذه على والده فخورًا بها، ففرح الوالد لمهارة ابنه، واستشار قريبًا له كان موجهًا للتربية الفنية بوزارة المعارف العمومية فأثنى عليها وأهدى صبرى علبة ألوان مائية ليشجعه على ممارسة هوايته، وهكذا ما أن حصل الفتى على شهادة التوجيهية حتى أصبح مصيره معروفًا: إلى مدرسة الفنون الجميلة، وعلى الرغم من معارضة أخواله لهذا الاختيار، فقد وقف والده إلى جانبه متحمسًا لموهبته ومدافعًا عنها. وهنا أفتح قوسًا لأسرد حدثًا مقارنًا، قصه على الدكتور حسين فوزى، صاحب السندباديات المعروف، فى هايدلبرج بألمانيا عام ١٩٧٣، حيث جاء يحاضر طلبة الدراسات العربية فى جامعة تلك المدينة الجميلة فى كتابه «سندباد مصرى» بناء على اقتراح منى لاستضافته من جانب الجامعة، قص علىّ الدكتور حسين أنه بينما كان يقطن فى طفولته حارة الوطاويط بالغورية عثر على ورقة بيضاء من أوراق والده الذى كان مهندسًا بالمساحة، فراح يخط عليها صورة فرح بها واصطحبها معه إلى المدرسة ليعرضها على مدرسه فى الفصل وهو فخور بها، فإذا بالمدرس يقول له متهكمًا: «عال، عظيم قوى» وراح يمزق رسمه إربًا، قال لى حسين فوزى وهو يقص علىّ هذه القصة أنه كان يشعر بنفس الألم الذى شعر به وهو طفل فى السابعة من عمره، بينما أصبح شيخا فى الثالثة والسبعين وهو يرويها علىّ (فهو من مواليد ١٩٠٠ كالمهندس حسن فتحى). ومن يدرى لو أن المدرس شجعه وأثنى عليه كما حدث لصبرى راغب ربما أصبح فنانًا كبيرًا بمثل ما صار واحدًا من أروع كتابنا.. (وهنا أقفل القوس الذى ما فتحته إلا لألقى مزيدًا من الضوء على موضوعنا الأصلى).

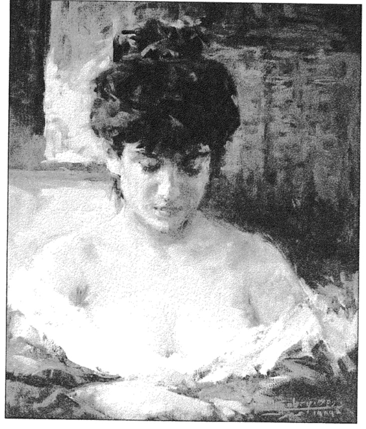
فى مدرسة الفنون الجميلة تتلمذ صبرى راغب على أحمد صبرى فى قسم التصوير، وتأثر بأستاذه غاية ما يكون التأثر، فقد ظل على مدى سنوات طويلة يضرب المثل بلوحة «الراهبة» لأحمد صبرى، ولعل اهتمامه الشديد بهذه اللوحة كان يعكس نزعة صوفية غائرة فى ذاته، وتطلعًا مثاليًا بالغ الشاعرية صرنا نراه فى إيقاع متنامٍ فى لوحاته على مدى حياته الفنية، وفى توتر مستمر مع أدائه التصويرى الأكاديمى الذى تعلمه على يد أحمد صبرى.

بعد أن أتقن صبرى راغب أدواته وهو يحاكى كبار الفنانين الذين استهووه، وعلى رأسهم «رينوار» و«رمبرانت»، صار يبهر مشاهدى لوحاته بمهارته الشعرية العالية فى تصوير الضوء والظل على وجوه وأجساد حسناواته وصدورهن المكشوفة.. فقد صار يعرف وهو مغمض أو يكاد.. موطأ عجينة البياض الناصع أو «الكرمزون» الشفاف، ليستثير فى لمسات سريعة وامضة إحساسًا غامرًا بالمتعة لدى المتلقى.

ولكن وراء هذه المهارة «الڤرتووزو» المبهرة دأبًا وجلدًا لعقود من الدرس والبحث والتعلم الجاد، ومع ذلك فما يميز صبرى راغب عن زملائه من جيل الكبار فى مجال التصوير، هو تلك الحمية المثالية شديدة الشاعرية فى أدائه الفنى التى لا











صبري راغب

أجد لها صنوا أشد ما يكون قربًا منها إلا تلك التي تميز بها المايسترو الألماني الشهير «هربرت فون كارايان» في قيادته لفرقة برلين السيمفونية،كانت عصا «كارايان» في قيادته للأوركسترا تذكرني دائمًا بريشة صبري، وهو يعزف بها في فوران وتدفق هادر على سطح التوال، حتى دعاه البعض مصورًا «أرستقراطيًا» في تناوله لفرشاته ومزجه لألوانه، وإن كان لقب «الأرستقراطية» - في الواقع - لصيقًا بـ «كارايان»، إذ يرمز إليه بكلمة «فون» السابقة لاسمه، والتي تعني بالألمانية النسب إلى أسرة إقطاعية، أما صبري راغب فلم يكن ذا حسب أو نسب، وإن كان قد ظل على مدى حياته كلها يهفو إلى تصوير الرؤساء، والوزراء، وكبار الكتاب، والنساء المنعمات.. وقد استهوى أداؤه الفني المثالي - أيضًا في تجميله للواقع، حتى أن قال عن نفسه مرة «لو رسمت شغالة لجعلت منها أميرة!» - كان يستهوي أداؤه المثالي هذا أفئدة الطبقة السائدة في المجتمع التي آمنت به أفضل مصور لها - ولولا اصطدامه بفجاجة أدعياء الحداثة في التوجه الرسمي للفنون التشكيلية في مصرنا، لما حجبت عنه أكبر جوائز الدولة: تلك التي تحمل اسم «مبارك»، مثلما برع صبري راغب في رسم «علية القوم» متخذًا منهم موضوعاته الأثيرة على مدى العقود الأربعة الأخيرة من عمره الفني الذي يزيد على الستين عامًا، فقد تخصص بالمثل في تصوير الورود، ولكنه أبدا لم يصورها في الطبيعة الغنَّاء كأستاذه «رينوار» وإنما في الأواني والزهريات، ومع ذلك فتلقائية لمساته طالما اضفت عليها روحًا من البهجة الشاعرية، وكأنها «نؤوم الضحى» كأصحابها، منتشية تكاد أن تتمطى في نعومة وهي مترعة بالجمال في أوانيها.

رحل عنا آخر كبار مصوري البورتريه والزهور في عالمنا العربي بعد أن ملأ حياتنا الفنية بروحه المثالية وشاعريته الطاغية.

كان صبري راغب يردد دائمًا: سوف يعرف الناس قدري بعد أن أغادرهم، فهل عرفوا الآن قدره؟ ■





رسم من القرن السادس عشر.. هكذا كان الأوروبيون يتصورون سكان أمريكا الأصليين، مخلوقات غريبة بلا رؤوس وعيونهم فى أكتافهم



ما قبل الاستشراق

ديفيد بلانكس

فى أواخر القرن السادس عشر، ألقت محاكم التفتيش القبض على طحان من منطقة جبلية شمال غربى البندقية وأحرقوه على الخازوق. فماذا كانت جريمته التى استحق عليها ذلك؟ كان يكثر من القراءة. أو بالأحرى، لقد قرأ أشياء خاطئة وتوصل إلى نتائج خاطئة. ويبدو أن ذلك الطحان، واسمه مينوكيو، كان قد حصل على نسخة من «The Travels of Sir John Mandeville رحلات السير جون مانديفيل»، وهى رواية شعبية عن مغامرات رجل إنجليزى زعموا أنه قام برحلات فى الشرق الأوسط والهند والصين فى منتصف القرن الرابع عشر. وكان هناك الكثير من مثل هذه الروايات التى كانوا يتداولونها فى أوروبا، وأشهرها رواية ماركو بولو، إلا أن «رحلات مانديفيل» هى التى وقعت فى يده، وعندما قرأها وقع هو فى المشاكل: ذلك أن مينوكيو كان يأخذ الأفكار والدين مأخذاً شديد الجد.

وكانت المشكلة هى أن مينوكيو نشأ فى عالم ملىء بسوء الفهم والكراهية، حيث كان الكثير من الأوروبيين يدينون أصحاب العقائد المختلفة، على اعتبار أن الاختلاف أمر سيئ وأن أى إنسان لا يفكر ولا يعمل ولا يلبس كما يفكرون هم ويعملون ويلبسون فهو زنديق أو بلا أخلاق أو الاثنان معاً. وقد علموا مينوكيو أن الشرق موضع للشر، وأن المسلمين وثنيون يتسمون بالخسة، وأن هناك سبيلاً واحداً للخلاص، وأن من لم يتبعوه سيكون مصيرهم السعير الأبدى. وخلاصة القول هى أنه ورث أحكام عصره المسبقة.

ولكن مينوكيو كان يعانى لأنهم علموه كذلك أن يحب الرب وأن يحب جاره. فما الذى جعله يستغرب التعهدات الخطيرة فى أى مجتمع الأولوية فيه للتماثل، وتمضى فيه الافتراضات دون تمحيص، والفرق فيه ضئيل بين المنشق والخائن والزنديق، ويشك فيها؟. لقد اضطرب مينوكيو عندما قرأ فى «رحلات مانديفيل» أن المسلمين أناس متدينون ومخلصون للقانون، ويحافظون على تعاليم القرآن الذى بعث به الله إليهم عن طريق رسوله محمد. فقد اضطر لمواجهة ما ورثه من أحكامه المسبقة. وعندما قرأ أن هناك العديد من العقائد والديانات فى العالم، وأن «الرب يحب دائماً من يحبه بحق ويخدمه بخضوع وصدق»، لم يمكنه أن يمنع نفسه من إعادة النظر فى آراء مجتمعه الجامدة.

وكانت نتيجة ذلك أنه عندما سأل أعضاء محكمة التفتيش الطحان عن رأيه فى الاختلاف الدينى، كان ما رد به بأمانة وحماقة هو أنه مسيحى لأنه ولد لأبوين مسيحيين فى بلاد مسيحية، وأنه كان يمكن ببساطة أن يولد تركياً وكان سيفهم لماذا يرغب التركى فى أن يظل تركياً. وما كان يهمه هو أن هناك ما يكفى من الأماكن فى بيت الرب لكل إنسان. وهكذا حرقوه.

هل تقولون إن هذا ليس مستغرباً؟ ربما لا يكون مستغرباً: فإن أوروبا لها تاريخ فى الكراهية والعنف وعدم التسامح. وكان هناك كثيرون فى غرب ما قبل الحداثة لديهم الاستعداد لأن يتخذوا قراراً بشأن الإسلام والشرق.



وفى رسالة تعود إلى سنة ١٥٣١ تم تداولها فيما بين المصلحين الدينيين فى

كان الكثير من الأوروبيين يدينون أصحاب العقائد المختلفة، على اعتبار أن الاختلاف أمر سىء وأن أى إنسان لا يفكر ولا يعمل ولا يلبس كما يفكرون هم ويعملون ويلبسون فهو زنديق أو بلا أخلاق أو الاثنان معاً

ألمانيا وشمال أوروبا، حث سيباستيان فرانك - وكان أحد زعماء الحركة الروحية - أتباعه على معاملة المسلمين وغيرهم من غير المسلمين على أنهم إخوة. وكان سيباستيان يعتقد أن هؤلاء المطيعين للكلمة الباطنية سينجون بغض النظر عن المكان الذى يعيشون فيه. وقد كتب يقول:

«ذلك أن الرب لا يحابى الأشخاص، وإنما هو لليونانيين كما هو للبرابرة والترك، وللسيد والخادم، ما داموا يحافظون على النور الذى يضىء فوقهم وينيرون قلوبهم بالضياء الباطنى». فقد كان الترتيب الربانى يستهدف عتق البشر كافة وخلاصهم. وكان يقول «كل الناس سواء»، كما قال إنه ما من أحد له الحق فى مراقبة آراء أى إنسان سواه.

ولكن ليس هناك من ينكر حقيقة أن هذا هو عصر مطاردة الساحرات(١)(ومحاكم التفتيش - وعصر حروب لم تتوقف بين المسيحية والإسلام. وكان فرانك وأتباعه يُضطهدون، وكانت أصوات منشقة أخرى يتم إسكاتها. فماذا يهم إن نحن وجدنا بعض الأفراد المتسامحين فى عالم غير متسامح؟ إذا كان لا أهمية لذلك فى الماضى، فهو يهم فى وقتنا الراهن. وإذا كنا مهتمين بشأن الاستعمار والعنصرية، ونرغب فى مجابهة الأنماط المقلوبة السلبية الخاصة بالعالم العربى التى تقدم فى الإعلام الغربى، وإذا كنا نأمل فى تحسين التفاهم بين الثقافات واستعادة مكان للشرق فى مسيرة التاريخ العالمى، فمن المفيد لنا أن نفهم السياقات التى ظهرت فيها تلك الأنماط المقلوبة والقوى التى أدت إلى تكوينها. وعلى أى الأحوال، فإن هذا هو السبب فى اهتمامنا بخطاب الاستشراق. ومحاولة فهم ما كان قائماً قبل الاستشراق تخدم الغرض ذاته.



وفى كتاب Trading Territories: Mapping the Early Modern World (London: Reaction Books, 1997) يوضح جيرى بروتون أن «الدول ذات السيادة والدول المدن فى أوروبا باكرة الحداثة لم تكن من القوة السياسية ولا الترابط الدبلوماسى بحيث تشكل تخويفاً دائماً وثابتاً للدولة العثمانية» (ص ١٠٧). ولم تكن الحدود بين الشرق والغرب قد استقرت بعد استقراراً واضحاً. وفى هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن أول جغرافى غربى يجسد كتاب بطليموس «الجغرافيا» (وكان قد ترجم حديثاً من العربية) فى هيئة مجموعة من الخرائط المطبوعة كان رجلاً بندقياً لم يهد كتابه إلى الدوج(٢) (أو غيره من الحكام الإيطاليين، وإنما إلى محمد العثمانى، «الأمير النابه وسيد عرش الرب، إمبراطور سائر آسيا وبلاد اليونان وسيدها الرحيم». وكانت الحدود بين الثقافات - سواء أكانت خيالية أم غير ذلك - أكثر مرونة مما قد نتصوره. فقد كان الصناع البندقيون يعملون فى اسطنبول؛ وكان التجار من إيطاليا وقطالونيا يتاجرون مع طرابلس وتونس واسطنبول؛ وكان باحثو الإنسانيات يدرسون القاهرة وبغداد والإسكندرية؛ وكان القراصنة من كل أمة يصطادون ضحاياهم فى غرب البحر المتوسط: فبغض النظر عن بيانات البابوات وكتّاب الكراسات المناوئة للإسلام، لم تكن هناك حدود ثابتة بين الشرق والغرب، لا فى الأذهان ولا على أرض الواقع. وفى الوقت الراهن لا يمكن لأى محلل سياسى مرموق أن يخطئ الخطاب الدبلوماسى المعاصر الخاص بالعلاقات الاقتصادية والاجتماعية الحقيقية للحياة اليومية: إلا أننا كثيراً ما نقع فى الخطأ عند حديثنا عن الماضى. فقد كان هناك خطاب خوف وارتياب، إلا أنه كان يخفى وراءه واقعاً يومياً أكثر مرونة وتعقيداً.

وتصور رسالة تتعلق ببايزيد الثانى كتبها تاجر إيطالى إلى زملائه فى فلورنسا سنة ١٥٠٢ الطبيعة الغامضة لعلاقات الشرق والغرب قبل حقبة الاستعمار:

«أبدى السلطان اهتماماً كبيراً بنا ... وبكل أعمالنا، كما أنه يبدى كذلك إعجاباً شديداً بأمتنا كافة، وقبل أن أنهى رسالتى هذه، سوف أحكى لك عن طِيبة القلب التى أبداها، وما زال يبديها على الدوام نحو التجار الموتى والمفلسين: حتى أن المرء يمكنه أن يرى أنه يرغب فى أن نحظى بالاحترام والتقدير فى سائر ملكه. بارك الرب فيه».

ولا يبدو هذا بالمرة مثل صورة «التركى قاسى القلب والشهوانى» التى بتنا نتوقعها.

وأرسل إيطالى آخر، وهو سيجيسموندو مالاتيستا، سيد ريمينى، هدية إلى محمد الفاتح عبارة عن كتاب مصور عن الأسلحة والتكتيكات، إلى جانب خرائط مفصلة لإيطاليا والبلقان، وتضمن معلومات مهمة بالنسبة للتقدم العثمانى. ويبين بروتون أن العثمانيين والإيطاليين كانوا يستخدمون هذه الخرائط لتكوين مفاهيم عن المواقف الدبلوماسية والعسكرية التى تتغير بسرعة. وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان ذلك مثالاً تقليدياً لاستيعاب الشرق لما يقدمه الغرب ثم يعكسه على ثقافته هو، إلا أن ترابط القوة والمعرفة كانت مختلفة قبل بداية الإمبريالية الغربية. ويبين بروتون أنه فى الوقت الذى أوجدت فيه خطابات ما بعد التنوير الازدرائية الخاصة بالاستشراق فكرة الشرق فى الخيال السياسى والفكرى الغربى على أنه يبدأ فى مكان ما حول اسطنبول، فإن التبادل التجارى والدبلوماسى والفكرى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر يبرز حقيقة أنه لم يكن هناك وجود لمثل هذا التمييز فى أذهان المعاصرين.



والخرائط مورد لم يُستفد منه الاستفادة التامة ولكن يمكنه أن يروى لنا الكثير عن المواقف الغربية تجاه العالم غير الغربى؛ ولكن لا بد أن نتذكر أنه قبل القرن السادس عشر لم تكن خطوط الطول ودوائر العرض قد وضعت بعد بطريقة يمكن الاستفادة بها - ولذلك لم تكن الخرائط تهتم كثيراً بالاتجاهات أو خطوط السير، ولم تكن مفيدة كثيراً فيما يتعلق بتخطيط رحلة من الرحلات. وهى بدلاً من ذلك كان تعطى دروساً أخلاقية ودينية. ففى أعقاب الحروب الصليبية، وضع رسامو الخرائط القدس فى منتصف الأرض، والفردوس الأرضى فى الشرق، فى موضع أبعد ما يكون عن أوروبا الآثمة. وكما هو حال الأوصاف السردية الخاصة بالأرض المقدسة التى كانت تكتب فى تلك الفترة ذاتها، كانت الخرائط تصف الأحداث التوراتية المهمة وتصورها دون تحديد مواقعها على وجه الدقة. وإذا أتيحت لأحد فرصة دراسة إحداها، فلن يعرف وحسب أن القدس كانت فى منتصف الأرض، بل كذلك أن المناطق الموجودة داخل الأرض المقدسة وحولها يسكنها المسلمون، وأن وراءهم الوثنيين، وأن بريستر جون(٣)(وبلاد يأجوج ومأجوج كانت لا تزال أبعد من ذلك، وأنه كانت هناك أجناس متوحشة على حافة العالم المعروف.

وهنا نلمح بوادر الاستشراق. فالأجناس المتوحشة كانت مخلوقات خيالية تماماً، ولكن الناس فى القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر كانوا يعتقدون أنها حقيقية - بنفس الطريقة التى يعتقد بها الناس الآن فى الأطباق الطائرة وسكان الفضاء الخارجى. وهكذا كانت هناك أخبار عن جنس خجول له آذان ضخمة كآذان الفيلة يمكنهم استخدامها فى الطيران عندما يصيبهم الخوف. وكان هناك قوم لهم رؤوس كلاب وقوم بلا رؤوس ولكن وجوههم فى صدورهم. وكان هناك جنس له عين واحدة وجنس آخر الواحد منهم نصفه رجل ونصفه الآخر امرأة. ومن أشهر هذه الجماعات قوم ذوو ساق واحدة وكانوا ينامون على ظهورهم ويقون أنفسهم من الشمس بقدمهم العملاقة الوحيدة. فى البداية، وضع رسامو الخرائط الأجناس المتوحشة فى الهند والصين وخرج المستكشفون للبحث عنهم.

ولا بد أن آمالهم خابت. وعندما أخذت أخبار النتائج السلبية لبحثهم ترد شيئاً فشيئاً إلى أوروبا، رد صانعو الخرائط على ذلك بوضع الأجناس المتوحشة فى أقصى أطراف الأرض. وبذلك أمكن تفسير وحشيتهم وسلوكهم غير الأخلاقى (المفترض): علمياً - على أنه بفعل المناخ؛ ولاهوتياً - على أنه بفعل بعدهم عن القدس وعن الخلاص. وبذلك كان يتم تلك الشعوب الشرقية، بالمعنى الحرفى للكلمة، عن طريق دفعهم من المركز إلى الهامش، وعن طريق توصيفهم من خلال أنماط مركزية إثنية مقولبة وافتراضات تتعارض مع أى اتصال حقيقى أو معلومات صحيحة. إلا أن المكون الاستعمارى لم يكن قد وجد بعد؛ ولذلك لم يكن ذلك هو الاستشراق فى ثوبه الحديث. وعلى أى الأحوال، كانت هناك دائما قلة من الأوروبيين مثل مينوكيو وسيباستيان فرانك تؤمن بأن كل مخلوقات الرب يمكنها الخلاص. وتصور خريطة ايبستورف الشهيرة، المرسومة على جدران إحدى كنائس القرن الثالث عشر، عالماً يحتضنه المسيح، رأسه فى القمة وقدماه ملتصقتان بالقاع، وذراعاه ملفوفتان حول الحواف. وقد جمعت الشعوب المتوحشة فى يده اليسرى بطريقة فيها حماية لها.

ولكن ماذا عن صور الشعوب غير الغربية الأخرى؟ إننا نتحدث حتى الآن عن رجال الدين والعلماء والتجار والرحالة، غير أن الأدب القصصى والفنون تشكل المكون الرئيسى من الخطاب الاستشراقى. وماذا عن السلاطين الطغاة والجشعين، وقصور المتعة التى تتسم بالبذخ، والراقصات المثيرات للشهوة، والثروة، والانغماس فى الملذات وسائر الأنماط السلبية والخيالية المقولبة التى يوظفها الغربيون لتصوير الشرق؟

يمكننا بلا شك العثور عليها فى القرن السابع عشر. فما «عطيل» لشكسبير و«تيمورلنك» لمارلو و«بيجازيه» لراسين إلا أشهر نماذج تراث مسرحى أوروبى صور الشرق على أنه غامض وساحر ومظلم وخطير. وفى «*A Christian Turned Turk* مسيحى يصير تركياً» لروبرت دابورن، نجد أن الشخصية الرئيسية فيها قرصان إنجليزى يسرق ويقتل ويعتنق الإسلام. وعقاباً له على ذلك يخونه أصدقاؤه المسلمون المخادعون وتحطم قلبه زوجته المسلمة الجذابة ولكنها مخادعة. وفى « *The Renegado* المتمرد» لفيليب ماسنجر، تغوى أميرة مسلمة جميلة وثرية وشرهة الرجال المسيحيين إلى مخدعها، ويجبر أمير مسلم قاسى وشبق النسوة المسيحيات على دخول مخدعه. غير أنه بينما ينتهى الحال بالقرصان فى مسرحية دابورن بالانتحار، فإن متمرد ماسنجر ينكر الإسلام وينقذ السيدة. وكان الدرس واضحاً فى الحالتين بالنسبة لرواد المسرح فى لندن.

وخلال تلك الفترة كان الإسلام يصور فى الأغانى والقصائد والكراسات والمسرحيات على أنه شر، وكان العرب والترك يصورون على أنهم شخصيات

بغض النظر عن بيانات البابوات وكتاب الكراسات المناوئة للإسلام، لم تكن هناك حدود ثابتة بين الشرق والغرب، لا فى الأذهان ولا على أرض الواقع.. كان هناك خوف وارتياب، إلا أنه كان يخفى وراءه واقعاً يومياً أكثر مرونة وتعقيداً



مــا قــبـل الاســتــشـــراق

مضحكة. ولكن ذلك مرجعه إلى أن الغرب كان يشعر بالتهديد! وكان الكتّاب يدفعون الأذى ويحاولون السيطرة على أعدائهم وهزيمتهم من خلال السخرية والإساءة - وهذه هي النقطة التي بدأ من عندها الاستشراق - كما نعرفه - البداية الحقيقية. وخلال تلك السنوات ذاتها بدأ الباحثون الجادون دراسة اللغات والثقافة الشرقية، وازدادت البعثات الدبلوماسية، وجرى التفاوض بشأن الاتفاقات التجارية، وتكونت المنظمات التجارية مثل شركة الهند الشرقية وشركة الشرق الأدنى. وخلقت الشركتان معاً ظروفاً لخطاب الاستشراق الذي نراه يبرز. وفي الأدبين الفرنسي والأسباني على سبيل المثال، ظهر الترك لأول مرة في منتصف القرن السادس عشر. ولكنهم في روايات مثل *La historia del Abbencerrajey de la hermosa Jarifa (1565)* من تأليف فرانسيسكو دي فيلاجاس، يحتفظون بكل الجوانب المتغيرة الخاصة بالناس الحقيقيين: فالفارس المسلم تسبغ عليه أفضل الصفات كافة التي يتمتع بها نظيره المسيحي.

إلا أنه مع بداية القرن السابع عشر اقتصر الأمر على الترك في أعمال مثل *Tragédie Mahométiste* «التراجيديا المحمدية» مجهولة المؤلف والمنشورة في روين بشمال فرنسا سنة ١٦١٢ بأن وصفوا بصفتين يسهل تمييزهما، وهما العنف والخيانة. وهذا الاتجاه يمكن رؤيته حتى داخل أعمال مؤلف واحد واسع الانتشار، هو ميجيل دي سرفانتس. وكان سيرفانتس قد حارب الترك في معركة ليبانتو (١٥٧١). كما أنه أمضى خمس سنوات أسيراً في الجزائر. وكان سيرفانتس يؤيد في العلن إخراج الموريسكيين(٤) من أسبانيا، وكان من المؤيدين البارزين للحملات الحربية الموجهة ضد الترك: وتزخر رسائله بتحية «الرب والبلاد». ومع ذلك فإنه في أعظم نجاح له، وهو رواية «*Don Quixote* دون كيشوت»، نجد الشخصيات المسلمة كائنات بشرية حقيقية، ونجده يعامل من هم مخلصون في عقائدهم باحترام شديد. إلا أن سيرفانتيس مع اقتراب نهاية حياته كان ينشر أعمالاً مثل الرواية الرمزية *Persiles y Segismunda*، التي أصبح الترك فيها أنماطاً جامدة مقولبة - فهم يتسمون بالقسوة والجشع والانحراف الجنسي. ويبدو الأمر كما لو أنه يستسلم لموضة العصر التي هبطت بالمسلمين إلى مجرد شخصيات جامدة.



وقبل عصر الكتب المطبوعة واتساع دائرة القراء، كانت الاتصالات بين الشرق والغرب قليلة ولم تتصف بالتنوع. وكان الخوف الأقل والمعلومات الأقل يعنيان اهتماماً أقل. وكان وصف الشرق يتم تداوله على هيئة مخطوطات، إلا أنها كانت نادرة وغالية الثمن، وقليلون هم الذين كانت لديهم القدرة على قراءتها. وكان الشرق يحتل مكانة مهمة في الخيال الغربي، ولكن أغلب ذلك كان مصدره القصص التوراتية. وبذلك كانت الاتصالات التي تتم بين الثقافات، والطرق التي يجرى بها الإخبار عنها، ذات ترتيب يختلف عن القرنين السادس عشر والسابع عشر، وإذا صح أنه كان هناك خطاب مناوئ للإسلام - وخاصة من جانب الوعاظ - وأنه كانت هناك دعوة لشن حرب صليبية ضد القوم الذين كان يشار إليهم عادة بالكفار العرب، إلا أن ما قد نفكر فيه الآن على أنه هوية أوروبية أو وعي بالذات، لم يكن قد تشكل بعد. ومع أن بعض الصور المهينة قد تبدو مألوفة، فلم يكن هناك خطر مباشر من نقل الأنماط المقولبة إلى العصر الحديث. فقد كان المسيحيون اللاتينيون يوشكون أن يستكشفوا البلاد الواقعة وراء حدودهم.

وحتى في ذروة الحروب الصليبية، كان الكثير من صور الأجانب يخلو بصورة تدعو للدهشة من الغل والحقد. وفي *Chanson de Roland* نجد أن المسيحيين هم الأبطال والمسلمين هم الأشرار، ولكنه يظهر العرب كذلك على أنهم محاربون يتسمون بالشهامة والفروسية؛ ذلك أن النصر لن يكون له معنى ما لم يكن هناك خصوم لهم قدرهم. وفي النص نفسه يصور غير الأوروبيين على أنهم صور معكوسة قاسية وعلى أنهم صور تعكس فكرة المؤلف عن الفارس المسيحي الطيب. وفي العصور الوسطى كثيراً ما كان الكتّاب يستوعبون الأجانب بإبراز تشابههم مع الغربيين؛ أما في عصر الاستشراق فكان التركيز على الفرق والآخرية. وعلى سبيل المثال، جرى تمجيد صلاح الدين - الذي مني الصليبيون على يديه بأكبر هزائمهم - في القصص والروايات المسيحية باعتباره خصماً له قدره ويتسم بالفروسية. وفي بعض الأحيان كان التشابه يتسبب في لحظات من الاضطراب. ففي رواية فلتشر أوف تشارترز الشخصية عن الحملة الصليبية الأولى يطلب من قرائه «تدبر الطريقة التي حول بها الرب في زماننا الغرب إلى شرق والتفكير فيها. ذلك أننا يا من كنا غربيين صرنا الآن شرقيين.. لقد نسينا بالفعل أماكن ولادتنا».

وتكرر عودة الرحالة من الشرق بقدر من الإعجاب بغير المسيحيين وبإبداعات اكتشفت حديثاً لأبناء بلادهم عند عودتهم. وفي القرن الرابع عشر سافر جون أوف مونت كورفينو حتى الصين وأشار إلى تسامح الحكام المغول وحكمتهم. وكان رحالة آخر، هو جون أوف بين دي كاربيني، يعتقد أنهم كرماء وأمناء وعفيفون ويتمتعون بصحة جيدة، وقد تأثر بعدم محاربة المغول بعضهم بعضاً، وهو

عكس ما كان المسيحيون يفعلون. وأعجب جون دي مارينولي، الذي سافر إلى الشرق الأوسط والهند، باهتمام المسلمين الصارم بالصلاة والصوم، مشيراً إلى أن ذلك فاق بكثير الصرامة وإنكار الذات اللذين يمارسهما رجال أوروبا. وفي *Book of Knowledge of the World* «كتاب معرفة العالم» الذي كتبه أحد الفرنسيسكان الأسبان، كان غياب العداوة مذهلاً. فقد امتدح النوبيين والأحباش والبابليين والفرس والهنود لذكائهم. وهو يقول عن سكان تريميك (هل هي التبت؟):

«إنهم قوم يتسمون بالفهم الصافي والذاكرة الجيدة، متفقهون في العلوم، ويعيشون حسب القانون. وهم يقولون إن الرجال الذين سمعوا في البداية عن العلم والتعلم هم هؤلاء، وأن الفرس سمعوا عن تلك الأشياء منهم. ولهذا فإنهم يستحقون الشرف أكثر من سواهم ... لأنهم في موطن الشرق، وسائر المدن الصغيرة والمدن الكبيرة، وأصل هذه المملكة يعود كله إلى المناخ المعتدل الذي كيّف أجسامهم والخير الذي مده إلى أرواحهم، ومنحهم فهماً أفضل وذاكرة أكثر صفاء».

كان العرب والترك يصورون على أنهم شخصيات مضحكة. ولكن ذلك مرجعه إلى أن الغرب كان يشعر بالتهديد؛ وكان الكتاب يدفعون الأذى ويحاولون السيطرة على اعدائهم وهزيمتهم من خلال السخرية والإساءة



وفي الشرق الأوسط كانت هناك مجتمعات محلية من المسلمين والمسيحيين تعيش معاً: في صقلية على سبيل المثال، حيث كان فريدريك الثاني يعقد ديوانه باللغات العربية واليونانية واللاتينية، وحيث كان يسمح للفلاحين المسلمين بفلاحة أراضيهم في سلام؛ أو في فالنسيا أو الأندلس، حيث كانت السلطات المسيحية الأكثر تحفظاً تخاف من جاذبية الفكر والأدب الشرقيين. وفي منتصف القرن التاسع، كان بول ألفاروس، وهو راهب من قرطبة، يشعر برهبة شديدة من ثقافة الشرق:

«يحب المسيحيون قراءة قصائد العرب ورواياتهم، لا ليدحضوها وإنما لتكون لهم لغة عربية صحيحة وطليقة. أين هو ذلك الشخص العادي الذي يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتاب المقدس، أو الذي يدرس الأناجيل أو الأنبياء أو الرسل؟ وأسفاه! إن كل المسيحيين الشباب النجباء يقرءون الكتب العربية ويدرسونها بحماس: إنهم يجمعون مكتبات ضخمة بتكلفة كبيرة؛ وهم يزدرون الأدب المسيحي باعتباره لا يستحق الاهتمام. لقد نسوا لغتهم. ومقابل كل شخص يمكنه كتابة رسالة باللاتينية إلى أحد الأصدقاء، هناك ألف غيره قادرون على التعبير عن أنفسهم بالعربية وبطلاقة».

وبعد ذلك بألف سنة، وفي منتصف القرن التاسع عشر، كانت مثل هذه الآراء تصب مباشرة في خطاب الاستشراق. فقد كون طلاب اللغات والثقافة الشرقية - سيراً منهم وراء اهتماماتهم بعصر التوسع العسكري والاقتصادي الأوروبي - صوراً عن الشرق في إطار سياق استعماري عدواني. وفي تلك الفترة أدخلت تلك الصور من جديد في الإطار الغربي الخاص بالمرجعية على نطاق واسع، بطريقة جعلت من الشعوب غير الأوروبية مجرد أنماط مقولبة. ولكن قبل أن تبدأ الدول القومية الناشئة في غرب أوروبا في الاستواء ودحر الدولة العثمانية في أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر، لم تكن الحدود بين الشرق والغرب محددة تحديداً جيداً كما هي الآن، وكان ترابط القوة والمعرفة الذي يشترطه الاستشراق قد قام بعد. والمؤسف أنه بعد اختفاء التهديد العثماني فحسب لم يعد هناك خطر واضح وقائم، وكان اندفاع الإمبريالية نحو الخارج قد بلغ مستويات لا سبيل إلى مقاومتها، حتى أن الفضاء الثقافي في أوروبا كان متاحاً لأصحاب الآراء المنفتحة والمتسامحة من الحضارات الأخرى. وقبل الاستشراق، عندما كان التشابه بين الشرق والغرب أوضح من الاختلاف، وعندما كان هناك تأكد شديد من أن الغرب مقدم على عصر من الاستعمار في الشرق بدلاً من أية طريقة أخرى، كان انفتاح رجال مثل مينوكيو وسيباستيان فرانك الذي يسع الكل أخطر من أن تتحمله السلطات. ■

ترجمة: أحمد محمود

الهوامش

(١) كانت تلك حركة شاملة - اجتماعية وثقافية وسياسية - قادتها محاكم التفتيش التي أقامتها الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر لمطاردة من تتهمهم بالسحر والهرطقة ومحاكمتهم وإعدامهم. وكان كثيرون من الضحايا علماء ومفكرين أبرياء لا علاقة لهم بشيء. ودامت هذه الحركة حتى القرن السابع عشر. ويقال إن ضحاياها بلغوا أكثر من أربعة ملايين (أكثرهم من النساء) جرى إعدامهم حرقاً. (المترجم)

(٢) كبير قضاة البندقية. (المترجم)

(٣) كاهن مسيحي وملك أسطوري من العصور الوسطى كانوا يعتقدون أنه حكم مملكة مسيحية في الشرق الأقصى أو الحبشة. (المترجم)

(٤) هذه التسمية مشتقة من كلمة *moros* الاسبانية وتعني مسلمين أو مغاربة وكلمة *Mriscos* الموريسكيون [صيغة تصغير أو تحقير] ويمكن أن تعني أشباه المسلمين. والموريسكيون هم بقايا الشعب الأندلسي الذي فرض عليه التنصر بعد سنوات من سقوط غرناطة وقد جرى تهجيرهم بالقوة إلى بلاد المغرب في أوائل القرن السابع عشر. (المترجم)

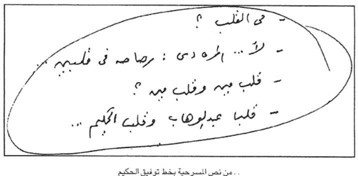
بطلاها عدو المرأة ومعبودها

إبراهيم عبد العزيز

حين يختص توفيق الحكيم «رصاصة في القلب» بتقديره الذي قلما يشير به إلى إبداع من إبداعاته، فلا شك أن لذلك دلالته التي نلمسها حين يقول: «رصاصة في القلب» كتبتها كمسرحية، وهي من كتاباتي الأولى جدا، وأنا أعتز بها كمسرحية» فهي التي أدخلته إلى عالم السينما وجعلته رائدا من رواد الأدب السينمائي، ومن أوائل الذين قدموا الكوميديا الفنية الراقية، ولعل هذا الاتجاه يفسر رفض توفيق الحكيم إعطاء مسرحيته لنجيب الريحاني حين طلبها منه ليمثلها على المسرح بعد إدخال بعض النكت والقفشات، لأن الضحك عند الحكيم في هذه المسرحية نابع من الموقف نفسه، فرفض أن يمثلها الريحاني وفضل عليه عبدالوهاب الذي نجح في إقناعه بتقديمها للسينما بل وإعادة كتابة حوارها مرة أخرى بعد أن وجد الحكيم أنه من الأنانية أحيانا أن يحرم أشخاصه حق الانطلاق لحظة خارج جدران كتبه لتحيا في إطار جديد غير إطار الورق.

وحين أراد الحكيم أن يعيد كتابة أحد إبداعاته تخير «رصاصة في القلب» - مصدر اعتزازه - ليلبسها ثوبًا جديدًا، وجعل من نفسه وعبد الوهاب أبطالا، ولكن برؤية جديدة غير تلك التي مثلتها «فيفي» بطلة قصة الحب التي تربط بين اثنين يعوقهما عائق حاولت هي من خلاله أن تصنع من حبيبها - الذي أحبها من أول نظرة - شيئا، عندما جعلته يشعر بشيء لم يكن قد عرفه من قبل وهو نعمة الألم، حتى يبتعد العائق عن الطريق كي يفوز كل من الطرفين بالآخر. أما «فيفي» في المعالجة الجديدة لـ «رصاصة في القلب» فهي مصدر الإلهام للأديب الحكيم والموسيقار عبد الوهاب، وبذلك تصبح «الرصاصة في قلبين» لا في قلب واحد، أما الهدف فهو خلاصة أفكار الحكيم في المرأة والديمقراطية والوحدة العربية.

يبدأ الحكيم مسرحيته «رصاصة في قلبين»، بصالون نسائي في قصر سيدة شرقية، وكلمة «شرقية» تعني لديه «عربية»، ويزيد الأمر وضوحًا أن هذا الصالون يجمع سيدات يمثلن مختلف الجنسيات العربية، ولعله قصد بالمرأة هنا هو قدرتها على تحقيق حلم الوحدة العربية والذي فشل الرجل في تحقيقه سياسيا، وهو إيمان بقدرة المرأة ينفي ما أشيع عن الحكيم طوال حياته خاصا بالمرأة، وهو ما سوف نتعرض له في حينه، حيث انتهى الحكيم إلى قناعة بأن المرأة تستطيع عاطفيا وفنيا أن تنجح فيما فشل فيه الرجل، وهذا هو موضوع المسرحية الذي يقوم على «مؤامرة»، ولكنها «جميلة ومفيدة»، فهل يمكن الوصول إلى المحبة وجمع الشمل بطريق المؤامرة؟ إنها تعبيرات الحكيم التي قد تبدو متناقضة كشخصيته في بعض الأحيان، ولكن الحكيم يراها محققة لوصول رسالته فيما يكتب، وهو ما قصد إليه حين جعل اجتماع النسوة من أجل تدبير الشحن العاطفي لأكبر أديب وأكبر موسيقار، في الشرق لدفعهما إلى الإبداع، ولكن شيخوختهما قد لا تفلح معها مؤامرات الحب والهوى، أو قد تنصرف الجميلة المرشحة لكي يفوز بقلبها من يفوز إبداعه أدبا ولحنا، وقد حل الحكيم هذه المشكلة بأن يعود هو وعبد الوهاب شابين من جديد في صورة «نور الشريف» الذي يمثل الحكيم في شبابه، كما لعب دوره في فيلم «عصفور من الشرق»، ويمثل «محمود ياسين» شباب عبد الوهاب أيضا، حتى يمكن أن يكون هناك تحريض على الحب والإلهام من خلال ترشيح واحدة جميلة العينين لتكون الملهمة لهما، لإبداع شكل فني «له علاقة بالدول والشعوب التي تمثلها النساء الحاضرات.. فيكون لكل بلد عربي مقطوعة شعر منسوبة إليه في إطار شكل قصصي خفيف الروح يكتبه الأديب الحكيم، ويلحنه الموسيقار عبد الوهاب، وبذلك يتعاون الشعر العربي كله ودوله العربية كلها في عمل سينمائي واحد».



.. من نص المسرحية بخط توفيق الحكيم

أما لماذا الشعر بالذات الذي اختاره الحكيم دون بقية ألوان الإبداع الأخرى، فلأن الشعر هو ديوان العرب، ولأن شعراء العرب هم رمز الوحدة الثقافية العربية، حيث كان الشعر هو أسرع وسيلة تجمع بين الشعوب العربية.

ويتذكر الحكيم أيام زمان حين «كنت تجد شعراء مصر ولبنان والشام لا تفرقهم الحدود، فتجد خليل مطران يأتي لمصر، يبقى مصري ويسمى «شاعر القطرين»، وشوقي يذهب لبيروت فيبقى شاعر لبناني، وبشارة الخوري يكتب قصائد لعبد الوهاب، وكل شاعر له جنسيته، لكن هناك وحدة ثقافية».

ويرى الحكيم أن رجال السياسة في بلادنا هم الذين شوهوا مفهوم العروبة وأساءوا إليها، إنهم يفرضون سياستهم على أهل القلم، ويحثونهم على تكييف آرائهم وفق تقلبات العلاقة السياسية وظروفها.

إن توفيق الحكيم يطالب بالعودة إلى حيث لم تكن السياسة قد ظهر لها أي أثر في هذه الوحدة أو هذا الوطن العربي الثقافي.

وكانت دوافع الحكيم إلى هذه الوحدة الثقافية العربية، هي دوافع موضوعية رأى فيها السياسة تفرق وتمزق، ودوافع شخصية رأى فيها الخلافات السياسية تقطع العلاقات الثقافية وتحرم فيها البلاد العربية قراءة ثقافة البلاد العربية الأخرى التي تختلف معها.

ولن يبعد الحكيم كثيرا في رؤيته للديمقراطية عن رؤيته للوحدة العربية، فهو كما يئس من الرجال في تحقيق الوحدة، يئس أيضا منهم في تحقيق الديمقراطية، فلم يجد إلا النساء تحقيقا للهدفين، فقد خاب أمله في الديمقراطية التي أصابته بخصم خمسة عشر يوما من مرتبه حين كان مديرًا لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف، لأنه طالب بحل البرلمان الذي لم يكن إلا واجهة برلمانية مزيفة، حين أقال الملك النحاس، وحل البرلمان، وجاء بوزارة محمد محمود باشا التي زيفت الانتخابات ونشر الحكيم كتابه «شجرة الحكم» الذي أكد فيه أن النظام النيابي في مصر هو الأداة الصالحة لتخريج الحكام غير الصالحين، وفي كتابه «مشكلة الحكم» تبنى الرأي الذي يقول «قد يكون من الأيسر أن نأمل في رؤية جمل يمر من ثقب إبرة على أن نأمل في رؤية رجل عظيم يستكشف عن طريق انتخابات الجماهير»، والخلاصة كما يرى الحكيم أن الشعب لا ينتخب من يريد، ويُشبه ما يحدث في الانتخابات بموسم «الدودة» حيث يعمل جماعة من المقاولين لحساب جماعة من الممولين»

ويرى الحكيم أن الديكتاتورية قد تكون الملجأ الأخير حين تفشل الديمقراطية، لكننا لا نعيش أصلا في ديمقراطية حقيقية كاملة لكي نقول إنها قد فشلت.

إذن فما هو السبيل لوجود مجتمع ذي نظام مستقر؟

يلخص الحكيم إجابته في كلمة واحدة هي «الحضارة» إنها التي أنقذت العالم الغربي من انهيار سريع، حيث ظهر في العالم الغربي مفكرون عظام استطاعوا أن يبنوا حضارة عظيمة كونت الفرد تكوينا متينا من الثقافة الواسعة والتربية المتينة، وأخرجتهم من الجهل والظلام، وبعد ذلك ارتدت هذه الشعوب الأردية المختلفة من النظم السياسية سواء كانت اشتراكية أو رأسمالية أو غيرها، وقد عانى الغرب من الممارسة السياسية لهذه النظم ما عنى، ولكنه خرج من كل ذلك قويا منتجا لم تؤثر فيه عيوب هذه النظم، لأنه وجد في المجتمع الغربي شعبا متحضرا يعرف ما له من حقوق وما عليه من واجبات، لذلك أقول لك باختصار: «أعطني شعبا متحضرا واجعله يرتدي أي نظام سياسي يريد».

إذن يعود الحكيم مرة أخرى إلى الثقافة فيجعلها حصنا للشعوب من تقلبات النظم السياسية وعيوبها، كما جعلها من قبل حصنا للوحدة من نزعات السياسة وأهوائها، وهو فيما يتعلق بالوحدة، أو نظام الحكم يرى المرأة محققة لما عجز عنه الرجال، فهي توحد العرب بالشعر والإلهام في «رصاصة في قلبين»، وهي تنجح في ذلك حين تجمع النساء ممثلات للبلاد العربية وتجعلهن يتفقن على هدف واحد في اجتماعهن دون أن يفشل الاجتماع أو تفسده المصالح الشخصية، فكان اجتماع المرأة اجتماعا يمثل الديمقراطية الحقيقية في سعيها للصالح العام وفي قيامها على مبدأ ثقافي وفني يحمي الممارسة ويتسلح الممارسون لها بما أسماه الحكيم «الحضارة»، وهي وجه من وجوه الثقافة.

إن توفيق الحكيم في إبداعاته على امتداداتها يبحث عن المرأة المثالية، فهي الملهمة في «العش الهادئ»، وهي رمز المعرفة والحكمة في «شهرزاد» وهي ذات قلب أقوى من ملك سليمان وقدراته وحكمته في «سليمان الحكيم» وهي التي ترفض الاستسلام وتتطلع إلى المساواة ومشاركة الرجل في العمل في «شمس النهار».

لذلك أدرك سارتر أن المرأة في إبداعات الحكيم أذكى من الرجال.

ولاحظت أمينة السعيد «أننا جنس قريب إلى قلبه وربما قريب جدا ولكن كبرياءه الطبيعية تمنعه من الإفصاح عن ذلك فآثر أن يخطب ودنا مستترا بدعوى العداوة.

ولعل الحكيم نفسه كان مدركا لقيمة المرأة وأهميتها في حياة الرجل وإن تظاهر بغير ذلك فهو القائل «إني إذا تكلمت عن الفن لا يسعني إلا أن أعترف مرغمًا أن المرأة هي روح الفن»، بل يعترف «أن الإلهام الفني نفسه قد خلق على صورة امرأة» وهو ما فعله في مسرحيته التي بين أيدينا «رصاصة في قلبين» حين جعل المرأة هي ملهمة للأديب والموسيقار معًا، بل إنه يذهب إلى أبعد من مجرد الإلهام الذي تنثره المرأة على عقل الرجل وقلبه، حين يؤكد «لا أستطيع أن أتصور الوجود بغير امرأة»، فقد

مسرحية لم تنشر لتوفيق الحكيم

"رصاصة فى قلبين"

كانت المرأة للحكيم أمًا، وزوجة، وبنتًا، وحفيدة.

ولعله بمسرحيته المشار إليها قد أراد تحية المرأة وهو فى عمر لم يعد ينتظر فيه جزاء ولا شكورا، وإن لم يمنعه ذلك من مداعبة المرأة وتذكيرها فى «رصاصة فى قلبين» بتاريخه المعروف مما يجعل «فيفى» المرشحة لإلهامه حين تعرف أنها ستلتقى به تقول «ياساتر»، فيكون جواب زميلاتها لها:

استحملى وصبرى نفسك.. أنت هتعملى عمل وطنى كبير.. البلاد العربية كلها حتشكرك عليه.

وهكذا كعادته دائما يمزج الحكيم آراءه الجادة بسخريته الحادة التى تثير الابتسام والمتعة فى آن واحد، فقد تميز عن أدباء عصره بأنه رجل فن، فجمع بين الحسنيين، وأهدانا والأجيال القادمة إبداعاته القديمة المتجددة، فما بالك بإبداعات أخرى نكتشفها ولم يسبق نشرها كهذا النص الذى كتبه فى ست وعشرين صفحة من القطع المتوسط، وبدأه بثلاث صفحات بخط القلم الحبر، ثم استكمله بخط القلم الرصاص الذى عادة ما يكتب به فى معظم الأحوال، وهو لم يختر له عنوانًا وإنما اخترناه نحن من واقع الحوار الداخلى للمسرحية التى كتبها الحكيم، وجعل الفوز فيها لكل المبدعين وهو أولهم.



مسـرحيـة

"رصاصة فى قلبين"

توفـــيق الحكيــم

■■ صالون نسائى فى قصر سيدة شرقية، تجتمع فيه نخبة من سيدات يمثلن مختلف الجنسيات العربية، فيهن السعودية والسودانية والأردنية والليبية واليمنية والقطرية إلخ إلخ...

تقول لهن صاحبة القصر:

- اسمعوا يا ستات.. إحنا اجتمعنا هنا الليلة علشان نفكر فى مشروع مهم جدا وخطير جدا... الموضوع مؤامرة.

جميع الستات فى صياح:

- مؤامرة؟ يا ساتر!

صاحبة القصر:

- ما تخافوش دى مؤامرة جميلة ومفيدة.. والهدف منها المحبة وجمع الشمل.. أنتم طبعًا شفتم فيلم «رصاصة فى القلب».

الجميع:

- طبعًا.

صاحبة القصر:

- اللى مثله ولحنه الموسيقار عبد الوهاب وألف قصته توفيق الحكيم.. وشافوه فى أول عرض جداتنا وأمهاتنا.. من أربعين سنة!

الجميع: طبعًا طبعًا.. مش إحنا.

صاحبة القصر: إيه رأيكم بقى ناخد الليلة قرار بأن الاتنين الموسيقار والكاتب يعملوا النهاردة فيلم بعنوان «رصاصة»...

- فى القلب؟

* لأ.. المرة دى: رصاصة فى قلبين.

- قلب مين وقلب مين؟

* قلب عبد الوهاب وقلب الحكيم.

- بس دول دلوقت عجزوا.

* دى مسالة نشوف لها حل.. المهم الموضوع.. والموضوع ده بعد موافقتكم جميعًا يتلخص فى إن بنت جميلة تطلق من عينيها الحلوة رصاصة تدخل قلب الاتنين فى وقت واحد.. ونشترط عليهم أنهم ينتجوا عمل فنى، المؤلف يؤلفه والموسيقار يلحنه ويتنافسوا فى الإبداع كل واحد فى اختصاصه.. واللى يفوز منهم فى إبداعه يفوز بقلب الجميلة.. وبالطريقة دى نكون أدينا للفن والأدب أكبر خدمة.. إيه رأيكم؟

الجميع: فكرة جميلة ومفيدة.

صاحبة القصر: الأجمل من كده إن الفكرة خارجة من اجتماعنا هنا كلنا.. وإحنا كلنا هنا نمثل نساء العالم العربى بمختلف دوله وشعوبه.. يعنى كل العرب اتحدوا وتضامنوا فى تحقيق الفكرة.

الجميع: شىء جميل فعلاً.

* ومفيد فعلا.. علشان نثبت إن السياسة يمكن تفرق، لكن الفن هواللى يوحد لأنه خارج من القلب، وقلبنا واحد.

- صحيح.. وننفذ الفكرة دى إزاى؟

* قبل كل شىء مين اللى عليها تطلق الرصاصة.

- لازم نتفق فيما بيننا على اختيارها.

* مش قبل كده ناخد رأى المجنى عليهم.

- حد ياخد رأى واحد فى رصاصة حاتنطلق عليه؟!

* فعلاً. المفروض إن الرصاصة تنطلق الأول.

- والمفروض كمان إن الرصاصة تصيب القلب

صاحبة القصر: المسألة كده حاتطول.. من رأيى نبدأ حالاً.

الجميع: نبدأ حالاً.

صاحبة القصر: نبدأ أولا بالاجتماع بالطرفين الموسيقار والمؤلف ونعرض عليهم الفكرة لأجل كل واحد منهم يبتدى يجهز نفسه ويستعد للعمل فورًا.. إيه رأيكم؟

الجميع: موافقين.

وقد أعاد توفيق الحكيم كتابة الجزء الأخير من الحوار السابق بعد تغيير طفيف التماسا للجودة ودقة العبارة لكى تصل إلى مرماها من القارئ أو المستمع أوالمشاهد الذى يستهدفه، وقد جاءت الصياغة كالتالى بعد هذه العبارة:

الجميع: شىء جميل فعلا.

* علشان كده اجتمعنا من كل الدول العربية.

- أيوه علشان نثبت أن السياسة يمكن تفرق، لكن الفن والأدب هواللى يوحد لأنه خارج من القلب.. وقلبنا واحد.. مش كده ولا إيه.

* تمام.

- المهم التنفيذ ننفذ الفكرة دى إزاى؟

* قبل كل شىء مين اللى عليها تطلق الرصاصة؟

- مسألة صعبة.. ولازم نتفق فيما بيننا على اختيارها.

* مش قبل كده ناخد رأى المجنى عليهم، قصدى الموسيقار والمؤلف.

- كلام إيه ده؟! حد ياخد رأى واحد فى رصاصة حاتنطلق عليه؟

* فعلا.. المفروض إن الرصاصة تنطلق الأول

- والمفروض كمان إن الرصاصة تصيب القلب.

صاحبة الصالون: لأ المسألة كده حاتطول لغاية ما نختار واحدة تطلق الرصاصة.. والرصاصة تصيب وتفعل مفعولها تاخد وقت طويل، وإحنا عاوزين نبدأ من دلوقت.. الأحسن نجتمع كلنا الأول بالطرفين:الموسيقار والمؤلف ونعرض عليهم الفكرة.. لأجل كل واحد منهم يجهز نفسه ويستعد للعمل فورًا.. إيه رأيكم.

الجميع: موافقين.



ويذهب الجميع إلى صالة اجتماع بعد دعوة المؤلف والموسيقار، ويعرضون عليهما الموضوع باختصار.. وهو أن يعيدوا عهد «رصاصة فى القلب» يوم كان العرب كلهم متفقين ومجتمعين حول الفن والحب المخيم على الجميع، ولإعادة هذا الجو يجب أن يعود نفس المؤلف والملحن للتعاون معا فى عرض سينمائى يؤلف المؤلف موضوعه ويقوم الموسيقار بوضع ألحانه. ولكى يتم تنشيط الاثنين وإثارة حماس كل منهما، نهض كل نساء البلاد العربية، القائم بالنيابة عنهن النساء المجتمعات وقررن ترشيح واحدة جميلة العينين لتكون الملهمة لهما، وفى نفس الوقت القاضية والمحكمة التى تحكم فى النهاية على عمل كل من الموسيقار والمؤلف، ومن ترى أنه قد امتاز وتفوق على زميله فى الإبداع الفنى فاز بقلبها.

وهنا يقول الموسيقار: وما هو الشكل الفنى لهذا العمل؟

أيكون مثلا كوميديا موسيقية.. يعنى قصة يتخللها ألحان زى رصاصة فى القلب؟

وتأخذ النساء المجتمعات فى الجدل والمناقشة على الطريقة النسائية إلى أن تقاطعهن صاحبة الصالون قائلة: إنها تفضل أن يكون الشكل الفنى له علاقة بالدول والشعوب التى تمثلها النساء الحاضرات ، فمثلا يكون الشكل الفنى منوعات شعرية مصورة سينمائيا على نسق قصيدة «لست أدرى» للشاعر اللبنانى فى «رصاصة فى القلب».. فيكون لكل بلد عربى مقطوعة شعرية منسوبة إليه، فالشعر العراقى إلى جانب شعر سعودى إلى جانب شعر تونسى وسودانى وسورى إلخ. إلخ.. ويقوم الموسيقار عبد الوهاب بتلحينها وتصويرها سينمائيا.. وكل هذا بالطبع يجب أن يدخل فى إطار شكل قصصى خفيف الروح يكتبه المؤلف.. وبذلك يتعاون الشعر العربى كله ودوله العربية كلها فى عمل سينمائى واحد، أما القصة فستكون حول الرصاصة التى تطلقها من عينيها الجميلة مصوبة إلى قلبى الموسيقار والمؤلف، ثم التنافس بين الاثنين على الفوز بقلب الملهمة بعد أن تنطق هى بالحكم.

عبد الوهاب: وحكمها ده نهائى؟

الحكيم: يعنى مفيش استئناف ولا طعن.

الجميع: نهائى.. نهائى؟

صاحبة الصالون: طبعًا نهائى لا استئناف ولا طعن.. لأنها تمثل إرادتنا جميعًا وحايزة على ثقتنا كلنا.

الحكيم: وحاتكون هى الملهمة لنا؟

الجميع: طبعًا.

عبد الوهاب: لا بد بقى تقابلنا وتكون على صلة بعملنا.

الجميع: طبعًا.

الحكيم: وكل واحد منا تقابله على انفراد.. لأن طبيعة عمل كل واحد منا مختلفة.. والإلهام إيضًا يكون مختلف.

الجميع: طبعًا.. طبعًا.

عبد الوهاب: يعنى كل ما أحتاج للإلهام تحضر لى الملهمة؟

الجميع: طبعًا.. طبعًا.

الحكيم: بس على شرط تكون مقابلة حضرة الملهمة لكل واحد منا بالعدل والقسطاس.

الجميع: طبعًا طبعًا.

عبد الوهاب: اتفقنا.. مش كده برضه ياحضرة المؤلف.

الحكيم: أيوه اتفقنا.. بس.. مش تعرفونا بقى بحضرة الملهمة.. قصدى حضرة المحكمة؟

الجميع: حايحصل.

***

الموسيقار عبد الوهاب والمؤلف توفيق الحكيم بعصاه يمشيان على ضفاف النيل يتحاوران...

عبد الوهاب: أما فكرة.

الحكيم: أنا مش مرتاح لمسألة الرصاصة دى.

عبد الوهاب: وحايجرى إيه يعنى.

الحكيم: إفرض إن الرصاصة صابت؟

عبد الوهاب: ما تصيب يا أخى.. ولا يهمك.

الحكيم: ولا يهمنى إزاى.. إنت ما عليهش ولا يهمك إنت.. لأن القلب عندك لما ينفتح تخرج منه أجمل الألحان.. لكن أنا بالعكس.

عبد الوهاب: بالعكس ليه؟ ليه ما تقولش إن القلب عندك أنت كمان إذا انفتح خرج منه كلام حلو.

الحكيم: اسمع.. إحنا نسينا شىء مهم هو مسألة السن؟ الجماعة الستات دول نسيوا إننا فى سن الشيخوخة.

عبد الوهاب: هم ما نسيوش.. اللى يهمهم منا أعمالنا الفنية.. وخبرتنا اللى اكتسبناها من السن.

الحكيم: أنا عندى فكرة.. الستات دول عايشين فى جو الأربعينيات.. جو «رصاصة فى القلب».. لابد نرجع لهم أنا وأنت شباب فى الأربعينيات.

عبد الوهاب: إزاى؟

الحكيم: نبعت لهم عبد الوهاب والحكيم أيام الأربعينيات.



عبد الوهاب: مش فاهم.
الحكيم: دلوقت تفهم.




فى الصالون الأدبى وجميلات البلاد العربية مجتمعات حول غادة رائعة الجمال.. وصاحبة القصر تقول لها:

ـ عرفت بقى حاتعملى إيه؟

* واشمعنا أنا بقى اللى حاقوم بالدور ده؟

الجميع: علشان كلنا اخترناك أنت بالإجماع.

* بس أنا مش حاقدر أقول لدول حاجة.

ـ مش حاتقولى حاجة.. عينيك الحلوين دول هم اللى حايقولوا.

* بس دول عجايز قوى.

ـ وتبصى لهم ليه.. إنت حاتسمعى ألحان عبد الوهاب الحلوة بودنك.. أما توفيق الحكيم.

* يا ساتر!

ـ استحملى وصبرى نفسك.. إنت حاتعملى عمل وطنى كبير.. البلاد العربية كلها حاتشكرك.

* كتب التاريخ كانت بتقول الكلام ده عن أسطورة رمى البنت الشابة للنيل والتماسيح.

ـ اطمئنى.. التماسيح دول مالهمش أسنان.

الجميع (ينظرون فى الساعة): هم تأخروا كده ليه؟

ـ أنا خايفة!

صاحبة الصالون: ما تخافيش.. هم مش حايكلموكى.

* أنا حا أغمض عينى.

ـ لأ.. بالعكس.. إحنا قلنا إيه؟ أنت لازم تفتحى لهم عينك الحلوة دى كويس قوى وتبصى لكل واحد منهم النظرة اللى توقعه.

* ربنا يقدرنى.

(جرس الباب)

الجميع: جرس الباب.. أهم حضروا.

صاحبة القصر: استعدى.

* مش قادرة أبص لهم.

ـ تشجعى.

(يظهر من الباب محمود يس بطربوش، ونور الشريف بالعصا والبيريه.. ويفاجأ الجميع.. وتحملق السيدات، ويجمدن بلا حركة.. ويتقدم محمود ياسين مقدما نفسه..

محمود ياسين: محمد عبد الوهاب.

نور الشريف: وأنا توفيق الحكيم.

صاحبة القصر: إيه ده؟

محمود ياسين: لا مؤاخذة.. قلنا نيجى فى سننا اللى كنا فيه يوم ظهور «رصاصة فى القلب».. مش كده أحسن؟

نور: اسمحوا بقى وقدموا لنا صاحبة المسدس.

صاحبة القصر: أقدم لكم الآنسة.. فيفى.

ياسين ونور: تشرفنا.

فيفى: (تنحنى لهما برأسها وقد احمر وجهها وانشرح صدرها) أنا اللى حصل لى الشرف.

صاحبة القصر: إيه بقى رأيكم!

ياسين: عرفتم تختاروا.

نور: بس مكسوفة شوية.

صاحبة الصالون: أصلها اتفاجأت.. زينا كلنا ما اتفاجئنا.

فيفى: كنت فاكراكم أكبر من كده شويه

ياسين: شوية؟ متشكرين.

فيفى: أصل الحقيقة صور الجرائد بتصوركم كبار فى السن.

نور: ماكياج.. بيعملوا لنا ماكياج يكبرنا.. مسألة دعاية صحفية. لكن الحقيقة إننا زى ما أنت شايفة دلوقت..

ياسين: إحنا دلوقت كده أحسن.

فيفى: أحسن قوى.. إخص عليهم.. ليه يخفوا شبابكم ده.

ياسين: ما دمنا كده عاجبينك يبقى الحمد لله.

فيفى: أنا سعيدة اللى شفتكم على حقيقتكم دى.

نور: إحنا كمان سعدا بالحقيقة دى.

صاحبة الصالون: تحبوا تشربوا إيه؟ مش تعزمى عليهم يا فيفى؟

فيفى: أنا أعرف إنهم يحبوا ياكلوا جلاس.

ياسين: وانت كمان يا آنسة فيفى تحبى تاكلى جلاس.. وسبق أول ما شفتك قلت لك: تاكلى جلاس وتدوبى فى قلوب الناس.

نور: لأ من فضلك.. دا أنا اللى شفتها الأول وقلت لها كده.. مش فاكرة يا آنسة فيفى؟

فيفى: أيوه تمام.

ياسين: إزاى ده؟ دا أنا اللى شفتك الأول وأنت قاعدة تاكلى الجلاس وقلت لك بتاكلى جلاس وتدوبى فى قلوب الناس.. مش فاكرة.

فيفى: أيوه تمام.

نور: إيه الكلام ده؟

صاحبة الصالون: لازم أنتم الاتنين شفتوها فى وقت واحد.

فيفى: أيوه تمام.. زى النهاردة كده.

ياسين: أبدًا أبدًا.. أنا كنت لوحدى وساعة المسدس ما انطلق.

نور: انطلق فى قلبى.

ياسين: لا يا سيدى فى قلبى أنا.

نور: قلت لك قلبى أنا.. بلاش مقاوحة.

ياسين: قلبك؟ فين؟

نور: هنا (يشير إلى الجهة اليمين)

ياسين: أولا القلب مش فى الجهة دى.

نور: أمال يبقى فى أى جهة؟

ياسين: فى الجهة الشمال يا حضرة.

نور: الشمال؟ ليه هو أنا أشول.. أنا بسلم بإيدى اليمين وآكل بإيدى اليمين لازم كمان قلبى يكون فى اليمين.. مش معقول كده.

فيفى: ما تتخانقوش.. مش مهم الجهة.. المهم القلب.

ياسين: طبعًا المهم القلب.. والقلب ده كان قلبى أنا.

نور: لأ يا سيدى.. أنت طبيب عيون مش طبيب قلب. وغنوتك المشهورة فاكرينها كلنا.. طبيب عيون أفهم فى العين.

ياسين: على كل حال بكرة يا فيفى ألحن لك أغانى كتير عن القلب.. واسمحى لى بنمرة تليفونك علشان أتصل بك وأسمعك أول غنوة.

فيفى: تليفونى.

صاحبة القصر: أيوه يا فيفى إدى له تليفونك.. دا الأستاذ عبد الوهاب لازم يسمعك ألحانه الجديدة.

نور: وأنا رحت فين؟ مفيش نمرة تليفون علشانى أنا كمان؟!

ياسين: ليه؟ ناوى تسمعها إيه؟

نور: مش شغلك دا سر.

ياسين: اسمحوا لى أستأذن عندى مواعيد.. وانت يا آنسة فيفى أنا سعيد اللى شفتك.. وانتظرى منى تليفون.

نور: وأنا كمان زيه.. وانتظرى منى تليفون.. خدنى معاك.

(يخرجان)

السيدات: (يضحكن كلهن)

صاحبة الصالون: شاطرة يا فيفى.. الحمد لله.. المسألة يظهر حاتنفع.

فيفى: دلوقت حا يقولوا علىَّ عبيطة.

صاحبة الصالون: بالعكس.. أنت اللى استعْبطيهم.. وعملت إنك صدقت اللعبة دى.

فيفى: والاتنين الكبار اتصرفوا كده ليه؟

صاحبة الصالون: طبعًا سنهم ما يسمحش باللعب ده.. لكن المهم إنهم قبلوا التحدى والمنافسة، والتحمس لفكرة العرض السينمائى وتلحين شعر البلاد العربية.



عبد الوهاب والحكيم ينتظران عودة يس ونور.. وبمجرد حضورهما يسألانهما:

عبد الوهاب: عملتم إيه؟

ياسين: كل حاجة تمام.

نور: حسب الخطة الموضوعة.

الحكيم: عظيم.

ياسين: وإيه المطلوب منا بعد كده.

الحكيم: تتصلوا بالجماعة دول بالنيابة عنا.. وتكونوا أنتم حلقة الاتصال بينا وبينهم.

نور: والآنسة.

عبد الوهاب: مالها.

ياسين: حاتكون علاقتنا بها إيه؟

عبد الوهاب: بعدين.. بعدين أقول لك؟ اتصل بى بالتليفون.

نور: وأنا؟

الحكيم: إبقى أنت كمان اتصل بى بالتليفون.

(يخرجان)

عبد الوهاب: ودلوقت.. إحنا حانعمل إيه؟

الحكيم: نمشى فى المشروع.

عبد الوهاب: إزاى؟

الحكيم: أنا أختار لك الأشعار.. لكن يلزمنا مخرج ينظم العرض.

عبد الوهاب: والآنسة؟

الحكيم: مالها؟

عبد الوهاب: مش هى اللى حاتحكم بينا وقرارها نهائى.

الحكيم: آه صحيح.

عبد الوهاب: واللى يفوز يكسب منا.. حايفوز بقلبها.

الحكيم: والله أنا خايف من العيال دول.

عبد الوهاب: قصدك الحكيم المزيف وعبد الوهاب المزيف.

الحكيم: تحب واحد فيهم وإحنا الأصليين نروح بلاش.

عبد الوهاب: لأ مش حانروح بلاش.. اللى حاتحبه تنحاز له وتحكم له ودا حايكون بالاسم الأصلى.. يعنى لحساب الأصل.. إنت أو أنا.

الحكيم: بالاختصار حانكون إحنا الاتنين الحقيقيين تحت رحمة الاتنين المزيفين.

عبد الوهاب: وماله.. هم وشطارتهم واللى حايكسب قلبها فيهم حايعود علينا إحنا.. قصدى واحد فينا بالجايزة والحكم النهائى.

الحكيم: إنت نسيت إن الحكم النهائى والجايزة هى قلبها.. وقلبها حايكون أخده المزيف وانتهى الأمر.. وطلعنا إحنا بالحكم غير المشمول بالنفاذ.

عبد الوهاب: حانكون طلعنا بالمشروع العظيم.. ويكون صدور الحكم للفائز معناه إن له الفضل فى نجاح المشروع.

الحكيم: يعنى قلبها ما يهمكش.

عبد الوهاب: يهمنى فى إيه؟

الحكيم: والله صدقت.. المرأة تعطيك قلبها وتاخد جيبك.

عبد الوهاب: أهم شىء عندى يقولوا إن ألحانى فازت.. ولذلك حا أعمل كل جهدى فى التلحين ويصدر الحكم ويعلن فى كل مكان إن ألحانى هى اللى فازت.

الحكيم: ربنا يسهل لك.. بس أرجو إن الحكم النهائى بفوزك ما يكونش فيه لعب.

رصاصة فى قلبين



عبد الوهاب: يعنى إيه؟
الحكيم: مجرد خاطر.
عبد الوهاب: تصبح على خير.
الحكيم: وأنت من أهله.



(ياسين ونور يتمشيان على النيل)

ياسين: قل لى.. إحنا مطلوب منا إيه بالضبط؟

نور: نمثل.. إحنا طول عمرنا ممثلين.

ياسين: وإيه هو الدور؟

نور: أنت مش عارف لسه.. أمال أنت تقدمت للستات دول وللبنت الحلوة دى بصفة إيه؟

ياسين: بصفتى الموسيقار عبد الوهاب.. زى ما أنت تقدمت بصفتك المؤلف الحكيم.

نور: خلاص.. آدى الدور.

ياسين: مفهوم.. بس علشان إيه؟

نور: علشان البنت.

ياسين: أما البنت دى حلوة حلاوة.

نور: وعليها عينين.. أخدت بالك وهى بتبص لى.

ياسين: بتبص لك أنت؟

نور: أظن حاتقول إنها كانت بتبص لك أنت؟!

ياسين: طبعا.

نور: لأ بقى.. أنت زودتها.. كل ما تقابل واحدة تقول إنها واقعة فيك.

ياسين: وهى وقعت فعلا.

نور: بس مش فيك أنت.

ياسين: المهم إن المطلوب مننا إن البنت تقع فى حب واحد فينا.. وهى وقعت فى حبى أنا.

نور: لا يا سيدى أنت فهمت الموضوع غلط.. المطلوب إننا إحنا اللى نقع فيها.. مش فاكر لما تكلموا عن المسدس اللى خرجت منه الرصاصة اللى اندبت فى قلبك.

ياسين: فى قلبك إنت

نور: أيوه فى قلبى أنا مفيش مانع، وساعتها قلبى يلهلب ويخرج منه فن.

ياسين: يلهلب ويخرج منه فن.. قلبها كان فرن وفنك رغيف عيش؟

نور: وأنت كمان زيى قلبك يلهلب وتخرج منه ألحان.

ياسين: أنا مفهمتش كده.. أنا فهمت إن قلبها هو الفرن.. الفرن إحنا.. أقصد أنا اللى أولعه ويبقى هو الفرن اللى تنخبز عليه ألحانى وتخرج سخنة.

نور: مش معقول إن الفرن.

ياسين: قلت لك الفرن.

نور: لأ.. أسمع بقى.. الفرن. الفرن كفاية كلام فى الفرن.. إحنا مش خبازين.. إحنا ممثلين.

ياسين: وهو كذلك.. المهم إن الفرن يولع وخلاص.

نور: ولما يولع يجرى إيه؟

ياسين: تخرج منه أجمل الألحان.

نور: ألحان مين؟

ياسين: ألحان عبد الوهاب طبعًا.

نور: مش فاهم لسه.. يعنى لما قلبها هى يولع تخرج الألحان من قلب عبد الوهاب إزاى؟

ياسين: عبد الوهاب مالوش دعوة.. ألحانه حاتخرج بعيد عن الفرن، لكن الفرن اللى هو قلب الحلوة لما يولع حينحاز للى ولعه.. يعنى بالعربى الفصيح إذا أنا ولعت قلبها حاتنحاز لى وتحكم لى باعتبارى عبد الوهاب.. وهو ده المطلوب.

نور: وأنا كذلك بالمثل.

ياسين: وأنت كذلك لاسمح الله.

نور: عاوز تقول إن الفايز فى العرض الفنى هو اللى يفوز بقلبها.

ياسين: أنت مش تعرف إن قلب المرأة هو اللى بيقودها ويوجهها.. المرأة قلب يا حضرة الفاضل.. وهى دايما بتحكم بقلبها.. أمال ليه المرأة ما تنفعش قاضى لأنها إذا استلطفت مجرم ها تعطف عليه ويمكن تبرأه أو تخفف عنه.. وإذا استثقلت واحد طيب يمكن تحكم عليه بالشنق.. زى حضرتك مثلا.

نور: يعنى المسألة استلطاف أو استثقال.

ياسين: كده بالضبط.

نور: واللى شغلونا فى الشغلة دى؟

ياسين: مالهمش دعوة.. هم لهم النتيجة، لهم اللى يكسب.

نور: يعنى بالاختصار أنا وأنت زى خيل السبق.. الحصان اللى يجرى ويكسب، وصاحب الحصان هو اللى الناس تهنيه.

ياسين: تمام كده.

نور: والحصان مصلحته إيه؟

ياسين: مصلحته العناية والرعاية والعلف الكويس والنوم المريح والسكر اللى يتقدم له ويتوضع فى فمه.

نور: على كده صاحبى لازم يوضع فى فمى سكر.

ياسين: ضرورى.

نور: إيه رأيك تحط يدك فى يدى ونشتغل سوا.

ياسين: يعنى إيه؟

نور: يعنى نفكر سوا إزاى نخليهم يشبعونا سكر.

ياسين: بس صاحبك بيقولوا عليه بخيل.

نور: وأنت صاحبك راخر.

ياسين: لأ ما تخضنيش أمال «يعنى عاوز تقول إن إحنا الاتنين وقعنا فى اتنين بخلا؟»

نور: لأمش بالدرجة دى.. المسالة عايزة شوية تكتيك.

ياسين: ربنا يقدرنا.

نور: كل واحد بقى يعمل بشطارته.

(يفترقان)

شقة فيفى.. وهى مستلقية تسمع موسيقى لعبد الوهاب من جهاز راديو..

جرس التليفون يدق..

فيفى: ألو.. مين حضرتك؟ آه الأستاذ الحكيم.. لأ ما عنديش حد تفضل.

(تنهض وتسوى هندامها وتقول كأنها تخاطب نفسها):

ـ اللى ما عندى كتاب له.

(يدق جرس الباب. فتذهب وتفتح ويدخل نور بالبيريه والعصا كالعادة)

ـ أهلا وسهلا.

نور: خايف أكون أزعجتك.

فيفى: بالعكس.. أنا كنت لوحدى.. باسمع فى الراديو الغنوة الجديدة لعبد الوهاب.

نور: آه.. عبد الوهاب.

فيفى: طبعا.. عجبتك.

نور: يعنى.

فيفى: تحب تشرب إيه.. طبعًا ما عنديش هنا جلاس.. فنجان شاى؟

نور: إذا سمحت.

(حالا تخرج)

نور: (قرب جهاز الراديو) وبعدين فى عبد الوهاب ده؟

فيفى: (تدخل بصينية عليها فنجان شاى) كم حتة سكر؟

نور: هو الحصان له كم حتة سكر.

فيفى: (وهى تصب الشاى فى الفنجان وتقدمه له) أنا سبقتك وشربت الشاى بتاعى.. لو كنت عارفة أنك جاى كنت انتظرتك وشربنا سوا.

نور: أنا فى الحقيقة كنت متردد.. خفت تكونى نسيتينى.

فيفى: لا طبعا.. ما أقدرش أنساك.. ما أقدرش أنساك.. مش فيه غنوة بتقول كده.

نور: مش عارف.. أنا فى الحقيقة مش غاوى أغانى.

فيفى: ليه؟ مش عبد الوهاب صاحبك؟

نور: يعنى.

فيفى: يعنى إيه؟ فيه بينكم حاجة؟

نور: بيننا.. أنت!

فيفى: أنا!

نور: أرجوك.. أرجوك ما تبصليش كده.. هو المسدس بتاعك فيه كام رصاصة؟

فيفى: مسدس إيه؟

نور: أنت نسيتينى رصاصة فى القلب؟

فيفى: آه.

نور: آه لو كنت أقدر أغنى.. كنت غنيت لك غنوة بتقول:

عينيك جنة ونار.

فيفى: جنة ونار مع بعض؟

نور: أيوه..عينيك جنة ونار وأنا بينهم محتار.

فيفى: مطلع كويس لغنوة.. لكن بس إزاى تكون الجنة جنبها النار؟

نور: زى نور المصباح اللى بيشعشع وجنبه النار اللى بتلسوع.. والنحلة اللى ريقها عسل تقولى له: الله ومعها شوكة تقولى منها آه.. والحب كله له بابين باب النعيم وباب الجحيم.. والحب له سكتين «سكة السلامة وسكة الندامة» سكة فيها عمود وإشارات.. أحمر وأخضر.. وإذا مشيت فى الأحمر أتصدم.. والأخضر مش فى إيدى.

* فى إيد مين؟

ـ فى إيد عسكرى المرور.. تعرفى عسكرى المرور مين؟

* مين؟

ـ أنت.

فيفى (تضحك) عملتنى كمان عسكرى مرور.

نور: فى إيدك تعملى الإشارة أحمر وأتصدم أو أخضر.

فيفى: فعلا.. حاجة تخلى الواحد محتار.

نور: ما فيش فى الحب اختيار.

فيفى: ومين السبب؟

نور: أنت.

فيفى: أنا برضه؟

نور: أيوه أنت.. وقلبك اللى أنا عارفة.

فيفى: عارفة إزاى؟

نور: ما تعرفيش إنى أقدر أقرأ أفكارك وأكشف فى قلبك كل أسرارك.

فيفى: (ضاحكة) حكيم روحانى حضرتك.

نور: لا أنا مش حكيم.. أنا العيان.

فيفى: عيان بإيه؟

نور: وأنا مجنون أقول لك أنا عيان بإيه وحاسس بإيه.

فيفى: لأ خليك عاقل خمس دقائق بس وقولى.

نور: عيان بيكى.

فيفى: وأنا مرض؟

نور: مرض خطير مالوش دوا.

فيفى: أنا عندى الدوا.. تسمح لى أداويك.

نور: لأ.. مش عاوز أتداوى.. عاوز أفضل عيان.

فيفى: فيه عيان فى الدنيا عاوز يفضل عيان.

نور: الدوا من مرض هو إن المرض يزول.. يبعد عنى، وحيث إنك أنت المرض يبقى وجودك هو مرادى.. لا.. أنا متمسك بالمرض يا ستى.

فيفى: (تضحك) أنت ظريف.

نور: يعنى الإشارة خضرة.. وأقدر أمشى فى أمان لغاية باب قلبك.. والا حمرة لا سمح الله وآخرتها انصدم.

فيفى: اترك لعسكرى المرور الفرصة يفكر.

نور وياسين يجتمعان:

نور: (داخلا عليه فرحا) استظرفتنى يا عم!

ياسين: أنت شفتها؟

نور: طبعًا.. زرتها واستقبلتنى بالأحضان.

ياسين: وكمان بالأحضان؟!

نور: طبعًا.. أمال أنت فاكر إيه؟ المسألة راحت من إيديكم خلاص.

ياسين: إزاى.. إنت عملت إيه؟

نور: وأنا أقول لك ليه.

ياسين: طيب شكرًا.
(يتركه مسرعًا)



(ياسين يسمع ويدخل على عبد الوهاب)
عبد الوهاب (والعود فى حضنه): مالك؟ فيه إيه؟

ياسين: المسالة حاتضيع من إيدينا.

عبد الوهاب: إزاى؟

ياسين: نور أكل بعقل البنت حلاوة.

عبد الوهاب: أكل بعقلها حلاوة.. هو قابلها.

ياسين: راح زارها وقال إنها استقبلته بالأحضان.

عبد الوهاب: كلام إيه ده؟

ياسين: ما هو إذا كان على الكلام.. حايغلبونا.. أنا عندى فكرة.

عبد الوهاب: إيه.. اتكلم.

ياسين: نعزمها على رحلة فى سويسرا.. وهناك البحيرات والغابات والجبال.. والستات يحبوا الفسح الحلوة.. وفى الجو الشاعرى الجميل ده.. وبعيد عن إخواننا إياهم.. وكلامهم الفارغ.. ومع الألحان الحلوة نفوز بقلبها بكل سهولة.

عبد الوهاب: فكرة مش بطالة.

ياسين: المهم نخلصها من أيديهم ونروح بها بعيد.. وفى جو سويسرا ومناظرها وألحانك وروعتها حا تحكم لنا فى الحال.

عبد الوهاب: حا تسافروا أنتم الاتنين؟

ياسين: لو تكون أنت معايا يكون أحسن.

عبد الوهاب: لأ.. أنا حا أكون مشغول هنا.. قدامى السيناريست والمخرج والإنتاج.. كل ده لازم أنا اللى أجهزه.

ياسين: يبقى ما فيش مانع نسافر أنا وهى.. بس.

عبد الوهاب: بس إيه؟

ياسين: إذا طلبت منى فى جو سويسرا الشاعرى أغنى لها غنوة.. باعتبارى عبد الوهاب أعمل إيه؟ أقع فى حيص بيص.

عبد الوهاب: اسمع.. لف رقبتك بكوفية طول الرحلة وقل لها إن عندك التهاب فى الزور.. وسمعها أغانى من الراديو والكاسيت.

ياسين: معقول!

عبد الوهاب: روح بقى شوف شغلك.. وانهى إجراءات السفر ونزلها هناك فى أحسن لوكاندات.. لازم تظهر قدامها بمظهر مشرف.. ما يهمناش الفلوس.. المهم ننجح.. وأبقى اكتبلى دايما من هناك.. وطمنى.

(نور يدخل على الحكيم)

نور: يادى المصيبة.

الحكيم: يا ساتر.. جرى إيه؟

نور: اختفوا.. أخدها وسافروا على سويسرا.

الحكيم: مين هم؟

نور: عبد الوهاب والبنت.

الحكيم: عبد الوهاب سافر؟ عبد الوهاب نفسه؟

نور: عبد الوهاب الشاب.. قصدى ياسين.. أخد البنت فى رحلة فى سويسرا.. وطبعا هناك حا ياكل بعقلها حلاوة.. وحا ترجع بالحكم النهائى لصالح عبد الوهاب وألحانه.

الحكيم: والعمل؟

نور: ما فيش.. إلا أنى أسافر وراهم.. وأفسد خطتهم.

الحكيم: طيب ما تسافر حد حايشك.

نور: والفلوس؟

الحكيم: فلوس إيه؟

نور: الله.. هو السفر مش لازمه فلوس.. مصاريف طيارات ولوكاندات وفسح.

الحكيم: فسح؟!

نور: طبعًا إذا جيت أنت معايا يكون أحسن.

الحكيم: لا يا سيدى أنا ما بسافرش.

نور: طيب أنا أسافر لوحدى.. بس لازم أكون فى مستواهم.. هم طبعًا حا ينزلوا لوكاندات درجة أولى ممتازة وحا يصرفوا من غير حساب.

الحكيم: من غير حساب إزاى؟

نور: قصدى يعنى علشان يبلفوا البنت ويؤثروا على فكرها وتنحاز لهم.

الحكيم: ما فيش طريقة غير دى.

نور: لأ.. أبدًا.. لازم نلحقهم.. قبل فوات الأوان.. إلا بعدين نرجع نندم.

الحكيم: أمرنا لله.. أهى بلوى وجات فوق دماغى!

***

فى سويسرا.. والكاميرات تصور النزهة فى قوارب البحيرات وفى الجبال والغابات.. والثلاثة: البنت بين ياسين ونور.. ونور يعمل كل جهده لمنع البنت أن تخلو بياسين.. وياسين يحاول التخلص من نور.. بحوادث ومفاجآت يحكيها السيناريست.

***

عبد الوهاب والحكيم والمخرج ينتهون من تنظيم العرض الفنى ويتم اختيار المقطوعات الشعرية من شعراء البلاد العربية جميعها.. ويلحنها عبد الوهاب.. ويجرى عليها البروفات الحقيقية.

***

ليلة العرض الأول:

تظهر صاحبة الصالون لتقدم فى كلمة قصيرة هذا العرض على أنه نتيجة تعاون شعراء الدول العربية كلها.. رمزا لهذا التضافر والإخاء بين الأشقاء العرب.. لأن العروبة الحقيقية تنبت من الأدب والفن.

كما تقدم البنت الحلوة «فيفى» التى كلفت بالتحكيم بين الموسيقى والأديب وأيهما الفائز.. فتعلن أن الفوز للاثنين معا.. لأن الفن والأدب والموسيقى والشعر شقيقان متلازمان. ■

كتاب الزاوية

من أشعار سعدى الشيرازى

ورد وشوك

لِمَ التناحر فى الدنيا أيا عجباً
مِمَّنْ يُناحر فيها وهىَ لم تَدُمِ
ما كان أعظم مَنْ لم يأبهوا أبداً
بخفّة الترب منها شأن كلّ عَمِ
العارفون إلى الباقى قد انتبهوا
وغيره عندهم شيء من العدمِ
فلا تكوننَّ فى الدنيا أخا صَلَف
فكم برى اللهُ فى الأكوان من نَسَمِ!
وكلّ مَنْ خُلقوا لاقوا مصارعهمْ
طوبى لمنْ لم يَحِدْ منهم عن الحِكَمِ
إقبالها لم يدمْ يوماً على أحد
وكم أتى منْ هواها سوء مُختَتَمِ
والأرض لا لم تكنْ حكراً عليكَ فكَمْ
غداً سيأتى من الأصلاب والرحِمِ
كم يخطف الموت مِنْ أبنائها، ولكمْ
تَرى وجوهاً، وكم تلقى مِنَ الندمِ!
مَنْ كان منزله كِبْراً وغطرسةً
فسوف يمشى عليه الناس بالقدمِ
ياليتَ من أدركوا للعمر قيمته
فكان للخير منهم خير مُغتَنَمِ!
دنياكَ لا وردَ تلقاه بروضتها
إلاّ وكفّك منْه بالقطاف دَمى
وطيّبو الذكر فيها الورد ليس به
شوكٌ فذكْرى تقاهم ملء كلّ فَمِ
أولاء يا سعدُ أحياء وإنْ رحلوا
والسيئون برغم العيش كالعدمِ



آخـــر أيـــام نيتشـــه



في ٢٥ أغسطس الماضي احتفلت الدوائر الفكرية والفلسفية بذكرى مرور قرن كامل على وفاة الفيلسوف الألماني الشهير نيتشه، ليس فقط باعتباره من أهم روافد الفكر والفلسفة التي حددت معالم القرن العشرين وأثرت علي توجهاته الفكرية والأدبية، ولكن أيضا بحكم تأثيره علي الاتجاهات التي صاغت فكر حركات سياسية جديدة آمنت بفلسفة القوة وقدرة الإنسان على السيطرة علي الطبيعة وعلى جوانب الضعف الإنساني بكل أشكالها.

وكانت حركات النازية والفاشية من أكثر الحركات السياسية التي استمدت فلسفتها من أفكار نيتشه. وترددت أصداؤها في بعض الحركات التي ظهرت في العالم العربي مثل حزب مصر الفتاة (بقيادة أحمد حسين)، وكان المفكر المصري عبد الرحمن بدوي في شبابه من أكثر الذين بشروا بأفكاره وكتاباته، وما زال لهذا الفكر أنصاره الكثيرون في أرجاء العالم.. وما حركات النازية الجديدة التي ظهرت أخيرًا في دول أوروبية عديدة غير تجسيد لها في ثوبها الجديد مع بداية القرن الواحد والعشرين.

المحـــرر

جـــون بانفـــيل

Nietzsche in Turin: An Intimate Biography

(نيتشه في تورينو: سيرة حياة حميمة)

Lesley Chamberlain
Picador, 1997, 256pp, $ 23.00

وُلد فريدريك ڤيللم نيتشه في روكين الواقعة في سكسونيا البروسية في ١٨٤٤، وكان أبوه وجده من الكهنة البروتستانيين، وكانت والدته فرانشيسكا ابنة لراعي أبرشية. وعاد نيتشه إلى صدر والدته الغامضة وهو في الرابعة والأربعين بعد إصابته بانهيار عقلي. وصادف تاريخ ميلاد والد نيتشه نفس تاريخ والده المستقبلي الموسيقار العظيم ريتشارد ڤاجنر، ورحل عن العالم ونيتشه في الرابعة من عمره، وهي خسارة لم يستطع تعويضها أبدا. وترعرع نيتشه في جو أسري تشكل معظمه النساء: جدته، والدته، أخته اليزابيث العنيفة المعادية للسامية وعمتان لم تتزوجا. وتلقى تعليمه في مدرسة شالبفورتا الشهيرة التي تدار بنظام عسكري، حيث كان سعيدا رغم الانضباط الشديد والصرامة، ولم يصادف أية عقبات على المستوى الأكاديمي، رغم أنه لم يكن يحصل على تقديرات عالية. ودرس بعد ذلك في جامعة بون، حيث تخصص في اللاهوت وفقه اللغة، الذي بدأ به حياته الثقافية، لكنه سرعان ما انصرف عنه.

وزار نيتشه كولونيا في ١٨٦٥ وهو لايزال طالبا، وأخذه بعض الأصدقاء هناك إلى ماخور للدعارة، وثار جدل واسع حول تفاصيل هذه الزيارة، لكن الجميع يتفقون على أنه أصيب خلالها بمرض الزهري. وفي ١٨٦٧ بدأ علاج المرض الذي أدى إلى إصابته بانهيار عقلي في يناير ١٨٨٩ وضع حدا لحياته، حيث عاش صامتا وضائعا داخل نفسه حتى ١٩٠٠. وتقدم ليسلي

تشامبرلين وصفا ممتازا لآخر أيام نيتشه في كتابها، حيث تعرض ملخصا للأمراض العديدة التي أصيب بها.

أما عن دراما صحته المعتلة فإنها لم تتحسن أبدا بعد أن وصل إلى منتصف العشرينيات. وحتى في طفولته كان يعاني من الصداع وقصر البصر، ويبدو أن الضعف واعتلال الصحة ذات صبغة وراثية في الأسرة، حيث كانت صحة أخته اليزابيث معتلة، وكذلك أبوها كارل لودفيج الذي توفي وهو في السادسة والثلاثين بسبب مرض في المخ. ولم يعرف نيتشه سبب اعتلال صحته، رغم أنه كان يشك في معاناته عن مشاكل مرضية وراثية، وكان يهنئ نفسه على أنه بقي على قيد الحياة أعواما تفوق التي عاشها والده. ولكن كيف لم يكن يعلم أنه مصاب بالزهري رغم وجود ندبة في حشفته وفترة علاجية وإن كانت قصيرة؟ من المؤكد أنه كذب على أوتوآيزر طبيب ڤاجنر، حيث كان قد التقط عدوى الزهري من إحدى العاهرات أيام دراسته، وتعقدت حالته بعد إصابته بالدفتريا والدوسنتاريا أثناء الحرب الفرانكو بروسية في ١٨٧٠.

وظل نيتشه يعاني من سوء الهضم واضطرابات المعدة والصداع النصفي، مع قيء مستمر، وكان يقضي أياما كاملة راقدا في غرفة مظلمة، لايفعل أي شيء.

كان مرض الزهري في منزلة مرض الإيدز في تلك الأيام، وعندما نقرأ نيتشه وخاصة أعماله الأخيرة، يجب أن تكون حقيقة مرضه واضحة تماما في أذهاننا. وباستثناء العاهرات، لم ينم نيتشه مع أية امرأة في حدود علمنا، رغم أنه كان يتمتع بصداقات عميقة مع عدد من النساء الجميلات، مثل لو أندرس. سالومي. لكن الحب السري في حياته كان كوزيما ڤاجنر، وكان الناقد الفرنسي تشارلز أندلر قد لاحظ أن العلاقات الثلاثية المعقدة بين نيتشه وآل ڤاجنر كانت أعظم رواية حب رومانسية لم تكتب في القرن التاسع عشر. وكانت كوزيما من الناس الذين كانوا يكتبون إليه في أيامه الأخيرة المرعبة، مثل انهياره في بداية يناير ١٨٨٩. ومن بين الرسائل التي كتبها وهو مخبول يضرب في كل الاتجاهات، تأتي الرسالة التي يقول فيها لكوزيما: «كم أحبك يا آريادن ديونيسيوس».

وبعد جامعة بون درس نيتشه في لايبزج، وجُنِّد إلزاميا في سلاح المدفعية في الجيش البروسي عام ١٨٦٧، وخلت فترة التجنيد الإلزامي من أي نشاط أو حماس زائد، باستثناء حادث سقوطه من على ظهر الحصان الذي آلمه كثيرا، وتطلب شفاؤه فترة نقاهة طويلة. وعندما اندلعت الحرب الفرانكوبروسية في ١٨٧٠، كان نيتشة يخدم في الوحدة الطبية، وعاني من انهيار فسيولوجي وعاطفي مؤلم، بعد رحلة تدريبية استغرقت ثلاثة أيام وليلتين، أمضاها في عربة مغلقة تحمل ستة جنود مصابين بجروح خطيرة.

وكان نيتشه قبل ذلك بعام واحد، وهو لما يتجاوز الرابعة والعشرين، قد عُيِّن رئيسا لقسم فقه اللغات الكلاسيكية في جامعة بازل، حيث التقى بالمؤرخ چاكوب بيركهارت، وعالم اللاهوت اللاأدري فرانز أوفربيك، الذي صادقه طول حياته. لكن كان هناك مايشغله أكثر من هذه الصداقات وحتى من نجاحه الأكاديمي، وهو مسألة تبني آل ڤاجنر له. وكانت أولى زياراته لڤاجنر الموسيقار في مايو ١٩٦٩ في تريبشن، وكان بيته قريبا من بحيرة لوسيرن، وداوم على زيارات منتظمة، وكان موجودا خلال أعياد الميلاد في العام التالي في أول عرض لـ «زيجفريد ايدل Sieg Fried» في القاعة الأمامية في هذا المنزل.

ووافق ڤاجنر بكياسة على تملق نيتشه. بعد أن اكتشف بدهائه أنه وقع على حواريّ يمكن أن يساهم في نشر العقيدة الڤاجنرية، لكن الواقع أن نيتشه كان ناقدا لا يلين لڤاجنر والڤاجنرية. وكانت كوزيما ڤاجنر في الرابعة والثلاثين عندما زارهم نيتشه أول مرة، وكانت تشعر بانجذاب نحو لياقته وحضوره. وسحر نيتشه عالم قرية تريبشن الصغيرة التي يقع فيها منزل ڤاجنر، وبدد وحدته وانعزاله، وكان يراها كما لو كانت نسخة أخرى من «الڤالهالا» (مثوى الشهداء، أو حجرة الخلود التي تستقبل فيها أرواح الشهداء حسب الميثولوجيا الإسكندنافية) ونجح نيتشه في أن يتجاهل استغراق ڤاجنر الهوسي في شئونه الذاتية وضيق أفقه واهتمامه بالتوافه، وزيادة تلطف كوزيما، والجو العائلي المعادي للسامية الذي يعيش فيه. وعندما انتقد نيتشه اجنر بقسوة وقال إنه متعهد تقديم أفيون محتال، كانت النتيجة مدمرة خاصة لنيتشه، إذا افترضنا أنها لم تدمر ڤاجنر، وبعد أن فقد نيتشه والده الطبيعي واجه مهمة قتل الأب البديل، وهي مهمة مقيتة لم يستطع تحقيقها حتى نهاية حياته العاقلة قبل أن يتمكن منه الجنون.

وفي ١٨٦٩ طلب نيتشه إعفاءه رسميا من الخدمة العسكرية، وكان معنى هذا سقوط المواطنة البروسية عنه. وتقدم بطلب المواطنة السويسرية بدلا عنها، لكنه رُفض. وأصبح نيتشه من ذلك الحين بلا وطن، وكان وضعا يتفق مع أهوائه ونزعاته. وبعد أن عاني من انهيار عقلي عام في ١٨٧٠، أصبح نيتشه يكرس نفسه لوسواس المرض، ويتجول في أنحاء سويسرا وإيطاليا باحثا عن علاج ناجع، ليس فقط لصحته المعتلة، لكن حالة كونه هذا الشخص الذي لايرجى شفاؤه. وكان يحصل على تصريحات طويلة بالغياب عن وظيفته في بازل، ثم هجر كرسي الأستاذية تماما في النهاية، وأمضى بقية حياته يعيش حياة الكفاف في بنسيون صغير جدا. ورغم كل المعيشته

وذكائه أو بسببهما، لم تكن الحياة الأكاديمية مناسبة له. وأعلن ذلك بكل بصراحة مع نشر كتاب "The Birth of Tragedy" «مولد المأساة» في ١٨٧٢، وهو تفسير جديد للمأساة الإغريقية وأصولها صدم نظراءه بسبب تغلب النغمة الشعرية والافتقار إلى الأدوات الجديرة بعالم.

وأثبت نيتشه بهذا الكتاب أن لديه، مثل هانز چورج جادامر، شواهد وجد صوفية، مثلما هو واضح مع شخصية ديونيسيوس ممثل القوة والنشاط في قلب الحياة والفن الإغريقي. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب المبكر ناقص وفيه بعض الخلل، فإنه يحتوي على بدايات تشكل أغلب أفكار نيتشه الفلسفية وأكثرها بقاء. وبالنسبة لنيتشه لم تكن وظيفة المأساة تطهير النفس البشرية (Catharsis) مثلما كان يرى أرسطو، ولكنها تقديم مشهد نموذجي لدمار مجيد، وكما كتب في كتاب (غسق المعبودات):

«إن إثبات الحياة وتأكيدها حتى في أغرب وأقسى مشاكلها، وإرادة الحياة ببهجاتها التي لا تنفد من خلال التضحية بأعلى أنماطها، هذا الذي أسميته بالديونيسي وهو ما اعترفت به جسرا يؤدي إلى نفسية الشاعر المأساوي وهو ليس لكي يتخلص من الخوف والشفقة، وليس لكي يطهر نفسه من عواطف خطيرة من خلال التخلص منها بعنف ـ هكذا فهم أرسطو الأمر: لكن فيما وراء الشفقة والخوف، ولكي يدرك في نفسه بهجة التحول الأبدية، تلك البهجة التي تشمل الاستمتاع بالتدمير.. وأعود بهذا مرة أخرى إلى حيث بدأت. إن «مولد المأساة» هو أول ما أقيم به كافة القيم.

ورغم كل هذه المواقف المتكلفة، كان يعلم تماما بأمر ذلك المخلوق الضعيف والمسكين داخله. وكان قد كتب في أحد دفاتره: «وحاولت أنا أيضا أن أجزم وأؤكد، ولكن آه». وكان نيتشه كما لاحظت الناقدة الإيطالية كلوديا ماجريس، مثل المسيح في حالة كونه مشتاقا لأن يكون ديونيسيوس إله الخمر عند الإغريق.

وفي أواسط سبعينيات القرن التاسع عشر، ظل نيتشه لأكثر من عقد من الزمان يبحث عن مكان بين الجبال ومرتفعات انجادين والجنوب الفرنسي لترتاح فيه روحه المرهقة. وتكتب ليسلي تشامبرلين:

... عاش نيتشه نحو عشرة أعوام متجولا، بين جنوة والبندقية وجبال الألب السويسرية وزيوريخ ونيس. وعاش تجارب مماثلة لتجارب ديوجين ودانتي في النفي والاغتراب، وأصبح جوالا هائما يتحدث مع ظله. أي مسجد في أن تكون بلا مأوى ولا وطن. وكم عمّق ذلك من إحساسه بكونه أوروبيا!

ومثل عديد من الألمان قبله، خاصة محبوبه جوتة، ما كان على نيتشه إلا أن يخطو نحو التراب الإيطالي ليقع في غرام الريف. وفي تورينو التي وصل إليها في أبريل ١٨٨٨، شعر أنه وجد أخيرا المكان الذي طالما بحث عنه، وكتب إلى صديقه بيتر جاست قائلا: «إلا تورينو!». كما لو كان سائحا يتكلم بصيغة التعجب.

(«.. يالها من مدينة عريقة لها وزنها. ليست العاصمة الحاضرة على الإطلاق، وليست مدينة حديثة أبدا، مثلما كنت أخشى، إنما هي مقام أميري فخيم من القرن السابع عشر، مدينة ذات ذوق واحد في كل الأشياء ـ البلاط وطبقة النبلاء. الهدوء أرستقراطي يراعى في كل مكان، ووحدة الذوق موجودة حتى في لون البنايات (كل المدينة لونها أصفر أو بني مائل للاحمرار). هي مكان كلاسيكي للقدمين كما للعينين! ياله من ثراء ويالها من أرصفة للمشاة، ناهيك عن الحافلات وعربات الترام، التي يفوق تنظيمها هنا حد الروعة! ويبدو أن المرء يستطيع تدبير حياته جيدا في هذه المدينة، التي تبدو أرخص من مدن إيطالية كبيرة أخرى. أعرف أيضا أن أحدا لم يخدعني في هذه المدينة حتى الآن، وكم هي جميلة قصورها العريقة! وأسلوب العمارة الذي لا ادعاء فيه، ونظافة الشوارع أمور لا تُصدق! كل شيء أكثر جلالا مما توقعت! أجمل مقام في العالم رأيتها هنا، ويبدو أن هذه العقود و«البوائك» ضرورية مع تقلبات المناخ، إضافة إلى أنها تمنح شعورا باتساع المكان. وعندما يأتي المساء على جسر بو، يجاورك مجد تجاوز منطق الخير والشر».

وبعد تسعة أشهر من كتابته هذا الكلام اصطدم ذراعا نيتشه بعنق حصان جامح، ثم أصيب بنوع من الجنون لم يشف منه أبدا.

وتعلن ليسلي تشامبرلين في كتابها «نيتشه في تورينو» عما تعتزم القيام به في أول سطر من مقدمتها: «إن هذا الكتاب محاولة لمصادقة نيتشه»، ويكون طبيعيا أن يجفل قلب القارئ قليلا، وتشامبرلين تعلم ذلك. وتكتب: «قد يبتسم الفلاسفة، لكن يبدو لي أن الأهم معرفة، ولو على وجه التقريب، كيفية السير مع هذا المفكر المتكلف، الساحر، الحاقد الذي أسيء فهمه، شديد الأهمية للعصر الحالي» وهي تنجح إلى درجة مدهشة في التواصل مع جوانب الرجل والمفكر بكل غرابته. وكان صديقه ايرفين روده قد قال عنه إنه مثل رجل جاء من بلد لايعيش فيه أحد.

في ١٨٦٩ طلب نيتشه إعفاءه رسميا من الخدمة العسكرية، وكان معنى هذا سقوط المواطنة البروسية عنه. وتقدم بطلب المواطنة السويسرية بدلا عنها، لكنه رُفض. وأصبح نيتشه من ذلك الحين بلا وطن، وكان وضعا يتفق مع أهوائه ونزعاته

ولاحظ نيتشه ذلك على نفسه، حيث كتب: «إن بعض الناس يولدون بعد وفاة آبائهم».



وكانت الوحدة والعزلة هي حياته، ويقول: «إن ثلاثة وأربعين عاما ورائى الآن، ولا أزال أشعر بالوحدة نفسها التى كنت أعانى منها وأنا طفل صغير» وفى يوليو ١٨٨٨ كتب نيتشه من قرية سيلزماريا التى يلجأ إليها فى أعالى منطقة ابنجادين، بصورة غير عادية مثل هاينريش فون كلايست كاتبه المفضل. وكانت رسالة نيتشه إلى مالفيدا فون مايزنبوج، وهى إحدى النساء اللائى كن يعتنين به ويظهرن اهتماما لا يستطيع أن يفهمه ولا يعرف كيف يعبر عن شكره وامتنانه لهن.

وعزلة، ربما لم يكن ممكنا السماح له أن يقول كثيرا من الأشياء. أعتقد وأشك أن نيتشه نفسه كان يعتقد أن صحبة النساء على وجه الخصوص كان يمكن أن تكبح بعض انفعالاته وتلجم لسانه، إن لم يكن تفكيره، إلا أنه أكثر احتياجا إلى تعاطف أنثوى الآن، تماما مثلما كان يحتاجه وهو حى.

ويحصل على التعاطف من ليسلى تشامبرلين، وهى ليست عالمة على الأقل بالمعنى المهنى. وهى على عكس الرجل الذى تكتب عنه لغوية درست الألمانية والروسية فى أوكسفورد، وتستطيع التحدث بخمس لغات. عملت صحافية فى موسكو، وكتبت كتبا عن الطهى، كانت محررة لكتاب «فن الطهى المستقبلى» لمارينيتى (الآن تتحول ابتسامات الفلاسفة إلى سخرية وتهكم) وهى تقدم تعاطفا جيدا، ووجد فيها نيتشه مستقرا وسببا للراحة فى منزل دافيد فينو وعائلته، رقم ٦ طريق كارلو ألبرتو. وتقول ليسلى تشامبرلين «كانت غرفته فى الطابق الأخير من بناية من أربعة أدوار»، واعتاد نظام حياة اقتصاديا وعمليا: طعام بسيط لا توابل فيه، قليل من الكحول (ويالها من سخرية أن يبدأ تابع ديونيسيوس المخلص الإقلاع عن المسكرات)، وبعض التمارين الرياضية الصارمة.

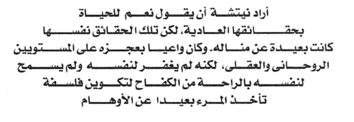
وفى كل كتاباته كان نيتشه يصمم على الأهمية المتكافئة لوجود فلسفة لكل من الجسم والعقل، فهى تحميه من فلاسفة مثل ديكارت الذى كان على حد اعتقاد نيتشه يحتقر الجسم باعتباره مجرد وعاء للروح. وباستثناء تمارين الجمنازيوم الرياضية، كان نيتشه مشّاءً عنيدا. وكانت تورينو

ومن ناحية أخرى، كان فى موسيقى ڤاجنر بالنسبة لنيتشه سقط متاع ثقيل، وكان نيتشه دائما يقدم «الممثل» كمقابل للرجل فى حقيقته، وهو الآن يرى ڤاجنر على أنه ظاهرة تاريخية ويقول: «إن ڤاجنر كموسيقار لم يكن أكثر مما هو عليه بشكل عام أصبح موسيقارًا، ثم أصبح شاعرا بسبب الطاغية الموجود داخله، واضطرته إلى ذلك عبقريته التمثيلية» وبواسطة خفة اليد النغمية والتفاهات الدرامية «فاز ڤاجنر بالجمهور، وأفسد الذوق».

كل شىء نما فى تربة الحياة الفقيرة، وصناعة السمو والعالم الآخر الزائفة وجد فى فن ڤاجنر المتحدث الرسمى السامى باسمه - ليس فى الصيغة فڤاجنر أشد مهارة من أن يلجأ للصيغ - ولكن فى قدرته الحسية على الإقناع التى تجهد العقل وتفسده.

وكما توضح تشامبرلين، فإن موقف نيتشه هنا، كما هو فى مختلف المواضع، غامض ومبهم. فهو مؤلف موسيقى فاشل (وعندما أطلق عليه ڤاجنر هذا الوصف اتهمه نيتشه بانه فيلسوف فاشل)، يظهر إعجابه بأوبرا كارمن ويفضلها على الأوبرا الملحمية «الخاتم». وكان نيتشه بالطبع غيورا من ڤاجنر (موسيقارا وزوجا)، وكان يدرك ذلك ويعيه جيدا. وكتب متهماً «بارسيفال» بانها عمل عبقرى فى غوايته، واعترف بإعجابه به قائلا «أعبر عن إعجابى بهذا العمل، وتمنيت لو كنت أنا الذى ألفته، فى غياب فهمى لها».





إننى دون أى قصد لا أدين بأية كلمة لأى أحد، لأن رغبتى للسماح لأى شخص بالتعرف على مصاعب وجودى تتضاءل تماما. بالفعل هناك خواء كبير حولى. ولا يوجد من يستطيع أن يفهم موقفى. وأسوأ شىء هو بلا شك ألا أسمع كلمة واحدة لمدة عشرة أعوام يمكن أن تدخل قلبى. وأن أكون مدركا لهذا، أى أدركه باعتباره أمرا ضروريا. وقدمت للبشرية أكثر كتبها عمقا فكيف يجب أن يكفر المرء عن ذلك! إنه أمر يضع المرء خارج كل العلاقات والاتصالات الإنسانية. ويسبب توترا ووهنا كبيرين. ويشعر المرء أنه حيوان مفترس يصاب بجروح بشكل مستمر. والجرح لا يسمع أية إجابة، ويجب أن يظل محمولا على كتفى صاحبه، وهذا عبء يفضل المرء أن يشارك آخرون فى حمله، أو أن يذرف الدمع وهل هناك شىء آخر نكتب من أجله؟، ويمكن أن يموت المرء بسبب الشهرة وفكرة الخلود!».

وتعتبر الأعمال التى كتبها نيتشه فى الفترة الأخيرة من حياته فى تورينو صرخات صادرة من أعمق أعماق الوحدة والعزلة. وتوجد أفكار قبيحة هنا. وطبعا بدون الإفراط لا يكون هناك نفاذ بصيرة حاد وغير عادى. لو كانت حياته أقل وحدة أموميا وولعا بنيتشه، خلال تقديم لحظات بأسه المتزايد فى الأشهر الأخيرة قبل الانهيار الذى تحول إلى هلع وجنون. ونجده فى الصفحات الأولى من كتاب «نيتشه فى تورينو» يسافر جنوبا من نيس متوجها إلى تورينو فى زيارته الأولى لها. حيث تقول تشامبرلين:

ربما يكون قد أخطأ فى قراءة لافتة الرصيف وهو فى سافونا، أو أخطأ فى قراءة جهة المقصد المكتوبة على مقدمة القطار. وكان لا يعرف إلا كلمات قليلة من الإيطالية، وكان ثلاثة أرباع أعمى بدون نظاراته. ووضع نفسه وحقيبته اليدوية فى القطار المتجه إلى جنوة، بدلا من المتجه إلى تورينو. وآلمه ذلك فصبّ غضبه على مواطنى سامبيردارينا، متهما إياهم باستغلاله عن طريق الأسعار المرتفعة التى لا يتحملها ولا يستطيع أن يتجنبها. وكانت النتيجة هجوم الصداع النصفى الذى يشل حركة الإنسان. وقال لصديقه فرانز أوڤربيك عن هذه الرحلة إنها كانت أسوأ رحلة فى حياته على الإطلاق.

وكانت تورينو، وهى أكثر الأماكن جمالا، بلسما فوريا لقلب نيتشه المتعب. وكانت، ولا تزال، فريدة بين المدن الإيطالية، فيها آثار عصر النهضة باقية. إنها مدينة خُطط لها تبدو وكأنها مصممة للمشى، بطرقاتها ومتنزهاتها الرائعة على طول نهر بو.



ومثلما هو الحال دائما، كان هناك عمل. وفى تلك الأشهر الأخيرة (حيث استقر فى تورينو من أبريل إلى يونيو حين زار قرية سيلز ماريا، ثم عاد إلى تورينو فى سبتمبر)، وكان معترك إنتاجه مدهشا، حيث كتب أولا «حالة ڤاجنر» الذى بلور فيه كل حججه ضد ما كان يراه أحط أنواع الخداع فى موسيقى ڤاجنر. ونجد فى الفصل الذى خصصته تشامبرلين لكتاب «حالة ڤاجنر» ولنظريات نيتشه فى الموسيقى بشكل عام، أعلى مراتب الجمال الفنى. واختار نيتشه أن يضع الموسيقار بيزيه مقابل ڤاجنر، من بين جميع الموسيقيين. وأعلن أن ما أحبه فى أوبرا كارمن لبيزيه هو خفتها وبهجتها الأفريقية، وقال: «ما هو جيد خفيف، وكل ما هو مقدس يجرى على أقدام رقيقة، هذا هو الافتراض الأول للجمال الفنى بالنسبة لى».

إن ما نفتقده نحن معشر طيور القاوند فى ڤاجنر هو خفة الحركة، وروح الدعابة، والنار والرشاقة، والمنطق الجرئ، ورقصة النجوم، والروحانية الزائدة.

وأثار كتاب «حالة ڤاجنر» جدلا واسعا، ويلاحظ القارئ أن فيما كتبه نيتشه عن الموسيقار ڤاجنر علامات على الاضطراب العقلى الذى بدأ يهاجم نيتشه، بعد أن نجح مرض الزهرى فى القضاء على مخه. وكل كتب نيتشه ما تقول تشامبرلين، فيها إحساس بالارتجال، وهى غير متناسقة وناقصة فى بعض الأحيان، متحدة ومتراكزة لكن دون أن يكون هناك مركز واضح لها»، لكن بالرغم من أعماله اللامعة التى كتبها فى أخريات حياته تشير إلى اتجاهه للجنون خاصة بنغماتها اليائسة والحادة. والنغمة العالية التى كانت تبدو مثل رابسودية رومانتيكية، كانت فى الواقع نتيجة لهذه الحالة من الاندهاش الفلسفى العادى بالنسبة لنيتشه.

وأعلن نيتشه أن برنامجه لم يكن أقل من «إعادة تقييم لكل القيم»، وبهذه العبارة الرنانة يختم كتابا آخر من الكتب التى ألفها فى تورينو. وفى كتاب «المعادى للمسيح» الذى كان يعتبره المجلد الأول فى برنامجه وضعه تحت عنوان عام هو «إعادة تقييم لكل القيم». وواجه نيتشه الفلسفة الغربية والثقافة الغربية بشكل عام، بالسؤال عن الأصالة، وهو سؤال مشابه للعنوان الفرعى فى كتاب Ecco Homo، وهو «كيف يصبح المرء ما هو عليه». وكما قال نيتشه فى مقاله المبكر «شوبنهاور معلما»، «إن



اللغز الذى ينبغى على أى كائن بشرى حله، لا يمكن حله إلا إذا كان الإنسان فى كينونته الأصلية، وليس أية كينونة أخرى، فى الثبات وعدم التغير» ويكرر نصيحته بأن نحب قدرنا ونعانق مصيرنا، وأن نتبع زرادشت فى رقصة الأكمة المبتهجة. وكان من ينوى إعادة تقييم كل القيم نفسه غير واضح وغير قابل للتحديد أو التصنيف. وكما كتب هيديجر فى سياق آخر«إن الذى يسأل أسئلة ميتافيزيقية يضعه هذا التساؤل موضع السؤال». أراد نيتشه أن يقول نعم للحياة بحقائقها العادية، لكن تلك الحقائق نفسها كانت بعيدة عن مناله. وكان واعيا بعجزه على المستويين الروحانى والعقلى، لكنه لم يغفر لنفسه ولم يسمح لنفسه بالراحة من الكفاح لتكوين فلسفة تأخذ المرء بعيدا عن الأوهام. وهو بالتأكيد مثال رائع لما يمكن تحقيقه وإدراكه، مع أفقر المواد الخام.وتقول ليسلى تشامبرلين: «لقد خلق لنفسه من عجزه عن الحياة حياة بديلة ضخمة وعريضة».



وكتب نيتشه كتب «غسق المعبودات» و«المعادى للمسيح» و Ecco Homo فى الشهور الأخيرة، التى أمضاها فى تورينو. وواضح أنه كان فى حالة اتقاد ذهنى وحماس شديدين، يدفعانه للكتابة بأسلوب صوفى يجعل قراءة هذه الكتب الثلاثة متعة وإثارة. وتترك لنا متابعة توهج عقله انطباعا بأننا نحن الذين نطرح الأفكار، وليس هو، وهذا أمر كان يراه طبيعة مخادعة للذات وتفكيرا غبيا مسيحيا يجعل المرء يعتقد بصحة أمر ما لمجرد رغبة فى أن يكون صحيحا، وهوما قاده إلى أعلى مستويات السخط والغضب فى كتابى «غسق المعبودات» و «المعادى للمسيحية»، كان نيتشه شاعرا بقدر ما هو فيلسوف رغم أن أشعاره مقيتة، وما يقنعنا بمحاجاته ـ إن كنا قد اقتنعنا ـ لهى قوة لغته وتأنقها وكذلك صرامة فكره. وقال فى كتاب«غسق المعبودات» إن طموحه أن يقول فى عشر جمل ما يقوله شخص آخر فى كتاب كامل ـ وما لا يقوله شخص آخر فى كتاب كامل..»ويقول فى مقطع من كتاب Ecco Homo:

«إن كتاباتى صعبة، وآمل ألا يُعتبر هذا اعتراضا. فلكى تفهم اللغة المختصرة التى يستخدمها الفيلسوف، ولايكون فيها اهتمام بالصيغ وتبدو مثل كائن حى وعلى مستوى فنى راقٍ، عليك أن تتبع الإجراء المعاكس لما يتطلبه عموما الأدب الفلسفى. ويجب على المرء فى غالب الأحوال أن يكون مكثفًا وموجزا كى لايصاب بسوء الهضم. لابد أن أخفف، وأسيل، وأخلط بالماء، وإلا أصاب المرء هضمه بالارتباك».

وكان نيتشه قد كتب عن شوبنهاور فى بداية حياته كفيلسوف قائلا: «إن قَدَر العزلة بمثابة الهدية التى يتلقاها شوبنهاور من أقرانه، بغض النظر عن المكان الذى يعيش فيه، فالصحراء والكهف دائما معه». والآن بعد تجواله فى الخريف فى أنحاء تورينو وهو يتدبر أفكاره، يدخل مرحلة فراغ الذات الخاصة به، وتظهر الخطابات الأخيرة مشاعر حزينة، لشخص يطلب العون والمساعدة. وكتب لبيتر جاست فى كتاب Ecco Homo يقول: «إن الأمر يتجاوز مفهوم الأدب، لدرجة أنه لا يوجد ما يوازيه، حتى فى الطبيعة نفسها. إنه مثل تفجير يشطر تاريخ البشرية نصفين، بقدر يزيد مما يمكن أن يفعله الديناميت»...

وكان العلماء فى تورينو ينحنون لنيتشه احتراما فى المكتبات، وكانت عيون كثير من النساء عليه. وكان يتساءل عما إذا كان يجب عليه أن يتنكر أثناء تجواله، كما لو أن هناك من يتعرف عليه بالفعل. وكتب لوالدته:

[لم أعرف حتى الآن معنى أن يستمتع المرء بطعامه، وبأمانة شديدة أنا أتناول أربع وجبات مثلما كان الأمر فى نيس، أدفع نقودا أقل ولا أواجه أية متاعب مع معدتى. وأعترف بأننى كنت أتلقى معاملة تفضيلية وطعاما شهيا. ولكن هذا الوضع لايتغير فى أى مكان أذهب إليه. فالناس يعتبروننى شخصا مميزا، وقد تندهشين عندما ترين جو التبجيل والاحترام الذى يعيش فيه ابنك».

وكان النهاية وشيكة، إذ بدأ خطه يضمحل ووصل إلى درجة من الرداءة لايستطيع معها فك رموزه إلا والدته. وفيما يلى مقطع من قصيدة ديونيسية حماسية من ذلك الزمان، تصفها ليسلى تشامبرلين بأنها من «صفاء شعر ريلكه واستبطانه»:

إن العزلة ليست ألما بل هى نضج، تصبح معه الشمس من أعز أصدقائك»

رغم سوء الفهم الذى تعرض له هذا الرجل، وإساءة فهم أعماله التى أدت إلى أن يعتبره الكثيرون شريرًا، إلا أن نيتشه يظل واحداً من أعظم وأعمق المفكرين فى العصر الحديث. وبدونه يصعب رسم صورة لخريطة الفلسفة والأدب فى القرن العشرين، من هايدجر إلى بول دى مان، ومن فرويد إلى لاكان، ومن توماس مان إلى ميلان كونديرا

لم يعد لنيتشه من يصادق إلا الشمس، لم يكن ليجد عونا على كوكب الأرض، مثلما قال كليست عنه. وكان يعانى من نوبات بكاء منهكة، مصحوبة برعدة وأمارات تألم على الوجه، كان يختفى عن الأنظار فى غرفته فى طريق كارلو ألبرتو، يراقب قسوة الشتاء. وجاء عيد الميلاد وانتهى، وفى الثالث من يناير عانق فرسا فى طريق بو وسقط منهارا على الرصيف. ووصلت الشرطة التى استدعاها داڤين فيفو وصاحب البيت الذى يستأجر نيتشه غرفة فيه، وتعرف نيتشه عليه عندما عاد إلى وعيه وهو فى غرفته، حيث ظل وراء بابها المغلق يهذى ويرقص صاخبا وعاريا فى جنونه البانوسى الخاص.

ونقل من تورينو إلى عيادة خاصة فى بازل، حيث عالجه الدكتور ڤيل الذى اعتبره نيتشه شبحا آخر من تلك الأشباح التى أحاطت به فى نهايته. وبعد ذلك أخذته والدته إلى ناومبرج وبعد وفاتها فى ١٨٩٧ أخذته أخته إلى ڤايمر حيث استقر معها فى منزلهما (The Villa Silberblick) وكانت شهرة نيتشه قد طبقت آفاق أوروبا، وكانت كتبه تدر دخلا كبيرا استخدمته اليزابيث فى الحفاظ على أسلوب حياة لم تعتده. وزار الكونت هارى كيسلر الفيلا فى ١٨٩٧، وكتب واصفا الحالة المحزنة التى غرق فيها الفيلسوف: «فى وجهه الذى لا أثر لحياة فيه لايزال يمكن للمرء رؤية تجاعيد حفرتها الأفكار وقوة الإرادة. لكنها كانت قد وصلت إلى مرحلة بائسة من الترهل. وكان تعبير وجهه الوحيد إرهاقا بلا حدود».

وفى زيارة تالية لكيسلر، أيقظه من نومه فى الليل صوت صرخة ألم رهيب من غرفة نيتشه، يقول عنها: «كنت نصف مستيقظ، وسمعت مرتين نفس صوت الصراخ الأليم بأعلى الطبقات الممكنة».

وفى ١٩٨٩، هاجمته أزمة سكتة دماغية خفيفة، تبعتها أخرى أكثر قوة فى العام التالى، ودب الوهن فى جسم نيتشه، ووجد صعوبة فى الكلام. وذات يوم عندما وضعوا كتابا جديدا فى يده، قال: ألم أكتب أنا كتبا جيدة أيضا؟ وأصيب فى أغسطس من سنة ١٩٠٠ بنزلة برد وضيق فى التنفس. وهاجمته سكتة دماغية فى الخامس والعشرين من أغسطس مات على أثرها. كان لإثبات عقيدته، وفى أوج أزمته فى أكتوبر الأخير له فى تورينو أثناء انهياره العقلى، كتب الفقرة التالية على رأس كتاب Ecco Homo :

> «فى هذا اليوم الجميل الذى كان كل شىء فيه قد نضج واستوى، ليس فقط عناقيد العنب الذهبية، بل أشعر أن شعاعا من ضوء الشمس يغمر حياتى. نظرت ورائى وأمامى حيث رأيت أمامى أشياء بديعة لم أرها من قبل.
>
> لم أدفن عامى الرابع والأربعين اليوم هباءً إذن، كنت جديرا بحمله، وما اتصل منه بالحياة لم يدفن لأنه يتمتع بالخلود الذى أنقذه. فى كتب «إعادة تقييم كل القيم» و«أغنيات زارادشت» و«غسق المعبودات» تبدو محاولات لفلسفة الأمور بمطرقة. وكانت هذه الكتب أفضل هدايا من عامه الأخير، بل الربع الأخير منه. بحيث يمكننى أن أعترف بالجميل لحياتى كلها؟ وهكذا أحكى لنفسى عن حياتى.

رغم سوء الفهم الذى تعرض له هذا الرجل، وإساءة فهم أعماله التى أدت إلى أن يعتبره الكثيرون شريرًا، إلا أن نيتشه يظل واحدًا من أعظم وأعمق المفكرين فى العصر الحديث. وبدونه يصعب رسم صورة لخريطة الفلسفة والأدب فى القرن العشرين، من هايدجر إلى بول دى مان، ومن فرويد إلى لاكان، ومن توماس مان إلى ميلان كونديرا.

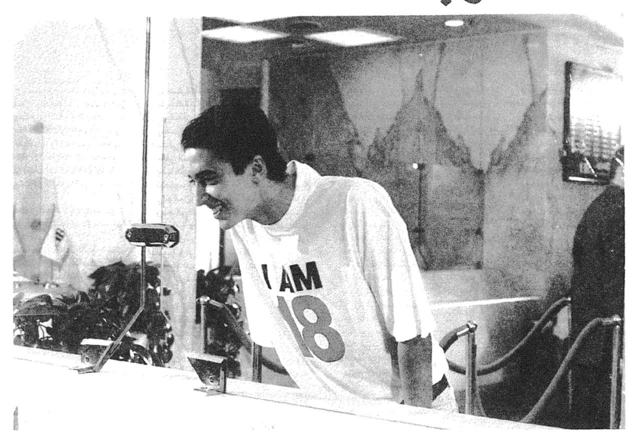
ويقول ضمن حكمه التى تبدو عرضية «ليست هناك ظاهرة أخلاقية على الإطلاق. لكن هناك تفسير أخلاقى للظاهرة». ولقد دمّر نيتشه جميع جدران بيت الفلسفة الغربية، جاء بكلام مغاير وأنباء عن موت الرب بأسلوب الخيال العلمى، وهاجم أسس العقيدة المسيحية، وشجب احتقار الحياة الطبيعية التى كان يعتقد أنها ذنب اقترفه القساوسة والفلاسفة على حدّ سواء.

وهكذا كان نيتشه يكتب بنثر جميل تفسيرًا شاعريًا للحياة بعظمتها ومجدها. إنه فيلسوف تجاهله معاصروه، وانتهكناه نحن فى عصرنا، ورغم ذلك يظل نيتشه رغم إخفاقاته التى كان يعزوها لكونه إنسانيًا، مفكرًا وفيلسوفًا ثابتًا خمدت أضواء فكره فى فجر قرن تنبأ بكثير من عذاباته ورعبه. ويقول وليام جاس: «هاجم نيتشه قيمنا كما لو كانت عملات مزيفة مشكوكًا فى أمرها، وترك فى كلٍّ منها آثار تثليم أسنانه....». ■

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books

ترجمة: عبدالعظيم الوردانى

لتشعر بذاتك ..!



مؤسسة مالية متكاملة
تسهل لك الحياة وتؤثر فيها

نعم وأنت فى الثامنة عشر يمكنك أن تفتح حساباً جارياً أو حساب ودائع أو حساب توفير بفوائد متميزة وتتابع كل ذلك إليكترونياً وتحصل على بطاقة ماستر كارد وبطاقة خدمة البنك الفورى ATM كل ذلك بإنضمامك إلى خدمة حسابات الشباب التى يقدمها البنك التجارى الدولى لتضاف إلى سلسلة خدماته غير التقليدية التى تسهل لك الحياة وتؤثر فيها .

أغانى الحب والزواج

مينا بديع عبد الملك

الإنسان والحيوان يستعملان الصوت كوسيلة للاتصال، وأحيانًا يصعب تمييز الأصوات المنطوقة (أى اللغة) من العناصر الأخرى مثل درجة الصوت وزمنه (التى تكون ما نسميه موسيقى). وكما يقول موريس فريدمان أستاذ علم الإنسان بجامعة أكسفورد بإنجلترا، توجد لغات لها نغمة، ونصوص منغمة، وتركيبات موسيقية شبيهة بلغة الكلام.

وهناك صلات وثيقة بين الإشارات والحديث المنطوق وبين الإشارات والموسيقى، وهذا ما يطلق عليه اسم الرقص.

وفى المجتمعات ذات التقاليد الشفوية، نجد أن الترانيم أو النصوص المنغمة أستعملت كوسيلة لنقل روايات التاريخ والأساطير، والمنشدون المتخصصون فى هذا الفن ذوو الذاكرة المدربة يعتبرون بحق مكتبات حية.

من هنا كانت دراسات الموسيقى فى المجتمعات غير الأوروبية فى النصف الأول من القرن العشرين هى الغذاء الذى اعتمدت عليه أقسام علم الإنسان فى بعض جامعات الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، مما أدى إلى ظهور علم (موسيقى الأجناس). وعلم موسيقى الأجناس يبحث عن الأصالة بطريقة مماثلة لتلك التى لجأ إليها كثير من الباحثين فى علم أصول السلالات البشرية وأجناس الأمم فى فروع أكثر محافظة من البحوث فى علم التاريخ الطبيعى للأجناس البشرية (علم الإنسان). وقد أصبح علم موسيقى الأجناس حاليًا متعلقًا بمدى واسع من الاهتمامات الاجتماعية ومن يمارسونها وبنوع من علم الأجناس البشرية التطبيقى، إذ إنها تؤدى دورًا فى تحديد شخصية ثقافة المجتمع والمجموعات التى بداخله. ولقد ظهرت وسائل حديثة فى التحليل، ومنها الاستعانة بالحاسب الآلى، مما أدى إلى تطور هام فى استعمال الآلات الموسيقية، وهو تحويل الصوت الموسيقى إلى شكل مرئى، وتسمى هذه الآلات (مدونات الألحان)، وقد جرى إعدادها فى جامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك فى جامعة أوسلو.

وحاليًا تهتم معظم البحوث فى علم موسيقى الأجناس بوصف الموسيقى ومقارنتها، ولكنها لاتستطيع الوصول إلى أساسها كثقافة (مثل ما يحدث فى الأدب والتكنولوجى)، لأن تناول الموسيقى لا يصبح كتناول موضوع خاص إذ إنه مرتبط بالفكر والمشاعر والسلوك.

وفى دراسة مهمة للموسيقى الأفريقية صدر عام ١٩٩٩ عن دار النشر «أشجات» Ash-gate كتاب يحتوى على دراسة موسيقى أربعة بلاد أفريقية وهى مصر، وغانا، وأوغندا، وكينيا. وإن كانت الموسيقى قد فقدت معناها فى أفريقيا المعاصرة نتيجة التأثيرات الغربية، إلا أنه مازال أغلب الأفارقة يعيشون وفق أنماط الحضارة الموروثة، وما زالوا يحفظون موسيقاهم التقليدية والتى تمثل تجربتهم الرئيسية للفن الموسيقى.

ويقول آكين أويبا الباحث فى علوم الموسيقى بجامعة Ife النيجيرية، أن الذوق الموسيقى السائد عند الأفريقيين - الذين تلقوا تعليمًا غربيًا، ويتعرضون بحكم أسلوب حياتهم لجوانب مختلفة من الحضارة الغربية - على نوعين، هناك أقلية صغيرة لديها تذوق للموسيقى الغربية الكلاسيكية والدينية والجاز، أما الأغلبية العظمى، فليس لديها أى اهتمام باى نوع من الموسيقى غير موسيقى (البوب). وفى اهتمام بالموسيقى المصرية الفلكلورية، قدم الدكتور: عادل كامل حنا: رئيس المحررين الموسيقيين والمشرف الأول على قطاع الموسيقى بالتليفزيون المصرى والمدرس بأكاديمية الفنون والمعهد العالى للموسيقى العربية، دراسة وافية عن الموسيقى المصرية والغناء الشعبى، فهذا التراث الشعبى يمثل فى حياتنا أهمية كبيرة، فهو حكمة الأجيال ووثيقتها الحية التى تتناقلها عبر العصور، وهو التعبير الحقيقى عن نفسية الأمة وأصالتها بين الأمم.

فالأغنية الفلكلورية فى مصر منذ الفراعنة حتى الآن - كما يقول عادل كامل: تواكب حياة الإنسان المصرى من المهد إلى اللحد معبرًا بها عن أفراحه وأحزانه، مشاركًا بها فى مختلف المناسبات، فمنذ اللحظة الأولى لميلاد طفل مصرى تبدأ الأغنية والترنيمة تاخذ طريقها إلى أسماعه، تهننه وتهدهده لينام، أو ليهدأ على إيقاع الأغنية الحالم الهادئ الرقيق، ثم تؤدى له الأغنيات فى الاحتفال بمرور أسبوع على مولده وسط فرحة العائلة والأبوين من خلال طقوس معينة، ثم تاتى أغنيات المهد وترقيص وملاعبة ومداعبة الأطفال، ولا تمر بضع سنوات قليلة، حتى نجد أن الطفل نفسه أصبح مؤديًا وممارسًا ومبدعًا لنوع مهم من الأغنيات، يؤديه وهو يلعب مع أصدقائه.

ثم تاتى مرحلة الصبا والشباب باغنيات الأعياد والجماعات وأغانى العمل الجماعية والفردية.

وبعد ذلك تكون أغنيات الحب والزواج والأفراح بطقوسها المختلفة.

ثم الأغنيات الدينية الجماعية والفردية فى الموالد والمناسبات الدينية والقومية، ثم أغانى الحجيج والحداد والعديد.

وعلى الجانب الآخر نجد السير والملاحم والمواويل والقصائد والقصص الشعبية ذات الصفات التراثية.

فأغنيات التقاليد الشعبية نجدها فى أغنيات الطفولة، أغنيات الزواج، أغنيات المآتم، أغنيات العمل، أغنيات الحجيج، أغنيات الملاحم.

أغنيات الطفولة

مثل أغنيات (السبوع)، وأغانى (المهد)، ففى السبوع يضع المصريون الطفل فى غربال مملوء بحبوب القمح والذرة، وبينما يحركونه يمنة ويسرة فى حركة منتظمة تؤدى الأغنية.

فمن أغانى المهد كما سجلتها بهيجة صدقى رشيد فى كتاب (أغانى مصر الشعبية):

ننا ننا نام
ننا ننا هو
دى حبيبة وأنا أحبها
وأحب اللى يحبها
وأحب الورد الأحمر
إكمنه بلون خدها
يا رب تنام يا ربى
تنام وأدبح لك جوزين حمام
باضحك عليك يا دى الحمام
بس علشان حبيبتى تنام
يا حبيبة يا حبيبة
ما جوزكيش غريبة
أجوزك فى البيت عندى
لجل ما تبقى قريبة
يا حبيبى من زمان
وأنت فى برج الحمام
والسنة دى الحمد لربى
فى حضن أمك تنام

ثم أغنيات (الختان)، حيث يطاف بالطفل المراد ختانه فى الشوارع فى حفل شعبى كبير ومعهم الموسيقيون وجماعات راقصة من الجنسين.

أما أغنيات (العيد) فهى من الأغنيات المنتشرة فى كل ربوع مصر، وخاصة فى القرى والأحياء الشعبية فى المدن، وتتعدد مواعيد هذه الأغنيات طبقًا للأعياد التى يحتفل بها الأطفال، سواء أعياد المسلمين أو الأقباط، ويشترك فى هذه الأغنيات مجموعات الصبية والفتيات.

أغنيات الزواج

الزواج فى مصر مناسبة شعبية مطلقة، مناسبة يحتفل بها الفقراء قبل الأغنياء، من حيث الاهتمام بالطقوس الشعبية، والشكل الطقسى هنا يكاد يصل إلى شكل درامى مكتمل، ففى الريف المصرى يواجه العروسان أجمل التقاليد الريفية القديمة - وتختلف التقاليد من قرية لقرية أو محافظة لمحافظة، وتتنوع أغانى الزواج فى مصر، فهناك أغنيات لمناسبة الخطوبة أو الشبكة وأغنيات فى ليلة الحنة وللزفاف.

وقد سجلت د. فاطمة حسين المصرى فى كتاب (الشخصية المصرية من خلال دراسة بعض مظاهر الفولكلور المصرى) أغنية تتردد فى الأفراح، تقول:

ومليت له الجلة من لبن البجر
ولا عايز الجلة ولا لبن البجر
ولا عايز الجلة ولا لبن البجر
ولا عايز إلا أنت يا ضى الجمر
ومليت له الجلة من لبن الجاموس
ما عايز إلا أنت يا ضى الفانوس
ومليت له الجلة من لبن الجمال
ما عايز الجلة ولا لبن الجمال
ما عايز إلا أنت يا ضى الهلال

وهناك أغنية أخرى، سجلتها بهيجة صدقى رشيد، تقال فى زفة العروسة:

اتمخطرى يا حلوة يا زينة
يا وردة من جوا جنينة
يا عود قرنفل يا عروسة
والورد ضلل علينا
اتمخطرى وتعالى جنبى
يا حلوة فى البدلة البنبى
يا عود قرنفل يا لفندى
والورد ضلل علينا
اتمخطرى وتعالى لهنا
يا بت سيدنا وسيدنا
يا بت الشيخ العلما
يا عقلة وكاملة المعنى

المآتم:

هذا النوع من الأغانى يطلق عليه اسم أغانى (العديد)، تتشابه تمامًا من الوجهة الموسيقية البحتة وأغانى الحجيج وبعض أغانى الفرح، وذلك فى أسلوب البناء والتركيب اللحنى والأداء الغنائى.

وهذا النوع بدأ فى الاندثار وطواه النسيان، وخصوصًا بعد أن اختفت إحدى المهن الشعبية وهى (المعددة أو الندابة) تبعًا لانتشار الثقافة ووسائل التنوير - إلى حد ما - فى مختلف أنحاء مصر، إلى جانب تحريم الأديان السماوية، ممارسة هذا النوع ولا سيما بالصورة المبالغ فيها.

والأداء عبارة عن تنغيم بعض الكلمات أو الأشعار الشعبية من البكائيات، فى قالب حر ارتجالى، معددًا مناقب المتوفى إلى جانب ذكر بعض المعانى التى تدعو إلى الإيمان بالقضاء والقدر.

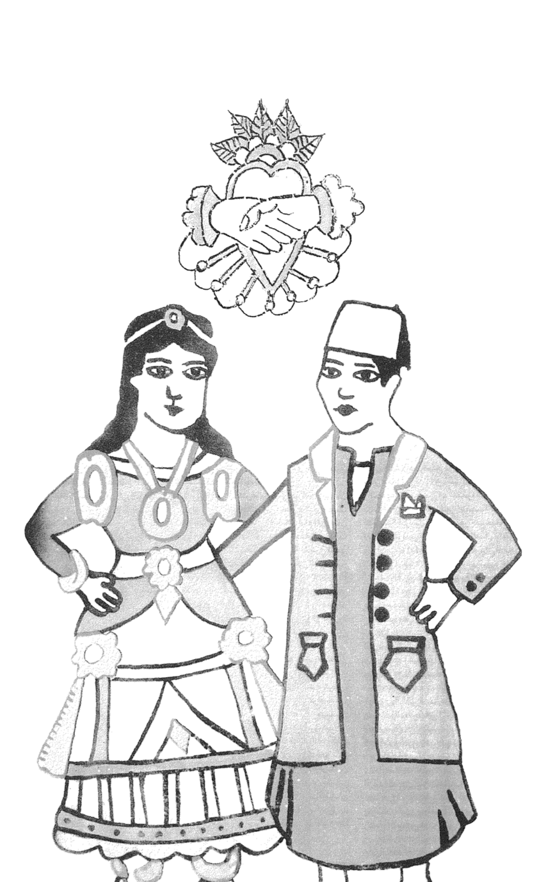
العمل:

مثل أغنية (حداء الإبل) وتعد من أقدم الأغنيات القومية الشعبية وأغنية (هلالية)، وهى من أغنيات الصيادين أثناء جذب الشباك من البحر، وهى تحض على تشجيع الجهد الجسمانى الذى تبذله الجماعة، وهم ينادون بلفظ (هيلا.. هيلا)، وفى بعض المقاطع يشيرون إلى رحلاتهم البحرية للصيد، وأغنية (جمع القطن)، وتبدأ بمقطع يمجد فيه الفتيات (الخولى) الذى يقوم على تنظيم عملية جلب الفتيات لجمع القطن ومسئوليته عنهن الإدارية والمالية، وهن هنا فى هذه الأغنية الشعبية يطلقون الزغاريد تحية له.

ومن أمثلة أغانى العمل:

جرحى من المى مكران على
مكتوب يا ناس من الجدع للراس
كتبوا سيدى ونا ايش بيدى
جرحى من المى مكران على
جرحى من المى مكران على
كوانى البين بدل الكى اتنين
جرح الجياد عيان يا ولاد

Composing the Music of Africa
(تصنيف موسيقى أفريقيا)
Edited by: Malcolm Floyd
Vermont: Ashgate Pub. Company, 1999



من وحدات الوشم
.. فن شعبى مصرى

أغنيـــات الحجـــيج:

يقوم المسلمون من جميع أنحاء العالم بالحج إلى مكة المكرمة، ويحتفل بهذه المناسبة احتفالاً لا يقل عن حفلات الزفاف، وإن كانت فى أيامنا هذه قد تلاشت بصورتها الشعبية، وإن وجدت، فقد تتم على شكل حفل دينى يستعان فيه بأحد المشايخ وتقدم فيه التواشيح والقصائد الدينية والمدائح النبوية.

أما أغانى الحج التراثية، فلم تعد تقدم إلا بشكل نادر فى القرى، وكانت تبدأ عندما يقدمون طلباتهم للحج، ثم الاستعداد له بتجهيز متعلقات ومتطلبات الحاج أو الحاجة من المأكولات والملبوسات، وطلاء المنزل وتلوينه وتزيينه بالصور والرسوم الشعبية التى تعبر عن ذلك برسم مركب أو طائرة ورسم للكعبة وكتابة آيات قرآنية وعبارات التهانى والأمنيات بالعودة الطيبة المباركة.

أغنيـــات الملاحـم

يظهر هذا النوع من الأغنيات غالبًا عند الشعوب التى يمتلئ تاريخها بأقاصيص وأساطير وتاريخ قديم ملئ بقصص الحب والبطولة، أيضًا نجدها عند الشعوب التى واجهت المحن سواء كانت هذه المحن سياسية أو اقتصادية، والشعوب التى واجهت القهر والإرهاب سواء جاء من خارج حدودها أو من داخلها.

ويحفل التاريخ المصرى بالكثير من ملاحم البطولة والحب (أبو زيد الهلالى)، (حسن ونعيمة)... وغيرهما العديد من القصص، وهى ليست مجرد قصص يرويها الكبار للصغار، بل هى قصص مكتملة الحدث الدرامى ثم هى قصص غنائية كاملة، يغنيها شاعر الربابة منذ بدايتها وحتى نهايتها، ولا يمنع أن التراث الشعبى المصرى ملئ أيضًا بنوعيات أخرى من أغنيات الملاحم يدور بعضها حول الثأر مثلاً، والملحمة المعروفة (أدهم الشرقاوى) تدل على ذلك، وهناك ملاحم تعطى لنا نموذجًا مثاليًا حول التحمل والصبر مثل ملحمة (أيوب)، أو كما يسميها البعض (ناعسة وأيوب) وغيرها.

ففى ملحمة (أيوب) - كما سجلتها د. فاطمة المصرى - يقولون:

غريب يا ولداه عن أهلى وخلانى
راح ليه حبيبى وليه يا رب خلانى
كم شب شملول رماه البين من جبلى
أيوب لما ابتلى واحد وأنا التانى

هذه نماذج فقط من تراث غنائى غزير يمتلئ به تاريخ الفن الشعبى فى مصر، ونحن لسنا بأول شعب حاول البحث فى تاريخه القديم كى يستغل تراثه بأشكال فنية تقليدية أو متطورة.

ويختتم د. عادل كامل دراسته بقوله: لم تزل أمامنا عملية (المنهجة) العلمية التى نرى بها ما نملكه بين أيدينا، وعليه سنعرف حجم أحلامنا التى يمكن أن تتحول إلى حقيقة.

مهرجان أفينيون المسرحي


صبري حافظ

لاشك أن هذا المهرجان المسرحي الكبير مهرجان أفينيون (Festival Avignon) واحد من أكبر المهرجانات المسرحية في أوروبا، إن لم يكن أكبرها جميعا. وهو في الوقت نفسه من أعرقها. فقد بدأه الممثل والمخرج المسرحي الكبير جان ڤيلار عام ١٩٤٧ ليس كمهرجان للمسرح. فلم يفكر عند تنظيمه في أن يكون مهرجانا سنويا، وإنما كان يريد تقديم عروض مسرحية متميزة في موسم صيفي لم تعهده المدينة من قبل. ولكن نجاح هذا الموسم الكبير بصورة لم تكن متوقعة دعاه إلى زيارة المدينة في السنة التالية بفرقته المسرحية، ثم انتظم المهرجان بصورة سنوية، ودعا إليه عددا من الفنانين، والفرق الأخرى. وكانت مسرحيات المهرجان تعرض جميعها على خشبة مسرحية مؤقتة تنصب في قاعة الشرف في القصر الباباوي الذي يعد واحدا من المعالم الأثرية الفخمة في المدينة. وسرعان ما أصبح للمهرجان - وخاصة بعدما أسندت إلى ڤيلار إدارة فرقة المسرح القومي الشعبي - أسلوبه الدرامي الخاص، ومنهجه في العرض والإخراج. وما أن حل العيد السنوي العاشر للمهرجان عام ١٩٥٦ حتى كان قد كرس نفسه كواحد من أهم المهرجانات المسرحية الفرنسية، ثم تطور به الأمر حتى أصبح بمرور الزمن وضخامة البرنامج، واتساع نشاطاته، أهم المهرجانات المسرحية الفرنسية قاطبة، وربما أحد أهم المهرجانات المسرحية الأوروبية جميعا.



عندما تتحول المدينة

ومهرجان هذا العام، وهو المهرجان الرابع والخمسون، دليل ساطع على ذلك. لأن المهرجان قد أصبح بحق تظاهرة مسرحية تتجاوز قدرات المشاهد على الإلمام بأطرافها في هذا العام بشكل خاص، لأن هذا العام كان عام الاحتفال بنهاية الألفية الثانية. ومع أنني لم أحضر هذا المهرجان الكبير إلا مرة واحدة قبل خمس سنوات، أي مهرجان عام ١٩٩٥، إلا أنني لاحظت أن مهرجان هذا العام كان أضخم من ذلك الذي حضرته من قبل، وأشد تنوعا، وأكثر خصوبة. وكانت به الكثير من العروض المهمة التي اختارتها إدارة المهرجان للاحتفال بهذه المناسبة المهمة، ولتدعيم مكانة هذا المهرجان المسرحي باعتباره أهم مهرجانات فرنسا المسرحية وأضخمها، بالرغم من كثرة المهرجانات والاحتفالات الثقافية في هذا البلد الذي يهتم كثيرا بالثقافة، ويوليها عناية فائقة، بالصورة التي يتفق فيها الكثيرون على اعتبار أفينيون عاصمة المهرجانات المسرحية لا في فرنسا وحدها، وإنما في أوروبا برمتها.

ويتكون مهرجان أفينيون عادة من برنامجين: أولهما هو البرنامج الرسمي للمهرجان، وهو برنامج محدود، لا يتجاوز العشرين عرضا عادة، ويهتم بأن تكون هناك بالإضافة إلى مجموعة متنوعة من العروض التي لا يجمعها إلا الزخم الإبداعي، والتميز المسرحي، مجموعة أخرى يجمعها محور إقليمي عادة. فقد كان المحور الإقليمي في المرة السابقة التي حضرته فيها هو فنون شبه القارة الهندية. بينما كان محور هذا العام الإقليمي بعنوان «من البلطيق إلى البلقان» وهي منطقة عريضة تبدأ من جمهوريات البلطيق السوڤيتية السابقة، وتمتد عبر أوروبا الوسطى حتى البلدان التي تتكون منها فسيفساء منطقة البلقان المتفجرة. وقبل الحديث عن هذا المحور لابد من الإلمام ببقية جوانب المهرجان. فقد انطوى المهرجان الرسمي هذا العام على سبع عشرة مسرحية وعرض راقص، بينما تضمن برنامج «من البلطيق إلى البلقان» عشرة عروض مسرحية. أما البرنامج الثاني فهو البرنامج غير الرسمي. والذي يعرف بـ Festival Off أو Avignon Off وهي تسمية جاءت نتيجة تبني المصطلح الأمريكي الذي يعود أصله الاشتقاقي إلى الشوارع الجانبية المتفرعة من شارع Broadway وهو شارع المسارح التجارية الكبيرة في مدينة نيويورك، ففي تلك الشوارع الفرعية نجد المسارح الصغيرة المعروفة بمسارح Off Broadway، ثم تخلت الكلمة بالتدريج عن معناها التقليدي الذي يعني الشوارع المتفرعة من شارع برودواي، وأصبحت تعني العروض المسرحية التجريبية أو المتقشفة أو عروض المسارح الصغيرة عامة.

وهذا الشق الثاني من المهرجان، هو عندي الشق الأهم، ليس فقط لأنه أضخم من المهرجان الرسمي بما لا يقاس، من حيث العدد والتنوع. فقد تجاوزت عروض Festival Off هذا العام السبعمائة عرض لأكثر من خمسمائة فرقة مسرحية. ولكن أيضا لأنه المهرجان الذي يخرج بالمدينة عن وقارها التقليدي، ويغير طبيعة فضائها الحضري كلية. إذ يحيل المدينة برمتها إلى مسرح كبير. ففي برنامج هذا العام مثلا ستة عشر عرضا من عروض مسرح الشارع. لكن هذه العروض الستة عشر ليست هي كل عروض مسرح الشارع التي يمكن للمشاهد متابعتها في شوارع أفينيون أثناء المهرجان، لأن هذه المدينة التاريخية الجميلة عادة ما يتحول فضاؤها بأكمله إلى مسرح كبير طوال ساعات النهار والليل بفضل مهرجان Off. فلا يمكنك أن تمضي ساعة متجولا في شوارع هذه المدينة دون أن تصادف نوعا من العرض المسرحي، ولا يمكنك أن تجلس في أحد مقاهيها أو تعرج على أحد مطاعمها، دون أن يمر عليك بعض العارضين الذين يدعونك لمشاهدة أعمالهم في المهرجان المفتوح أو التجريبي، ويقدمون لك شيئا من هذه الأعمال حتى تتذوق شيئا منها يفتح شهيتك للمزيد.

والواقع أن أكثر ما يمتعني في هذا المهرجان هو تحول المدينة ذاتها إلى مسرح كبير بحيث يصبح وجودك في المدينة خلال أيام المهرجان وجودا مسرحيا خالصا، وكأن الحياة قد انتقلت من مسارها الطبيعي إلى خشبة المسرح الحي هذه المرة. لأن المدينة وهي من المدن الفرنسية الثرية التي تقع في قلب منطقة Provance تتحول إلى مسرح كبير. ويراعي المهرجان غير الرسمي، مهرجان الـ Off والذي أود دعوته بالمهرجان الشعبي المفتوح، أحوال الذين لا يستطيعون الإقامة في المدينة، ولذلك فإن عروضه تستمر طوال اليوم بأكمله. تبدأ العروض في العاشرة صباحا، وتستمر حتى منتصف الليل، بمعنى أنك في أي ساعة من ساعات النهار، حينما يحلو لك مشاهدة عرض، ستجد أن هناك على الأقل عشرين عرضا تبدأ في العاشرة صباحا لتختار منها، وخمسين أخرى تبدأ في الحادية عشرة، وثلاثين تبدأ في الثانية عشرة، وهكذا حتى منتصف الليل الذي تتناقص عنده العروض. لذلك إذا كانت مدة إقامتك محدودة في هذا المهرجان، وأردت أن تغطي أكبر عدد من عروضه فعليك أن تشاهد أكثر من عرض تجريبي واحد في النهار، وعرضا رسميا في المساء. وهذا ما حاولت تحقيقه للإلمام بطرف مما ينطوي عليه هذا المهرجان الكبير والمثير.



وإذا ما بدأنا بالمهرجان الرسمي سنجد أنه يتكون من شقين كما ذكرت، الشق الرسمي الأساسي، وقد تضمن ١٧ عرضا مسرحيا كان من أبرزها (ميديا) ليوربيديز، و(لورينزاتشيو) لألفريد دي موسيه، و(مارا - صاد) لبيتر ڤايس، و(أموال القرود) لديديه جالاس، و(جلجامش)، و(المفتش العام) لجوجول، و(ثلاثية تشيخوف). فضلا عن عرضين من عروض الممثل الواحد، وعدد من العروض ذات الطبيعة التجريبية مثل (الثلاثية) التي تنهض على ثلاثة أعمال موسيقية، وتجري بعض تجاربها المسرحية على الإيقاع والصوت بالدرجة الأولى، أو عرض مثير من كندا بعنوان (كوشيل الصغيرة) لنورمان شاريت. أما الشق الثاني الذي ينطوي على عروض التظاهرة الإقليمية (من البلطيق إلى البلقان) فقد شمل (فندق أوروبا) وهو عرض من الإبداع الجمعي. و(بستان الكرز) لأنطون تشيخوف في عرض من المجر، و(الأمير ميشكين) وهي معدة عن رواية ديستويفسكي العظيمة (الأبله) وقد أعدها وأخرجها البولندي جريجوري يارزينا، و(مأساة الإنسان) وهي مسرحية مجرية من إخراج لازلو هودي، و(عن الموسيقى) وهو عرض روماني، و(الجزة السوداء) وهو عرض تجريبي بلغاري أعدته وأخرجته مارجريتا ملادينوڤا مع إيڤان دوبشيف، وغيرها.

وسأبدأ بتناول عدد من عروض المهرجان الرسمي أولا قبل الانتقال إلى المهرجان الشعبي المفتوح. وكانت (ميديا Médée) بالطبع، والتي قدمت في بهو القصر الباباوي الكبير، حيث ولد المهرجان، في طليعة هذه الأعمال. ليس فقط لأنها واحدة من روائع المسرح في كل زمان ومكان، ولكن لأن نقاد المسرح الفرنسيين، والجمهور الفرنسي قد اهتموا اهتماما كبيرا بهذا العرض، وذلك لقيام النجمة الفرنسية الشهيرة ايزابيل هوبير بدور «ميديا»، وقيام المخرج الفرنسي الشهير جاك لاسال بإخراجه، وتوفرت له إمكانيات كبيرة، وإن لم يحقق النجاح النقدي المأمول منه، بسبب افتقاد الممثلة الفرنسية الشهيرة لأبسط مؤهلات «ميديا» وهي الصلابة والبنية العضوية والنفسية التي تتحدى بنية الرجال. فدور «ميديا» من الأدوار التي تحتاج إلى ممثلة كبيرة، لا نجمة شهيرة. والواقع أن النجمة الفرنسية الجميلة والضئيلة - جسما - قد ظلمت ظلما كبيرا حينما منحت هذا الدور، ولكنها مع ذلك استطاعت في بعض مشاهد المسرحية أن توصل لنا شيئا من تلك الوحشية البربرية التي تعتمل في أغوار «ميديا»، ورغبتها البدائية في الانتقام من جاسون، حتى ولو تحقق هذا الانتقام على حساب فلذات كبدها. فقد ضحت ميديا بكل شيء من أجل حبها لجاسون، خانت والدها، وقتلت أخاها، وهجرت بلدها لتتبعه إلى اليونان، واستخدمت قوتها السحرية لتمكنه من تحقيق الانتقام من أعدائه، وأنجبت له ولدين. أي أنها قامت بكل ما يمكن أن تقوم به امرأة لإرضاء رجل والإعراب عن التفاني في حبه.

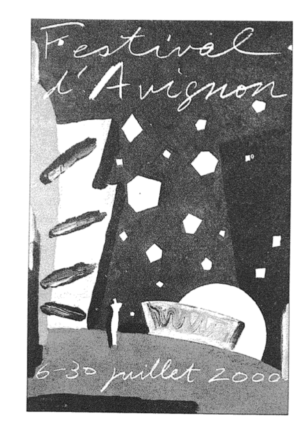
لكن جاسون، كأي رجل (وميديا دراسة باكرة عميقة ومستبصرة للاختلاف الجذري بين الرجل والمرأة) يضع مطامحه والمكانة التي يسعى لتحقيقها قبل المرأة التي تفانت في حبه. فما أن يحظى جاسون بمباركة كريون ملك كورنثة حتى يطمح إلى الزواج من ابنته «جلاوس»، والاستمتاع بالسلطة التي يتيحها

Festival d'Avignon

(مهرجان أفينيون المسرحي)

Avignon: 6-30 Juillet 2000

له هذا الزواج الملكى. ويقرر التخلى عن «ميديا» التى تدرك أن ولديها مهددان بأن يصبحا أبناء سفاح، فلن يتزوجها جاسون بعد كل ما فعلت من أجله. فتقرر الانتقام. تظهر لجاسون الاستسلام لإرادته، وتبارك زواجه الملكى، فترسل الولدين بثوب عرس مسموم هدية لـ«جلاوس». وما أن ترتدى «جلاوس» الثوب المحلى باللآلىء المصنوعة من دموع «ميديا» وقلقها وتضحياتها، حتى يتهرأ لحمها، وتموت. وينهار حلم جاسون، ويعود إلى «ميديا» لأخذ ابنيه، فتقتل الولدين، وتحرمه حتى من طقوس دفنهما. هذه هى «ميديا» امرأة «قادرة» كما يقول التعبير المصرى الشعبى، لا تستطيع النجمة الرقيقة الجميلة إيزابيل هوبير أن تجسد هذه القدرة الوحشية، والتى تمتزج بحب وحشى لولديها، يفضل موتهما على عارهما، ويترك الأب ضئيلا كما هو بحق، أمام جبروت هذه المرأة القادرة. (وسوف نكتشف فى مسرحية «رسائل من الجزائر» التى ساتناولها بعد قليل أن نسوة الجزائر المعاصرات يفعلن ما فعلته ميديا حتى لا تتعرض بناتهن للاغتصاب). بينما تظل «ميديا» التى يتيح لها يوربيديز العظيم الهرب، حرة وجسورة وجبارة. وقد شعرت فى بعض لحظات العرض حقا بجسد إيزابيل هوبير الضئيل وهو يضج بعنفوان الغيرة وشهوة الانتقام حتى يوشك أن يتفجر أشلاء، ولكنى مع ذلك افتقدت تلك القدرة التى تتجاوز حدود البشر العاديين، والتى لابد أن يتفجر بها وجود «ميديا» على المسرح لو أرادت حقا أن



إلى مسرح كبير!

توصل لنا ما يتوخاه يوربيديز من مسرحيته العظيمة تلك.



أما عرض (المفتش العام L,Inspecteur) لنيقولاى جوجول والذى قدمته فرقة Foots-barn Travelling Theatre الجوالة فى خيمة سيركها الشهيرة، فلم يكن أسعد من عرض (ميديا) حظا معى، إذ جاء هو الآخر مخيبا للآمال. وفرقة الحظيرة، فرقة جوالة من منطقة كورنويل بجنوب غرب انجلترا، ولكنها وقد أعادت إحياء تقاليد الفرق المسرحية الجوالة فى العصر الإليزابيثى. وكنت قد شاهدت من قبل عرضا جميلا لنفس الفرقة، وهو إعداد درامى لأوديسة هوميروس العظيمة استخدمت فيه الفرقة تعدد اللغات وتعدد المناهج المسرحية التى ينطوى عليها إعداد أعضائها الذين جاءوا من ثقافات مسرحية متنوعة، للارتفاع بالمسرحية إلى آفاق إنسانية عامة، حيث أصبحت مسرحية معاصرة بحق. فى زمن أصبحت فيه تجربة الارتحال من التجارب الإنسانية المكرورة فى عصرنا الحديث. فليس ثمة من لم يتعرض فى حياته لبعد من أبعاد تجربة «يوليسيز» فى بحثه عن الطريق الصحيح الذى يقوده إلى غايته. وليس ثمة من المشاهدين من عاد بعد ارتحال ليجد أن الزمن قد تبدل، والواقع قد تنكر، وما تركه وراءه غير ما يعثر عليه بعد الإياب.

ولكنى وجدت أن الفرقة، وقد استقر بها الحال الآن فى فرنسا، وأصبحت تجوب مدنها أكثر شهور العام، قد حرصت على إرضاء نوع من جمهور القرى الشعبى الذى يريد الضحك بأى ثمن. فنزلت بمسرحية جوجول الجميلة (المفتش العام) من سماء الملهاة الراقية إلى أرض المهزلة، أو كوميديا الأخطاء، بدلا من الارتفاع بها إلى آفاق النفاق الإنسانى المتأصل، والجشع الذى يغرى بعدم المقاومة، وفقدان الأمان. وهى معان لاتزال فاعلة فى زمن العولمة بدرجات أكبر مما كانت عليه من قبل فى زمن جوجول فى القرن الماضى. فمسرحية جوجول التى استطاعت من خلال حبكتها الدرامية الجيدة أن تمس عددا من الأوتار الحساسة فى النفس البشرية، تقدم لنا مدينة محلية تنتظر مفتشا عاما سيوفده القيصر، وتستقبل أول وافد إليها، وهو محتال أريب مطارد من السلطات ومفلس، على أنه هذا المفتش فينتهز هذه الفرصة المواتية لاستغلال أعيان المدينة ومسئوليها للحصول على المال الوفير، والطعام الشهى، والمتع الحسية اللذيذة. لكن الفرقة نزلت بهذا العمل الجميل الذى استجمع فيه جوجول خبرة حياته بالمجتمع إلى أرض الإسفاف والإضحاك، برغم أنها بطبيعتها مليئة بالفكاهة الساخرة الراقية. بل لقد تجاوزت الإسفاف إلى حضيض مناوشة المخاوف العنصرية من خلال استخدام ممثل هندى للقيام بدور المفتش المزعوم، فيتمتع هذا الملون بالنسوة البيضاوات بجلافة مستفزة، تبغى الإضحاك المسف وتستثير التحيزات العنصرية السقيمة، والجنوب الفرنسى هو أرض التعصب العنصرى والجبهة الوطنية ولوبن.



وإذا كانت كل من (ميديا) و(المفتش العام) قد جاءتا بأقل مما توقعت، فإن إخراج المخرج المسرحى الروسى الكبير، ومدير مسرح «تاجانكا» الشهير يورى ليوبيموف لمسرحية بيتر فايس (مارا - صاد - Marat Sade) عوضنى عن كل ما افتقدته فى العرضين السابقين. لأن هذا المخرج الروسى العبقرى، وأحد مخرجى العصر الكبار من قامة بيتر بروك وبيتر شتاين وجورج سترهلر وجورجيو بوركاريتا، جعل مسرح «تاجانكا» واحدا من أشهر المسارح فى أوروبا، وجلب بعض عروضه إلى عدد من الحواضر الأوروبية الكبرى، واستطاع أن يشعل بخياله الإبداعى خشبة المسرح بالألق البصرى والدهشة والتشكيلات التى تمتع العين والعقل معا. فلهذا المخرج الحساس أسلوب فنى جميل سبق لى أن استمتعت به فى عدد من العروض التى شاهدتها له على مسارح لندن وباريس، وهى عروض تتسم بالبساطة والعمق والقدرة المستمرة على الإدهاش. وها هو ليوبيموف يعيد الحياة مرة أخرى إلى نص بيتر فايس الجميل الذى تألق فى الستينيات، وأصبح إحدى العلامات المسرحية الفارقة. فقد أخرج ليوبيموف هذا العمل من جديد عام ١٩٩٨ بمسرح «تاجانكا» بعد عودته إليه عقب فترة طويلة من التجوال بين مسارح أوروبا الكبرى، وأراد أن يبرهن عبر هذا الإخراج الجديد على أن هذه المسرحية الستينية لاتزال قادرة على التعامل مع الواقع التسعينى ونهايات القرن. فهى مسرحية غيرت بنية النص المسرحى وقواعد الإحالة الدرامية بشكل جذرى. إذ تدور المسرحية، فى مصحة عقلية من أشهر مصحات فرنسا هى «مصحة شارنتون» حيث كان الماركيز دى صاد الشهير نزيلا بها فى أواخر أيام حياته، أو بالأحرى جنونه. ويقود الماركيز دى صاد عددا من النزلاء لتقديم عرض مسرحى ثورى عن اضطهاد جان بول مارا (وهو أحد أهم قادة الثورة الفرنسية، وضحية الانشقاق الدموى بين اليعاقبة والجيروند) من منطلق الدور العلاجى للمسرح والثورة على السواء. فإذا كان المسرح علاجا للفرد عنده من الجنون، فإن الثورة عند بيتر فايس هى علاج المجتمع من الخلل الجوهرى الذى يصيب المجتمعات مثلما يصيب الجنون الأفراد.

جاءت إلى هذا المهرجان الفرق المستقلة من كل ربوع فرنسا، بل من جل فجاج أوروبا لتبلور شهادة المهرجان السنوية عن إبداع الأجيال المسرحية الجديدة، وعن مدى حيوية المشهد المسرحى الأوروبى

وكان سر نجاح هذه المسرحية الستينى أن عقد الستينيات قد اشتعل بثورة الشباب التى سعت إلى علاج المجتمع الغربى من جنونه الاستعمارى البغيض، التى كانت ڤيتنام أكثر تجليات هذا الجنون خرفا وبشاعة. وأن المسرحية تعتبر الثورة هى العلاج الناجع لهذا الجنون. لكن هذا كله قد مضى وانقضى، وانشغل الناس الآن بحديث العولمة، وما أدراك ما العولمة! هى التجلى الجديد لنفس الوجه القبيح الذى أسفر عن نفسه فى ڤيتنام، واندحر فيها قبل أكثر من عشرين عاما، ولكنه عاد من جديد بعد تجديد دمائه، واستيعاب دروس الاستعمار القديم، وانهيار أعدائه التقليديين من المعسكر الاشتراكى حتى حركات التحرر الوطنية. لينشر هذا الوعى الزائف بنهاية الأيديولوجيا، وسيادة السوق الاستنزافية المعروفة باسم العولمة. وهذا ما يكشف عنه هذا الإخراج اللامع لتلك المسرحية الكبيرة التى نفض يورى ليوبيموف التراب عنها وأعادها إلى الأذهان بألق جديد، وتأويل جديدين. فقد كشف هذا التأويل عن أن المسرحية هى تراجيكوميدى موسيقى صاخب، يفكك بنية العرض الأمريكية وينقضها فى وقت واحد. إذ يتفجر العرض بالرقص والغناء والموسيقى من موسيقى «الجاز» وحتى موسيقى «الراب»، ومن أسلوب «الكباريه» حتى أسلوب «الروك» والتى تعكس كلها المشهد المعاصر فى نهاية القرن. وتكشف أقنعته الزائفة فى وقت واحد. حتى أصبح الجنون فى هذا العرض الجميل «مارا ـ صاد» معادلا لأرقى صيغ العقل فى الفن. وأصبح الفضاء المسرحى كله، مصحة عقلية تشمل المشاهدين والممثلين معا. أو سجنا كبيرا يأسر الجميع وراء قضبانه المرئية واللامرئية. بصورة بدا فيها وكأن أعمال النزلاء المجنونة فى تمثيلهم لمسرحية مقتل مارا، هى الوجه العاقل للنقاش الفكرى الجاد المجنون معا حول الحرية والمسئولية الفردية وحقوق الإنسان الذى يدور بين جان بول مارا وبين الماركيز دى صاد بفلسفته الذاتية المتطرفة. وانقلبت الآية فأصبح النقاش الجاد هو الجنون الحقيقى، والفعل المجنون هو العقل فى عالم انقلبت فيه المعايير، وأصبح الفن هو أداة فتح عيون الإنسان على مايدور فى واقعه من جنون يرتدى ثياب العقل والمنطق، ولكنه أشد خطرا من كل جنون.



أما ملحمة (جلجامش Gilgamesh) فهى أولى الملاحم الإنسانية التى وصلتنا من أعمال الأقدمين، وأقدم نص أدبى كامل أبدعه الإنسان. وقد كان عرضها الذى أعده عن نص الملحمة الجديد أونينى، وأخرجه باسكال رامبير عرضا ملحميا بحق، استغرق أربع ساعات كاملة. وبرغم طول هذا العرض فقد حرصت على مشاهدته لسببين، أولهما أنها ملحمة من عندنا، بمعنى أنها بنت حضارات منطقتنا القديمة، حيث تنتمى إلى الحضارة العراقية القديمة وهى رافد مهم من روافد الثقافة العربية وحضارتها الراهنة برغم ما يعانى منه الشعب العراقى من عسف وحصار. وثانيهما أنها مأخوذة عن النص الجديد لهذه الملحمة المهمة. فقد تم اكتشاف عدد من الألواح البابلية القديمة خلال العقدين الماضيين، ساهمت فى ملء الفجوات التى كانت تعمر نص الملحمة القديم، وأصبح نصها الجديد أقرب ما يكون إلى النص الأدبى المكتمل، وظهرت لذلك ترجمات أوروبية جديدة للملحمة دون أن تظهر ترجمة عربية للنص الجديد بعد.

لهذين السببين ذهبت لمشاهدة هذا العرض، فوجدت نفسى بإزاء عمل كلاسيكى بكل ما تنطوى عليه الكلاسيكية من صرامة فى البناء، وعمق فى الرؤية، وشموخ فى القصد. فقد استطاع هذا العرض الذى أخلص لتفاصيل الملحمة البابلية الجميلة أن يخلق المعادل الدرامى لجمالياتها الدفينة. بدءا من المشاهد الأولى التى تتضرع فيها الجوقة للآلهة لإنقاذها من بطش جلجامش، حتى خلق الآلهة لقرينه «أنكيدو»، وغواية العاهرة لأنكيدو لاستدراجه إلى «أوروك»، حتى يلتقى بجلجامش الذى كان يراه فى أحلامه. مرورا بمشاهد الصداقة التى يجرى تعميدها على خشبة المسرح، فى واحد من أكثر مشاهد المسرحية حيوية وإيحاء، بالقوة العضوية والبحث المضنى عن سر الخلود، وحتى مشهد كوابيس جلجامش التى يؤولها له أنكيدو دائما تأويلا إيجابيا، كما يفعل كل رفاق الحكام، وهم يهدهدون غرورهم، ويساهمون فى دق المسامير فى نعش غطرستهم، وانتهاء بمشاهد غواية الإلهة «عشتار»، وعثور جلجامش على العشبة السحرية وإضاعته إياها لكبره وحماقته. وقد هالتنى معاصرة هذه الملحمة الرائعة التى صدرت عن أرض الرافدين، ورصانتها الكلاسيكية، وقدرتها حتى اليوم على إضاءة فهمنا لما يدور فيها، وفى الوطن العربى كله. إذ تحكى (جلجامش) عن الرغبة فى الخلود بمعناها الإنسانى العريض والمعقد معا. وعن السعى الإنسانى الذى لابد أن يمنى بالخيبة. والخيبة هى اللحن العربى الأثير فى هذا الزمن الردىء، الذى يجعل خيبة «جلجامش» مرادفا لكل خيباتنا، برغم ما تمتع به من قدرات خارقة. وإضاعته للعشبة السحرية مقابل إضاعتنا المستمرة لكل الفرص السحرية التى نتمرغ بعدها فى تراب التبعية والهوان.

هذه هى بعض عروض المهرجان الرسمى، وهناك عروض عديدة أخرى اهتم بعضها بالجانب الراقص من العرض المسرحى، واهتم الآخر بجوانب الإبهار أو التجريب على التنويعات الموسيقية، وغير ذلك من التجارب التى لم أتمكن من مشاهدتها. لكنى حرصت على مشاهدة عرض أو عرضين من تظاهرة هذا العام الثقافية «من البلطيق إلى البلقان» والتى ضمت عشرة عروض. شاهدت منها عرضا جميلاً بعنوان (فندق أوروبا) شارك فى إبداعه مسرحيون من عشرة بلدان مختلفة هى بلغاريا وفرنسا وليتونيا ومقدونيا وبولندا وروسيا وسلوڤينيا والسويد ويوغوسلاڤيا أو ما تبقى منها. وهو عرض أقرب ما يكون إلى عروض الملاهى الساخرة الحزينة معا. كتبه جوران ستيفانوفسكى، وقدمه ثمانية ممثلين من منطقة البلقان وأربعة وعشرون ممثلا من الدول التسع الجديدة التى بزغت بعد انهيار التجربة الاشتراكية فى أوروبا الشرقية من جراء تفتت كل من روسيا ويوغوسلاڤيا. وقد اختار المهرجان عرض مسرحية (فندق أوروبا) فى عنبر أحد المصانع الواقعة على مبعدة عدة كيلومترات من المدينة، وياله من اختيار موفق، فاختيار أماكن العرض فى هذا المهرجان يجعل المكان جزءا من العرض يساهم فى إبراز رؤاه أو التأكيد على بعض أبعاده.

وكان مجرد مغادرة المدينة المسوّرة هو الخطوة الأولى نحو تجهيز المشاهد للدخول فى عوالم هذه المسرحية الشيقة التى يوشك الدخول فى عالمها أن يكون مناظرا لمغادرة العالم الأوروبى المستقر الذى يتمتع بالعراقة والتاريخ، والدخول فى عالم الضواحى الأقل فخامة واستقرارا. و(فندق أوروبا) فى هذا العرض المسرحى هو استعارة موفقة ساهمت فى صياغة القضية التى يطرحها، وهى واحدة من القضايا المهمة التى تشغل الوعى الأوروبى الشغوف باستشراف المستقبل. فهو فندق قديم متداعٍ وآيل للسقوط. اجتمع فيه نفر من كل فجاج أوروبا التى كانت تسمى بالشرقية. يتنفسون مع الهواء الشقاء والضيق والاضطهاد، والحسد، والانتظار، والتمرد، والقطيعة. ولكن هذا كله مصحوب كذلك بالرغبات والآمال والسخرية من الذات والعالم. وقد اختار العرض أن يكونوا مجموعة متنوعة الجنسيات الأوروبية، ومن مختلف الأعمار رجالا ونساء، وكذلك من دول أوروبية تفتتت مثل يوغوسلاڤيا وروسيا، أو لم تتفتت مثل بولندا وبلغاريا، ولكنها لاتقل عن تلك التى تفتتت معاناة. وما أن يدخل الجمهور إلى المصنع حتى يصحبهم أحد موظفى هذا الفندق الذى يتكلم الفرنسية بالطبع فى مجموعات إلى غرفة بعد أخرى من الغرف السبع التى يلتقون فى كل منها لا بمجرد شخص ينتمى إلى واحدة من دول أورروبا الشرقية السبع، وإنما بتاريخ تجربة أوروبية كاملة، وبلد أوروبى مختلف. وأحلام إنسانية فردية متميزة تميز تجربة كل فرد من هؤلاء الأفراد.

فالمشترك بين كل هذه التجارب لاينفى التباين والاختلاف. لكن هناك لحنا أساسيا فى كل هذه المعزوفات المسرحية. فقد ظن الجميع أن وصولهم للغرب هو نهاية رحلة البحث والمعاناة، لكن المسرحية تريد أن تؤكد أنها ليست إلا مجرد بداية، فالطريق لايزال طويلا وصعبا. فأوروبا الثرية حريصة على تجنبهم واستبعادهم بقدر حرصهم على الاندماج فيها. والواقع أن هذه التجربة المسرحية الشيقة هى تجربة فيما يمكن دعوته بالمسرح المتزامن، حيث كل مجموعة من مجموعات المشاهدين تعيش المسرحية بترتيب مختلف عن غيرها من المجموعات الأخرى، وتلتقى المجموعات بعضها بالبعض فى الممرات والطرقات. بصورة يصبح فيها المشاهدون جزءا من التجربة المسرحية ذاتها. فى نوع من الفوضى المحكومة بنظام مسرحى يتسم بالمرونة والسيولة والجدل المستمر بين ما يراه المشاهد فى كل غرفة من الغرف. بمعنى أنك لو ذهبت لمشاهدة هذه المسرحية أكثر من مرة فستراها كل مرة بترتيب مختلف. وبالتالى ستكون النتيجة النهائية للتجربة المسرحية جديدة كل مرة، لا يتكرر فيها إلا العنصر المشترك الذى يربط بين سقوط حائط برلين، والحروب الأهلية فى منطقة البلقان، وتفتت الجمهوريات السوڤيتية فى منطقة بحر البلطيق.



أما العرض الثانى الذى شاهدته من عروض هذه التظاهرة فقد كان العرض البولندى (الأمير ميشكين) المأخوذ عن رائعة فيدور ديستويفسكى العظيم (الأبله). وقد اخترته لسببين أولهما أننى قرأت شيئا عن أن مخرج العرض ومعده جريجورى يارزينا هو أحدث ما أنتجه الإخراج البولندى من إضافات لامعة، فقد ذكر هذا المخرج الكثيرين ببدايات المخرجين البولنديين الكبيرين جيرسى جروتڤسكى وأندريه ڤايدا. وثانيهما أن الإعداد كان سمة بارزة من سمات هذا المهرجان، ويمكن القول أنه أصبح سمة بارزة من سمات المشهد المسرحى الأوروبى المعاصر. ولم أندم على الاختيار بأى حال من الأحوال، لأن جريجورى يارزينا استطاع أن يحتفظ بالجانب الإنسانى العام فى تلك الشخصية المعقدة التى رسمها ديستويفسكى باقتدار وتمكن، كما جعلها فى الوقت نفسه مدخله للتعامل مع واقع أوروبا الشرقية المعاصر الذى يعانى من قسوة التحول نحو الليبرالية والرأسمالية.

والأمير ميشكين، بطل رواية (الأبله) هو شخص محير بحق، لاتستطيع أن تعرف إذا ما كان أبله أم قديسا؟ ولكنك لا تستطيع فى هذا العرض أن تخطئ إدانته الدامغة لهذا السعار الاجتماعى الذى أطلقه التحول صوب الرأسمالية المجتمعات التى

الثقافة العربية أصبحت جزءاً حيوياً الآن فى الثقافة الفرنسية، لها إسهاماتها من لعب الكرة (مايسترو الفريق القومى الفرنسى زيدان)، وحتى كتابة الأدب (حصول كاتبين- الطاهر بن جلون وأمين معلوف- على أرفع الجوائز الأدبية الفرنسية: جائزة الجونكور)

عانت من قعقعة انهيار النظام الاشتراكى فيها، وصعود المافيات والفساد وسعار الاستهلاك. فالأمير ميشكين عند جريجورى يارزينا هو أمير معاصر، لا ينتمى إلى الماضى، بل يعيش كلية فى الحاضر الجارح الذى يعرى لنا براءته وسذاجته فى كل مشهد. لأنه يعانى من هذه الازدواجية التى اصطبغ بها كل شىء، ولا يستطيع المواءمة بين مشاعره الأخلاقية المستمدة من تعاليم المسيحية، وبين مواضعات الواقع التى تزرى بأبسط هذه التعاليم وأكثرها بديهية. وقد استطاع المخرج استخدام الموسيقى وتقنيات الفيديو وشاشات العرض فى موازاة التمثيل المسرحى الذى التزم بأحداث الرواية، بصورة أدارت حوارا شيقا بين الرواية والواقع، وبين المسرح وصيغ العرض البصرية والسمعية الأخرى.



ولننتقل الآن إلى آخر جوانب هذا المهرجان المسرحية، فهناك جانب أخير يتعلق بالندوات وحلقات النقاش العديدة المصاحبة للمهرجان. وهذا الجانب المسرحى الأخير هو بالأحرى مدخلنا إلى المهرجان الكبير الموازى للمهرجان الرسمى والذى يفوقه بعشرات الأضعاف. فلا يمكن مقارنة النشاط المسرحى الذى يدور فى مهرجان Avignon Off بذلك الذى يدور فى المهرجان الرسمى، لا من حيث العدد، ولا من حيث حيوية الطاقة المسرحية التى ينطوى عليها كل منهما. لأنه إذا كان باستطاعتنا استيعاب ما يدور فى المهرجان الرسمى، وكان من الممكن انتقاء عدد من عروضه لمشاهدتها، والإلمام عبرها بأكثر ما ينطوى عليه المهرجان من تيارات، فإن من العسير القيام بذلك بالنسبة لمهرجان Festival Off أو ما يجب مراعاة للدقة والإنصاف دعوته لا بالمهرجان الهامشى، أو حتى التجريبى، كما درجت الحال فى تسمية هذا الجانب من النشاط المسرحى، وإنما بالمهرجان الشعبى المفتوح متعدد الأصوات والثقافات والتجارب المسرحية. فقد كان هذا بحق هو ما ينطوى عليه المهرجان الذى بدأ بدعوة نفسه بـ«خارج المهرجان» ثم أصبح هو شاغل المدينة الأساسى ومهرجانها الكبير.

وقد أقيم مهرجان هذا العام الشعبى المفتوح، وهو مهرجان مواز للمهرجان الرسمى، تحت شعار «كل جماليات المسرح الحى» أو المعاصر. والواقع أن هذا المهرجان هو الذى يجعل مدينة أفينيون الجميلة تغص عن آخرها بالفنانين والعروض من الصباح وحتى المساء فى الشوارع والشرفات والمقاهى والميادين والأسواق. وهو الذى يملؤها بالجدل والنقاش حول دلالات العروض وأداء الممثلين، ومناهج المخرجين وأصالة تأويلاتهم، ومختلف قضايا المسرح الجديد وإشكالاته. فقد جاءت إلى هذا المهرجان الفرق المستقلة من كل ربوع فرنسا، بل من جل فجاج أوروبا لتبلور شهادة المهرجان السنوية عن إبداع الأجيال المسرحية الجديدة، وعن مدى حيوية المشهد المسرحى الأوروبى. حيث يتبادل الفنانون والمشاهدون الخبرات ومحبة هذا الفن الجميل، ويسعون جميعا لاكتشاف الكتاب والمواهب المسرحية الجديدة التى ستصنع مسرح المستقبل.

وهو مهرجان لا يستطيع المتابع، مهما طالت إقامته فى المدينة، ومهما كانت وفرة وقته وأمواله مشاهدة عروضه جميعا، لأنها عروض تدور على مدار الساعة وطوال اليوم، ولأنها تتسم بالتنوع الشديد والتعدد الخصب. ولأنها تشمل كل فضاء المدينة، سواء منه ما يمكن أن يكون صالحا للعرض المسرحى، من أفنية الكنائس والأديرة، وصالات الاجتماعات فى المدارس، وقاعات المحاضرات فى الجامعات، وباحات الترويح فى المصانع، أو حتى الشارع المزدحم بالحركة الصاخبة والمارة. بل إننى شاهدت عرضا فى قارب شد مرساته إلى شاطىء نهر الرون الذى يلتف حول الضلعين الشمالى والغربى للمدينة، وتحول إلى مسرح صغير يقدم عروضه الشيقة للجمهور فى قلب هذا القارب الطويل. وكان هناك أكثر من قارب تحولت إلى مسارح صغيرة من هذا الطراز.

فإذا ما تأملنا مثلا المؤلفين الذين يتجاوز عددهم أحياء وأموات الخمسمائة وسبعين مؤلفا، فإننا سنجد أن استخدام نصوص هذا العدد الهائل من المؤلفين جعل المهرجان قادرا على استيعاب كل مراحل تطور المسرح التاريخية، وكل ثقافاته واتجاهاته وتجاربه. فهناك كل الأسماء التى تخطر على بال أى مهتم بالمسرح، بدءا من مؤسسى المسرح اليونانى الكبار من سوفوكليس ويوربيديز إلى العشرات، بل المئات من المؤلفين المحدثين، مرورا بالطبع بكبار أعلام العصور المسرحية المتتابعة من شكسبير وراسين وموليير وفولتير وجولدونى وهوجو، إلى ماريفو وستريندبرج وبريخت وميترلينك، وجان أونوى، وتينيسى ويليامز، وشنيتزلر، وحتى سارتر وكامى وجان جينيه، وبيكيت ويونيسكو وداريو فو وهارولد بنتر وإدوارد ألبى وغيرهم من كتاب المسرح المعروفين. هذا فضلا عن عدد لابأس به من المؤلفين الشبان الذين يجربون حظهم فى المسرح لأول مرة أو لثانى مرة.

لكن غلبة المؤلفين الأحياء على الراحلين ليست مصادفة محضة، ولكنها بنت اهتمام هذا المهرجان بالحاضر على حساب الماضى. لأن المهرجان بالدرجة الأولى مهرجان الواقع الحى المعاصر. فإذا كان عدد عروض المؤلفين الأحياء هو ٤٤٨، فإن عدد العروض التى مات مؤلفوها، بما فى ذلك عدد كبير من الكتاب المحدثين هو ١٣١ عرضا فقط. لكن جزءا لابأس به من هذه العروض الـ١٣١ يمكن القول كذلك بأنها عروض لمؤلفين أحياء، لأنها اقتباسات أو إعدادات معاصرة لنصوص لمؤلفين رحلوا: من هومير، شاعر اليونان الأول، وحتى نص الشيخ النفزوى الشهير فى كتاب (الروض العاطر) الذى أعد مسرحى عربى مرموق عرضا شيقا عنه. وهناك عروض عديدة أعدت عن قصص أو روايات أو حتى أشعار، من نصوص فلوبير، وبلزاك، وتشيخوف، وموباسان، وألكسندر دوما، وستيفان زفايج، وفيلهالم رايخ وفيدريك ميسترال، إلى جون شتاينبيك، ومارجريت دوراس، ومن أشعار ريلكه وأراجون وبول كلوديل إلى إيلوار وجاك بريفيير وهنرى ميشو.

وهى كلها نصوص وأشعار أعدها مؤلفون معاصرون للمسرح. واستخدموها تكاة للتعامل مع عصرنا الصاخب بالرؤى والدلالات، ولوصل ما انقطع بين ماضى هذا الواقع وحاضره فى كثير من الأحيان. لكن تأمل برنامج هذا المهرجان الكبير يكشف لنا حقيقة أخرى، وهى أن النص المسرحى الذى كتبه مؤلف فرد لايزال يحتل المكانة المركزية فى العرض، بالرغم من بروز موجة المعدين وفرق التأليف الجمعى. فقد كان هناك ٣٣٥ مؤلفا مسرحيا كان لبعضهم أكثر من عرض، وأحيانا أكثر من عشرة عروض كما هى الحال بالنسبة لشكسبير وموليير، بينما لم يتجاوز عدد العروض التى كان لها أكثر من مؤلف واحد تسعين عرضا، أما عروض التأليف الجمعى فلم يكن لها بين عروض المهرجان التى تجاوزت السبعمائة عرض أكثر من سبعة وعشرين عرضا. وهو أمر يؤكد أن الكاتب المسرحى لايزال هو سيد العمل المسرحى، أو بالأحرى ركنه الركين.

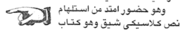


لكن ما يضيفه هذا المهرجان المفتوح الكبير لمعرفة المتابع للمسرح يتجاوز كثيرا هذا الحشد الضخم من المؤلفين والنصوص والأشعار. فالمهرجان ينطوى على كل صيغ العرض المسرحى من المسرحية الكلاسيكية ذات الوحدات الثلاث، إلى منولوجات الممثل الواحد أو عروض الكورس الجمعى، ومن المآسى التقليدية الكبرى إلى الملاهى الحديثة الساخرة، ومن مسرح الحائط الوهمى الرابع إلى مسرح الحلقة ومسرح الشارع ومسرح المقهى، ومن المسرح الوثائقى وتقنياته التعبيرية الفريدة إلى مسرح الحبكة جيدة الصنع، ومن مسرح الإبهار والتعبير الحركى الصوتى اللونى المجسد إلى المسرح الشعرى الذى يعيد للكلمة جلالها فوق الخشبة، ولا يستعين بغيرها، ومن مسرح الوسائط التعبيرية المتعددة من رقص وإيماء وعروض للفانوس السحرى، حتى مسرح الشاشات السينمائية وأشعة الليزر وأجهزة الفيديو التى تتحاور مع خشبة العرض. فقد كان برنامج هذا العام كما ذكرت بعنوان «كل جماليات العرض المسرحى الحى» ولذلك كان لكل أجناس هذا العرض مكانها الواضح فى برنامجه.

لكن تغليب المساهمة المعاصرة والاهتمام بكل صيغ العرض المسرحى وبشتى تجلياته لا يستوعب كل السمات التى يمكن أن نصف بها الأعمال التى قدمها هذا المهرجان الشعبى المفتوح. وإنما كان هناك بالطبع تغليب للثقافات الأوروبية على ما عداها، فهذا مهرجان أوروبى أولا. تظهر فيه الثقافات الأخرى بالقطع، ولكنها تظهر كثقافات أخرى لها مكان محدود فى الحضارة الأوروبية التى تتفاعل ثقافاتها وتثرى بعضها البعض، ثم تنفتح بعد هذا التفاعل على الآخر المغاير. فتصور أوروبا لنفسها ينهض على وعيها بمركزيتها الثقافية، وعلى أنها قارة تعتد بنفسها وثقافتها. ومن منطلق هذا الاعتداد تنفتح على غيرها من الثقافات. ولذلك كان المهرجان مليئا بالعروض التى جاءت مباشرة من عدد من بلدان أوروبا، أو أعدها فرنسيون عن نصوص مسرحية أو روائية أوروبية. وكانت هناك نصوص قليلة من اليابان وإيران وأمريكا، ولكن أكثر الثقافات الأجنبية بالنسبة لغيرها من الثقافات غير الأوروبية حضورا كانت الثقافة العربية.

فبالمقارنة بثلاثة نصوص من أمريكا، ونصين من إيران، ونص واحد من اليابان، كانت هناك أكثر من خمسة عشر عرضا قام بها عرب/ فرنسيون، أو أعدوها عن نصوص عربية. فالثقافة العربية ـ بسبب وجود أكثر من أربعة ملايين عربى أو فرنسى من أصل عربى فى فرنسا ـ أصبحت جزءا حيويا الآن فى الثقافة الفرنسية. لها إسهاماتها من لعب الكرة (مايسترو الفريق القومى الفرنسى زيدان) وحتى كتابة الأدب (حصول كاتبين ــ الطاهر بن جلون وأمين معلوف ــ من أصل عربى مغربى ولبنانى على أرفع الجوائز الأدبية الفرنسية: جائزة الجونكور) والمسرح الذى أسعدنى أن أجد للإسهام العربى فيه حضورا متميزا فى هذا المهرجان. فقد تعرفت فيه على أسماء عربية جديدة من عبدالباقى بومعزة وعادل حكيم وكريم عمّور وأحمد مدنى إلى مليكة خالدى وكريم معتوق وفريد عمرى وحسين سليمان وموسى البكيرى وغيرهم، وتحاورت مع بعضهم حول تجاربهم وهموم المسرح الذى يسعون لخلقه حتى يستطيعوا من خلاله وضع الشأن العربى على خريطة المسرح الفرنسى أولا، وخريطه الاهتمامات الفرنسية العامة ثانيا.

وهو حضور امتد من استلهام نص كلاسيكى شيق وهو كتاب



إذا ما تأملنا الذين يتجاوز عددهم ـ أحياء وأمواتا ـ الخمسمائة وسبعين مؤلفًا، سنجد أن استخدام نصوص هذا العدد الهائل من المؤلفين جعل المهرجان قادرًا على استيعاب كل مراحل تطور المسرح التاريخية، وكل ثقافاته واتجاهاته وتجاربه.. بدءًا من مؤسسى المسرح اليونانى الكبار.. إلى عشرات، بل المئات من المؤلفين المحدثين..



(الروض العاطر)، إلى تناول واحد من كلاسيكيات المسرح الجزائرى المكتوب بالفرنسية، نص كاتب ياسين الشهير (نجمة)، إلى تجارب عربية معاصرة تمتد من إعداد كتاب يروى خبرة شخصية عن الحرب الأهلية اللبنانية، أو مسرحة مجموعة من الرسائل التى كتبها مواطنون جزائريون عاديون إلى ذويهم وأصدقائهم فى فرنسا، أو حتى تقديم عرض مسرحى راقص يستلهم الرقص الشعبى العربى فى هذا المضمار، والذى تجاوز الاحتكار العربى له. حيث كانت هناك ممثلة / راقصة فرنسية لها فرقتها الخاصة فى مدينة مرسيليا هى «ڤيرجينى ريكولا» قدمت عرضا استلهم الرقص الشرقى، وتصوراته الأندلسية فى عرض شيق بعنوان (حدائق غرناطة)، استخدم موسيقى عازف العود العراقى البارع «نصير شمة»، والتونسى أنور براهم وغيرهما فى تقديم مجموعة من الرقصات الإيمائية والإيقاعية التى تستهدف بعث الجانب الحسى الحركى فى الرقص العربى.



وقبل التريث عند بعض هذه العروض العربية التى تهم القارئ العربى أكثر من غيرها دون شك، لابد من عرض بعض الخطوط العامة لهذا المهرجان الموازى حتى يستفيد منها الذين ينظمون المهرجانات المسرحية عندنا. فقد قدم المهرجان ما يمكن دعوته بتجربة العرضين المتزامنين لمسرحية واحدة. وهى تجربة مثيرة بحق يقدم عبرها المهرجان عرضين مختلفين لمسرحية معينة من فرقتين لا تعرف أيهما عمل الأخرى. ويحرص المهرجان على برمجة العرضين بطريقة تتيح للمشاهد مشاهدتهما فى نفس اليوم إذا ما أراد، أى أنهما يدوران فى مكانين مختلفين وفى زمنين متباينين. ومن أجمل التجارب التى يمكن أن يعيشها المشاهد فى هذا المهرجان أن تحضر عرضين مختلفين ومن فرقتين مختلفتين لعمل واحد. وهى تجربة جاءت بمجموعة من الإشكاليات التى يثيرها هذا التجاور اللصيق لعرضين متباينين لعمل واحد. وبالرغم من أن المهرجان قد قدم أكثر من عشرة أعمال كان لكل منها عرضان متزامنان، فإننى لم أتمكن إلا من مشاهدة عملين فقط من هذه الأعمال العشرة، أى أربعة عروض. وهما عرضا مسرحية (هواية الحيوانات الزجاجية La Ménagerie de Verre) لتينيسى وليامز، وعرضان آخران لرائعة داريو فو (الموت العرضى لفوضوى Most annidentelle d, un anarchiste) وكانت أبرز هذه الإشكاليات التى استخلصتها من خلال مشاهدة عملين فقط من الأعمال الكثيرة التى تنضوى تحت هذه الظاهرة الشيقة،أن المكان، أى الفضاء المسرحى الذى يعرض فيه العمل له دور كبير فى خلق حالة التلقى، وفى إبراز بعض جوانب التأويل الإخراجى أو الجناية على بعضها الآخر. وقد حرصت إدارة المهرجان على ألا يعرض أى تأويلين إخراجيين مختلفين لنفس العمل فى مسرح واحد. بالرغم من أن المكان الواحد يستخدم للكثير من العروض المتتابعة، ما أن ينتهى عرض منها، حتى يخلى المكان للفرقة التالية لتعرض عملها فيه. وربما كان هذا الحرص من مظاهر إبراز العوامل المشاركة فى صياغة التجربة المسرحية، وتأثير كل منها على العرض. فقد تم فى هذه الحالة تثبيت النص، وتركت بقية عناصر العرض حرة يشارك كل منها بقدر فى التأويل الإخراجى له. فتغيير المكان ينطوى عادة على إعادة رسم خريطة الحركة الإخراجية للعرض.

وبالإضافة إلى تجربة العرضين المتزامنين لمسرحية واحدة، كانت هناك تجربة مسرح الممثل الواحد، أو الممثلة الواحدة. وهى حالة خلقت تيارا من التأليف والإعداد المسرحى الذى يرفد هذه الظاهرة بنصوص ملائمة. بل شجعت الكثيرين على الإدلاء بدلائهم ودلائهن فى مجرى التأليف والإعداد. وكان من أمتع العروض التى شاهدتها فى هذا المضمار تجربة تلك الكوميديانة الفرنسية «آجنيس لاروك» التى حصدت العديد من الجوائز فى عرضها الساخر (سولانج Solange) الذى اتخذ من بنية نص كافكا المدهش (تقرير إلى الأكاديمية) إطارا للسخرية من مهنة التدريس، وتعامل الإنسان مع الحيوان. فإذا كان تقرير للأكاديمية يقدم قردا يتحدث إلى أرقى الأكاديميات، فإن «سولانج» تقدم لنا مدرسة تتحدث بجدية علمية متناهية، تضج لها الصالة بالضحك، عما تسميه بالحيوانات المنزلية الأليفة. وهى: البرغوث، والقمل، والصرصار والذباب والفئران، وما تفعله بالبيت والإنسان. فيكتشف المشاهد أنه بالفعل ضئيل أمام زحف هذه الحيوانات وإجبارها إياه على قبولها فى منزله والتعايش معها فى حياته.



أما آخر الملامح العامة التى أود الإشارة إليها هنا فهى الاهتمام بما يمكن تسميته مسرح التجارب الطريفة الحية التى لاتزال جديدة وغضة أو القضايا الساخنة التى تتسم بلمسة سياسية واضحة. وسأشير إلى نموذج واحد على كل نوع. فقد كان ثمة عرض عن «شبكة المعلومات الأليكترونية المعروفة باسم «انترنيت internet» بعنوان (موال على الانترنيت Balade sur internet) لجيرار سافوازى وهو عرض يقيم عنوانه مفارقة واضحة بين شكل الموال بتواريخه الرعوية القديمة فى أوروبا، وأحدث ما وصلت إليه تقنيات الاتصال الحديثة وهو «الانترنيت». ويلعب على المفارقة الناجمة عن كيف أن شبكة المعلومات تلك قد قلصت المسافات بين البشر، ولكنها لم تتغلب على صعوبة عملية التواصل الحقيقى بين الأفراد. فلاتزال لعلاقات الحب التى تدور عبر الانترنيت، والبريد الإليكترونى email، وبرامج التعارف وغرف المحادثة والـ ICQ نفس إشكاليات علاقات الحب فى كل العصور. وكان هناك عرض طريف آخر بعنوان (يورو الأزمنة الحديثة Leuro des temps modernes) لجورج بيردو. يتناول هذه العملة الأوروبية الجديدة «اليورو» التى استغرق ميلادها تسع سنوات بدلا من تسعة أشهر، من خلال التناقض، واستخدام أدوات وتقنيات المسرح المتقشف لتناول العملة التى ستعبر عن أغنى اقتصاد فى العالم، اقتصاد أوروبا الغربية مجتمعة.



أعود الآن بعد هذه الجولة الواسعة فى حصاد المهرجان إلى العروض العربية العديدة فيه. وقد كانت هناك أكثر من عشرة عروض كما ذكرت. بعضها إعداد عن كتب، وبعضها من عرض الممثل الواحد الذى يستقطب اهتمام المشاهد بالتعامل مع مشاكله أو مشاكل جماعته الثقافية بشكل فكاهى ساخر. وبعضها مسرحيات كتبها أو أعدها مخرجوها عن نصوص مختلفة. وبعضها إحياء لنص مسرحى له تاريخه فى الإبداع العربى المكتوب بالفرنسية كما هى الحال مع عرض (نجمة صوت من الجزائر Nedjma: une viox d,Algérie) الذى ينطوى على معالجة معاصرة لمسرحية كاتب ياسين الشهيرة أعدها محمد عدى، بمناسبة مرور عشر سنوات على رحيل هذا الكاتب الجزائرى الموهوب. فلم يكتف هذا العرض بتقديم مسرحية كاتب ياسين الشهيرة (نجمة) كما هى، وإنما انطلق منها لتقديم عرض موسيقى غنائى لا يقدم «نجمة» واحدة، وإنما ثلاث نجمات: «نجمة» الأم، و«نجمة» المرأة المعشوقة، و«نجمة» الوطن ،أو بالأحرى ثلاثة تجليات للجزائر فى محنتها المعاصرة، وثلاث تعبيرات عن صوتها الحبيس وراء القهر والدم والرعب والدمار.

أما العرض الذى انطلق من كتاب الشيخ النفزوى الشهير (الروض العاطر Le Jardin des roses et des soupirs) فقد أعده للمسرح، إعدادا حرا، كما يقول لنا فى برنامجه موسى البكيرى عن النسخة التى حققها وعلق عليها بشروحه أحمد التيفاشى. ويطرح هذا العرض كتاب (الروض العاطر) ودراسته الشيقة لتفاصيل العلاقة الحسية بين الرجل والمرأة، فى مواجهة حديث النسوة فى الحمام عن الرجال. فإذا كانت النسوة يتناولن أمور علاقتهن الحسية بالرجل فى الحمام الشرقى القديم، فإن طقس الحمام نفسه، وتعامله الحميم مع الجسد، يتحول إلى نوع من التعبير الثقافى النادر عن قدرة الثقافة على تذوق المتع الحسية، والارتفاع بها إلى آفاق روحية سامية. وعن كيف أن انشغال النسوة بأجسادهن لا ينفصل عن انشغالهن بحالتهن النفسية والعقلية على السواء. وفى مواجهة هذا العالم النسوى، يطرح العرض عالم الرجال وكيف يحرصون، برغم جدية اهتماماتهم، على علاقتهم مع المرأة، ومعرفة أفضل الطرق لتعزيز تجربتهم الحسية معها. فى نوع من الربط بين معرفة الجسد ومعرفة النفس بمعناها الشامل والعميق.

وكانت هناك بالإضافة إلى هذين العرضين مجموعة من عروض الممثل الواحد الكوميدية الساخرة التى تتناول واقع العربى المهاجر، أو المغترب برغم ميلاده فى فرنسا ونشأته بها، فى الواقع الفرنسى أو البلجيكى المعاصر، مثل . و(إنهن يدفعننى لتجنبهن كلية) لفريد عمورى وهو عرض ساخر فاز بجائزة المحكمين وجائزة الجمهور فى عدد من المهرجانات قبل الوفود إلى أفينيون. و(عرض كوميدى) لكريم معتوق، و(برعاية كلب) لحسين سليمان. و (كامل: إنه مكتوب أو مقدّر) للممثل الجزائرى كامل. و(كيف كيف، فلفل كما يتنفس) لموسى البكيرى، الذى أعد نص (الروض العاطر) وهو عرض من الحكايات الشعبية، وبمنهج الراوية، أو الحكاء الشعبى. وهى كلها عروض ضمها البرنامج، ولكنى لم أسع لمشاهدتها. كما كانت هناك عروض أخرى مثل عرض (خطوط عنا) وهو عرض غنائى كتبه كريم عمّور وغناه مع كريستين ديفوا، و(اعترافات إبراهام) لمحمد قاسمى، وهو دراما عن العلاقة بين الأنا والآخر، و(ممر الملائكة) لمليكة خالدى. وكذلك عرض (حذار فأنتم فى حضرة اللحية) لأحمد مدنى عن مأساة الحرب الأهلية الدائرة الآن فى الجزائر. لكن العرض الجميل الذى شاهدته عن نفس المأساة الدائرة الآن فى الجزائر كان (رسائل من الجزائر) وهو العرض الذى سأتوقف قليلا عنده لأهميته.

لأن هذه التجربة المسرحية الشيقة (رسائل من الجزائر Lettres d Algérie) كانت واحدة من أفضل العروض العربية التى شاهدتها فى هذه المهرجان. فهى عرض يتسم بالتركيز والشاعرية، ولا يستغرق عرضه سوى ساعة وأربعين دقيقة، هو واحد من عروض المسرح الجيد بحق. حيث ينتمى إلى ما يمكن تسميته بمسرح المخرج، وهو هنا عبدالباقى بومعزة، الذى يختار النص، ويعده ويخرجه. وتنهض المسرحية، والتى يمكن اعتبارها واحدة من مسرحيات الأصوات

المتقاطعة. على مجموعة من الرسائل التى نشرتها صحيفة (لوموند Le Monde) فى الفترة من ١٨- ٢٤ نوفمبر ١٩٩٧. وهى رسائل عادية لمواطنين ومواطنات جزائريات بعثوا بها لذويهم فى فرنسا، ونشرتها الصحيفة لأنها وجدت فيها خير تعبير عن المأساة الجزائرية الراهنة. وهى بالفعل خير تعبير عن واقع الإنسان الجزائرى العادى، وقد استطاع أن يواصل الحياة فى ظل الموت والعسف والتعصب والدمار. وهى فى الوقت نفسه تجسيد لهذا الموت الرازح الذى يقهر الإنسان، ولكنه لا يستطيع هزيمته أو سحقه كلية. موت جسده العرض بطريقة شاعرية من خلال تلك الإضاءة الخافتة التى تجعل العمل كله يدور فى نوع من العتمة الاستعارية، وهى عتمة يمكن أن تكون استعارة كلية للعمل برمته. فتجسيد العرض لهذا الموت ولمقاومة الإنسان البطولية له هو ما يضفى عليه هذا المزيج من الشاعرية الرقيقة والحيوية العارمة. كما أن اختياراته من بين الرسائل وتجميع أمشاج الرسائل فى شخصيات أربع، هى التى تجعل الإعداد نفسه عملا إبداعيا جيدا ساهم فى إنجاح العرض و بلوره تأثيره.

وينفتح مشهد المسرحية عن مساحة شبه خالية تشغلها شجرة وارفة، وتتناثر فى أرجائها ثلاثة جذوع أشجار اجتثت ولم يبق منها إلا قسم صغير من الساق يستخدم كمقعد. لكن التناقض بين الشجرة الوارفة والأشجار المقطوعة يحدد التناقض الذى ينهض عليه توتر المسرحية ويجسده منذ اللحظة الأولى. ويبدأ العرض بامرأة محجوبة الرأس ليمثل هذا الوجه الأبيض ممسوح الملامح كل النسوة الجزائريات اللواتى لا نعرف وجوههن، وهى عملية مسح توشك أن تكون النظير المرئى لحجب أصحاب الرسائل التى نشرتها (ليموند) أسماءهم، وكأن هذا الحجب يكشف عن هوية خائفة من ناحية ويجسد لنا صوت الفرد النكرة المطموس فى الصراع الدائر فى الجزائر، والذى تهدر فيه أصوات السياسة والتعصب على حساب صوت الإنسان والعقل. وحينما تخلع الممثلة القماش الأبيض عن وجهها تبدأ فى الحديث عن جمال الطبيعة فى الجزائر، ليدخلنا هذا الحديث، الذى يدور على مشهد من الأشجار المجتثة والعتمة، فى قلب التوتر الدرامى والتناقض بين الوارف والمجتث، بين الحى والمقتول، بين جمال الطبيعة وقبح الواقع الجزائرى الراهن فى هذا الزمن الردئ.

وتقدم لنا المسرحية من خلال منولوجات، أو بالأحرى رسائل شخصيات ثلاث، عالما من التفاصيل الصغيرة الناسجة لحقيقة الواقع المأساوى فى زمن الجزائر الردئ. ويتيح تقاطع الرسائل مع بعضها أن يدير حواره الدال والخلاق مع البعض الآخر، بطريقة تثرى فهمنا لما يدور هناك، وتكشف فى وقت واحد عن فداحة الواقع وبطولة الإنسان البسيط الذى لم يسمح بعد لهذا الواقع أن يهزمه. وقد أعجبتنى هذه المسرحية لبساطتها وعمقها معا، وعندما حاورت مخرجها ومعدها بعد العرض اكتشفت أن له تاريخا حافلا فى المسرح المشغول بقضية الجزائر فى فرنسا. فقد بدأ عبدالباقى بومعزة نشاطه المسرحى قبل أكثر من عشر سنوات، وقدم خلال مسيرته العديد من الأعمال التى تستهدف وضع تاريخ فرنسا فى الجزائر وواقع الجزائر الراهن على خريطة الاهتمام الفرنسى العام. فثمة وعى لديه بضرورة الحوار بين الواقع والذاكرة التاريخية، فبدون الوعى بأهمية الذاكرة التاريخية لا أمل للعرب فى أى نهوض حقيقى. وكان هذا الوعى هاديه منذ بداية مسيرته المسرحية. فقد كانت أولى مسرحياته الكبيرة عام ١٩٨٤ مسرحية (صبى الحرب) التى أعدها عن مذكرات سعيد فردى الذى قبضت عليه السلطات الفرنسية بالجزائر وهو لايزال صبيا بتهمة معاونه المناضلين، وعذبته، ثم جندته للعمل ضد أهله فصار «حركيا» كما يدعوهم الجزائريون، أى عميلا لفرنسا وخائنا لبلده الجزائر. وقدم كذلك مسرحية (السؤال) عام ١٩٩٠ عن حياة هنرى آليج الصحفى الفرنسى الذى كان يعمل بجريدة (الجمهورية) الجزائرية واتهم عام ١٩٥٠ بالعمل مع منظمة التحرير الجزائرية وقبضت عليه السلطات وعذبته حتى الموت. كما قدم مسرحية الجثة المحاصرة لكاتب ياسين عام ١٩٩٤، ومسرحية (العادلون) لألبير كامى عام ١٩٩٦. وهى كلها من الأعمال التى تضع الشاغل الجزائرى على خريطة المسرح، وتحفر التاريخ الجزائرى فى قلب الذاكرة الفرنسية المثقلة بأوزاره. والواقع أن مسرحيته الجميلة (رسائل من الجرائر) المشغولة بالهم العربى الرازح استطاعت وهى تجسد على الخشبة أوزاره أن ترفع بالفن الجميل عنا ما يلصقه التخلف بنا من وصمات.





أما المسرحية العربية الأخرى التى أود أن أتريث عندها قليلا فى نهاية هذا المقال فهى (الجلاد الرابع عشر) لعادل حكيم. و(الجلاد الرابع عشر Execu-teur 14) عرض درامى من عروض الممثل الواحد. أتيح له أن يجمع بين نص كتبه لبنانى عادل حكيم عن تجربة الحرب الأهلية اللبنانية، ومخرج جزائرى هو كامل بصلى، وممثل فرنسى عبقرى هو أوليفييه بورداكار. ومع أن النص مكتوب عن تجربة الحرب الأهلية اللبنانية من منظور المواطن العادى الذى عاش أهوالها وعذاباتها، فإن المخرج جرد النص فى إعداده الدرامى له من كل الإشارات التى تربطه بالواقع اللبنانى، وجعله نصا عن كل الحروب الأهلية الشرسة - من لبنان والجزائر وحتى البوسنة وكوسوفو - التى تكشف عما ينطوى عليه الإنسان من بربرية ووحشية تفوق وحشية الحيوانات فى كثير من الأحيان. فالنص الذى يحكى أهوال الحرب الأهلية اللبنانية تحول تحت يدى المعالجة الدرامية إلى نص يتناول تجربة الإنسان العادى البسيط فى مواجهة سطوة كل أشكال القهر والتعصب العبثية وغير المنطقية، والتى تتذرع بأوهى الذرائع لارتكاب المجازر وتدمير الإنسان.

لأن العرض هو تجربة هذا الإنسان الذى يواجه الإعدام لكل الأسباب التى يتذرع بها الفرقاء فى الحروب الأهلية لقتل بعضهم البعض، ويحاول أن يقدم لهذا الجلاد الرابع عشر، وهو مجرد واحد من الجلادين، الذين يصبحون فى بعض الأحيان هم المتفرجون الذين يشهدون هذا كله دون أن يهب أحدهم صارخا «كفى!»، والذين يتوجه لهم هذا الممثل الذى يتمتع بقدرة أداء نادرة وهو يجسد الفرد العادى بكل معاناته وتاريخه الإنسانى البسيط. بصورة يشعر المشاهد بعدها بالقلق الشديد، ويغص بإنسانيته نفسها، وقد شوهتها معاناة هذا الإنسان. وكان المسرحية تقول لنا إن معاناة أى إنسان فرد تصم الإنسانية كلها بالتخلف والوحشية. فيخرج المشاهد من العرض وقد لفه الكابوس فى طواياه، ولا يستطيع الخروج منه، أو طرح مسئوليته عن كاهله، إلا بإعادة تأمل كل ما جرى فى الحروب الأهلية التى أصبحت واحدة من آثار العولمة الدائمة فى هذا الزمن الردئ، والتى أصبح مكتوبا فيها على الشعوب الصغيرة والمقهورة أن تدفع ثمن هذا التحول الدامى فى تاريخ الإنسانية. ■

كتاب الزاوية

من أشعار سعدى الشيرازى

فى الحكم والمواعظ

إذا تبَّصرتِ يا نفسى بعيشتنا
أثرت فقراً به ما كان أغنانا!

يا أيّها الملك المرهوب جَانبُهُ
غداً ستفقد إمّا مُتْ سلطانا

وسوف تُلقى كباقى الناس مُنْتَبَذاً
فى القبر بعد جلال المُلْكِ عُريانا

دنياك هذى أراها زوجة حسنتْ
وأىُّ حسن سَيبقى مثلما كانا!

فامشِ الهوينى على أبدان مَنْ عبروْا
فالأرض ليستْ سوى أبدان موتانا

والأرض أمٌّ بمنْ قد أنجبتْ ذهبتْ
هيهاتَ منها نُرجّىِ اليوم نِسيانا

كالغول تبدو خِداعاً وهْىَ قاصرةٌ
تُخادع الناس تضليلاً وبُهتانا

أليس هاروت مَنْ بالسحر مُشْتَهرٌ
بالجُبِّ ألقتْ به ظلماً وعدوانا!

فما الرجولة بطش الكفّ ظالمةً
لكنّها أنْ ترى الإنسان إنسانا

يجاهد النفسَ بالإحسان يأمرها
ولا يُقيم لغير الحقّ ميزانا

لن نظفر

سوف لن نظفر بالحسنى غداً
فبدنيانا تركنا الحسناتْ

بالذى كنّا بها نعملُهُ
قد جزينا، بالخزى السيئاتْ

لم تُحسِّنْ قبح قرد زنْتَهُ
َلا ولا بالمشط تحلو الهَرِماتْ



سعدى الشيرازى

جسر التواصل بين العرب والفرس

عمــاد الغــزالى

كانت الورود فى استقبالنا حين هبطنا مطار شيراز قادمين من العاصمة طهران، لكل زائر وردة، لم يفهم أكثرنا المغزى، تصورنا أنها حفاوة بضيوف قدموا من عواصم عربية عدة للمشاركة فى الاحتفال بواحد من أهم رموز الأدب الفارسى، لايقل موهبةً وذيوعاً عن نظرائه ممن نعرف: مولاى جلال الدين الرومى صاحب «مثنوى» والفردوسى صاحب الملحمة الخالدة «الشاهنامة».

عرفنا فيما بعد أن الورود مهداة إلى روح الشاعر الكبير سعدى الشيرازى وكُنَّا فى الطريق إلى ضريحه الذى أُزيح الستار عنه رسميا فى عام ١٩٥٢، وهو مقام فى سفح جبل «بهذر» على مساحة ٧٧٠٠ متر ويضم تمثالاً من الرخام لسعدى ومكتبة تجمع آثاره ومخطوطاته محاطة ببساتين زهور، وحول ضريح سعدى تبارى أكاديمون وشعراء إيرانيون وعرب فى إلقاء الشعر احتفاءً بصاحب الضريح، الإيرانيون يستعرضون درايتهم بقصائد للمتنبى وزهير وامرىء القيس وعنترة وجرير وأبو العلاء وصولاً إلى شوقى وحافظ والأخطل الصغير، والعرب ممن يعرفون الفارسية، يلقون قصائد سعدى ورفاقه من عيون الأدب الفارسى، تأكيداً للهدف الذى من أجله أقيم ملتقى سعدى الشيرازى فى طهران الشهر الماضى، بالتعاون بين مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعرى ورابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية فى إيران، وافتتحه الرئيس محمد خاتمى، وهو تأكيد التواصل بين الثقافتين العربية والفارسية الذى بدأ منذ دخول الفرس فى الإسلام، ويحلم كثيرون بدعمه بعدما قَطّعت» السياسة أوصاله على مدى عقود.

ويعرف الدارسون أن الفرس أصحاب نصيب وافر فى الحضارة العربية، أسهم علماؤهم فى شتى تجلياتها، حتى أن من وضع قواعد النحو ونظَّم مسالكه «سيبويه» كان «فارسيا»، وكذلك كان العالم اللغوى الشهير «عبدالقاهر الجرجانى»، فإن أضفت إليهما «ابن سينا والرازى»، وكلاهما خط جل إبداعه الفكرى والفلسفى بالعربية، أغناك الأربعة عن عشرات الأسماء الأخرى من علماء وفلاسفة فرس أثروا الحضارة العربية فى عصور ازدهارها.



والحقيقة أننى أوثر قبل الولوج إلى سيرة سعدى وتأثره وتأثيره وآثاره، أن نطوّف سريعاً على أثر الإسلام فى الأدب الفارسى.

فقد رافق انتشار الإسلام فى إيران شيوع اللغة العربية التى كانت لغة الفاتحين الجدد، واكتسبت العربية أهميتها من زاويتين على الأقل، أولاهما أنها لغة الدين الجديد، لغة القرآن بما يمثله من قداسة فى نفوس المسلمين، وثانيتهما أنها لغة النخبة الحاكمة، وعلى الطامحين فى المشاركة فى السلطة أن يتقنوها، ومع زيادة موجات الهجرة العربية إلى إيران، واختلاط الأنساب والتزاوج والجوار، جرت العربية أكثر على ألسنة الإيرانيين، لكنها لم تتحول أبداً إلى لغة حياة يومية، وإن شكلت أساساً لثقافة جديدة عبرت عن نفسها بلسانين عربى وفارسى.

وقد ساعد على انتشار العربية فى ديار الإسلام وبينها إيران، أن الدراسة فى هذه الديار قامت أساسا على الكتاتيب التى عنيت بتحفيظ القرآن الكريم وقصائد الشعر الجاهلى وغيرها. كان الهدف هو مزيد من الفهم لأسرار البلاغة فى القرآن ولذا سميت هذه العلوم بالعلوم «الموصِّلة»، فضلاً عن تأسيس النظاميات، وهى معاهد للتعليم العالى أنشئت فى المدن المهمة فى إيران دعَّم وجودها مكانة اللغة العربية، برغم اعتماد السلاجقة منذ القرن الخامس الهجرى، اللغة الفارسية، لغة سياسة وبلاط وأدب.

هذه الطفرة تعرضت لانتكاسة مع تدهور الخلافة العباسية وتراجع هيبتها. وهنت السلطة المركزية فى عاصمة الخلافة، وتطلعت إمارة ودويلات للاستقلال عنها، وبزغت نزعات استقلالية كانت أولى دعاواها، العودة إلى الفارسية الدَّرية - لغة البلاط - تأكيداً للهوية القومية.

وهكذا وازى الاستقلال الأدبى الاستقلال السياسى، وتحوَّل كثير من شعراء الفرس إلى النظم بلغتهم، بعدما نظموا بلغة الخلافة.

ويعترف نقاد الفارسية وشعراؤها بمكانة الشعراء العرب وتأثيرهم عليهم، ويقر «رودكى» المتوفى سنة ٣٢٩ هـ - ٩٤٠ م، وهو موطد أركان الشعر الفارسى بتأثره بشعراء عرب كثيرين، سواء فى الصور والأخيلة أو المفردات أو حتى فى القوافى والأوزان، والمعروف أن علم العروض الفارسى اقتبس من علم العروض العربى وإن اختلف استخدام التفاعيل بسبب انتماء الفارسية إلى أسرة اللغات الهندوأوروبية وانتماء العربية إلى الأسرة السامية.

بدأ الأدب الفارسى - الذى انطلق منذ القرن الثالث للهجرة إذن إسلاميا، وما كان منه قبل الإسلام، لا يتجاوز الأناشيد والألحان التى تنتمى إلى الغناء الشعبى بأكثر مما تنتمى للأدب. وساهمت اللغة العربية فى توسيع رقعة الفارسية وأدخلت مئات المفردات فى نسيجها، بعضها يرتبط بالدين مثل: آية، أذان، ثواب، عقاب، حرام، حلال، سجود، ركوع، محراب، مسجد، مسلم، مؤمن، وبعضها يرتبط بالحكم والحكومة مثل: إمام، أمير، جباية، سلطان، حاكم، طاعة، طغيان، عصيان، قتل، قهر، كاتب، محتسب، وزير، وبعضها مما له صلة بالاستخدامات الآتية مثل: أيام، حرب، حياة، موت، خير، شر، سمح، سهل، صبح، صعب، قليل، كثير..إلخ.

وفيما يتصل بالبناء الفنى، قلد النثر الفارسى أساليب النثر العربى القديم، معتمداً السجع وأشكال البديع السائدة آنذاك، أما شعراء الفرس، فقد قلَّد كثير منهم شعراء العرب، بل إن بعضهم نقل عنهم دون مواربة، وكان هؤلاء الشعراء يتفاخرون فيما بينهم بمدى معرفتهم بالشعراء العرب.



وبتأثير الحياة الإسلامية غلب الطابع الدينى على الشعر الفارسى فى بداياته، وتحول الأدب الإيرانى عموماً، إلى أدب دينى عقائدى طارحا قضايا من نوع: فناء الإنسان ومجاهدة النفس واجتناب المعاصى والزهد والتصوف، واشتد هذا الاتجاه مع احتدام الجدل بين السنة والشيعة فى أوائل العهد الصفوى، لتصبح أغراض الأدب الفارسى دينية خالصة، واشتهرت فى هذا الإطار أعمال محتشمى كاشانى وهى مراث خاصة بشهداء كربلاء.

وبرغم ما يمكن أن يقال عن محدودية ذلك التوجه، فإن الدارسين يثمنون هذا الدور الذى انتشل الأدب من الابتذال والتمسح عند أعتاب الأمراء، بعدما اتجه الشعراء إلى كتابة الملاحم الدينية والعقائدية ووصف غزوات الرسول ومعارك على بن أبى طالب.

ويشير بعض الدارسين إلى لون أدبى جديد تمخضت عنه هذه المرحلة يسمى «التعازى»، وفيه يقرأ النص بترديد الأصوات، وهو عادة نص يخص حادثة كربلاء وقد انتشر أكثر فى العهد القاجارى.

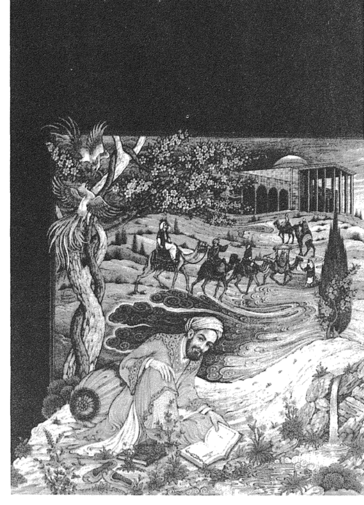
حياة نابغة

يشير سعدى ربما أكثر من أى شاعر فارسى آخر، إلى التمازج بين الأدبين العربى والفارسى، فقد أبدع بالعربية كما بالفارسية، وحاكى نماذج من الشعر والنثر العربيين، واحتشدت قصائده ومنثوراته باستشهادات من القرآن الكريم والحديث النبوى، فضلا عن أن حياته مثَّلت عملياً جسور هذا التواصل، فقد قضى أكثر من نصفها يجوب أرض الله الواسعة، وكان للبلدان العربية، خصوصاً الشام ومكة والمدينة والعراق ومصر، نصيب من هذا التجوال.

الاسم الذى طالعناه على ضريحه هو: أبو عبدالله مشرف بن مصلح السعدى. أما الاسم الحقيقى لشاعرنا فليس معروفاً على وجه اليقين، فقد ذكر نفر من الدارسين أن اسمه عبدالله، وقال آخرون أنه مشرف، ورجح فريق ثالث أنه مصلح، أما تسميته بسعدى فتتراوح بدورها بين ثلاثة احتمالات: إما نسبة إلى جده سعد بن زنكى أو حفيد ابن زنكى سعد بن أبى بكر، أو إلى الصحابى الجليل سعد بن عبادة.

وكما اختلف الدارسون فى اسمه، اختلفوا حول تاريخ ميلاده، فهناك من أرخ لميلاده بالعام ٥٧١ هـ، وهناك من أرخ له بالعام ٦١٥ هـ، والفارق كما نرى يقترب من نصف قرن، أما وفاته فإن التباين حولها يدور حول أعوام أربعة، مابين ٦٩٠ هـ و٦٩٤ هـ، وهو ما يعنى أن شاعرنا عمَّر مديداً ما بين تسعين إلى مائة وعشرين عاماً.

نشأ سعدى فى بيت علم، كان أبوه الذى توفى عنه طفلاً، يحفظه القرآن ويعلمه قواعد اللغة العربية وآدابها، وحين توفى تولاه جده



لأمه، وأرسله إلى بغداد ليلتحق بالمدرسة النظامية التى كانت تعد آنذاك جامعة كبرى، ومنها تخرج دعاة وقضاة وخطباء وفقهاء، وبين من درس سعدى على أيديهم المتصوف الكبير «السهروردى» الذى توفى فى ٦٣٢ هـ.

كانت الدراسة بالمدرسة النظامية، التى تنسب إلى نظام الملك الطوسى وزير دولة السلاجقة وكان له شغف ببناء المدارس، تشمل التفسير والحديث والجدل والوعظ واللغة العربية وآدابها والطب والفلسفة، وكانت المدارس تفتح أبوابها لطلاب مراحلها الابتدائية فإذا ما تجاوزوها، تعقد امتحانا للراغبين فى مواصلة الدراسة ولا تقبل سوى المتفوقين الذين تتحمل الدولة الإنفاق عليهم، وقيل إن نظام الملك أوقف عليها أسواقا وضياعا ومخازن وحوانيت. وكان حجة الإسلام الإمام أبى حامد الغزالى، واحدا ممن درسوا فيها، ثم اختير أستاذاً بها فى عام ٤٨٤ هـ. كى يذود عن مذهب أهل السنة فى مواجهة الشيعة الإسماعيلية الذين استفحل أمرهم آنذاك، وكان سفره الكبير إحياء علوم الدين من المواد الدراسية المقررة بالمدرسة.

وقد ترك الغزالى أثره فى الدارسين، وبين هؤلاء سعدى الذى اقتفى سيرة حياة أستاذه، فعاش الشطر الأول من حياته واعظا ناصحاً لكل طالب مشورة. ثم قضى شطرها الثانى فى رحلات بين بلدان العالم الإسلامى ثم عاد إلى شيراز واعتزل الناس بزاوية فيها، وبعد فترة من اعتكافه خرج إلى مريديه يواصل رسالته فى الوعظ والإرشاد.

تنقل سعدى بين مدارس بغداد رغبة فى مزيد من العلم، والتحق بالمدرسة المستنصرية وكانت حديثة التأسيس، وقد جرى عرفها على أن تقبل ٢٤٨ طالباً فقط موزعين بالتساوى على مذاهب السنة الأربعة. وحين اكتسح المغول بغداد وعاثوا فيها تدميرا وحرقا، غادرها سعدى إلى أصفهان ومنها إلى شيراز، وكتب مرثية شهيرة يقول فيها:

حبست بجفنى المدامع لا تجرى
فلما طغى الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها
تمنيت لو كانت تمر على قبرى

ما كاد سعدى يستقر فى شيراز حتى غادرها، بعد ما دبت الفتن بين الدويلات الفارسية، ليبدأ رحلة جاب فيها بلدانا عديدة من الهند إلى الشام والحجاز ومصر والمغرب واليمن والحبشة، وقد أطال سعدى المقام فى دمشق حيث اعتلى منابر مساجدها وخطب فى جامعاتها، وأُسر فى طرابلس، وقيل عن سبب أسره، أنه حين ملَّ المقام فى دمشق اتجه صوب صحراء قريبة من بيت المقدس واعتزل فيها متفرغا للعبادة، عازفا عن مخالطة الناس، فوقع أسيراً فى أيدى الفرنجة، وقد افتداه أحد أعيان دمشق وزوّجه ابنته وسافرا معاً إلى حلب، وسرعان ما فشل هذا الزواج لسوء معاملة الزوجة له، فغادر الشام إلى المغرب ثم مصر وأخيراً إلى تركيا، وحين عاد إلى شيراز، كان شيخاً جاوز السبعين، وعندها، بدأ يهذّب مدوناته، فأتم «بوستان» فى عام ٦٥٥ هـ. وبعدها بعام أتم «كلستان»، وكلاهما درتان تجلى فيهما نبوغ سعدى وموهبته الأدبية الساطعة.

قسم سعدى «الكلستان» إلى ثمانية أبواب على غرار أبواب الجنة هى: فى سيرة الملوك، فى أخلاق الدراويش، فى القناعة، فى فوائد الصمت، فى العشق والشباب، فى الضعف والشيخوخة، فى تأثير التربية، فى آداب الصحبة. وتغلب على «الكلستان» رؤية إصلاحية اجتماعية، وتتضمن قصصاً أخلاقية تنطوى على حكم ونصائح، ويمتزج فيها الجد بالهزل، ويحاكى فيها سعدى مقامات الحريرى وبديع الزمان الهمذانى، دون أن يقع فى فخ تقليدهما.

يقول سعدى فى ختام «الكلستان»:

«إن الغالب من كلام سعدى مطرب فكه، إلا أن ضيقى الأفق وقصيرى النظر يرون فيه مضيعة للوقت دون جدوى، وإتلافاً للعقل عبثاً، ولكن وفق رأى ذوى البصائر المستنيرة، فليس يخاف أنه نظم درر المواعظ الشافية فى عقد العبارة، ومزج دواء النصيحة المر بشهد الظرافة كى لا يحرم طبع أولئك الملول من سعادة الرضا والقبول».

وبشكل عام، فقد استفاد سعدى من أسفاره ومعرفته بآداب أمم شتى وتبحره فى التراث الإسلامى وعلوم القرآن والحديث، فى صياغة فلسفة خاصة عبر عنها فى أدبه، ولخصها هو فى عبارة موجزة: «إن بناء الإنسان على الأرض هو الخطوة التى يجب أن تتم قبل أن يبدأ علاقته بالسماء».



أما كتاب «بوستان» الذى ترجمه الدكتور أمين بدوى فى عنوان: «أريج البستان» فينتمى كله إلى نوع فارسى من الشعر يعرف بـ «مثنوى»، ويتضمن عشرة أبواب: فى العدل والتدبير والرأى، فى الإحسان، فى العشق، فى التواضع، فى الرضا، فى القناعة، فى التربية، فى الشكر على العافية، فى التوبة وطريق الصواب، فى المناجاة.

وينقل الدكتور بدوى عن البروفيسور الإيرانى محمد على فروغى فى مقدمته لتحقيق «بوستان» قوله: لا يوجد فى تاريخ الأدب الإيرانى ما يعادل كتابى البوستان والكلستان سوى «شاهنامة» الفردوس و «مثنوى» جلال الدين الرومى.

ويضيف الدكتور بدوى إلى شهادة فروغى، أن بوستان وكلستان هما أيسر هذه الكتب تناولاً وأكثرها ذيوعا وشهرة.

وقد ترك سعدى ديواناً ضخماً يعرف بالكليات جمع بين دفتيه كل آثاره، ويضم ٦ رسائل نثرية وقصائد عربية وفارسية وغزليات وأشعارا تسمى الطيبات والخبيثات والبدائع والخواتيم، ونوعاً من الشعر يسمى «الملمعات» يتكون من أبيات وشطرات فارسية تتخللها أبيات وشطرات عربية.

يقول الدكتور أمين بدوى عن سعدى: جمع سعدى فى الأدب بين الملك والنبوة، فهو ملك الكلام وأفصح المتكلمين ونبى الغزل.

وقد اختلف النقاد حول القيمة الحقيقية لشعر سعدى بالعربية، فقد رآه بعضهم ركيكاً مفككاً، وبينما رآه آخرون يضاهى أعظم شعراء العربية، أما الدكتور إحسان عباس فيرجح ـ كما تشير إلى ذلك الدكتورة أمل إبراهيم فى كتابها عن شعر سعدى ـ أن يكون أكثر ما كتبه سعدى بالعربية قد ضاع، لأن ما تبقى منه لا يتناسب أبداً مع سنوات تجواله فى حواضر عربية عدة، وإتقانه للغة العربية ودرايته بأسرار بلاغتها وكأنه عربى الأصل والمنشأ.

ويلاحظ الدارسون أن سعدى استهل كثيراً من قصائده بالغزل والنسيب وبكاء الأطلال جريا على عادة الشعراء العرب القدامى، واستخدم فى عديد من قصائده تعبيرات وتصاوير وأساطير وحكايات وثيقة الصلة بالثقافة العربية، وهو ما فعله شعراء إيرانيون كثيرون، استفادوا من التمازج بين الثقافتين العربية والإيرانية وقدرتهم على النظم بالعربية والفارسية، خصوصاً فى العصر العباسى الذى نشطت فيه حركة الترجمة.

أما أكثر ما أثير حول سعدى، ذلك الشيخ المتصوف صاحب الرسالة الإصلاحية الأخلاقية، فهو ما انطوت عليه غزلياته، فقد رأى بعض النقاد أن عشق سعدى هو عشق صوفى بحت، فيما رأى آخرون أن غزلياته هى فى العشق والغرام بمعانيها المجردة، وبين الرأيين اجتهاد ثالث، تشير إليه الدكتورة أمل إبراهيم فى كتابها وهو رأى للمستشرق براون يقول: إن سعدى يمثل بوجه عام الشخصية المتزنة التى تعنى بالدين والدنيا فى وقت واحد (....) فقد كان ينحو نحو الحكمة الدنيوية دون التصوفية أو الدينية.

وقد نسخت غزليات سعدى فى حياته، وتضمنتها دواوين حملت أسماء متعددة: الغزليات القديمة، الطيبات، البدائع، الخواتيم، الملحقات، والأخيرة عثر عليها متناثرة بين طيات الكتب.

ولعل إشارة إلى بعض هذه الغزليات ترجح لدينا أياً من هذه الآراء... ■

كتاب الزاوية

من أشعار سعدى الشيرازى

لن يرى

إنَّ مَنْ تزرع شوكاً كفُّهُ
ليس يجنى فى غدٍ منه الرُّطَبْ
والذى يغزل صوفاً لن يَرى
غزله يوماً حريراً أو ذهبْ

ضحايا شهوة

لم نسطِّرْ جملة عن ذنبنا
لا ولا بالسيِّئ أتبعنا الحَسَنْ
فإذا نحن ضحايا شهوة
سوف نبكى حسرةً طول الزمنْ

شغلنا بالمحال

آهِ واحزنى على عمرٍ مضى
وكما كنّا بقينا فى ضلالْ
بَيْدَ مَنْ قد عرفوا ما انشغلوا
مثلما نحن شُغلنا بالمحالْ
فهمو كانوا رجالاً صدقوا
حينما كنّا كأشباه الرجالْ
هذَّب الإيمان منهم أنفساً
فمضوا، ما عشقوا غير الكمالْ
لطَّف الدين لهم شهواتهمْ
وغدتْ شهواتنا فى جمع مالْ
لم يروْا فى عيشهم منْ قلق
واشتَهيْنا ساعةً راحةَ بالْ

الصبا يمضى

الصَّبا يمضى ويأتى هَرَمَ
مثلما يمضى الدجى بعد النهارْ
كم دجىً ولّى وكم ولّى ضُحىً
دون أنْ نظفر منها باعتبارْ!

قيود

كم تعبنا وتخلّفْنا ولمْ
نفعل الفعل الذى يعطى الخلودْ!
يالَخسرانِ ليالٍ قد مضتْ
قيَّدتْنا بهوى الدنيا القيودْ!

عروض موجزة

كتب عربية

الكتابة والوجود

عبد القادر الشاوى

الدار البيضاء - بيروت: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠، ١٩١ صفحة، ١٢ جنيها



يفترض المؤلف أن جنس السيرة الذاتية لم يحظ فى إطار البحث الجامعى بالمغرب بالاهتمام نفسه الذى أولاه الباحثون لغيره من الأجناس كالرواية والشعر، وهو هنا يحاول أن يسد هذا النقص عبر قسمين أساسيين: الأول عنوانه السيرة الذاتية للفقيه والثانى عن السيرة الذاتية للمثقف العصرى. وفى القسم الأول يدرس أربعة نصوص يمتد تاريخ إنتاجها بين عامى ١٨٦٠ و ١٩٤٢ لأبى الربيع سليمان الحوات والتهامى الوزانى ومحمد المختار السوسى ومحمد الجزولى، وفى القسم الثانى أربعة نصوص أخرى تمتد من عام ١٩٥٧ وحتى ١٩٩٣ لأربعة من الكتاب المعاصرين هم عبد المجيد بن جلون وعبدالكريم غلاب ومحمد شكرى وليلى أبوزيد. والفرضية العامة التى ينتهى المؤلف إليها وربما بدأ بها، هى أن تعريف السيرة الذاتية ليس أمرًا متفقا عليه، ولذا لجأ إلى نصوص قديمة نسبيًا وأخرى أحدث، كى يحقق الانسجام المفترض لبحثه بين سيرة الفقيه وسيرة المثقف العصرى، ولم تأت هذه السيرة دائمًا واضحة بوصفها سيرة، وإنما تضافرت فى بعض الأحيان ضمن إطار أدبى أو روائى، خصوصًا مع التراكم المهنى الذى حققه السرد المغربى الحديث.

ويؤكد المؤلف - إجمالا - أن كتابة السيرة الذاتية تسعى إلى «بناء هوية نصية موازية»، وهى هوية تتبلور عبر عملية الارتحال فى النص زمنيا ذهابًا وإيابًا، باستخدام ضمير المتكلم وجعل الذات فى بؤرة اهتمام القارئ، والإعلان مبكرًا عن الهدف من عملية الكتابة، وهذه المفاهيم تنطبق أكثر على نصوص القسم الأول.

أما القسم الثانى، ومع الأخذ فى الاعتبار التراكم المعرفى والثقافى المغربى عبر سنوات طوال، فإن نصوصه استفادت من التجديد الحاصل فى مجال السرد وطرحت أسئلة هى من صميم التحولات التى مرت بها التجربة المغربية فى مختلف ميادين العمل والحياة، وأغلبها ينبع من الطفولة أو يلقى أضواء على تجارب بعينها كتجربة السجن مثلاً، أى أنها لا تلقى بالاً بأن يكون السرد متتابعًا أو منطقيًا، بقدر ما تعنى بفنيته التى اكتسبها بالضرورة المعاصرون من مثقفى وأدباء المغرب.

□□□

حديث النهايات

على حرب

الدار البيضاء، بيروت، المركز الثقافى العربى ٢٠٠٠، ٢٠٣ صفحات، ٢٢ جنيها



لم يحظ مفهوم بقدر من الشيوع والالتباس والتأرجح بين الرفض المطلق والقبول الحذر فى السنوات الأخيرة، كما حظى مفهوم العولمة.

المؤلف هنا يدلى بدلوه فى الموضوع، انطلاقاً من فرضية أساسية ترى أن الوجود الإنسانى هو وجود صراعى وإن اختلفت أشكاله من حقبة إلى أخرى والتعاطى مع صراعات حقبة العولمة يختلف بالتأكيد عما سبقها، والمؤلف يؤكد على أن إدارة العالم مع هذا التطور الجديد تتجنب كثيراً الانفجارات الدموية، وتغلِّب عليها منطق التنافس المنتج، فهل يكون بمقدور البشرية أن تستبدل بالتصادم التواصل بما يجنبها تدمير العمران وتخريب الأرض، هذا هو التحدى الكبير كما يراه المؤلف الذى يستبعد من معادلة التفاهم مع آليات العولمة تياراً يخضع تجلياتها إلى مفاهيم وأحكام فقهية وضعها مجتهدون منذ عشرات العقود، تيار غير قادر على أنسنة رؤيته للكون والعالم، يوجه المؤلف فى موضع آخر نقداً للمثقفين الذين يدعون مقاومة واقع تعرض فيه كل القيم والثوابت للبيع، يرفضون تسليع الثقافة وعصر السوق فى وقت يعملون فيه بكامل طاقاتهم لتسويق بضاعتهم، وهم يدعون أنهم أصحاب رسالة فيما هم فى الواقع أصحاب مهنة.. «هم يقدمون أنفسهم بوصفهم دعاة تحرير وتنوير، فى حين هم طلاب سلطة وأهل تمايز واصطفاء».

يعطى المؤلف أهمية أكبر للعقل التواصلى كما يركز على مقولة: نعمل ونفكر معاً، وهى مقولة باتت ممكنة التطبيق على نطاق واسع مع تعدد الوسائط التى ابتكرها البشر، والتى أتاحت إمكانات غير محدودة للتبادل بين الناس والمجتمعات.

أما الإشكالية الكبرى التى تتواجه فى ندية وصراع دائم مع العولمة فهى الهوية، التى يبدو لكثيرين أن العولمة عدوها الأول. وهنا يدعو المؤلف إلى هوية مولدة، تبدأ بالاسترجاع والاستحضار، لا من أجل الانغلاق على الذات، بل من أجل إعادة البناء والتشكيل.

□□□

الوصفة العجيبة (للأطفال)

أمانى العشماوى

رسوم: بهجت عثمان

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠، ٧٠ صفحة، ٢٠ جنيهاً



ثمة قاسم مشترك بين حكايات الشعوب وأساطيرها، حتى لتبدو الجدة التى حكت - أحياناً - هى أم البشر جميعاً. والأمر لا يقف عند حدود القيمة التى تقدمها الحكاية، والتى غالباً ما تحظى بقبول عام، لكونها تجسد انتصار الخير على الشر، أو قدرة الضعيف الطيب على مقاومة القوى الشرير، أو غلبة الذكاء والحيلة فى مواجهة السطوة الغاشمة... الخ.

فى هذا الكتاب يمكننا بسهولة أن نرصد هذا الملمح، وأن نكتشف حساً فكاهياً لدى شعوب تشتهر بجديتها ودأبها على العمل المتواصل، نقرأ فى قصة «أناتول» عن ذلك الفأر الفرنسى الذى اعتاد التسلل إلى مصنع للجبن، حيث يلتهم قطعاً منها ويترك ملاحظاته التى كانت توليها إدارة المصنع أهمية كبيرة دون أن تعرف أن كاتبها فأر، ويوما ما وهو يؤدى واجبه المعتاد، وجد قطاً أمام باب المصنع، فارتبك وهمَّ بالهرب، لكنه أصر على مواصلة عمله للنهاية، وكتب ملاحظاته، إلا أنها جاءت مرتبكة بسبب فزعه، فكتب ملاحظات غريبة من نوع: اخلطها برجول الضفادع وأضف مزيدا من البصل، وأضف نكهة الرنجة، ومزيدا من قشر الموز والشيكولاتة .. الخ، ولم تتردد إدارة المصنع فى الاستجابة لملاحظات الخبير الذى جربت وصفاته من قبل، وكان مدهشا أن بعض هذه الملاحظات أتى بثمرة جيدة، وأقبل الجمهور على شراء هذه الأنواع الجديدة من الجبن ومازالت المصانع الفرنسية تنتجها إلى اليوم.

وفى قصة الوصفة العجيبة، تحدثنا المؤلفة عن «أصلان» ذلك الولد البدين الذى كره بدانته فلجأ إلى صديق له يهتم أبوه بالكيمياء والوصفات الطبية، وتمكن من الحصول على وصفة تجعله خفيفًا وقد جعلته الوصفة كذلك فعلاً، لكنها لم تخفف بدانته وكانت النتيجة أنه بقى دائما معلقا فى الهواء لا يستقر على الأرض إلا بمزيد من أحزمة الحديد الثقيلة.

كره أصلان هذا الوضع لكن حريقا وقع فى بيت جارتهم وأوشكت ابنتها الصغيرة أن تلقى حتفها بسببه، جعل أصلان يحمد الله على حالته تلك، إذ تمكن من الطيران إلى داخل شقة جارتهم وأنقذ الطفلة وعاد بها سليمة، هتف الناس له وهللوا وقال أصلان لهم: رب ضارة نافعة.

ومن عالم الحيوان تروى لنا المؤلفة قصة ذلك الفأر الذى تصور أنه سيد الغابة، وقد كذب على نفسه حتى صدقها. وما أن رأى الفيل حتى جلس منفوشا يتحداه، نظر إليه الفيل بسخرية وأطلق ماء من خرطومه أطاح بالفأر بعيداً، لم يدرك الفأر ما جرى بعدما راح فى غيبوبة، ولما أفاق منها أخذ يحدث رفاقه عن فيضان جارف وسيل غامر ألم بالغابة ولم ينس أن يذكرهم بأن الفيضان جرف الفيل، وأن ذلك من حسن حظه بدلاً من أن أحطم عظامه.

لم يكن الفأر قد رأى الفيل من قبل ولم يره بعد ذلك، فصدق قصته وبالغ فى كذبته التى تناقلتها الصراصير فى أنحاء الغابة.

أكثر من ١٥ قصة جميلة مشوقة، تقدم المعلومة والحكاية فى قالب ساخر تزينها رسوم الفنان الكبير بهجت عثمان.

□□□

رشدى سعيد.. رحلة عمر

رشدى سعيد

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٠، ٢١٧ صفحة، ١٠ جنيهات



إحساسان متناقضان يصاحبان قارىء سيرة الدكتور رشدى سعيد التى صدرت أخيرًا فى مناسبة بلوغ صاحبها الثمانين، وهما ذاتهما - الإحساسان - يسمان مسيرته ويعبر عنهما بصراحة لا تحتاج معها أن تجهد حواسك كى تقرأ ما بين السطور: الرضا والسخط. الرضا عن جهوده العلمية ومشواره الأكاديمى والعملى وإنجازه الذى تحقق فى هذه الحقول، سواء فى كلية العلوم أو مؤسسة التعدين أو مركز الأبحاث الجيولوجية

عـــــــروض مـــــوجـــزة

وما ارتبط بها جميعًا من مشروعات كان أشهرها وأكثرها إثارة للجدل مشروع فوسفات أبو طرطور. والسخط من أن ذلك كله لم يقدره أحد داخل مصر، وإن وجد صاحبه التقدير خارجها في كل محفل. السخط من أحوال تبدلت أساءت إلى حال المجتمع المصري وتدهورت معها مؤسساته التعليمية والعلمية واختلطت أولوياته بما هدد إمكانات التنمية فيه وأصابها في مقتل، ثم السخط الذي يقارب حد المرارة، من مؤامرات حيكت ضده في كل موقع، ولم تجد سوى «قبطيته» كي تبرر أكاذيبها، ماجعل صاحبها يشعر أنه «الآخر» في وطنه، وهو إحساس لازمه منذ عودته من بعثته العلمية في الولايات المتحدة عام ١٩٥١، وتفاقم في سنوات السبعينيات وحتى اليوم، مما دفع صاحبه إلى أن يهجر الحياة العامة ويغادر مصر كلها ليقيم في أمريكا منذ عشرين عامًا.

ينتمي الدكتور رشدي سعيد إلى عائلة قبطية متوسطة تعود أصولها إلى محافظة أسيوط، التي غادرتها إلى القاهرة في سبعينيات القرن التاسع عشر حين أضطر الجد إلى أن «يسف» التراب أمام أعيان البلد كما حكم بذلك «الملتزم»، فقد كان الجد يعمل «قياسًا» للأرض، وهي مهنة احتكرها الأقباط.

وعبر محطات ثلاث، تشكلت مسيرة الدكتور رشدي سعيد وأثارت اهتمامه بالشأن العام:

- ثورة ١٩١٩ التي تربى في أحضان مبادئها وما تمخضت عنه من مناخ ليبرالي.
- وثورة ١٩٥٢ وما أحدثته من تغييرات ديموجرافية واجتماعية وسياسية طالت كل أشكال الحياة.
- ثم صعود اليمين الديني ودوره في الأجواء التي سادت شكل الحياة في مصر.

والمحطتان الأوليان يورد المؤلف تفاصيل كثيرة بشأنهما في سيرته، لكن القارئ سيلحظ فورًا أن المحطة الأخيرة، كانت هي الأكثر تأثيرًا على الدكتور رشدي سعيد، فقد تلاحظ له كيف أن الأقباط يبعدون عن المواقع القيادية أو مراكز الإدارة وصنع القرار.

ثم يحكي الدكتور رشدي سعيد عن كثير من المؤامرات التي دبرت له في الجامعة وفي مؤسسة التعدين وغيرها، وعن الأجواء المسمومة التي أشاعها التيار اليميني بحسب تعبيره، ويقيم أحداثًا سياسية جرت في عهدي عبد الناصر والسادات، وسنلاحظ، رغم انتقاداته لإجراءات في عهد عبد الناصر، تقديرًا لدور هذا الزعيم ووعيه الذي جاوز وعي زملائه من أعضاء مجلس قيادة الثورة.

وهذا التقدير لا نرى بعضه حين يقيم عهد السادات الذي ارتمى - حسب قوله - في حضن الأمريكان وقاد مصر إلى تسوية هزيلة عقب نصر أكتوبر العظيم، كان ثمنها الباهظ تهميش الدور المصري لحساب نظام شرق أوسطي يكون لإسرائيل مكان آمن ومتين فيه، فضلاً عن استشراء الفساد وعمليات النهب التي أهدرت عشرات المليارات.

□□□

الفنون القديمة في بلاد الرافدين

حسن الباشا

القاهرة، الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٠، ٢٦٤ صفحة، ٢٠ جنيها



تنافس الفنون القديمة في بلاد الرافدين من حيث القدم والأصالة، الطرز الفنية في وادي النيل. وتتميز فنون الرافدين بالوقار والفخامة وقواعدها الثابتة شبه المقدسة، وقد عكست بذلك أثر المجتمع وتأثيره، واشتمل الطراز الفني العراقي على طرز فرعية أخرى أهمها: الطراز السومري والأكادي والبابلي والآشوري والكلداني أوالبابلي الجديد، وقد تبادلت هذه الطرز التأثيرات مع الفنون القديمة: مصرية وفينيقية وآسيوية، وترك لنا الفن العراقي واحدة من عجائب الدنيا السبع هي حدائق بابل المعلقة.

ويبدأ تاريخ العراق المكتوب بالسومريين الذين سكنوا جنوبي العراق في الألف الرابع قبل الميلاد، وإن كانت حضارة العراق ترجع إلى آلاف السنين قبل هذا التاريخ، وقد بلغ السومريون درجة متقدمة من الحضارة، تركوا لنا بعض آثارها في صورة نقوش ونصوص كشفت كثيراً من جوانب حياتهم، واستطاع «الأكاديون» أن يسيطروا على بلاد السومريين في حوالي ٢٧٢٠ ق.م ثم لم تلبث الدولة السومرية الأكادية أن تصدعت بدورها فخضعت لسيطرة الحموريين في بابل، وفرض «حمورابي» في سنة ٢١٠٠ ق.م سيطرته على بلاد العراق وأنشأ دولة موحدة شهدت العراق في ظلها ازدهاراً عظيماً وتستمر الصراعات إلى أن نصل إلى الدولة الآشورية التي تركت لنا مجموعة هائلة من الألواح تشمل موضوعات مختلفة منها أسطورة الخلق وجلجامش ومئات النصوص الأخرى في العلوم المختلفة لتليها الدولة البابلية الحديثة.

ويلاحظ المؤلف أن العراقيين اهتموا بعمارة مدنهم وتخطيطها وتحصينها وزودوها بالأبراج المدرجة، وبعض هذه المدن ذكر في التوراة مثل كالح (نمرود الحديثة) وكذلك مدينة سرجون ومدينة بابل التي أعيد بناؤها في عصر الملك نبوخذ نصر الثاني سنة ٦٠٤ ق.م وهي تحتشد بالبوابات والنماذج المعمارية الرائعة.

وبالنسبة لفنون النحت، يؤكد المؤلف أن الحفائر كشفت عن إنتاج ضخم منها يرجع إلى العصر السومري وما قبله، وقد عبرت هذه المنحوتات عن حياة ذلك العصر وفئاته الاجتماعية.

أما التصوير والزخرفة فقد تزينت بها القصور البابلية، وقد عرف البابليون الألوان واستخدموها، كما برعوا في الفسيفساء، وكانت الأواني الخزفية والفخارية والحجرية مجالاً خصباً لهذه الفنون.

□□□

سيرة حياة ت.س. إليوت

بيتر أكرويد

ترجمة: باقر جاسم وخالدة حامد

أبو ظبي: منشورات المجمع الثقافي، ٢٠٠٠، ٤٨٠ صفحة، ٢٥ جنيها



ولد ت.س إليوت في عام ١٨٨٨ في سانت لويس، ميزوري، وقد هاجرت عائلته من انجلترا إلى الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر القرن السابع عشر، وحققت وجوداً متميزاً منذ هجرتها، وبقيت محكومة بتقاليد اجتماعية ودينية وأسرية راسخة، وقد عاد إليوت مرة أخرى إلى انجلترا في العقد الأول من القرن العشرين، وعاصر تحولات مهمة في أوروبا في تلك الفترة، وشهد فعل الحربين العالميتين بها، وعاش هو نفسه في حالة من الكفاف وضيق العيش دفعته إلى العمل في أكثر من وظيفة في وقت واحد، وبرغم ذلك تمكن من تحقيق مكانة أدبية رفيعة ظل يتبوأها بإنتاجه الشعري والنثري والنقدي والاجتماعي مستفيداً من الموروث الإبداعي الإنساني وساعياً إلى الحداثة في أبهى صورها، مما مكنه من الحصول على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٤٨، واستمر إبداع إليوت وتأثيره حتى وفاته في عام ١٩٦٥.

درس إليوت باجتهاد في جامعة هارفارد، وتأثر بقوة بالفيلسوف وعالم الرياضيات برتراند راسل الذي كان يحرص على حلقاته الدراسية، وانغمس في شبابه في نقاشات ومساجلات مع نفر من مبدعي زمانه من أمثال إزرا باوند وفرجينيا وولف، وزار عشرات المدن في أوروبا باحثا عن المتعة والمعرفة، وبدأت أعماله التي كان ينشرها على حذر بين رفاقه في هارفارد، تأخذ طريقها إلى الذيوع بين الناس، ويمثل عام ١٩١٥ منعطفاً مهمًا في مسيرة إليوت، فهو من ناحية يمثل بداية مستقبله كشاعر، ومن ناحية ثانية شهد زواجه الأول من امرأة شابة تسمى فيفيان هي وود، وهو زواج تعس، فقد كانت فيفيان عصبية المزاج، بفعل أمراض لازمتها منذ الطفولة وأصابتها في أحيان كثيرة بتشنجات وموجات صرع، وكانت وفاة والده في عام ١٩١٩، محنة أخرى ضاعفت من آلامه التي لم يتخلص منها جزئيا إلا مع نشر رائعته «الأرض اليباب» على نطاق جماهيري بدءاً من العام ١٩٢٢، وقد مثلت آنذاك صدمة لمعاصريه وتفاوتت ردود الفعل إزاءها إلى درجة أن بعضهم رأى فيها كلاسيكية تعود به عشرين عاما إلى الوراء، فيما رآها آخرون وحياً بالحسية الحديثة أو «عملية غسيل دماغ كلية» لكن الأمور لم تسر على النحو الذي أراده، فقد واجه ظروفا بالغة القسوة دفعته إلى العمل مصرفيا لأكثر من سبع سنوات، وفي الوقت نفسه تأزمت الحالة الصحية لفيفيان التي كان عليها أن تتردد على عدة مصحات نفسية في أوروبا.

□□□

الأهرامات المصرية أسطورة البناء والواقع

خالد عزب. أيمن منصور

القاهرة: دار عين، ٢٠٠٠، ٣٢٦ صفحة، ٣٥ جنيها



ما زال بناء الأهرامات لغزًا تحار أمامه عقول العلماء والباحثين، وما انتهى إليه الدارسون يؤكد أن وراء هذه الأبنية الشامخة عقلية رياضية وهندسية فذة، فضلاً عما تشير إليه من قوة معنوية وروحية هائلة، أعانت على إنجاز هرم خوفو مثلاً فيما يزيد على العشرين عامًا، والاتجاه إلى بناء أهرامات، يمثل تطويرًا للمقابر الملكية، إذ كان المصري القديم في مصر العليا يدفن موتاه في أراض خاصة بالدفن خارج أماكن السكن، فيما كان متوفى مصر السفلى يدفن تحت مسكنه، كي يواصل حياته مع أهله، وتطور الأمر إلى مصطبة حتى بداية الأسرة الثالثة التي بدأت بحكم «زوسر» صاحب الهرم المدرج وهي أول محاولة في هذا الاتجاه، وقد قام بها مهندسه الشاب الموهوب «إيمحوتب» الذي آثر أن يبني مقبرة ملكية على شكل مصاطب تقل كل واحدة في الحجم عما تحتها، واستمر الفراعنة

عـــــــروض
مـــــوجـــــزة

على هذا النهج، وظهرت أهرامات عدة فى دهشور وسقارة، حتى إذا ما جاء خوفو خلفًا لسنفرو، كانت الصورة اكتملت، ليكون هرمه - أو مقبرته - أقصى ما وصلت إليه مجهودات وتجارب بناء الأهرامات. وفى عصر الدولة الوسطى، بدأ ملوك طيبة - العاصمة الجديدة البديلة لمنف - منحى مغايرًا لبناء مقابرهم الملكية، فهم لم يتخلوا تمامًا عن فكرة الأهرامات، وإنما بنوها بالطوب اللبن، وزودوها من الداخل بممرات معقدة، حتى تبقى مقتنيات الأهرامات، من ذهب وأحجار كريمة ومتعلقات بعيدة عن أيدى اللصوص، فإذا ما وصلنا إلى العصر الحديث، اندثرت تمامًا فكرة المقابر الهرمية، وسادت المعابد الجنائزية، لكن الهرم ظل فى ذهن المصرى القديم مرتبطًا بمقابر الملوك، حتى أن العامة من الناس، كانوا يدفنون ذويهم ويبنون فوق مقابرهم أهرامًا صغيرة من الطوب اللبن. عشرات التفاصيل يضمها الكتاب عن أهرامات مصر العديدة فى أبو رواش وأبوصير والجيزة وسقارة ودهشور ومزغونة والفيوم، أشكالها وبناتها وتنفليمها الهندسى وخصائصها المعمارية، أما أعظم بناة هذه الأهرامات، الملك خوفو، فلا ذكر له، إلا تمثال من العاج يبلغ حجمه ٥،٥ سم يوجد بالمتحف المصرى.

□□□

المسيح اليهودى ونهاية العالم
رضا هلال
القاهرة، مكتبة الشروق، ٢٠٠٠، ٢٤٠ صفحة، ١٦ جنيها



الفرضية الأساسية التى يثبتها هذا الكتاب، هى أن الانحياز الأمريكى لإسرائيل يستند إلى جذور لاهوتية وثقافية بالأساس، وليست سياسية أو استراتيجية كما يشاع، وقد سبقت المسيحية الصهيونية نظيرتها الصهيونية اليهودية إلى الوجود، ولعبت دورًا هامًا فيما آل إليه حال إسرائيل اليوم.

يؤكد المؤلف أن اليمين المسيحى فى الولايات المتحدة الأمريكية، يستأثر بنحو ٢٥٪ من القاعدة التصويتية، فيما لا يستحوذ الصوت اليهودى سوى على ٢،٥٪ من هذه القاعدة، وهو ما ينفى الادعاءات بأهمية أصوات الناخبين اليهود من ناحية، ويثبت - من ناحية ثانية - افتراض المؤلف الذى طرحناه فى البداية، والأمر يتجاوز السياسة والاستراتيجية، فالثقافة الأمريكية توصف بأنها - كما يقول المؤلف - يهو مسيحية، تقوم على التقاليد الأخلاقية والدينية لليهودية والمسيحية، أى التراث اليهودى المسيحى، وهو دعم التوافق القيمى بين أمريكا وإسرائيل، ويشير الكتاب إلى أن تدين أمريكا وتهويدها، ارتبط منذ البداية بنشأتها، فالمهاجرون الأوائل اعتبروا أمريكا هى أورشليم الجديدة، وشبهوا أنفسهم بالعبرانيين القدماء الذين فروا من ظلم فرعون، وهو فى حالتهم الملك الإنجليزى چيمس الأول، وهربوا من أرض مصر (إنجلترا) بحثًا عن أرض الميعاد الجديدة (أمريكا)، وهكذا كان على المهاجرين البروتستانت أن يطاردوا الهنود الحمر فى العالم الجديد، كما طارد العبرانيون القدماء الكنعانيين فى فلسطين.

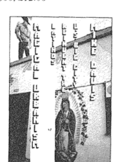
وقد عاودت المسيحية اليهودية الظهور فى فترة الإصلاح والنهضة فى أوروبا، بعد أن كانت توارت بظهور القديس بولس المؤسس الثانى للمسيحية، لكن الانطلاقة الكبرى للمسيحية اليهودية ارتبطت بحركة الإصلاح البروتستانتى فى القرن السادس عشر، وحين وصل المهاجرون إلى أمريكا، كانت أساطير الشعب المختار وأرض الميعاد ومملكة إسرائيل هى مرشدهم، كانوا يصلون باللغة العبرية ويطلقون على أبنائهم أسماء من قصص التوراة، وكان أول كتاب طبعوه فى أمريكا هو كتاب مزامير داود، وهكذا كانت المسيحية التى دخلت أمريكا منذ البداية يهودية، وصار المسيح يسوع الناصرى يهوديًا، أى أحد أنبياء اليهود العديدين، ومع حلول القرن الثامن عشر أصبح الاعتقاد بالبعث اليهودى فى فلسطين يشكل جانبًا مهمًا من اللاهوت البروتستانت الأمريكى، ومنذ أربعينيات القرن التاسع عشر، انبثقت عن المسيحية اليهودية مسيحية صهيونية، أكدت على الالتزام بإقامة إسرائيل والانحياز الدائم لها، كالتزام لاهوتى وثقافى، ثم سياسى فى نهاية المطاف، وهكذا، سبقت الصهيونية الأمريكية صهيونية هرتزل، وهو ما يفسر دعم أمريكا لقيام إسرائيل عام ١٩٤٨، ثم الانحياز الدائم لها حتى اليوم.

ويشير المؤلف إلى أن أواسط السبعينيات شهدت حركة إحياء دينى فى أمريكا، صعدت معها المسيحية السياسية والأصولية التى ارتبط صعودها بصعود المسيحية الصهيونية، وقد أكد انتصار إسرائيل فى حرب يونيو ١٩٦٧ واحتلالها القدس، هواجس اليهود وتصوراتهم عن قرب مجئ المسيح، وصار تهويد القدس هدفًا أساسيًا بوصفها المدينة التى سيحكم المسيح منها العالم عند مجيئه.

□□□

كتب أجنبية

Magical Urbanism - Latiinos Reinvent the US City
(الحضرية السحرية - اللاتينيون يعيدون اكتشاف المدينة الأمريكية)
Mike Davis
Verso, 2000, £12.00



أصبح الأمريكيون من أصل لاتينى يمثلون ظاهرة مهمة للغاية فى الانتخابات الرئاسية الأمريكية المقرر إجراؤها فى نوفمبر المقبل، ويسعى المرشحان الرئيسيان چورج بوش الابن عن الحزب الجمهورى وآل جور عن الحزب الديمقراطى لإغراء الناخبين من هذه المجموعة العرقية للتصويت لصالحها. وطبقًا للإحصاءات فإن عدد الأمريكيين من أصل لاتينى سيتجاوز عدد السود الأمريكيين مع نهاية العام الحالى، ليصبحوا أكبر أقلية تعيش فى الولايات المتحدة، ويشير مايك ديفز مؤلف الكتاب إلى أن الثقافة اللاتينية فى الولايات المتحدة ثقافة حضرية بشكل طاغ، فهى تتركز فى المدن الكبرى مثل لوس أنجلوس وميامى ونيويورك وبوسطن، ويقول أنه من بين أكبر المدن الأمريكية، فإن أعداد اللاتينيين تتفوق على أعداد السود فى ٦ مدن، وهذا التحول الديموجرافى من شأنه إعادة تشكيل المناطق الحضرية الأمريكية، لقد تدفق المهاجرون اللاتين خاصة من المكسيك والسلفادور وبورتريكو ودول أخرى إلى مدن الولايات المتحدة خلال العقدين الماضيين وهم يعرفون باسم الهيسبانك. ونتيجة لهذا التدفق، فإن السكان البيض الأمريكيين تمركزوا فى الضواحى وخرج معظم السود من مراكز المدن ليخلو الأمر إلى حد ما للهيسبانك.

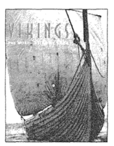
وجاء هؤلاء المهاجرون ومعهم ثقافتهم، وهى ثقافة حية وحيوية تمتد من الملابس إلى الطعام إلى السلوك والموسيقى واللغة مما غير من المظهر الثقافى للولايات المتحدة، ففى لوس أنجلوس مثلاً وكما يقول المؤلف، فإن هناك مدينة كبيرة تظهر داخل المدينة قوامها هؤلاء الهيسبانك بثقافتهم المميزة، ولذلك فإن المدينة الأمريكية فى القرن الحادى والعشرين ستكون مختلفة إلى حد كبير عن تلك المدينة فى القرن العشرين وهى ظاهرة يتعين على السياسيين وعلماء الاجتماع أخذها فى الاعتبار.

ويذكر المؤلف أن ظاهرة الهيسبانك فى الشتات أصبحت ذات تأثير كبير على الدول التى قدم منها المهاجرون، فمثلاً اختار شعب الدومينيكان رئيسهم من بين المهاجرين إلى الولايات المتحدة، وهو ليونيل فيرنانديز الذى نشأ فى نيويورك وهو يعتزم العودة للولايات المتحدة بعد انتهاء فترة رئاسته.

ولا يخلو الأمر من مشاكل وتوترات، فالتدفق الكبير لهؤلاء المهاجرين خلق مصادمات مع فئات أخرى تعيش فى المجتمع الأمريكى وتعتقد أن هؤلاء الناس سيأخذون فرصهم فى العمل والإقامة، كما أن بعض الهيسبانك متهمون بالعمل على إدخال المخدرات إلى الولايات المتحدة.

□□□

Vikings: The North Atlantic Saga
(الفايكنج: ملحمة شمال الأطلنطى)
Ed. William W. Fitzhugh and Elisabeth Ward
Smithsonian, 2000, 432pp., £21.00



لقرون عديدة نظر المؤرخون إلى قبائل الفايكنج فى شمال أوروبا على أنها كانت قبائل مدمرة استهدفت القضاء على الحضارات بعنف وقسوة مثلما كان التتار والمغول فى آسيا. فقد أثار رجال الفايكنج الرعب والإرهاب فى البحار خلال الربع الأخير من الألفية الأولى للميلاد واجتاحوا دولاً عديدة غزوا وسلبًا إلا أن بعض المؤرخين يحاولون حاليا إعادة الاعتبار للفايكنج والتركيز على النواحى الإيجابية التى ميزتهم مثل القدرة الفائقة فى الزراعة والتجديد السياسى وإقامة المؤسسات القانونية والسياسية ومهارة رجال الحكم لديهم وتحضرهم الثقافى وشبكات التجارة التى أقاموها والتى امتدت من صربيا إلى المغرب.

إن مدنًا مثل يورك فى إنجلترا ودبلن فى أيرلندا وريكيافيك عاصمة أيسلندا ومدنًا أخرى فى روسيا كانت تحت سيطرة الفايكنج، بل إن هناك من يعتقد أن رجالاً من الفايكنج هم الذين اكتشفوا أمريكا قبل ٥٠٠ عام من وصول كريستوفر كولومبس إلى هناك وطبقًا لأسطورة تعود للعصور الوسطى فإن ابنا لتاجر أيسلندى وصل إلى الشاطئ

عـــــــــروض
مـــــوجـــــزة

الأمـريكي عـام ٩٨٥ مـيـلادية وتعطي الأسطورة تفاصيل كثيرة عن الشاطئ الشرقي لما سمي بعد ذلك بأمريكا. وقد شارك في تأليف هذا الكتاب عـديد من المؤرخين والخبراء الذين تحدثوا عن شتى جوانب الحياة لدى الفايكنج، ويضم الكتاب صورًا رائعة وخرائط عن الفايكنج وتاريخهم والأرض التي عاشوا عليها.

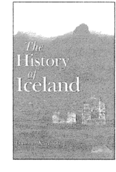
□□□

The History of Iceland

(تاريخ أيسلندا)

Gunnar Karlsson

University of Minnesota press, 2000, $19.95



هناك دول ومجتمعات لا يكاد الإنسان العادي في العالم يسمع عنها لأنها نادرًا ما تتردد أخبارها في وسائل الإعلام العالمية أو المحلية التي يتعرض لها، ومن هذه الدول أيسلندا المجتمع الأوروبي الفريد، وربما كانت آخر مرة تردد اسمها بقوة في ثمانينات القرن الماضي عندما استضافت عاصمتها ريكيافيك قمة أمريكية سوفيتية على عهد الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان والزعيم السوفيتي سابقًا ميخائيل جورباتشوف. لقد ظهرت أيسلندا في عصر قبائل الفايكنج التي اجتاحت أوروبا في نهاية الألفية الأولى من الميلاد. وهناك كتابات وآثار عن هذه الفترة الأولى من تاريخ البلاد.

ومؤلف الكتاب يعتبر من أهم مؤرخي أيسلندا وهو يقدم في كتابه تسلسلاً تاريخيًا لظهور القومية الأيسلندية، وانفصالها عن الدانمرك، وقد كان يغلب على المجتمع الأيسلندي الطابع الفلاحي الفقير إلا أن البلاد شهدت خلال القرن العشرين تطورًا كبيرًا، خاصة على الصعيد الاقتصادي جعلها تواكب النهضة الاقتصادية الأوروبية.

ولأن الظروف المناخية بالنسبة لهذه الدولة التي تقع في أقصى شمال أوروبا شديدة البرودة، فإن الظلام يكاد يكون هو سيد الموقف طيلة شهور السنة ولذلك تتزايد حالات الانتحار والاكتئاب بصورة كبيرة.

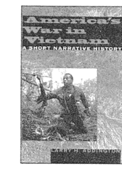
□□□

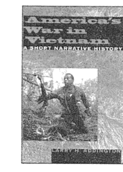
America's War in Vietnam

(حرب أمريكا في فيتنام)

Larry H.Addingtan

Indiana university press, 2000, 192pp., $29.95





بعد كل تلك السنوات والكم الهائل من الكتب التي صدرت عن حرب فيتنام هل يمكن أن يكون هناك جديد يمكن أن يضيفه كاتب أو مؤرخ إلى ما ورد في الكتب التي صدرت وهي بالمئات إن لم تكن بالآلاف (الكتاب الجديد قليل الصفحات «١٩٢» صفحة) لكنه مع ذلك يتناول المشكلة من جذورها وماذا حدث خلال سنوات الحرب ونتائج التورط الأمريكي غير المسبوق في فيتنام والمؤلف يقدم دليلاً إرشاديًا جيدًا لما حدث وهو يبدأ بالحديث عن تاريخ فيتنام قبل وبعد الاحتلال الفرنسي لها.

ويتحدث عن مقومات الأوضاع الداخلية في الولايات المتحدة على السياسات الأمريكية إزاء الحرب وتطوراتها وكيف أثر الرأي العام الأمريكي على صانع السياسة الأمريكي آنذاك ودور الإعلام في هذا الصدد، والبعض منا يتذكر العبارة الشهيرة التي قالها الرئيس الأمريكي الراحل ريتشارد نيكسون من أن أمريكا لم تنهزم في فيتنام، بل انهزمت على مكاتب رؤساء تحرير الصحف وشبكات التليفزيون في الولايات المتحدة الذين خلقوا شعورًا عامًا مناهضًا للحرب جعل من وقوع أي ضحية أمريكية على مسرح القتال بمثابة كارثة.

ويحلل الكتاب كذلك أسباب الفشل الأمريكي النهائي والانسحاب الذي ما زالت بعض صوره محفورة في الذاكرة الأمريكية والعالمية.

لقد احتفل الفيتناميون مؤخرًا بمرور ٢٥ عامًا على نهاية الحرب، وتحرير سايجون عاصمة فيتنام الشمالية التي أصبحت تسمى باسم «هوشي منه» البطل الفيتنامي الأسطوري الذي قاتل بعبقرية، لكن القدر لم يمهله لرؤية النصر. وقد تغيرت أشياء كثيرة خلال ربع القرن المنصرم من بينها العداوة بين البلدين حتى أن فيتنام تسعى جاهدة إلى جذب الاستثمارات الأجنبية، كما أن الرأسمالية التي حاربها القادة الشيوعيون بدأت في الولوج إلى فيتنام هذه المرة من الباب الرسمي، كما أن الثقافة الغربية أصبحت ملء السمع والبصر خاصة بين الشباب الفيتنامي.

□□□

Dirty Planet

(كوكب قذر)

Caroline Clayton

Livewire, 2000, £4.99

يمثل الكتاب دليلاً إرشاديًا عن التلوث وسبل مواجهته، وهو من تأليف كارولين كلايتون، العضوة في جماعة «أصدقاء الأرض» البريطانية لحماية البيئة.

لقد أصبحت قضية التلوث وحماية البيئة موضوعًا رئيسيًا يتصدر نشرات الأخبار وعناوين الصحف، وتحول إلى حملة وطنية في عديد من الدول، لكن ما النتيجة؟

ترد المؤلفة بأن الأطفال الأمريكيين أقل من ١٥ سنة زادت بينهم نسبة الإصابة بمرض السرطان بنسبة ١٠٪ في الفترة من ١٩٧٤ حتى ١٩٩٣، كما أن أطباء الأسرة في بريطانيا سجلوا زيادة أنواع من مرض الربو لدى الأطفال قبل المدرسة بمعدل ٥ مرات عام ١٩٩٣، بالمقارنة بعام ١٩٧٩، كل ذلك بسبب زيادة معدلات التلوث.

ويتضمن الكتاب فصولاً عديدة عن التلوث الجوي والكيماويات والنزعة الاستهلاكية لدى الناس، مما يزيد لا محالة من معدلات التلوث. وعلى سبيل المثال، فإن رغبة الناس الشديدة في اقتناء السيارات، انقلبت إلى نتائج مرعبة، فهناك في لوس أنجلوس الكبرى سيارات أكثر مما هو موجود في الهند والصين وباكستان وبنجلاديش معا. وللقارئ أن يتصور مدى التلوث الناتج عن هذا الكم الهائل من السيارات.

ورغم أن المؤلفة تقدم هذه المعلومات المخيفة، إلا أنها لا تبدو سلبية أو متشائمة، ففي نهاية كل فصل هناك اقتراحات ودراسات حالة لتحسين الأوضاع، مثل استخدام الدراجات بدلا من السيارات، أو استخدام سيارات أصغر بدلا من تلك الأكبر. والكتاب موجه بالأساس إلى الشباب والمراهقين من الجنسين، ولذلك فإن معالجته بسيطة وحميمية. ولأن المؤلفة تعتقد أن شباب اليوم هم الأكثر اعتمادا على السيارات أكثر من أي جيل آخر في التاريخ، كان لابد من توجيه الرسالة إليهم.

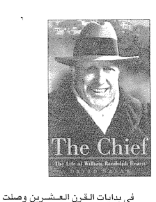
□□□

The Chief.. The Life of William Randolph Hearst

(الرئيس.. حياة وليام راندولف هيرست)

David Nasaw

Houghton Mifflin, 2000, 687pp., $35.00



في بدايات القرن العشرين وصلت إمبراطورية وليام راندولف هيرست الصحفية في الولايات المتحدة إلى أقصى ذروتها، لكن سمعة الرجل كانت في الحضيض، خاصة بين أبناء الطبقة العليا الذين نظروا إليه على أنه شخصية كريهة، بل إن البعض وصفه بأنه رسول الشر الذي ينفث سمومه من خلال الصحافة الصفراء التي كان أشهر أعلامها. لقد مارس هيرست نفوذًا وربما سلطة أكثر من أي صحفي أمريكي آخر على مدى التاريخ الأمريكي الحديث، لكنه أي هيرست فعل ذلك بشكل فاضح وكان هدفه أن يدعم فرصته السياسية ويروج لآرائه في مجال السياسة الخارجية، ويعتبر هيرست مؤسس الصحافة الصفراء الأمريكية مع جوزيف بولتيزر، لكنه لم يكن ناشرًا فقط، بل صحفيًا ساعد في تحديث الصحافة الأمريكية.

ويحاول مؤلف الكتاب وهو أستاذ في جامعة «سيتي» في نيويورك أن يقدم صورة منصفة لهيرست، فهو كما يقول صناعة أمريكية وليس عصاميًا كما يتصور كثيرون بمعنى أنه كان ابنًا لمهاجر جاء إلى الولايات المتحدة واستوطن في كاليفورنيا، ولم يكن يملك شيئًا، ولكن بالجد والعمل المتواصل تمكن هذا الأب ومن بعده الابن أن يستغلا الفرص غير العادية التي يتيحها المجتمع الأمريكي لكي يكونا الملايين فوق الملايين.

ورغم أن هيرست ستذكره كتب التاريخ على أنه مؤسس إمبراطورية صحفية إلا أن المؤلف يقول أنه أي هيرست عندما تحرك إلى نيويورك عام ١٨٩٥ لمناقشة بولتزر صور نفسه على أنه المعبر عن الطبقة العاملة والمدافع عن قضاياها، ولا يتوقف المؤلف فقط عند الحياة الصحفية والسياسية لهيرست، بل يتناول حياته الاجتماعية وولعه بنجمات هوليوود في بدايات القرن العشرين.

□□□

قـــراءات جـــديــدة

اجتمــاع

المقهى الرمادى
سعاد آل خليفة
البحرين: على نفقة المؤلفة، ٢٠٠٠
تحاول المؤلفة أن تحاكى واقع المرأة فى مجتمعنا، تناقش قضاياها وتبحث مشكلاتها عبر الغوص فى أعماق أنثى، تكشف فيه عن واقع مأزوم تنعكس أزمته على المرأة.

فن الزواج
محمد فتحى
القاهرة: دار الخانجى، ٢٠٠٠
عن الحياة الزوجية منذ الزفاف وحتى قدوم المولود الأول، والمشاكل التى تعترض الزوجين خصوصًا فى السنة الأولى من الزواج، بعض هذه المشكلات يتشابه بما يجعل اقتراح حلوله صالحًا لكل الحالات تقريبًا مع اختلاف بيئتها وتفاوت درجاتها الاجتماعية.

The War Against Boys: How Misguided Feminism is Harming our Young Men
(الحرب ضد الصبيان: كيف تؤذى النسوية المضللة رجالنا الصغار)
Christina Hoff Sommers
Simon & Schuster, 2000, 252pp., $25.00 (Pb)
ترى المؤلفة أن الانتشار الكبير للأفكار النسوية فى الولايات المتحدة الأمريكية، قد خلق ثقافة معادية للرجال، حتى أصبحت الرجولة فى حد ذاتها نوعًا من الخطر الاجتماعى وتهديد للنظام الأخلاقى، وعلى العكس ترى المؤلفة أنه فى أغلب الأحوال، يكون انحراف الصبيان راجعًا لغياب الرجل فى أسرهم، أى أن النشأة فى أسرة بدون أب، هى التى تولد نموذج الصبى العنيف المنحرف. وتدعو المؤلفة فى نهاية الكتاب إلى أهمية إعادة الثقة فى الرجال مرة أخرى حماية للمجتمع ككل.

Teenagers: The Agony, The Ecstasy, The Answers
(المراهقون: العذاب والابتهاج والحلول)
Aidan Macfarlane, Ann Mcpherson
Lifhe Brown Company, 1999, 353pp., £9.99
المؤلفتان قامتا بإجراء مقابلات شخصية مع ٤٠ مراهقًا وآبائهم، ويوضح كتابهما كيف يرى الآباء أبناءهم المراهقين والعكس، والغرض هو تمكين كل طرف من تفهم وتقدير وجهة نظر الطرف الآخر. كما يبرز التحليل مناطق الصراع المعتادة، ويقدم نصائح عن كيفية تجنبها أو حلها. وتتنوع الموضوعات التى تتم مناقشتها ما بين الصداقات والجنس واضطرابات الأكل والطلاق والعنف والحرمان.. إلخ.

أدب ورواية

بدون يافطة
محسن مختار
القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٠
مجموعة قصصية أبطالها من أبناء الطبقة الوسطى الذين تأثروا كثيرًا بالتحولات التى شهدها المجتمع المصرى فى العقدين الأخيرين، وهموم هذه الطبقة من مأكل ومشرب وملبس وتعليم، وسعيها الدائم من أجل تأمين لقمة العيش.

اللى اختشوا ماتوا
عمرو الليثى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠
يناقش المؤلف بأسلوب ساخر أزمات عديدة تواجه الوطن العربى ومصر، وأهمها مشكلة البطالة التى يعانيها الشباب والتى تفرز بدورها عشرات المشكلات الأخرى مثل الإدمان والانحراف وصور عديدة من جرائم السرقة والقتل.

جزيرة اليوم السابق
إمبرتو إيكو
ترجمة: أحمد الصبعى
طرابلس: دار أويا، ٢٠٠٠
لوحة للحياة يرسمها صاحب اسم الوردة، الناس جميعًا فى سفينة واحدة والسعى الدائب لاصطياد الآمال والتغلب على تقلبات البحر، بعضهم ينجح وأكثرهم يقصمه الموج، تلك هى الحياة.

صالح هيصة
خيرى شلبى
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٠
يمثل هيصة عصره، حالة من الفوضى والاستهتار والضياع، ترجمة حقيقية لحالة عدم التوازن التى عاشها المجتمع المصرى عبر تحولاته الانتقالية منذ ما قبل الثورة مرورًا بسنوات الخمسينيات والستينيات وحتى اليوم، وما خلفه من اختلال فى المعايير والقيم، وما خلفته من انكسارات فى الروح والوجدان.

عربة تجرها الخيول
حسين عبد الرحمن
القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٠
تجوب الرواية أنحاء المكان، فتروى قصص الشوارع والحوارى والأزقة، وترسم وجوها صادفها المؤلف عبر نسيج متكامل عن صراع البشر والحياة.

مرايا النار
بثينة خضر
الخرطوم: ٢٠٠٠
رواية تنهل من عادات وتقاليد المجتمع السودانى الغارقة فى القدم، بطلتها مثقفة وقوية تخفى بداخلها أنثى مستعدة لكشف عيوب المجتمع وتناقضاته.

مشهد على شاطئ البحر
ياسو أوكاشوو تاروه
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٠
تسعة أيام قضاها المؤلف فى صحبة أمه بمصحة للأمراض النفسية والعصبية، فى هذه الرواية يسجل المؤلف بعضًا مما شاهد، عن حياة المرضى ومعاناتهم، وأحلامهم التى لا تتحقق.

هديل اليمام
فاضل السباعى
دمشق: أسبيليه، ٢٠٠٠
عن عالم الطفولة الحالم وعذوبته وبساطته وطموحات الصغار والخوف من المستقبل، مجموعة قصصية تنهل من هذا المعين الخصب.

When I Lived in Modern Times
(عندما عشت فى العصور الحديثة)
Linda Grant
Granta Books, 2000, 260 PP., £9.99
فى أبريل ١٩٤٦ ترحل فتاة يهودية إنجليزية تعمل مصففة شعر فى لندن، إلى فلسطين وعمرها عشرون عامًا. تدور الرواية حول حياة هذه الفتاة الجديدة فى تل أبيب، وتنازع الهوية بداخلها بالإضافة لتناقضات واقع المدينة التى تعيش فيها.

اقتصاد وتجارة

انفجار العجز
رمزى زكى
دمشق: دار المدى، ٢٠٠٠
سبق للمؤلف أن قدم كتبًا عديدة تتناول موضوعات اقتصادية معقدة كالركود والتضخم وأزمات السيولة وصندوق النقد ودوره والمشكلة السكانية وخرافة المالتوسية وغيرها، وهو هنا يتحدث عن العجز الاقتصادى ومشاكل انهيار البورصات التى تعانى منها دول متقدمة وأخرى نامية ويطرح تصورات لحلولها.

Taken For a Ride: How Daimler - Benz Drove Off With Chrysler
(كيف تم الاندماج بين دايلمر - بنز وكريسلر)
Bill Vlasic and Bradley A. Shertz.
New York: William Morow, 2000, 372pp., $26.00
عندما اتحدت شركة السيارات الأمريكية «كريسلر» مع شركة السيارات الألمانية «دايملر - بنز» فى نوفمبر من عام ١٩٩٨، بدا الاتفاق على أنه اندماج بين قوتين متساويتين، ولكن فى أقل من عام ظهر جليًا أن «كريسلر» لم تصبح سوى فرع أمريكى «لدايملر» وتحت قيادة ألمانية صلبة للشركة المتحدة.
يروى الصحفيان الأمريكيان فى كتابهما تفاصيل هذا الاندماج وأسباب تدهور شركة «كريسلر» مع التركيز على الشخصيات الأساسية فى الشركتين، خاصة رئيس مجلس إدارة «كريسلر» السابق، «روبرت أتيون»، فى محاولة منهما لإلقاء الضوء على الطريقة التى تتم بها الاتفاقات التجارية بين الشركات الكبرى فى العالم.

Trading Places
(أماكن للتجارة)
Hattie Ellis
Mitchell Beasley, 2000, 160pp., $14.99(Pb)
تتجول المؤلفة بين أنحاء أوروبا، محتفية بالمحلات التجارية الصغيرة المتخصصة، والتى تهددها الآن سيطرة ثقافة «السوبر ماركت» أو المحلات التجارية التى تبيع كل شىء. يتناول الكتاب بالتفصيل ٥٢ محلاً متخصصًا.. تقع ما بين مدن فينسيا ولندن وباريس، بعضها يعود إلى القرن السابع عشر، وكل منها له شخصيته الفريدة.

Carried Away
(انجراف)
Rachel Bowlby
Faber, 2000, 256pp., £9.99, (Pb)
تحلل أستاذة الدراسات الإنجليزية والأمريكية بجامعة سسكس العلاقة بين التسوق وسيكولوجية المرأة. وتقدم عرضًا لتاريخ أفكارنا عن التسوق والاستهلاك الأنثوى، كما تفحص فى كتابها تطور المحلات التجارية، والخدمة الذاتية فى الشراء، والسوبر ماركت خلال القرن العشرين. وتتنوع مراجعها ما بين صحف تجارية قديمة وكتب عن التسويق وروايات أدبية أيضًا.

تاريخ وآثار

تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر
جمال زكريا قاسم
القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٠
يتناول تاريخ الخليج منذ عهود الاستعمار ويعرج على دراسته جغرافيًا ومناخيًا واجتماعيًا، فضلا عن دراسة لأهم الحرف ومراحل التطور التى مر بها فى كافة مناحى الحياة، ويختم الباحث كتابه الضخم بكارثة الاحتلال العراقى للكويت وتأثيره على المنطقة والعالم.

مصر القديمة.. التاريخ الاجتماعى
مجموعة من علماء المصريات
ترجمة: لويس بقطر
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠
عن الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة وعادات الناس وأفكارهم، كما يتناول العلماء شذرات من النظم السياسية والاقتصادية التى سادت مصر قديمًا وكيف أثرت فى حضارتها.

قــــراءات جــــديــدة

طيبة.. آثار الأقصر
تشارلز نميسى
ترجمة: محمد العزب موسى، محمود ماهر طه
القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٠

للأقصر فى التاريخ قيمة خاصة ومتفردة، وهى تضم ثلث آثار العالم، ولذا فإن أهميتها للعالم كله تجعلها محط أنظار المعنيين بالتراث الإنسانى، هذا الكتاب يتناول أهم آثار الأقصر مثل معبد الأقصر والبر الغربى، كما يتناول نتفًا من حياة المصريين القدماء فى هذه المدينة الخالدة.

The Tarim Mummies: Ancient China and the Mystery of the Earliest Peoples from the West
(مومياوات تاريم: الصين القديمة ولغز أقدم شعوب الغرب)
Jp Mallory and Victor Mair
Thames and Hudson, 2000, 352 PP., £28.00

ظل سكان صحراء تاريم الصينية لآلاف السنين يدفنون موتاهم فى الرمال - محافظين على أجسادهم وملابسهم، أما الغريب فى الأمر فهو أن وجوه تلك المومياوات اكتشف أنها تحمل ملامح أوروبية. هذا الكتاب يقدم تفسيرًا لتلك الظاهرة الأثرية العجيبة.

تــــراث

التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه
أبى عبيد الله بن عبد العزيز البكرى
تحقيق: الأب أنطون صالحانى
القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٠

كان أبو عبد الله من أعيان الأندلس وكبار علمائها، وفى هذا التحقيق الذى يلى الطبعة الثانية من الكتاب عام ١٩١١، يصحح المحقق بعضًا من الأخطاء التى وقع فيها المؤلف، ويورد بعضًا مما تضمنه من مقولات معلقًا عليها.

تراجم وسير

شامبليون.. حياة من نور
جان لاكوتير
ترجمة: نبيل سعد
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

عن حياة عالم الآثار الشهير الذى اكتشف حجر رشيد، وعشقه لمصر والمصريين وعلاقته الوطيدة بالحضارة المصرية، ويعتبر المؤلف شامبليون مدخلاً لعلاقات ثقافية استمرت بين مصر وفرنسا منذ عصر محمد على وحتى اليوم، ودور هذه العلاقات فى تحقيق النهضة المصرية.

طه حسين.. قضايا ومواقف
حسنى أحمد جفام
تونس: دار المعارف التونسية، ٢٠٠٠

دراسة تتناول موقف طه حسين من الشعر الجاهلى وكتابه الذى أثار ضجة هائلة وقت صدوره، ثم ترشيح طه حسين لجائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٦٧، وموقفه من هذا الترشيح.

The Life and Crimes of Agatha Christie
(حياة وجرائم أجاثا كريستى)
Charles Osborne
Harper Collins, 2000, 246pp., £7.99

قصة حياة أحب وأشهر كاتبة قصص جريمة فى العالم، لم تفق مبيعات قصصها سوى مبيعات الكتاب المقدس وشيكسبير، وترجمت إلى أكثر من مائة لغة. كانت على الجانب الشخصى إنسانة شديدة الخصوصية، ويحاول الكتاب أن يربط بين الأحداث التى جرت فى حياتها الفعلية وبين القصص التى ألفتها.

تعليـــــم

الرياضيات التربوية.. دراسات وبحوث
محبات أبو عميرة
القاهرة: الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٠

عن كيفية تهيئة الطفل لتقبل مادة الرياضيات والتعامل مع النظريات الرياضية، واقتراح طرق جديدة لتدريسها فى المدارس، وتفادى المؤلفة إلى جانب ذلك كله، بضرورة إجراء دورات تدريبية لمدرسى الرياضيات لإتقان هذه الطرق.

المتفوقون والرياضيات.. دراسات تطبيقية
محبات أبو عميرة
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

تنصح المؤلفة هنا بأن تقوم العملية التعليمية على تنمية القدرات الخلاقة والمبدعة عند التلاميذ، وكيفية العناية بالمتفوقين بوصفهم ركيزة أساسية لتحقيق التقدم فى المجتمع، وترسم المؤلفة طريقًا لتحقيق هذه الغاية ومساعدة المتفوقين على الإبداع وإظهار طاقاتهم.

دراسات أنثروبولوجية

الدليل فى موارد أعالى النيل
وليم جاستن
القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٠

يمثل هذا الكتاب الرحلة التى قطعها المؤلف فى نهر النيل من منشاه إلى مصبه، مسجلاً عادات الشعوب الواقعة على هذا النهر العظيم وحدود التشابه والاختلاف بينها، كما يسرد عشرات الأساطير التى تؤمن بها هذه الشعوب وتوجه كثيرًا من سلوكها.

راية التمرد
ساندى بلانت
ترجمة: أحمد حسان
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

دراسة عن حركات التمرد الراغبة فى الانفلات من قيود التسلط والعنف والاستبداد والظلامية، والتى كانت تظهر عادة عقب فترات الأزمات والحروب بهدف تجاوزها والتخلص من قبضة الحكومات المتسلطة وقيادة المجتمع نحو التنوير.

Brit - think, Ameri - think: A Transatlantic Survival Guide
(دليل النجاة العابر للأطلسى عن الأمريكيين والبريطانيين)
Jane Walmsly
Harrap, 2000, 176 PP., £7.99

يعالج بأسلوب مبسط الفروق الثقافية التى تفصل بين البريطانيين والأمريكيين، بالرغم من اشتراكهما فى لغة واحدة. فإلى جانب الفروق اللغوية والفروق فى العادات، تفحص المؤلفة الاتجاهات العابرة للأطلسى فى مجالات مختلفة تمتد من السياسة والتجارة إلى الحب والطعام والحيوانات الأليفة.

رياضــــة

The Olympic Games - Special Guide
(الألعاب الأوليمبية - دليل خاص)
Dorling Kindersley, 2000, 352pp., £20.00

بمناسبة انعقاد دورة الألعاب الأوليمبية هذا الشهر فى سيدنى - وهى المرة الثانية فى التاريخ الطويل لهذه الألعاب أن تقام فى النصف الجنوبى من الكرة الأرضية - يقدم هذا الدليل الشامل كل المعلومات المتعلقة بالدورات الأوليمبية منذ أن أعيد إحياؤها عام ١٨٩٦ فيتناول المدن المختلفة التى وقع عليها الاختيار لإقامة الدورات فيها، والأحداث المهمة التى ميزتها، والأبطال والبطلات الذين برزوا فيها. كذلك يحتوى على قوائم مفهرسة بكل الحاصلين على ميداليات أوليمبية فى جميع اللعبات.

Olympiad
(أوليمبياد)
Tom Holt
Little Brown, 2000, 368 PP., £16.99

رواية تاريخية تحكى كيف بدأت الألعاب الأوليمبية، فقد أقيمت أول دورة للألعاب الأوليمبية فى سنة ٧٦٦ قبل الميلاد. تبدأ هذه القصة بعد أربعين عامًا من ذلك التاريخ فى بلاط الملك بلاميدس، حيث يجلس تاجر فينيقى على العشاء ويروى له رجلان مسنان قصة إنشاء هذه الألعاب.

The Great Olympic Swindle
(الغش الأوليمبى الكبير)
Andrew Jennings
Simon & Schuster, 2000, £16.99

يتناول المظاهر المتعددة للفساد فى اللجان الأوليمبية من عمليات شراء الأصوات والجشع المادى إلى الجريمة المنظمة، والتى فى النهاية قامت بتشويه القيم الأوليمبية النموذجية التى من المفترض أن تمثلها هذه الألعاب.

سيـاســـة

العرب فى إسرائيل.. رؤية من الداخل
عزمى بشارة
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠

على مدى نصف قرن، ومنذ إعلان دولة إسرائيل يعانى الفلسطينيون تحت الاحتلال فى كافة جوانب حياتهم، يكشف المؤلف هنا عن كثير من الأكاذيب التى تروج لها إسرائيل، وينزع قناعها لتتكشف لنا دولة عنصرية قائمة على الخداع والتمايزات غير المبررة.

الفصل فى صحة عضوية البرلمان.. دراسة مقارنة
زكى محمد النجار، حسن محمد هند
القاهرة: دار النهضة العربية، ٢٠٠٠

عن قضية الانتخاب الحر وعضوية البرلمانات، محاولة جادة يرسمها المؤلفان من أجل إنشاء مؤسسات عربية قوية تقوم على أسس نزيهة تمكنها من الاستمرار والبقاء، والإسهام فى بناء مجتمع عربى جديد.

باراك والسلام
عبد معروف
بيروت: دار المنتظر، ٢٠٠٠

لم يكن باراك استثناء مما درج عليه زعماء إسرائيل ورؤساء الدولة العبرية على مر العصور، فهو يلعب اللعبة ذاتها وإن اختلفت الأساليب، إنها نفس الخدعة التى لا تهتم بمقدسات أو حقوق، اللهم إلا حقوق الشعب اليهودى وحده، هذا الكتاب يكشف مواقف رئيس حكومة إسرائيل من عملية السلام.

لغز ٢٣ يوليو
رشاد كامل
القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠

ما زال كثير من أسرار ثورة يوليو لم يكشف عنه النقاب بعد، والروايات التى تقدمها كل الأطراف تبدو متناقضة ولا تقدم سوى رؤية أحادية للصورة، هذا الكتاب محاولة لفك لغز ٢٣ يوليو ومعرفة خبايا هذا اليوم وإرهاصاته، دون أن يدعى بطبيعة الحال أنه يحل إشكالية التناقض حول يوليو ١٩٥٢.

عبد الناصر وزيرًا للداخلية
محمد صلاح الزهار
القاهرة: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٠

قضى عبد الناصر ١١٨ يومًا وزيرًا للداخلية فى أعقاب ثورة يوليو ١٩٥٢، حاول خلالها أن يصلح أحوالاً وأن يحافظ

على الأمن فى هذه الأيام العصيبة من تاريخ مصر، المؤلف يرصد أداء عبد الناصر فى هذه الأيام وأهم المشكلات التى واجهها وكيف تعامل معها.

■■■

عدو السلام
جلال دويدار
القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٠

مقالات عن عملية السلام، وكيف ساهمت المواقف المتعنتة لرؤساء الوزراء الإسرائيليين فى تعثرها، وخصوصًا نتنياهو الذى أصاب تشدده عملية السلام فى مقتل.

■■■

In the Footsteps of Mr. Kurtz: Living on the Brink of Disaster in the Congo
(الحياة على حافة الكارثة فى الكونغو)
Michela Wrong
Fourth Estakte, 2000, 324pp., £13.99

المؤلفة عاشت فى زائير فى السنوات الأخيرة من حكم «موبوتو» أثناء عملها صحفية مراسلة لمجلة الفينانشال تايمز، ويقدم كتابها صورة عن الحكم الدكتاتورى الفاسد الذى تمثل فى مكوث موبوتو ٣٢ عامًا فى الحكم، نهب خلالها ثروات تقدر بـ ١٤ مليار دولار من أموال البلاد - وتمتع بمساندة الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وبلجيكا. وبعد خروجه من السلطة ونفيه وموته لم تتغير الأمور فى ظل حكم كابيلا الذى قاد التمرد ضده، حيث استشرى الفساد فى طبقات كثيرة من المجتمع. ترى المؤلفة أن زائير - أو الكونغو الآن - لم تعط لها فرصة عادلة لكى تحقق النجاح أو النمو، فمنذ الحكم الاستعمارى فى القرون الماضية، وحتى الآن لم ينقطع عنها النهب والاستغلال والاستعباد.

■■■

In Praise of Public Life
(تمجيدًا للحياة العامة)
Joseph . Lieberman,
Simon & Schuster, 2000, 174pp., $21.00

مؤلف الكتاب هو السناتور جوزيف ليبرمان الذى اختاره آل جور مؤخرًا نائبا له فى انتخابات الرئاسة الأمريكية. وقد دفعه لكتابة هذا الكتاب ما يبديه الأمريكيون من شك وعدم ثقة فى شاغلى المناصب العامة، خاصة مع زوال الحدود الفاصلة بين الحياة العامة والخاصة للمشتغلين بالسياسة. يدافع ليبرمان عن حسنات الحياة العامة للسياسى الأمريكى وما تتضمنه من شرف، وذلك من خلال استعراضه لحياته الوظيفية الشخصية.

الكتاب يحتوى على معلومات عن الكيفية التى يتم العمل بها داخل الكونجرس الأمريكى. وأهمية العلاقات الشخصية فى تمرير التشريعات، وأهمية الرحلات الأجنبية الخارجية فى تنمية العلاقات الشخصية.. وأهم الصفات التى يجب أن يتحلى بها السناتور..إلخ.

شعر

أجنحة النهار
سعيد الصقلاوى
مسقط: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٠

قصائد سياسية وفلسفية، ربما تمنح أملاً فيما يتمنى المؤلف أن يؤول إليه حال الوطن العربى بعد كل ما جرى، فكما لليل أستاره الكثيفة، فللنهار أجنحته التى تحلق فى بعض ما نصبو إليه ويتطلع إليه الشاعر.

■■■

معجم الشعر الكويتى المعاصر
طيبة طالع الشذر
القاهرة: دار الكتاب المصرى، ٢٠٠٠

دراسة تتناول الأعمال الكاملة لثلاثة من الشعراء الكويتيين المعاصرين هم عبد الله العتيبى وخليفة الوقيان وأحمد العدوانى، وعبر نتاجهم تقدم لنا المؤلفة صورة للشعر الكويتى المعاصر وموضوعاته وسماته فضلا عن دراسات نقدية وتحليلية لعديد من قصائد الشعراء الثلاثة.

■■■

لم تكن روحى
سعاد الكوارى
بيروت: دار الكنوز الأدبية، ٢٠٠٠

تدور قصائد الديوان فى عالم الذكريات والحنين للطفولة والأحلام التى يعيشها الإنسان من أجل تغيير واقعه نحو الأفضل.

■■■

معاناة أمة
أنور عشقى
فلسطين: دار المؤيد، ٢٠٠٠

قصائد عن هموم الإنسان فى الوطن العربى ومعاناته اليومية وانكساراته بفعل التشتت الحادث بين أقطاره وعدم القدرة على لم الشمل ووقف هذه المعاناة.

صحة

ماذا تأكل وأنت مريض
نادية نهاد حامد
القاهرة: دار أخبار اليوم، ٢٠٠٠

عن الأغذية الصحية والغذاء الذى يمكنه أن يجنب الأمراض أو يساهم فى إكساب الجسم مناعة لمقاومتها، ثم وصفه لما يأكله الإنسان فى أوقات مرضه، إنها فكرة عن التوازن الغذائى وأهمية الخضروات والفاكهة الطازجة فى تحقيقه.

■■■

Back in Shape
(عودة اللياقة)
Sally Lewis
Hamlyn , 2000,?? PP., £12.99

برنامج وضعته طبيبة متخصصة يهدف لإعادة اللياقة البدنية والنفسية والمظهر المناسب للأم بعد الولادة. يمتد البرنامج عشرة أسابيع متصلة، وهو معد بشكل يتناسب مع وجود روتين يومى لطفل حديث الولادة.

فكر

آراء فلاسفة وعباقرة الغرب فى الإسلام
زكريا هاشم
القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف آراء بعض من فلاسفة وكتاب الغرب المسيحى المرموقين فى الإسلام، ويعرض لبعض الآراء السلبية التى قادت حملات للكراهية تنبع عنها فى مرحلة تاريخية معينة الحروب الصليبية، ويعرض فى المقابل لآراء إيجابية فهمت حقيقة الإسلام وحضارة المسلمين.

■■■

أزمة النشر والتعبير فى مصر
عبد الخالق فاروق
القاهرة: دار الكلمة، ٢٠٠٠

يتناول الكتاب قضيتين بالغتى الأهمية مطروحتين بقوة على الساحة الثقافية، وتتعلقان بالأطراف الأصلية فى عملية الإبداع، الناشر والمؤلف، وكلاهما يتأثر بالآخر وينعكس حالهما على ما يصل من منتج نهائى إلى القارئ، الذى هو الطرف الثالث فى عملية الإبداع عمومًا.

■■■

الإسلام وأصول الحكم
على عبد الرازق
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٠

هذا واحد من الكتب «الانقلابية» فى تاريخ الثقافة المصرية والعربية بوجه عام، وقد كان صدوره فى عام ١٩٢٥ انقلابًا حقيقيًا على مفاهيم سادت لزمن طويل، ومثلت أفكاره حجر عثرة حقيقية أمام أطماع الملك فؤاد الذى طمح إلى أن يصبح خليفة للمسلمين بعدما سقطت الخلافة فى تركيا عام ١٩٢٤، وبسبب هذا الكتاب طرد الشيخ على عبد الرازق من هيئة كبار العلماء وتعرض لهجوم عنيف من داخل الأزهر وخارجه.

■■■

هموم مصرية
فوزى فهمى
القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٠

مقالات عن عشرات الهموم الثقافية وغيرها مما يعانيه المواطن المصرى، بعض هذه الهموم مما يتصل بالشأن الثقافى العملى الذى يعايشه المؤلف بوصفه رئيسًا لأكاديمية الفنون، وبعضها مما يتصل بالشأن العام الذى يعايشه المؤلف ويعبر عنه فى مقالته الأسبوعية بصحيفة الأهرام.

■■■

ورد وماء
محمد برادة، محمد شكرى
الرباط: وزارة الشئون الثقافية، ٢٠٠٠

مجموعة من الرسائل المتبادلة بين كاتبين، أحدهما ناقد حقق خطوات مهمة فى مسيرته النقدية فضلا عن تجارب روائية فى السنوات الأخيرة، والثانى أحد أشهر كتاب المغرب العربى ممن تميزوا بجرأة التعبير وقسوة التناول فى تشريح الواقع العربى والمغربى الذى عانى هو نفسه من خشونته وتناقضاته الاجتماعية الحادة، ميزة الرسائل أنها تنقل لنا شيئًا من واقع الكاتبين وحياتهما، وترسم لنا من ناحية أخرى صورة للواقع المغربى فى حقبة زمنية ممتدة.

فكر دينى

المرأة بين أحكام الفقه والدعوة إلى التغيير
عبد الكبير المدغرى
الرباط: مطبعة فضالة، ٢٠٠٠

عن حقوق المرأة فى الإسلام التى جاوزت كثيرًا مما حصلت عليه المرأة فى العصر الحديث، لكن كثيرًا ممن يتناولون هذه المسألة يتجاهلون هذه الحقيقة ويتصورون أن تغيير حال المرأة لا يتم إلا بالانقضاض على الشرعية، المؤلف يفند هذه التصورات.

■■■

تجديد الفقه الإسلامى
جمال عطية
بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٠

يمثل تجديد الفقه الإسلامى مهمة كبيرة ومسعى يحدد إلى حد كبير شكل التعامل مع العالم المعاصر، وقد مثلت هذه المهمة دائمًا أرقًا متزايدًا للفقهاء المجددين الذين عليهم أن يجددوا الفقه بما يلائم العصر ويحل كثيرًا من مشكلاته، ويعين المسلم على التعامل معه دون وجل أو خوف من الوقوع فى المعصية.

فلسفة

مكانة الخيال فى نظرية المعرفة عند ابن سينا
برهان مهلوبى
الكويت: جامعة الكويت، ٢٠٠٠

دراسة عميقة فى نصوص ابن سينا واكتشاف حدود الخيال والمعرفة فى هذه النصوص، وتحليل نظريات الشيخ الرئيس فى ضوء معطيات العلم والفلسفة الحديثة.

■■■

Wagner and Philosophy
(فاجنر والفلسفة)
Bryan Magee
Penguin, 2000, £20.00

دراسة عن ارتباط التطور الفنى للمؤلف الموسيقى العظيم «فاجنر» بالسياق الفلسفى فى عصره، خاصة أفكار شوبنهاور ونيتشه. وفى النهاية يجد القارئ نفسه أكثر فهمًا لموسيقى فاجنر وأفكار معاصريه، ودور التفكير المجرد فى إبداع المؤلف الموسيقى.

قراءات جديدة

فنون

Bass Culture: When Reggae was King
(عندما كان الريجاي هو الملك)
Liogd Bradley
Viking, 2000, 572pp., $12.99

يروى الكتاب قصة موسيقى «الريجاى» منذ أن ظهرت لأول مرة في جزيرة جاميكا في الخمسينيات، ثم انتشرت في الولايات المتحدة، ثم في العالم كله. يتناول المؤلف الإسهامات المختلفة للمنتجين والموسيقيين الذين طوروا من هذه الموسيقى، كما يتناول في فصل كامل أشهر مطربي «الريجاى» «بوب مارلي» الذي لا يقل نجومية عن جون لينون وبوب ديلان، كذلك يناقش الكتاب الجذور الفلسفية والدينية المرتبطة بتلك الموسيقى وتجسدها في عقيدة «الراستا فاريان» أو اختصارًا: «راستا».. وهي إحدى الديانات الصوفية المحلية المشتقة من الديانة المسيحية.

Contemporary Ceramics
(الخزف المعاصر)
Susan Peterson
Laurence King, 2000, 176pp., £25.00

نظرة على تطور فن الخزف في السنوات الأخيرة. يقدم أمثلة من أعمال ٢٦٠ فنانًا من ٣٠ دولة ويناقشها مع الصور. من بين الموضوعات التي يتناولها الكتاب المكونات التي يتم خلطها بالصلصال، والتجارب الجديدة في مزج الألوان.

Forever Liesl: A Memoir of the Sound of Music
(ليزل إلى الأبد: مذكرات عن صوت الموسيقى)
Charmain Carr
Viking Books, 2000, 245pp., £15.81

تروى الممثلة التي لعبت دور «ليزل فون تراب» في الفيلم الغنائي الشهير «صوت الموسيقى» الذي أنتج عام ١٩٦٥ ذكرياتها عن فيلم وما دار من أحداث بين الكواليس، وعلاقتها بباقي أفراد طاقم التمثيل، خاصة البطلة «جولي أندروز» التي تكشف عن طبيعة شخصيتها الحقيقية من وجهة نظرها.. وأسباب سوء العلاقة بينهما الآن.

كتب للأطفال

How Come? Planet Earth
(كيف؟ كوكب الأرض)
Kathy Wolland
Workman Publishing Company, 1999, 332 PP., $ 12.95

أجوبة وتفسيرات قدمتها المؤلفة في عمودها الأسبوعي بجريدة لوس أنجلوس تايمز - والذي ينشر مترجمًا في العديد من الصحف حول العالم - لأسئلة متنوعة أرسلها لها أطفال أذكياء وفضوليون وكثيرًا ما يفشل الكبار في إجابتها، مثل: لماذا لا تنام الأسماك والدرافيل؟ كيف يسجل فيلم آلة التصوير الصور الملتقطة؟ كيف تطير الطائرات النفاثة؟ لماذا تتجعد أصابعي بعد الاستحمام؟... إلخ.

Scholastic Science Dictionary
(قاموس سكولاستك للعلوم)
Meloin Berger, Hannah Bonner (illustrator)
Scholastic Reference, 2000,224 PP., $19.95

للأطفال من سن ٩ إلى ١٢. أداة مرجعية لطلاب المراحل الابتدائية والإعدادية في مجال العلوم. يحتوي على شرح لأكثر من ٢٤٠٠ مصطلح علمي في الأحياء والفضاء والكيمياء والفيزياء وعلم النفس والجيولوجيا بمصاحبة الرسومات التوضيحية.

لغة

تحبير الموشين في التعبير بالسين والشين
الفيروز آبادي
تحقيق: أحمد عبد الله الباجوري
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

كتاب في أحد فروع اللسانيات القديمة، يتناول المؤلف بعض الكلمات التي وردت في الأحاديث بالسين التي يمكن نطقها بالشين، ويناقش المؤلف في هذا الإطار بعضًا من اللهجات العربية القديمة، وهو مخطوط لم يسبق نشره وعثر عليه في مكتبة المخطوطات بالمسجد النبوي.

معجم مصطلحات العلوم اللغوية
صبري إبراهيم السيد
القاهرة: دار لونجمان وأبو الهول، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف أخطاءً شائعة في المعاجم العربية مثل استخدام بدائل أجنبية لكلمات عربية، أو كتابة كلمات عربية بطريقة أجنبية، ويحاول المؤلف هنا، تصحيح عشرات الأخطاء الواردة في معاجمنا.

Language Death
(موت اللغة)
David Crystal
Cambridge Up, 2000, 208pp., £12.95

يوجد الآن في العالم ما يقرب من ٦ آلاف لغة، ويقدر أنه خلال المائة عام القادمة سوف يهبط هذا الرقم إلى ٣ آلاف لغة فقط. يحلل المؤلف العوامل التي تؤدي إلى موت أو اندثار أي لغة.

فاللغة هي مستودع التاريخ والثقافة - وفي زمن العولمة الحالي تبرز اللغة الإنجليزية وكأنها العملاق الذي سوف يبتلع اللغات الأخرى. يقترح المؤلف في نهاية كتابه بعض البرامج العملية التي يمكن عن طريقها تجنب هذا الموت اللغوي.

نقد أدبي ومسرحي

دراسات في الأدب المسرحي
سمير سرحان
القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٠

المؤلف له تجارب مسرحية ونقدية وترجمات في المسرح وعنه، وهو هنا يقدم بعضًا من دراساته في مسرح شكسبير والمسرح الأيرلندي والروسي، كما يتناول مفهوم النص المسرحي وتميزه عن سواه من النصوص الأدبية والدور الذي يمكن أن يلعبه المسرح في حياة الناس تأثيرًا وتأثرًا.

ضيوف النار الدائمون
شعراء من فلسطين
إعداد: غسان زقطان
فلسطين: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠

يبسط الشاعر رؤيته للشعر الفلسطيني وأهم نماذجه في العصر الحديث، وقد جاء اختياره ليطرح تساؤلات عديدة عن موضوعات الشعر الفلسطيني وقضاياه ورؤاه في الكون والحياة، فضلاً عن قيمته النضالية الكبيرة.

سعدي يوسف.. النبرة الخافتة في الشعر العربي الحديث
فاطمة المحسن
دمشق: دار المدى، ٢٠٠٠

ترسم المؤلفة، وهي ناقدة وكاتبة عراقية خريطة واضحة المعالم لأحد أبرز الشعراء العرب المعاصرين، وقد عاش منفيًا رغمًا عنه في أغلب الأحيان، وانعكاس ذلك الاغتراب على تجربته الشعرية، وقضاياه التي تناولها عبر مسيرته.

مقالات نقدية
محمود عبد الوهاب
الأسكندرية: دار الوفاء، ٢٠٠٠

نصوص نقدية لإبداعات قصصية وشعرية، بين من يتناولهم المؤلف الشاعر الراحل صلاح عبد الصبور الذي يعد من رواد الشعر الحديث في مصر والعالم العربي، والناقد الدكتور شكري عياد وهو إلى جانب دراساته النقدية والفكرية كتب القصة، والقاص جار النبي الحلو وآخرون.

الرواية في القرن العشرين
جان إيف تاربيه
ترجمة: محمد خير البقاعي
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠

المفهوم الذي يتردد الآن أن الرواية هي سجل حياة الناس، وهي جنس أدبي قادر على صهر التجربة الإنسانية واكتشاف أكثر جوانبها غموضًا وتشابكًا، المؤلف يقارن بين حصيلة هذا الجنس الأدبي في الماضي والحاضر، وحدود تأثرها بما جرى في كل مرحلة.

خيانة الوصايا
ميلان كونديرا
ترجمة: لؤي عبد الله
بيروت: دار نينوى

يتحدث الروائي الكبير عن علاقته بالكتابة، وكيف اتسق عشقه للرواية مع رؤاه الإنسانية، ويحاول عبر هذه الرؤى أن يشرح تصوره لمعنى الرواية ومفهومها والمراحل التي مرت بها الرواية العلمية ومراحل ازدهارها وتدهورها، وأهم الأسباب التي وقفت وراء التدهور أو الازدهار.

ست وصايا للألفية
أيتالو كالفينو
ترجمة: محمد الأسعد
الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، ٢٠٠٠

جمعت زوجة المؤلف محاضراته الأخيرة التي تعد بمثابة وصايا للأدباء وكُتّاب الرواية في القرن العشرين، حول فنية كتابتها وخصوصية الرمز فيها، وكذلك عن الغموض والوضوح ودلالاته ومدى قدرة الأدباء على استخدام هذه الآليات في تطوير الفن الروائي.

فن رواية القصة وقراءتها للأطفال
كمال الدين حسين
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

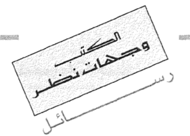
للقصة أهمية بالغة في التعامل مع الطفل والتأثير عليه وتقريب المفاهيم إلى قلبه وغرس القيم الصحيحة في نفسه في مراحل التكوين الأولى، في هذا الكتاب يشرح المؤلف للآباء والأمهات والمدرسين كيفية رواية القصة للطفل حتى نحببه فيها وننقل إليه الأفكار التي نريد.

نظرية الرواية والرواية العربية
فيصل دراج
بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠

دراسة من قسمين، يتناول الأول منهما نشأة الرواية في أوروبا، والاتجاهات التي أسهمت في بروز هذا الجنس الأدبي وساعدت على نموه وتطوره عبر تناوله لمجموعة من النقاد والمؤلفين الأوروبيين، وفي القسم الثاني يدرس المؤلف نماذج من الأدب العربي (الرواية) وحدود تأثرها بالرواية في الغرب.

أفول المعنى في الرواية العربية الجديدة
فخري صالح
القاهرة: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠

ثمة إشكال عن معنى الرواية الحديثة ومفاهيمها، يحاول الكاتب هنا أن يزيل الالتباس حول المفهوم عبر قراءات لعديد من الأدباء بينهم الأديب السوداني الطيب صالح والأديب المصري صنع الله إبراهيم وآخرون.



عودة إلى «سيرة حياتي لعبد الرحمن بدوى»

تعليقًا علي موضوع «أنا.. أنا.. أنا ومن بعدى الطوفان» الذى نشرته المجلة في عدد مارس الماضى وتناول مذكرات الدكتور عبد الرحمن بدوى أود أن أقدم هذه المساهمة.

إن من يقرأ مقدمة الكتاب التى جاء فيها عبارة «بالصدفة أتيت إلي هذا العالم وبالصدفة سأغادر هذا العالم» يظن أنه سيقرأ سيرة حياة يكون صاحبها كريشة في مهب الريح أو شظية خشب صغيرة تتقاذفها أمواج بحر عاصف، وصاحب السيرة يدرك أنه رجل تام الرجولة، وعليه أن يتصرف تصرف الرجال الكبار، فلا مجال لأن يحن إلى أسرته التى فارقها في قريته لطلب العلم، أو أن يحن إلي أمه! ولا مجال لأن يميل هواه إلى فتاة يلهيه حبها عن دراسته ويجعله يخيب - هكذا يقول قومه الريفيون - وتشيع قصته، ويشيع معها خزيه وعاره في مجتمع ريفى محدود.

طغى عليه هدفه العلمى، فأنساه نفسه، أو تجاهل نفسه، فبهتت صورة المرأة منذ الأم ثم الأخوات ثم الزوجة، بل واختفت تمامًا حتى هوى الشباب وسنى الجامعة لا نجد له أثرًا.

واقبل على علمه وفلسفته ودراساته، ثم مؤلفاته وتحقيقاته التى كانت كل شيء في حياته، وأصبح لا يعى من أمر نفسه إلا أن يعْلم ويعلِّم ويؤلف ويحقق ويسافر للمؤتمرات والمكتبات، لكن في بداية حياة الدكتور بدوى تناقضًا! فما هذا التناقض؟

*صلته بالدكتور طه حسين والشيخ مصطفى عبد الرازق. وهما مجددان يحاول كل منهما أن يكون جسرا بين الحضارة الغربية وبلادنا وهو - أى المؤلف الدكتور بدوى - متمسك بكل ما هو إسلامى وشرقى وعربى ويتجلى ذلك فيما يلى:

رأيه فِي الحوار بين الإسلام والمسيحية فيقول: «أى حوار بين الإسلام والمسيحية هو من نوع حوار الصم لأنه لا يمكن التغلب علي الخلافات الجوهرية التى تفرق بين هذين الدينين، ثم انتقاده لمنظر بابا روما وخروجه يرتدى التاج ويتحلى بالجواهر ويحمله الحاملون على محفة كأنه أحد أباطرة الرومان. وحديثه عن الأب چورج شحاته قنواتى المسئول عن دير الرهبان الدومينكان بالقاهرة، وكيف أنه يلقى محاضرات في روما عن كيفية التبشير بالمسيحية بين المسلمين وحديثه ونقده لمجلة «إيماجوس Imagos» التى تصدرها دار الهلال. والدكتور طه حسين والشيخ مصطفى عبد الرازق كانا بعيدين عن إثارة مثل هذه الموضوعات.

وها هو ذا ينتقد حركة الاستشراق، فيتحدث عن مؤتمرات كمبردج للمستشرقين فى أعوام ١٩٤٨، ١٩٥٤، ١٩٦٤، ١٩٧٣، فيقول إن مؤتمر ١٩٤٨ كان للتعارف، ولكن أبحاثه رديئة المستوى وكذلك باقى المؤتمرات، ولكنه عن مؤتمر ١٩٥٤، يقول إن المستشرقين القدامى قد استناموا لشهرتهم الماضية وجددوا أبحاثًا قديمة دون أسانيد علمية، ويقول عن المستشرقين إنهم يأتون للقاء أمثالهم والتنافس على المناصب.

وأعتقد أن هذا الرأى لا يوافق عليه الدكتور طه حسين بالذات فعلاقته بالمستشرقين إنيلفو وكارس ومرجليوث حتى إسرائيلى ولعشتون المعروف بأبى ذؤيب ورأيه فيهم غير ما يقول الدكتور بدوى.

ويكون الخلاف بين المؤلف من ناحية والدكتور طه حسين والشيخ مصطفى عبد الرازق من ناحية أخري في انضمام المؤلف لحزب مصر الفتاة ونصح الدكتور طه حسين والشيخ مصطفى عبد الرازق للمؤلف بالبعد عن هذا الحزب خوفًا على المؤلف.

وأنا أرى أن زعيم مصر الفتاة الأستاذ أحمد حسين - رحمه الله - في شبابه وتحمسه واندفاعه كان لا يُرْضى الدكتور عبد الرحمن بدوى، ولكن الذى دفع الدكتور بدوى لدخول مصر الفتاة، هو دراساته في الفلسفة الألمانية، وخاصة ما قرأ وألف عن الفيلسوف نيتشه.

وسبب آخر لدخول الدكتور بدوى مصر الفتاة، هو ميله لكل ما هو إسلامي وشرقى وعربى ونراه يترك مصر الفتاة، ويذهب للحزب الوطنى الجديد الذى يشترك في تأسيسه مع بعض زملائه وأصدقائه. والمعروف عن الحزب الوطنى مبادئه الإسلامية منذ أسسه زعيمه الأول مصطفي كامل باشا، وقد كان الدكتور طه حسين والشيخ مصطفى عبد الرازق من أعلام حزب الأحرار الدستوريين وحزب الأحرار الدستوريين - كما سبق أن قلت - حزب الصفوة والمتنورين والذين كانوا يعيبون على الوفد والأحزاب الأخرى تشددها وربما تعصبها.

وعندما كان الدكتور بدوى يستكمل هيئة التدريس في قسم الفلسفة بجامعة عين شمس نجده يقول عن أحد من يقومون بالتدريس: «وكان طه حسين قد فرض علينا مدرسًا فرنسيًا آخر كان يعمل في «الليسيه فرانسيه»، ولم يكن ذا شأن في العلم ولم ينل الدكتوراه إلا عام ١٩٥٥، وعندما حصل عليها عاد إلي فرنسا».

يتحدث عن الأحوال السياسية للبلد، والقبائل ودورها في الحياة، والمذاهب الإسلامية، وأصل المذهب الأباضى والنشاط الفكرى والسياسى للأباضيين في ليبيا، ويتحدث عن الطرق الصوفية وأعلامها واللغات واللهجات، ويتحدث عن تركيب السكان في بنغازى ومؤلفاته في تاريخ الفلسفة في ليبيا وتاريخ ليبيا قبل اليونان وفى أيام اليونان والرومان وعن علماء ليبيا



في العصرين اليوناني والروماني، ثم عن المسيحية ومذاهبها، ويتحدث عن ذلك المذهب الذى حل مشكلة الأقاليم الثلاثة وكان أشبه بالتوحيد، ثم يتحدث عن فتح العرب لليبيا، وأهل العلم في طرابلس وليبيا، والشخصيات الليبية، ونجده يلاحظ أن علماء ليبيا في العصرين اليونانى والرومانى كانوا أكثر من العصر الإسلامى.

هذا ما فعله عند الحديث عن ليبيا، فإذا كانت الدولة غربية أوروبية مثل هولندا وفرنسا وسويسرا نجد حديثه إلي جانب النواحى التى تناولها فى حديثه عن ليبيا، يتناول الفنانين ولوحاتهم ومذاهبهم فى الرسم والمكتبات والمخطوطات ويشيد بمخطوطات هولندا، ويتحدث عن الأدباء والشعراء ومذاهبهم وأعمالهم، ويتحدث عن الحياة الجامعية وأنظمتها وعن المسرح وكتابه ومخرجيه، وفى فرنسا يتناول انحطاط مستوى مناقشة الرسائل العلمية الجامعية في باريس في الأعوام من ١٩٦٧ - ١٩٨٥، فيقول «المناقشون لا يقرأون الرسالة، حتى أن أحدهم اعترف بأنه لم يقرأ إلا نصفها، بل اعترف بذلك أحد المستشرقين! والبعض يعترف أنه لا علم له بموضوعاتها، ويكون كلامهم - في مناقشة الرسائل - كلاما تافها في مناقشة الأخطاء اللغوية ويكون قمة ذلك الإهمال في الرسائل ذات الموضوعات العربية والإسلامية، والبعض يتباهى بأنه يشرف علي خمسين رسالة، بل إنهم يتساهلون مع الطلاب الأجانب قائلين إنهم سيغادرون البلاد ويذهبون إلى بلدهم فيمنحونهم الدرجات العلمية دون أن يبذل الطلاب جهدًا أو ينالوا علما.

تناول الدكتور بدوى شخصيات ومذاهب وأبدى فيها آراءه، وأنا أرى أن رأى الدكتور بدوى فى تلك الشخصيات والمذاهب، هو حر فيه وقد أخالفه في بعض هذه الآراء، فمثلا ما ذكره عن الزعيم مصطفى النحاس والزعيم جمال عبد الناصر والأستاذ عباس العقاد وأحمد حسين وتوفيق الحكيم والدكتور محمود فوزى، ولست أدرى لماذا كان الأخير هدفا لانتقادات شديدة من الدكتور بدوى حتي أنه وصفه عندما يتحدث بأنه يموء كالقطط وأحسب أن الدكتور بدوى قد غالى في أمر الدكتور فوزى.

إن بعض تحقيقاته قد سبق أن حققت من قبل والدكتور بدوى يعترف بذلك، ولكنه يرى أنه قام بتلك الأعمال لعدم رضاه عما سبق، فهو يقول أنه نظرًا لسوء الترجمة، أعاد ترجمة وتحقيق الشعر عند الفارابى، وابن سينا، وابن رشد. وكذلك ترجم وحقق كتاب الشعر نظرًا لسوء الترجمة العربية أيضا وأصدره بعنوان فن الشعر عام ١٩٥٣، مما أثار حقد ريتشارد كلستر، وكتب ينتقد ولكنه لم يصحح خطأ.

ويقول الدكتور بدوى «وبهذا العمل العظيم يعنى ترجمته وتحقيق ترجمات العرب لمنطق أرسطو الذى لا أجد له مثيلا فى تاريخ تحقيق المخطوطات في العالم وبأية لغة أديت مهمة عظيمة الفائدة، فلقد أنقذت الترجمة العربية القديمة الممتازة من الضياع خصوصًا ومخطوط باريس تتحلل أوراقه عامًا بعد عام، إذ مضى عليه قرابة ألف عام. وورقه هش يتفتت كلما اطلع عليه إنسان رغم محاولات ترميم بعض أوراقه». وشكرًا للدكتور بدوى علي ذلك الجهد.

كان الدكتور بدوى مفيدًا - على الأقل بالنسبة لى - في كل مؤلف من مؤلفاته التى قرأتها له وكنت أظفر بكل دقيق وجديد، ولكن الشيء الذى أثار إعجابى هو عثوره في إحدى مكتبات المخطوطات فى إيران على مظروف قدمه له أصحاب المكتبة - أو بالأصح ورثتها - فيه صورة لفتاة ألمانية ورسائل متبادلة بينها وبين جمال الدين الأفغانى الذى يصفه الدكتور بدوى بالمتآمر.

ملحوظات:

أولا: كنت أتوقع أن يتناول الدكتور بدوى الدكتور لويس عوض، ولكن يبدو أن الدكتور بدوى قد عرف الفضل للدكتور لويس عوض، عندما سأل الدكتور لويس عوض العقيد معمر القذافى - أثناء زيارة له لمصر - لماذا اعتقل الدكتور عبد الرحمن بدوى وهو من كبار مفكرينا؟

ثانيا: هذا الكتاب يحتاج إلى فصل ثالث يتحدث فيه الدكتور بدوى - قواد الله - عن فترة عمله بالكويت حتى الآن، ويتناول فيه الثورة الإسلامية فى إيران وحرب إيران مع العراق وحرب الخليج وأحداثًا كحرب الشيشان وإقامة دولة فلسطين.

ثالثًا: للدكتور بدوى اهتمامات شديدة بعالم المخطوطات وأعتقد أن تجاهل تركيا فى حديثه عن المخطوطات أمر يحس الدكتور بدوى بأنه يجب عليه أن يتناوله. أم لعل خدمات هولندا فى ذلك الأمر وارسالها فى طلب ما يريد من صور المخطوطات إلى سائر دور المخطوطات العالمية قد أغناه عن أن يتناول تركيا.

رابعًا: هناك شخصيات هامة لم يتناولها الدكتور عبد الرحمن بدوى وأنا أعجب لذلك مثل المفكر: سلامة موسى، والمفكر المحقق: محمود محمد شاكر، والأستاذ: مصطفى صادق الرافعي ونجيب محفوظ وكتابًا آخرين، إلا أننى كنت أبحث فى كتابه عن رأيه ، وخاصة فى الأستاذ سلامة موسى والأستاذ محمود شاكر.

محمد معوض النجار
مدرس / الإسكندرية



قـــــراءات صـــــيفيــة!

يحمل الصيف معه عادة من الوعود أكثر مما تحتمله حقائق الحياة أحيانًا.. ولكننا إذا تغاضينا عن ألسنة اللهب التى تصب شواظا من حرارة القيظ على كل الموجودات، واحتمينا من سخونة الجو بما يصد لفح الحر، فقد يبقى لنا من مباهج الصيف متعتان كبيرتان: إحداهما الهروب من ألفة البيت بالسفر والسياحة، والثانية قراءة كتاب تمنيت أن يسمح لك الوقت بقراءته.

وكلتا المتعتين ترتبط بالأخرى ارتباطًا وثيقًا، فالسفر من ناحية والقراءة من ناحية أخرى، هما أكثر ما يفتح عيون الإنسان على ما حوله، ويحرره من سجن نفسه وعاداته وروتين حياته وعمله، وإن تلاشى الفارق بين المتعتين: سواء كنت تجلس مع كتابك على شاطئ البحر أو فى ظل شجرة وارفة فى حقل أو حديقة، أو كنت تبحث عن المتعة فى السفر إلى أماكن جديدة ووجوه جديدة ورؤى جديدة.. فهما فى النهاية تجددان طعم الحياة وتبعثان فى الروح وميض الأمل!

بالسفر، يهرب الإنسان من حكم الضرورة الملزمة والكابحة داخل حدود وطنه، ويصبح جزءًا من العالم الأكبر. ومع الكتاب يشعر الإنسان أنّ الغربة بينه وبين العالم المحيط به تتضاءل. وأن التواصل بين تجاربه ومشاعره وتجارب الآخرين ومشاعرهم ليس منبتًا أو مستبعدًا تمامًا، فنماذج الشخصيات الإنسانية مهما تنوّعت واختلفت لن تتجاوز فى تعدادها تنوع البشر.

ولسبب يبدو مفهومًا، فإن ما تولده هاتان المتعتان من متع الحياة من بهجة وتامل وشعور بالسلام النفسى، يقرب بينهما إلى درجة الاقتران والتلازم.. فالإنسان يؤثر القراءة وهو مسافر كما أنه يحب أن يسافر وهو يقرأ. وفى معظم دول العالم المتحضر ترتفع مبيعات الكتب فى مواسم الإجازات والسياحة والسفر، فترشح دور النشر أنواعًا مختلفة من الكتب تلائم مختلف الأمزجة والأعمار والاحتياجات، يصحبها القارئ معه فى رحلته، سواء كانت إلى شاطئ البحر أو إلى بلد آخر.. بحيث أضحت أيام الصيف تنطوى على لون من الميل الصوفى العميق إلى القراءة والعكوف عليها.. يلحق بها المرء ما عجز عن اللحاق به فى سائر أيام العام.

وقد يبدو الأمر عندنا مختلفًا أشد الاختلاف، حيث تتحول ليالى الصيف وعطلاته إلى مهرجانات مستمرة لتضييع الوقت واستهلاكه فى نوبات من الخمول والبلادة والثرثرة بالشائعات والخوض فى سير الناس، أو فى حفلات غنائية تشجع عليها أجهزة الإعلام الرسمية للدولة.. فيها من الإهانة للفن والذوق والغناء ما يهبط بمستوى الذوق العام إلى الحضيض أو ما دونه.



فى هذا الصيف صحبت معى كتابين.. أحدهما تلقيته قبل أيام من السفر إلى الخارج، والثانى عثرت عليه بين عشرات من الإصدارات الجديدة المؤلفة والمترجمة التى تملأ المكتبات الألمانية، وهما ـ بمحض الصدفة ـ يمثلان سيرة حياة شخصيتين، تبعد الشقة بينهما بعد السماء عن الأرض، ولكن كلا منهما يثير من الاهتمام فى دائرته ما يتجاوز حدود شخصه وحياته ووطنه، وقد كدت وأنا أقلب فى صفوف الكتب المرصوصة والمعروضة هنا وهناك أن أقع فى جاذبية الكتاب الذى ما زال يتصدر قائمة المبيعات فى العالم، وهو الكتاب الرابع من سلسلة هارى بوتر.. الذى أقام عالم النشر وأقعده دون سبب واضح، مع أنه للأطفال، وقيل أنه للكبار أيضًا. ولكنى كبحت رغبتى الطفولية ـ لبعض الوقت ـ يغلبنى ظن قوى بأن آلة الدعاية الضخمة تحمل من المبالغات أكثر مما يحمل من الحقائق.



الكتاب الأول هو نوع من السير الذاتية لأحد أبرز رجال العلم فى مصر، الذين اجتذبتهم أنواء السياسة ودهاليزها، فكادت تغرقهم فى خضمها المتلاطم الذى شهدته مصر فى الستينيات والسبعينيات، ولكنه استطاع أن ينجو بنفسه بعد ذلك، وحين أخلص نفسه للعلم بعيدًا عن تيارات السياسة ومؤامراتها وجد لنفسه مكانًا مرموقًا فى الجامعات الأمريكية، واستطاع أن يقول كلمته فى كثير من قضايا الوطن مبرأة من نوازع العمل السياسى ومقتضياته.

هذا العالم الكبير هو الدكتور رشدى سعيد الذى قدم سيرة حياته فى كتابه «رحلة عمر.. ثورات مصر بين عبد الناصر والسادات». وهى مسيرة لا تعكس فقط طبيعة العلاقة المعقدة بين المثقف والسلطة، ولكنها تضيف بعدًا آخر يكشف عن تحولات المزاج العام منذ السنوات الأولى لثورة ١٩٥٢ فى موضوع الأقباط داخل إطار الجماعة الوطنية. فالرجل من أسرة قبطية يعتز بقبطيته وبجذوره التى تعود به إلى أسيوط، وقد ولد ونشا فى أحضان الحركة القومية المصرية التى اتسمت بالتمازج والتسامح والانتماء الطبيعى المشترك إلى وطن واحد وشعب واحد، وأتاح له تعليمه أن يصل إلى مناصب علمية وسياسية رفيعة وأن يشارك فى العمل السياسى والبرلمانى لمدة طويلة بحكم خلفيته العلمية من ناحية، وبحكم الرغبة فى مشاركة الأقباط فى ميادين الخدمة العامة من ناحية أخرى، بعد أن أثبتت تجربة الانتخابات فى أوائل عهد الثورة وجود بوادر صدع قوى فى صفوف الجماعة الوطنية، ومن ثم أتيح لرشدى سعيد أن يمارس التجربة البرلمانية ثلاث دورات متتالية تحت مظلة التنظيم السياسى الواحد، ولكن بالتعيين.

ويقدم رشدى سعيد لمحات مستفيضة من حياة عامرة بالتجارب، امتلأت بالأمل وبخيبة الأمل، سواء فى مجال الوظيفة العامة أستاذا بالجامعة أو فى مؤسسة التعدين والأبحاث الجيولوجية، وهو المجال الذى وجد فيه متنفسا لإنجازاته العلمية التى حققها بعد ذلك، ومن بينها كتابه العمدة عن «جيولوجية مصر» والدور الذى لعبه فى إنشاء هيئة المساحة الجيولوجية. وهو يتحدث عن سنوات حياته العلمية والعملية بقدر كبير من الرضا والاعتزاز، ويكشف ما جرى فى قضية فوسفات «أبو طرطور» منذ بداياتها. ثم يتوقف طويلا عند سنوات الانحسار والتراجع ـ فى رأيه ـ التى بدأت منذ منتصف السبعينيات، والتى تدهورت خلالها مراكز البحث العلمى واختلط فيها العلم بالسياسة، وخرج فيها رشدى سعيد من الوظائف العامة بعد أن أصبح الجو خانقا. وزحفت بوادر الهزيمة على جيل بأكمله، انتهت بالعالم الكبير إلى أن يختار الغربة وطنا، يعود إلى وطنه الأصلى بين الحين والحين، تشده ذكريات المحارب القديم وتؤرقه هموم الحاضر المقيم.



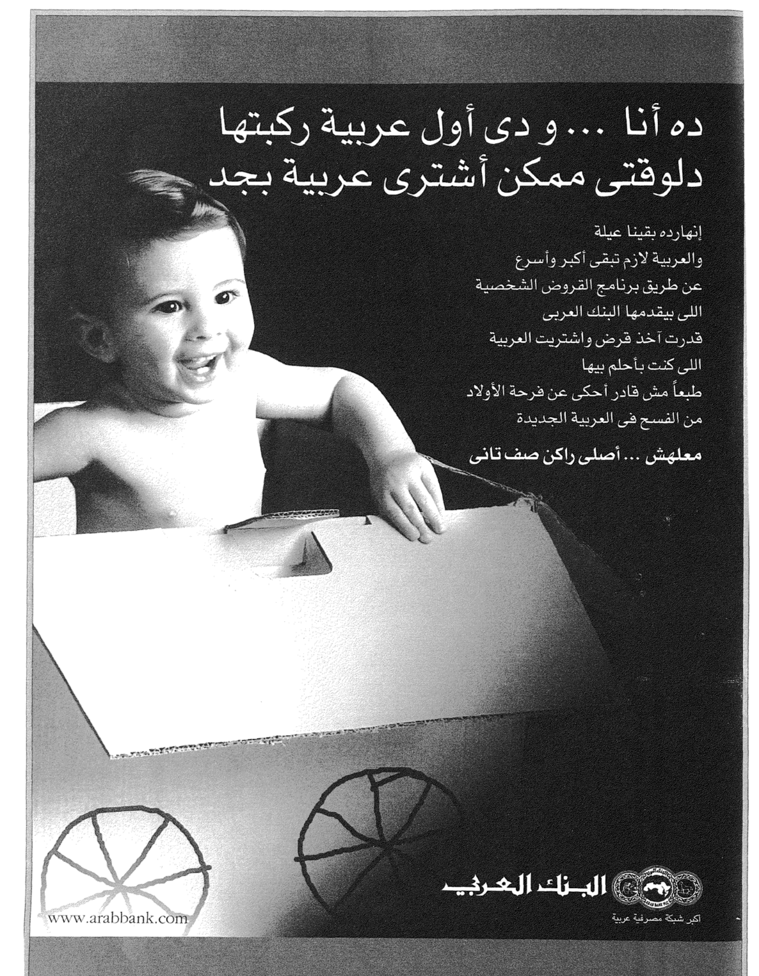
أما الكتاب الثانى الذى أمضيت معه جانبا من عطلة الصيف، فهو أول كتاب يتناول سيرة حياة الرئيس الروسى الحالى فلاديمير بوتن. وقد ظهر أول ما ظهر الكتاب باللغة الروسية أوائل هذا العام، فى صورة أسئلة وأجوبة بين ثلاثة من الصحفيين الروس وبوتن نفسه. وهو نفس الكتاب الذى قرأته مترجما إلى اللغة الألمانية، ثم أعيد نشره بالإنجليزية فى صورة سيرة ذاتية يقدمها بوتن بنفسه. ومن الواضح أن الطبعة الإنجليزية ليست سيرة ذاتية بالمعنى الدقيق ولكنها إجابات مباشرة من بوتن على أسئلة الصحفيين الثلاثة، على امتداد ست جلسات استغرقت كل جلسة منها عدة ساعات. وتم تسجيلها فى أوقات متفرقة امتدت إلى ما بعد منتصف الليل.

وأهم ما يميز هذا الكتاب أن الصحفيين الروس الثلاثة، لم يكتفوا بإجابات بوتن ولكنهم سألوا أصدقاءه وجيرانه وأقاربه وزملاءه الذين عملوا معه فى أجهزة الأمن والمخابرات، أو فى الحكومة المحلية لمدينة بطرسبرج (لينتجراد). وذهبوا بعد ذلك إلى بيته الريفى (الداتشا) فقابلوا الأغلبية النسائية من أسرته وهن زوجته ليودميلا، وابنتاه ماشا وكاتيا، وكلبة الأسرة «البودل» المدللة توسكا!!

ولا يحكى بوتن عن طفولته وأسرته الشىء الكثير. ولكنه يكتفى بالقول بأن جده عمل طباخاً عند لينين ثم فى إحدى الاستراحات الريفية الحكومية التى كان يؤمها ستالين. ولم يكن أبوه غير عامل فقير. وقد عانت الأسرة حياة ضنك بائسة، وبالأخص حين ذهب الأب إلى جبهة القتال فى الحرب العالمية الثانية وبقيت أمه وحدها فى لينتجراد (بطرسبرج) تواجه مصاعب الحياة. وعندما انتهت الحرب عاد الأب للعمل فى أحد المصانع التى تنتج عربات المترو. وعملت الأم فى أعمال صغيرة متفرقة. وكانت الأسرة التى فقدت ولدين قبل بوتن تسكن بأفرادها الثلاثة فى غرفة واحدة بأحد المساكن الشعبية العامة التى تشارك فى مرافقها مع الأسر الأخرى.

ويضيق المجال عن الإفاضة فى قصة صعود بوتن من مجاهل أجهزة التجسس والمخابرات (كى.جى.بى) التى أمضى فيها حياته العملية والوظيفية ـ وبالذات فى ألمانيا الشرقية ـ إلى أحد المناصب الرئيسية فى الحكومة المحلية للينتجراد ـ بطرسبرج بعد ذلك ـ ليقفز منها فى ظل يلتسن للإشراف على جهاز الأمن القومى الروسى إلى أن اختاره رئيسا للوزراء ثم رئيسا للدولة، خلفا له.. هذا الصعود الصاروخى لبطل الجودو الحاصل على الحزام الأسود، لا يدع مجالا للشك فى أن القيصر الروسى الجديد، يجيد فن المصارعة والمراوغة، ويحمل فى قرارة نفسه كثيرا مما لقنته أجهزة المخابرات السوفيتية من مبادئ عندما كانت بلاده تحتل مرتبة الدولة العظمى الثانية فى العالم. وقد حرص على أن يذكر من بين تجاربه قصة زيارته لإسرائيل عام ١٩٩٣ ضمن وفد لمجلس مدينة لينتجراد. وكيف أعطته أمه صليبا للتعميد والتبريك، وطلبت إليه أن يعلقه فى رقبته، ومازال يعلقه حتى الآن.. على حد قوله. ولكن هذه ليست القصة الكاملة لبوتين!

سلامة أحمد سلامة


ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد
إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخذ قرض واشتريت العربية
اللى كنت بأحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الفسح فى العربية الجديدة
معلهش ... أصلى راكن صف تانى
البنك العربي
اكبر شبكة مصرفية عربية
www.arabbank.com